

الخطابة

أصولها . تاريخها في زهر عصورها عند العرب

وضعت

محمد أبو نصر

للسان فخر الخطابة وتاريخ الجليل بكتبة الأصول للدين

صدره بمقدمة حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل

الشيخ احمد ابراهيم بك وكيل كلية الحقوق

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

كل نسخة ليس بها إمضاء المؤلف مسروقة

١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م

الخطابة

أصولها . تاريخها في زهر عصورها عند العرب

وضعت

محمد أبو زهرة

للسان ف تاريخ الخطابة وتاريخ الجبريل عليه السلام

صدره بمقدمة حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل

الشيخ احمد ابراهيم بك وكيل كلية الحقوق

الطبعة الاولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

كل نسخة ليس بها إمضاء المؤلف مسروقة

١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجدة لاظ



مقدمة

لحضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل

الشيخ احمد بك ابراهيم وكيل كلية الحقوق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

—...—

الحمد لله، خلق الإنسان وعامه البيان، والصلاة والسلام على أفصح
الفصحاء وسيد الخطباء سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين،
وصحابه الأكرمين، وجميع عباد الله المخلصين الناصحين

وبعد فإن علم الخطابة علم عظيم الفائدة، عميم الفائدة، تدعو اليه
حاجة العصر الحاضر، كما دعت اليه حاجة العصور الغابرة من قبل، في
تقلباتها المختلفة، وتحولاتها الدائبة، حتى يجيء كلام الخطيب على
أكمل الوجوه، منتجا أثره في سامعيه، ومصيبا مواقع الوجدان منهم،
بريئا من العيوب بالقدر المستطاع

ولقد كان للعرب جاهلية، واسلاما، القدح المعلى في ذلك، ولا سيما
في أيام الفتن والحن، مما بلغ فيه القائلون الغاية التي ليس وراءها غاية.
يظهر لك ذلك في مثل كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام، في خطبه
الرائعة، التي كادت تباع حد الإعجاز، وخطب زعماء الخوارج وقادتهم
وذوى الرأي منهم في عصر الدولة الأموية، وكلام زياد والحجاج، وغير
أولئك من الخطباء الحصفاء، والمداراه البلغاء، أهل اللسان والرجاحة،

وأرباب البيان والفصاحة الذين اخترقوا بأشعة بصائرهم الحجب ، فوصلوا
بناقب رأيهم وبليغ كلامهم الى قرارات النفوس ، وأعماق القلوب ،
فأناروا العواطف من مكانها ، واستنهضوا الهمم ، فاهتاجت من معادنها .
خلقوا من الجبناء شجعاناً ومن الأشجاء أجواداً . وقد يشاءون فيسحرون
ببيانهم البطل الصنديد فإذا هو يراعرع رعديد ، أو ينفثون في روع ابن مامه
فإذا به أبو دلامه . فقلوب الناس في أيديهم يتصرفون فيها ببلاغة القول
ما شاءوا ، ويقلبونها بروعة البيان كيفما أرادوا

وقد أراد العلماء المثقفون والفلاسفة العظام أن يصوروا للناس
حقائق الأشياء ويقربوا بعيدها الى الأفهام حتى يجعلوها للطلاب على
طرف الثمام . فتناولوا ببحوثهم فيما تناولوه الخطابة وكل ما يتصل منها
بسبب ، ووضعوا قواعدها ، وأصلوا أصولها ، وضبطوا مسائلها ، واستوفوا
القول فيها من كل نواحيها مهتدين في ذلك بما أفادوه من دراسة أحوال
النفوس البشرية وتعرف مستكناتها ومنطوياتها وأمزجة الناس وما
يلائمها وأهوائهم وما يحركها ، ومستنيرين بما ساقه اليهم أمراء البيان
وأئمة الكلام مما أنتجته القرائح الوقادة والاذواق النقادة والعقول
السليمة والأفهام المستقيمة . ثم تبعهم المؤلفون فجمعوا من بحوث العلماء
الناهين والفلاسفة العالمين ، ودونوا منها ، وشرحوا ، كل بحسب
ما يسر له

وقد قرأت الكثير من هذه المؤلفات ، ثم قرأت بعدها كتاب
ولدنا النابه المنابر على البحث والتنقيب والعاكف على الدرس والمطالعة

الأستاذ « محمد أحمد أبو زهره » الذى كتب له لطلاب كلية أصول الدين بالمعاهد الدينية المصرية ، وهذا الكتاب صالح لهم ولسائر طلاب علم الخطابة حيثما كانوا ، وأينما وجدوا . وقد ألفيته فى حلبة السباق هو المجلى ، وغيره المصلى أو المسلى ، الخ . فقد استوفى القول فى شرح هذا العلم . وبين أنواع الخطابة أحسن بيان ، مفصلاً وموضحاً كثيراً مما أجمله غيره . وبالجملة فقد حرص أشد الحرص على ألا يفوته فى كتابه هذا شئ ذو قيمة فى صناعة الخطابة مما جاء به من قبله . وقد تيسر له ما أراد ، فجاء به فى أحسن تبويب ، وأحكم ترتيب ، وأتم تقريب ، مع سلاسة العبارة وسلامتها وجزالتها ومتانتها ، وخصوصاً من شوائب اللهجة ، وبراءته من العى واللكنه ، كما يظهر ذلك لقارئ الكتاب من أوله الى آخره .

ويلاحظ فى طبعة الكتاب الأولى وهى الطبعة الحاضرة أن فيها كثيراً من الخطأ المطبعى فنرجو ألا يكون فيه شئ من ذلك فى الطبعة الثانية ان شاء الله تعالى . ثم ان لى كلمة تناسب المقام ، فاتهمز الفرصة لاقولها هنا

استعداد الشخص لأمر ما هو الشرط الأساسى لنجاحه وفلاحه فى ذلك الأمر . وأما علم معرفة الأدوات التى تهىء الإنسان وتعدده لذلك فقد يكون عقيماً ، لا تأثير له ، حيث لا استعداد ، لفوات المحل القابل ، وقد يفيد ذا الأهلية فى جمع الشتيت المنتشر ، وتقريب البعيد ، والايذان بمواطن الخطأ ، وتوفير الوقت ، والبركة فيه ، حتى ينتج أكثر ما ينتجه من هو خلو من ذلك

قد يكون الانسان شاعرا مستقيم الوزن ، وهو لا يعرف الطويل من المديد ، ولا الهزج من البسيط . ولا يدري ما الخبن والطنى ، ولا الوقص والعقل . وقد يكون عارفا ببحور الشعر وأعاريضها وأخربها عالما بعالم النظم وزخافته ، محيطا بذلك كل الاحاطة ، وهو مع ذلك لا يحسن أن يقول بيتا من الشعر ينظمه ، وقد يربسمعه البيت مكسورا ولا يفطن له . كذلك علم الخطابة قد يحيط بعض الناس بأصوله وقواعده خبرا ، ويستوفى كل ما قيل فيه تحصيلًا ودرسًا ، ثم هو بعد ذلك فيه عبي ، لا يستطيع أن يبين عما في نفسه ، فضلا عن أن يؤثر في غيره ، مغلوبا على أمره بطبعه

وما قيل في علم العروض والخطابة يقال مثله في غيرهما من سائر العلوم الآلية كالنحو والصرف والمنطق

وأذكر أنى كنت مرة مع صديق حافظ بك ابراهيم رحمه الله ، وقارىء يقرأ فى احدى الصحف اليومية ، ونحن نستمع له حتى وصل الى عبارة جاء فيها : « فهل لم يفعل كذا » فامتعض حافظ واشتماز ، فقلت له لم هذا الاشتماز ؟ فقال : من عبارة « هل لم » فقامت له : ولم ؟ فقال : هى عبارة ثقلت على نفسى ، ولم تعجبني ، فقلت له : وأنا أيضا مثلك ، ولكنى أعرف سبب قبحها ، وأنت لا تعرفه ، فقال : ماهو ؟ فقامت له : ان « هل » لا تدخل على النفى ، كما علمنا ذلك من دراسة علم النحو فأنا وأنت شريكان فى الذوق ، وأمتاز عنك بمعرفة سبب العيب . وقد كان حافظ رحمه الله لا يلحن فى كلامه نثرا ونظما ، وهو لا يعرف النحو

ولا الصرف ، ولم ينطق ببيت من شعره مكسورا قط ، وهو أبعد
الناس عن معرفة العروض ، ولكن كان له ذوق فى نظم الكلام ونثره
أفاده من ممارسته الكلام الفصيح العالى ، حتى انطبع فى ذهنه ، ورسخ فى
نفسه ، فصار كلامه من الطراز الاول نثرا ونظما ، بدون أن يحتاج الى
دراسة العلوم الآلية ، بل وصل الى الأعلى من غير سلم آلى

ثم انى أقول كما شاهدت ذلك من نفسى ، وأحسست به من غيرى
ان ذوى الاستعداد العالى الممتاز من الناس ، اذا لم يقيدوا بدراسة هذه
العلوم الآلية ، بل تركوا فى جوطلق من الحرية ، معتمدين على ممارساتهم
الشخصية ، ومتصلين بالينايع الصافية الأصلية - اذا كانوا كذلك
تكون لهم ذوق سليم يغنيهم عن تلك العلوم الآلية ، بل ربما كان اشتغالهم
بهذه العلوم عائقا لهم عن أن يأتوا بأحسن وأرق وأكمل مما أتى به أربابها
لو تركوا وحریتهم الشخصية . أقول ذلك ولا شك عندى فى صدقه .
فكما أن هذه العلوم مفيدة لفريق من الناس وهم الا كثرون عددا ،
فلاشتغال بها عائق لفريق آخر عن الأتيان بأفضل مما جاء به الأولون ؛
لأنه يمنع مواهبهم من الظهور ، أو يئدها وهى فى مهدها . وأنا
لأقول ذلك تثبيطا لهم المشتغلين بتلك العلوم ، بل أقوله تقريرا لأمر
واقع لا ريب عندى فيه . فكما أن هذه العلوم الآلية قد تعرقل سير ذوى
الاستعداد الراقى ولو حيننا من الدهر - هى أيضا تفيد كثيرا من الناس
ممن يوجد فيهم أصل الاستعداد ، ولسكنهم يحتاجون الى من يأخذ

- و -

ييدهم ، وينير لهم الطريق فهذه العلوم من هذه الناحية مفيدة ونافعة .
والأمر في ذلك يرجع الى حكمة المعلم ومعرفة بمن هو يدينهم فوق
استعداده هو قبل كل شيء .

ربيع الثاني سنة ١٣٥٣ - يولييه سنة ١٩٣٤

محمد ابراهيم

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أما بعد . فقد كلفت تدريس تاريخ الخطابة العربية بكاية أصول الدين من كليات الجامع الأزهر ، فكتبت مذكرات فيها موجز لما ألقىته من محاضرات . ولما اعتزمت أن أخرجها كتابا للناس أردت أن أقدمها بمقدمة شاملة لبعض أصول الخطابة وقوانينها ، ولكن المقدمة استطالت لتشعب المسالك ، ولشعوري بحاجة القراء إلى كل قوانين الخطابة ، ولذلك شملت المقدمة القسم الأكبر من هذا الكتاب .

ولقد قيدت نفسي في هذا القسم بالمصطلحات العربية القديمة التي جاءت في تلخيص ابن رشد لكتاب الخطابة لأرسطو ، وفي قسم الخطابة من كتاب الشفاء لابن سينا ؛ لأن في ذلك ضبطاً للمسائل ؛ وجمعاً لها ، وإحياء لتراث السابقين ومجهودهم . ولكني لم أقيد نفسي بالمعلومات القديمة لا أعادوها ، فقد جد في العلوم النفسية والاجتماعية والخلقية ما يكون غذاء قويا صالحاً لذلك العلم . وإن من القديم نفسه ما هو مفيد في أصول الخطابة ، ولكن لم يضاف إلى بحوثها ، فأضفت الجديد الصالح والقديم المفيد ، وتكون من هذا كله مجموعة من المعلومات أرجو أن يكون فيها ما ينفع الناس .

ولم أقصد بكتابتى فى هذا أن تكون مادة يدرسها الدارس ، فيكون خطيباً ، فأتنا لا نعلم أن كتاباً يجعل من العي فصيحاً ، ويفك عقدة اللسان فيكون طليقاً ، ويبث فى قارئه شعوراً حياً فياضاً يجرى على لسانه عبارات قوية تهز الحس ، وتملك النفس

بل قصدت بكتابتى أن تكون مرشدة من عنده استعداد للخطابة ويريد أن ينميه ، فهي تنير له السبيل ليسير على هداية ، ويكون على بينة من أمره ، ولا يكون كحاطب ليل .

وقصدت أيضاً أن تكون كاشفة عن السر فى تأثير الخطباء واستيلائهم على مشاعر من يخاطبونهم ، واجتذابهم لنفوسهم ، وإصابتهم لشغاف قلوبهم وسيجد القارئ الكريم فى كتابتنا هذه فوق ذلك ، ما يصح أن يكون مقاييس تقريبه للموازنة بين أقدار الخطباء البيانية ، وأقدار الخطب ، والمعانى الخطابية ، والأساليب والألفاظ ، وكل ما هو عدة التأثير ، وطريق الأقناع الخطابي

أما القسم الثانى (وهو تاريخ الخطابة فى أزهر عصورها عند العرب) فقد اتجهت فيه إلى بيان الخطابة فى تدرجها علواً وانخفاضاً فى تلك المصور متحريراً أن أرد الأمور إلى أسبابها ، والظواهر إلى عللها . وقد حاولت أن أبين فى كل عصر ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها وأحوال الخطباء ، موازناً فى ذلك بينه وبين المصور الأخرى ، لتكون للخطابة مرسوم واضحة فى ذهن القارئ ، وليرى الأداة التى تعرض للمعانى

والأغراض والألفاظ والأساليب تبعاً لحاجات العصر ، ومقتضيات
الاجتماع ، وشئون السياسة

ولذلك صدرت كل عصر بكامة مصورة للحال الاجتماعية والسياسية
والدينية ، ليتبين منها السرف فيما يطرأ على الخطابة من تغير في ذلك
العصر ، ولأن الخطابة أثر لتلك الأحوال ، ولا يعرف الأثر على وجهه
إلا إذا عرف المؤثر .

وأنى لأرجو أن الحق هذا الكتاب بنان أئين فيه أحوال الخطابة
العربية على ذلك النحو في بقية العصور ، ثم الحق الثانى بنالك أدرس فيه
بعض الخطباء الذين لهم فى البيان والتأثير قدم جعلتهم مثلاً عالية تؤسى .
وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

محمد أبوزهرة

القسم الأول

أصول الخطابة

علم الخطابة

تعريفه وثمرته

اعتقد الأقدمون أن للخطابة علماً ، له أصول وقوانين ، من أخذ بها ، أو بعبارة أدق من استطاع الأخذ بها ، والسير في طريقها - عد خطيباً . وعرفوا هذا العلم بأنه مجموع قوانين ، تعرف الدارس طرق التأثير بالكلام ، وحسن الأقناع بالخطاب ، فهو يعني بدراسة طرق التأثير ، ووسائل الاقناع ، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات ، وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني في الموضوعات المختلفة ، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة ، وأساليبها ، وترتيبها ، وهو بهذا ينير الطريق أمام من عنده استعداد الخطابة ، ليربي ملكاته ، وينمي استعدادته ، ويطب لما عنده من عيوب ، ويرشده إلى طريق إصلاح نفسه ، ليسير في الدرب ، ويسلك السبيل .

هذا العلم ينير الطريق ، ولا يحمل على السلوك ، فهو يرشد دارسه إلى مناهج ، ومسالك ، ولا يحمله على السير فيها ، هو يعطيه المصباح ، ولا يضمن له أن يرى به إذا كان في عينيه رمد ، وإن أرسطو واضع كتاب الخطابة لم يكن خطيباً ، بل قال فيه الجاحظ إنه كان بكىء

اللسان . وليس علم الخطابة بدعا في ذلك ، فعلم النحو لا يضمن لمتعلمه أن ينطق بالفصحى ما لم يدرس نفسه عليه ؛ وعلم الأخلاق لا يضمن لعارفه سلوكاً قوياً ما لم يرض نفسه على الأخذ به ؛ وعلم العروض لا يكون شاعراً ؛ وعلم المنطق ليس قانوناً لا اعتصام بالذهن ، ولا يضمن للعالم به عصمة بالذهن ما لم يرض نفسه عليه رياضة كاملة .

وهكذا كل العلوم النظرية التي تظهور ثمرتها في العمل ، تعطى من يريد لها قانوناً يساعده ، ولا تضمن له العمل إلا إذا راض نفسه على قانونها . علاقة علم الخطابة بالمنطق : عند ما ترجم كتاب الخطابة لأرسطو

إلى اللغة العربية في القرن الثالث الهجري ، اعتبره كثير من الفلاسفة جزءاً متمماً لعلم المنطق . وابن سينا في الشفاء يجعل الخطابة من أقسام المنطق . واستمر ذلك حال الفلاسفة ، ينظرون إلى المنطق بتلك النظرة الشاملة ، إلى أن قصر المتأخرون النظر فيه على صور القياس ، وأشكاله ، وأدواته .

ولم يبعد أولئك الفلاسفة عن الصواب كثيراً ، إذ أن كتاب الخطابة لأرسطو ترى فيه المنطق واضحاً وضوحاً تاماً ، ترى الكلام على الحد والرسم والدليل ، وكيف يتكون القياس الخطابي ؟ ثم ترى فيه الكلام على التصديق الذي يكتفى به في الخطابة ، وغير ذلك مما يعد من المنطق . فعلم الخطابة على هذا له صلة وثيقة بالمنطق ، من حيث إن المنطق خادم له ، ومن حيث إن كثيراً من قوانين الخطابة ، يعتمد على المنطق في مبادئه ، وفوق تلك العلاقة الواضحة بين المنطق ، وعلم الخطابة ، نرى أن علم المنطق ، قد أخذ يسلك مسلكاً جديداً ، يزيد به على مسلك المتقدمين ؛

إذ صار لا يبحث عن القوانين التي تعصم الذهن عن الخطأ فقط ؛ بل يستنبط أيضاً ما يرشد الذهن إلى الأخذ بالقوانين السابقة ؛ فهو يبحث أيضاً عن أهواء النفس ، وخواطرها ، وأسباب الغلط ، وتسلسل الخواطر ، وكل تلك أمور تساعد الخطيب على أداء مهمته ، وتمد قوازين الخطابة بمناحي التأثير ، وطرق الاقتناع .

والحق أن المنطق ألزم العلوم للخطابة ، وبينهما من وشائج القربى ، وتداخل المسائل ، وتقارب المناهج ، وتداني المآخذ - ما سهل على الأقدمين عدها علماً واحداً ؛ وما يجعلنا نحن المتأخرين نعدّها أخوين ، متحدى النسب .

علاقة علم الخطابة بعلم النفس : لا يصل الخطيب إلى غايته (وهي إقناع السامعين ، وحملهم على المراد منهم) - إلا إذا استطاع أن يثير حماسهم ، ويخاطب إحساسهم ، ويتصل كلامه بشغاف قلوبهم ، ولا يمكنه ذلك - إلا إذا كان عالماً بما يثير شوقهم ، ويسترعى انتباههم ، وعالماً بطبائع النفوس ، وأحوالها ، وغرائزها ، وسجاياها ، وذلك لا يكون إلا بعلم النفس ، وإذا كان علم النفس دعامة لعلم التربية ، فهو أيضاً دعامة لعلم الخطابة ؛ لأن كليهما يهدي الإنسان إلى وسائل الاقتناع ، والتلقين والتأثير ، غير أن الأول لنشء حدث ، والثاني لكبارهم أفكار ، ومذاهب ، تجعل التأثير فيهم أبعد منالاً ، والوصول إلى قلوبهم أعز مطلباً ، والاستيلاء على نفوسهم أشرف منصباً ؛ لذلك نقول : إن علم الخطابة له صلة وثيقة بعلم النفس ؛ إذ يجب أن تكون قوانين الخطابة ملائمة كل الملاءمة لقوانين هذا العلم ؛ بل يجب أن تستمد منها ناموسها ، وطرقها ، ومناهجها .

علاقة الخطابة بعلم الاجتماع : قال الفارابي : «إن الخطيب إذا أراد»
«بلوغ غايته، وحسن سياسة نفسه في أموره - فليتوخ طباع الناس،»
«وتلون أخلاقهم، وتبين أحوالهم . قال أفلاطون : لكل أمر حقيقة،»
«ولكل زمان طريقة ، ولكل إنسان خائفة ؛ فعامل الناس على خلائقهم»
«والتمس من الأمور حقائقها ، واجرم مع الزمان على طرائقه»
«وهذه قوانين تنفع الخطيب في متصرفاته مع كل طائفة من أهل»
«طبقتهم ، ومن دونه ، ومن فوقه على سبيل الإيجاز والاختصار .»

وهذا يدل على أن انتصار الخطيب فيما يتقدم في الدعوة إليه - يستدعي
إلماماً بسياسة الناس ، وما يجب لكل طبقة من المعاملة ، وما يلزم لكل صنف
من الناس من خطاب ، يجب أن يكون عالماً بروح الجماعة ، دارساً
لأخلاقها ، فاهماً لما يسيطر عليها ، وإذا كان ذلك جد لازم للخطيب -
فمن الواجب إذن أن تكون قوانين الخطابة متصلة بقوانين الجماعات
وأنموذجها ، مستمدة منها قوة ، ومن مشاربها مسالك ، وأنت ترى من
من هذا قوة الاتصال بين علم الاجتماع وعلم الخطابة .

هذه العلوم الثلاثة ينابيع صافية ، استمد علم الخطابة منها قوازينه ،
وعلى ضوءها سلك طريقه ؛ ولذا اقتصرنا على ذكر علاقتها به دون
سواها ؛ إذ هي الأنهار التي يأخذ منها هذا العلم ماء الحياة .

تاريخ علم الخطابة : أول من كتب في هذا العلم اليونان ، بل هم
مستنبطو قواعده ، ومشيدو أركانه ، ومقيمو بنيانه ؛ وذلك لأن أهل
أثينا في عصر بركليس ، قويت فيهم رغبة القول ، واشتدت فيهم داعيته ؛
إذ صار يأسروهم القول البليغ دون سواه . قال المسيو شارل سنيوبوس :

«امتازت أئدنا أولا ببلاغة خطبائها ؛ فكانت حقاً بلد الأُدب ، وحسن «
«الألقاء، فبالخطب في مجلس الأمة يقرر شهر الحروب ، وعقد السلم ، «
«ووضع القطاعات والضرائب ، وكل الشئون العظيمة ، وبالخطب التي تلقى «
«في المحاكم يحكم على الوطنيين والرعايا ، أو يبرءون ؛ فللخطباء السلطة ، «
«وعلى الأمة أن تعمل بنصائحهم ومواعظهم ، وربما عهدت إليهم بأدارة «
«شئون المملكة ، فقد عين كليون قائداً ، ورأس ديموستين الخطيب حرب «
«فيليب ، وللخطباء نفوذ كبير ، وكثيراً ما يلجئون إلى بلاغة قو لهم للنيل «
«من عداوتهم في سياستهم ، وربما أثروا لأنهم ينالون من ذوى المآرب «
«ما يرضيهم من المال ؛ ليعاضدوا أحد الأحزاب ، فقد أخذ إشييل مالا «
«من ملك مقدونيا ، وقبض ديموستين دنانير من ملك الفرس . ثم إن بعض «
«الخطباء كانوا ينشئون خطباً ، ليقبها غيرهم ؛ إذ لا يسوغ لمن كانت له قضية «
«أن يرفعها بوكالة محام كما هو الحال عندنا ، بل تقضى شريعة البلاد أن يتكلم «
«صاحب القضية في قضيته بالذات ، فمن ثم كان عليه أن يقصد إلى أحد «
«الخطباء ، ياتمس منه تأليف خطاب له ، يحفظه ؛ ليتلوه في مجلس القضاء . «
«هو كثيراً ما كان بعض الخطباء يجوبون البلاد اليونانية ، ويتكلمون في «
«موضوعات ، توحىها إليهم الخيلة ؛ فتحفل لذلك المحافل ، وتعد الأندية «
«والمؤتمرات «

وإذا كان التسابق البياني وصل إلى ذلك الحد - فلا عجب إذا رأينا
أن من لم يكن قديراً على فنون القول ، يحاول أن يتعلمها ؛ ولذا اتجه
الناس إلى تعلم الخطابة ، والدربة عليها ، والتمرين على الألقاء ، وتعويد
اللسان النطق الصحيح ، والبيان الفصيح ؛ لذلك أخذ العلماء يستنبطون

قواعد الخطابة وقوانينها بملاحظة الخطباء، وطرق تأثيرهم ، وأسباب فشل من يفشل منهم .

ويظهر أن أول من اتجه إلى استنباط تلك القواعد السوفسطائيون ؛ فأنهم كانوا يعلمون الشبان في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميدان السبق الكلامي ؛ وكيف يغالطونهم ؟ وكيف يلبسون عليهم الحقائق ؟ ويمرّنونهم على القول المبين ، والأثناء المحكم ؛ وطبعي أن يتجه من نصبوا أنفسهم لذلك إلى استنباط قواعد ، وقوانين من أخذ بها أمن العثار ، وسبق في الخصام . ولقد قيل إن أول من وضع هذه القواعد ثلاثة من هؤلاء السوفسطائيين وهم : « پرويكورس »^(١) « القوسي المتوفى » سنة ٤٣٠ ق م ، وبروتاغوراس^(٢) (٤٨٥ - ٤١١) ق م ، وجورجياس^(٣) (٤٨٥ - ٣٨٠ ق م)

وقد جاء من بعد هؤلاء أرسطو ، فجمع قواعده ، وضم شوارده ، في كتاب أسماه الخطابة ، كان أصلاً لذلك العلم ، ومرجعاً يرجع الخطباء والمؤلفون في الخطابة إليه ، وصدراً يصدرون عنه ، ويردون موارده . وقد جاء بعد أرسطو عصر نشطت فيه الخطابة عند الرومان نشاطها عند اليونان ، قال المسيو شارل الآنف الذكر :

« كان الخطباء يأتون إلى ساحات الاجتماع ، حيث تلتئم مجالس »

(١) كان سوفسطائياً يأخذ أجراً باهظاً في تعليم الخطابة وقد أتفق كل ما جمع على ملاذه وقد حكم عليه بالاعدام باسم لافيه قال إن الآلهة من مخترعات العقول (٢) أثنى من الأفجور التي كان يأخذها وكان يقول : (لا أستطيع أن أعرف أن توجد آلهة أم لا (٣) فتح مدرسة تعلم فيها الخطابة فأثنى واشتهر . وكان يقول : لا يوجد شيء . وإن وجد لا يمكن معرفته . وإذا أمكنت معرفته لا يمكن تعريفه .

«الأمة في أواخر عهد الجمهورية . يخطبون ويكثرون من الحركات
«وسط دوى القوم . ويشيرون أعظم أولئك الخطباء ، وهو الوحيد
«الذى بقيت بعض قطع من خطبه » . ويقول في شأن المدارس في عهد
الإمبراطورية الرومانية : « والمدارس العامة تقبل الشبان الأغنياء خاصة ،
«يرسأهم آبائهم إليها ، ليعلموا فيها الخطابة . وإلغاء المنابر لم ينزع من
«الناس ذوقهم في الخطابة ، ومرانهم عاينها ، ولذلك بدأ المفوهون
«والخطباء يكثرون . ويعلمون الناس طريقة الأداء ، فافتتحوا منذ القرن
«الأول في روما مدارس ، يقبلون فيها الفتيان الأغنياء . وكان بعضهم يمرن
«تلاميذه على إنشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة . وقد حفظ
«لنا الخطيب سينيكا عدة من هذه الأروس وموضوعها أطفال مخطوفون ،
«وشطار من اللصوص » . ولهذا النشاط وجدت عدة مؤلفات أخرى في
علم الخطابة ينسب بعضها الشيثرون ، وألف كونيتمان (٤٢ - ٩٥) كتابا
سماه تهذيب الخطيب . وألف لنجينوس الحمصى (٢٤٠ - ٢٧٣ م) كتابا
سماه المفلق .

ولنترك الآن الحديث في اليونان والرومان ، ولنول وجهنا شطر
العرب . فأننا قد وجدنا أن الخطابة في صدر الاسلام - وصلت إلى الذروة
وبلغت كمال أوجها . وجاء العصر الأموى ، فوجدت الخطابة لها غذاء
من الفتن والثورات التى أظلت ذلك العصر ، وقد أخذ الفتيان والكهول
يتبارون في الخطابة ، ويتسابقون في ميدانها . وكان مكان ذلك الوفادة ،
ومجالس الخلفاء والأمراء والولاة . وقد نشأ من هذا أن وجد أناس
يعلمون الشبان الخطابة ، ويمرنونهم عاينها . وقد ظهر ذلك واضحا كل

الوضوح في العصر العباسي الأول بفقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ
وفي العقد الفريد لابن عبد ربه: «أن بشر بن المعتمر - مرابراهم بن»
«جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلم فتياهم الخطابة، فقال بشر:»
«اضربوا عما قال صفحا، واطوروا عنه كشحا. ثم دفع إليهم صحيفة من»
«تجبره، وتنميقة» وفي هذه الصحيفة وصف جيد لأساليب الخطابة،
والفاظها ومعانيها. وسنين خلاصتها في موضعه إن شاء الله تعالى
ويظهر أنهم لم يقتصر على استنباطاتهم العربية، بل كانوا يستعينون
بما في آداب الأمم الأخرى؛ ليعاونهم ذلك في استنباطهم، ويمدهم بما
ليس عندهم، وينبئهم إلى ما عساه يعزب عن خواطرهم. ومن ذلك ما جاء
في البيان والتبيين والصناعتين: «قال معمر أبو الأشعث قات لبهالة»
«الهندي أيام اجتاب يحيى بن خالد أطباء الهند: ما البلاغة عند أهل»
«الهند؟ قال بهالة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك،»
«ولم أعالج هذه الصناعة: فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص»
«لنطائف معانيها. قال أبو الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة الترجمة، فإذا»
«فيها: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة: وذلك أن يكون الخطيب رابط»
«الجلأش ما كن الجوارح» إلى آخر ما فيها من وصف جيد للخطيب.
والأسلوب الخطابي.

ألا ترى من هذا ما يدل دلالة راجحة على استعانتهم بالآداب
الأجنبية، وتغذيتهم بها. وقد استمر البحث في الخطابة، وأصولها، ينمو،

(١) ابراهيم بن جبلة كان من أصحاب عبد الملك بن مروان. وعمر إلى
خلافة المنصور. ومن ذلك تعرف أن ابتداء استنباط قواعد للخطابة كان في
آخر العصر الأموي.

ويكثر، ما كانت الخطابة ناهضة، وكان أكثر من يقوم به أئمة المعتزلة الذين احتاجوا إليها ليحتازوا بمجالس المناظرات، ويتغلبوا على خصومهم من ذوى الجدل، ولذا نبغ فيهم خطباء كثيرون، ومنهم من يعرف بعض أصول الخطابة، وقوانينها، كعمرو بن عبيد، وبشر بن المعتز، وثمامة بن أشرس، وإبراهيم النظام، والجاحظ، وغير هؤلاء كثيرون.

غير أن بحوث أولئك الأدباء لم تجمع في كتاب مستقل، بل كانت نثرا في الكتب، وعلوم اللغة، ولم يعن أحد بتدوينها في كتاب مستقل، لتكون عاما قائما بذاته، حتى ترجم اسحق بن حنين كتاب الخطابة لأرسطو، وشرحه الفارابي. وقد عد من المنطق كما ذكرنا. جاء في الفهرست لابن النديم في أثناء سرد ما كتبه أرسطو في المنطق: «الكلام على ريطوريقا، ومعناه الخطابة ويصاب بنقل قديم، وقيل» «إن اسحق نقله إلى العربى، ونقله إبراهيم بن عبد الله، وفسره الفارابي أبو» «نصر: رأيت بخط أحمد بن الطيب هذا الكتاب نحو مائة ورقة بنقل قديم». وقد أتى ابن سينا في كتاب الشفاء باب كتاب الخطابة لأرسطو مع تصرف غير ضار.

وبنقل كتاب الخطابة لأرسطو، صار في العربية قواعد للخطابة مدونة في بحث مستقل، وإن كان جزءا من علم المنطق على ما رأيت. وهنا نلاحظ ثلاثة أمور.

أولها أن تلك الترجمة صادفت عصرا، قد ركبت فيه الخطابة، وخذت، وأصبحت مقصورة على الوعظ، وصار الخطباء ممن

م ٢ خطابة

لا يجيدونها ؛ فاقصروا على خطب يحفظونها ، ويلقونها ، ويتوارثونها
بنصها ؛ ياتى الخلف ما كان يلقى سابقه ؛ وإن تصرف فى دائرة
محدودة ، ووسط أقطار من جمود ؛ فكان طبعيا ألا تستفيد الخطابة
من تلك الترجمة ؛ لأنها فقدت روحها ، وذهبت الرغبة فى السبق فيها ؛
فبقيت القوائد هيكلًا من غير لحم .

ثانيها - أن كتاب الخطابة صار جزءا من الفلسفة ، ولم يضاف
إلى الأدب ، وإن كان الأدباء قد قبسوا منه ، ونالوا أضرارا ؛ إذ
هو مع ذلك لم يخرج بقواعده كلها عن نطاق الفلسفة ؛ إلى حيث يتناوله
الأدباء بالبحث ، والنقد ، والتقريظ ، أو التزييف ؛ بل بقيت الفلسفة
وعمقها ، وجفافها ؛ ولعل السبب فى ذلك جمود ربح الخطابة ،
وضعف شأنها .

وإن الفلسفة ذاتها من بعد ابن سينا ، وابن رشد أخذت تهجر
كتاب الخطابة ؛ فقد انفصل عنه المنطق ، وصار أمره يصغر ، وشأنه
يهون ، حتى كاد الزمن يجرد عليه ذيل النسيان ، لولا أن سجل خلاصته
ابن سينا فى كتاب الشفاء ؛ فصار مرجعا يرجع إليه عند الحاجة .

ثالثها - أن علم الخطابة المترجم لم يربط باستشادات من الأدب
العربى ؛ والسبب فى ذلك عدم خروجه عن نطاق الفلسفة ، ولو أنه
خرج عن ذلك النطاق ، وتناوله بحث الأدباء بالتأييد ، أو الرد ؛ لوجدت
الشواهد على قواعده ، ولا تتقل إلى علم عربى ، وأبس حلة قشبية من
ذلك البيان .

هذه هى الأمور الثلاثة التى نلاحظها على تلك الترجمة وزمانها ؛

ومنها ترى أن الخطابة ذاتها لم تفد من تلك القواعد ، ولم تنغذ من هذه العناصر ؛ لأنها قد صارت صورة من غير روح

ولما استيقظت الخطابة في العصور الحديثة ، وعظم أمرها ، وصارت سبيلا من سبيل المجد ، وطريقا من طرق الغلب والسبق ، في ميادين السياسة ، وفي المجالس النيابية ، وفي دور القضاء ، اتجه بعض الباحثين إلى إحياء المقبور من قوانينها ، ونشر المدفون من آراء العلماء فيها ، وأظهر كتاب ظهر في ذلك كتاب علم الخطابة للعالم الباحث لويس شيخو ؛ فقد جمع في هذا الكتاب خلاصة ما كتبه أدباء العرب ، وفلاسفتهم ، وما ترجم إلى اللغة العربية من قوانين الخطابة ، وقواعدها ، غير أنا نلاحظ أن فيما كتبه كثيراً مما يتعلق بالمنطق ، وقد وضعه في الخطابة ؛ ونلاحظ جنافاً في الكتابة يجعله غير قريب للمتناول ؛ ونلاحظ أيضاً أن المؤلف في أكثر المسائل لم يقدم لنا رأيه ؛ بل يتركنا وسط نقول وآثار . ومهما يكن من شيء فله فضل الباحث المنقب ، والكاتب السابق ؛ إذ غيره له لا حق .

وقد كتب بعض الذين تشققوا بثقافات أوروبية بحوثاً قيمة على النحو الذي وجدوه في أوربا ولكل منهم ناحية فيما كتب ، فبعضهم اتجه إلى مخارج الحروف ، وبعضهم اتجه إلى الالتقاء ، وبعضهم زاد عن هذين قليلاً من البحث في أساليب الخطابة ، ولكل فضل فيما عني به . وأرجو أن يوفقني الله جلّت قدرته . إلى أن يكون في بحثي هذا نفع بمقدار ما أبغى ، وفائدة بمقدار ما أقصد . والله المستعان

الخطابة

نعر بفمها . أقميسنرها . موضوعها نرها . فابذر نرها . طريقة نحصي نرها

الخطابة مصدر خطب يخطب أى صار خطيباً . وهى على هذا صفة ^(١) راسخة فى نفس المتكلم ، يقتدر بها على التصرف فى فنون القول ، لمحاولة التأثير فى نفوس السامعين ، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم ، وإقناعهم ، فالخطابة مرماها التأثير فى نفس السامع ، ومخاطبة وجدانه ، وإثارة إحساسه للأمر الذى يراد منه ، ليندفع للحكم ، إذعاناً لو يسلم به تسليماً وقد قال ابن سينا . « إن الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر فى » أقسام المنطق ، لأن المقصود من المنطق أن يوصل إلى التصديق . فان « أوقع التصديق يقيناً - فهو البرهان ، وإن أوقع ظناً أو محمولاً ^(٢) على » الصدق - فهو الخطابة ^(٣) - أما الشعر فلا يوقع تصديقاً ، لكنه « لفائدة التخيل الجارى مجرى التصديق ، ومن حيث أنه يؤثر فى النفس »

(١) عرف الخطابة المنطقيون والحكماء بأنها القياس المؤلف من المظنونات أو المقبولات لترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم : والمظنونات الأمور التى يحكم العقل فيها حكماً راجحاً اتباعاً لغلبة الظن كقولك فلان يطوف الليل فهو لص ، والمقبولات هى الآراء التى يكون مصدر التصديق فيها - وقوعها بمن لا شبهة فى صدقه مع كونها قابلة للإنكار - وتطلق الخطابة بمعنى الخطبة وهى الكلام المنثور المسجوع أو المزدوج أو المرسل الذى يقصد به التأثير ، والاقناع . (٢) المراد من المحمول على الصدق . ما يقبله الإنسان لصدوره عن عرف بالصدق (٣) الخطابة هنا معناها الخطبة

«قبضا أو بسطا، عد في الموصل إلى التصديق» والتخيل عنده إذعان
للتعجب، والالتذاذ، تفعله صورة الكلام

وترى من هذا أنه يضع المنطق، والخطابة، والشعر في ثلاث مراتب
فالاول يتجه إلى اليقين، والثانية تتجه إلى الأقيسة الظنية، والشعرية تتجه
إلى إثارة الخيال والأعجاب والالتذاذ بصورة الكلام، ونحن نخالفه في
غير المنطق، ويهمننا ما نحن بصددده وهو الخطابة، فليس بصحيح أن
أقيسة الخطابة، لا تعتمد إلا على الظن، بل كثير ما تعتمد على أقوى الأدلة
إلزاما، وأشدّها قطعاً في الاستدلال، ومن أبلغ الخطب ما جلت حقائقها
بأقيسة المنطق، وبراهينه، إذ يجتمع فيها دقة المنطق، بجمال الأسلوب
وقد يكتفى فيها بالأموور الظنية، وقد يستعان فيها بأقوال من
عرفوا بالصدق، وبعد النظر، والحكمة الصائبة، وإن كان الاحتجاج
بها في ذاتها لا ينتج يقيناً في نظر العقل المجرد، وقد يتجه الخطيب إلى
تصوير الحقائق في صورة تثير الخيال، وتعجب بذاتها، ويضع الحقائق
في أسلوب شعري، ليجمع التصديق مع إثارة الخيال، ويلتقي الأذعان
وإثارة الوجدان.

فالخطابة في الحقيقة قد تستمد قوتها من العناصر الثلاثة، وتكون
تلك العناصر كالنيابيع تمدّها بماء الحياة، وقد يعتمد الخطيب إلى المنطق،
وأقيسته اليقينية، ويقتصر على ذلك إذا كان مخاطب أقواماً قد غلب على
حياتهم الفكر، والعقل، لا يرضيهم إلا الحقائق عارية، وقد يعتمد إلى
الظنيات، وأقوال من عرفوا بالحكمة، إذا كان من مخاطبيهم، ممن يقدسون
أولئك الذين نقل عنهم، وقد يضيف إلى الظنيات صوراً كلامية، تثير

الخيال : وتعمل في النفس ما يفعله الشعر . ومن الخطب ما يجتمع فيها تلك العناصر الثلاثة : فتباغ القمة من التأثير ، والروعة ، والجودة .

موضوعها قال ابن رشد ناقلا عن أرسطو : « ليس للخطابة »
« موضوع خاص ، تبحث عنه بمعزل عن غيره ، فأنها لا تحميم عن النظر »
« في كل العلوم والفنون ، ولا شيء يحقيرها كان أوجا يلا معقولا أو محسوسا »
« إلا يدخل تحت حكمها ، ويخضع لسلطان لسانها ، ومن ثم يترتب »
« على الخطيب أن يكون له إلمام بكل صنف من المعارف ، بل ينبغي »
« له أن يوسع كل يوم نطاق مداركه » وذلك حق لا ريب فيه ، فإن
كل مسألة عامة ، أولها صلة بشأن عام . يصح أن تكون موضوع الخطابة
كحب الوطن ، وإقامة العدالة والنظام ، وتسكين الفتن ، والتمسك
بالفضيلة ، وغير ذلك ، بل من المسائل الخاصة ما هو موضوع للخطابة
كالخصومات ، فإن المحاكم ميدان الخطابة ، والقول البليغ . وكثير من
القضايا ليست إلا مسائل خاصة كالعقود والمدائنات ، ونحو ذلك . بل
إن ابن رشد . يقول في تلخيصه لكتاب أرسطو : « كل واحد من »
« الناس يوجد مستعملا لنحو من أنحاء البلاغة ومنتهاها منها إلى مقدار »
« وذلك حق : فالتاجر ينادى لسلعته بشيء من البيان بلغته يستعمل فيه كل
وسائل الأغراء : وكل ذي رغبة في أمر : يجتهد في استخدام عبارات
خاصة : يجتذب بها من يريد حمله إلى ما ينبغي ويريد . ولو تسامحنا لسمينا
ذلك النحو من الكلام خطابة . وعلى أية حال ، هو يدل على مقدار عموم
الموضوعات الخطابية ، وأنها ليست متصورة على ناحية خاصة من
النواحي : وإن كان الناس قد اصطاحوا على الخطابة في موضوعات ،

وجعلوها أقساماً لها، وأنواعاً، كما سنبين ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى
فأنتهياً : قال ابن رشد ناقلاً عن أرسطو : « ليس كل صنف من »
« أصناف الناس ، ينبغي أن يستعمل معه البرهان في الأشياء النظرية »
« التي يراد منهم اعتقادها ؛ وذلك إما لأن الإنسان قد نشأ على مشهورات »
« تخالف الحق فإذا سلك نحو الأشياء التي نشأ عليها - سهل إقناعه ؛ »
« وإما لأن فطرته ليست معدة لقبول البرهان أصلاً ؛ وإما لأنه »
« لا يمكن بيانه له في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منه وقوع التصديق »
« فيه » فهذا الصنف الذي لا يجدي معه الاستدلال المنطقي ، تهديده
الخطابة إلى الحق الذي يراد اعتناقه ؛ لأنها تسلك من المناهج ،
مما لا يسلك المنطق .

وهذه أول ثمرة من ثمرات الخطابة ؛ وللخطابة فوق ذلك ثمرات
كثيرة ؛ فهي التي تنفض المشاكل ، وتقطع الخصومات ، وهي التي تهدي
النفوس النائرة . وهي التي تثير حماسة ذوى النفوس الفاترة ، وهي التي
ترفع الحق ، وتخفض الباطل ، وتقيم العدل ، وترد المظالم ، وهي صوت
المظلومين ، وهي لسان الهداية . ولا مرماً ، قال موسى عليه السلام عند
مابعته ربه تعالت حكمته إلى فرعون : « رب اشرح لي صدري ، ويسر لي »
« أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » . ولا يمكن أن ينتصر
صاحب دعاية . ومناد بفكرة ، وصاحب إصلاح إلا بالخطابة . والخطابة
هي الدعامة التي قامت عليها الانقلابات العظيمة ، والثورات الكبيرة
التي نقضت بنيان الظلم ؛ وهدمت قصور الباطل ؛ فهذه الثورة الفرنسية
قامت على الخطابة ، وهي التي كانت تؤجج نيرانها ، وتدكي لهبها .

والخطابة قوة ، تثير حمية الجيوش ، وتدفعهم إلى لقاء الموت ، وتزيد قواهم المعنوية ؛ ولذلك كان قواد الجيوش المظفرين في القديم ، والعصور الحديثة خطباء مصاقع ؛ فببركليس ، وبوليوس قيصر ، و نابليون خطباء ، وعلى بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، وطارق بن زياد خطباء مصاقع حملوا معهم سلاحاً معنوياً ، بجوار السلاح الحديدي

والخطباء هم المسيطرون على الجماعات ، وهم الذين يقيمونها ، ويقعدونها . وفي الحكومات الشورية ، يكون الخطباء هم الغالبين ، تصدع الأمة بأشاراتهم ، وتخضع لسلطانهم ؛ لأن الغلب في ميدان الكلام ، والسبق في حلبة البيان لهم ، فأراؤهم فوق الآراء ، لأنهم يستطيعون أن يلحنوا بحججهم ، ويسبقوا إلى غاياتهم ؛ وفي ذلك نشر لسلطانهم ، ورفعة لهم . فالخطابة طريق للمجد الشخصي كما أنها طريق للنفع العام .

والحق أن الخطابة مظهر اجتماعي للمجتمع الراقى . تحيا برقى الجماعة ، وتخبو بضعفها . ولقد قال ابن سينا في فائدتها : « إن صناعة الخطابة » عظيمة النفع جداً ؛ وذلك لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن » « أفضل نفعاً ، وأعم على الناس من أصدادها فائدة ؛ لأن نوع الإنسان » « يعيش بالتشارك ، والتشارك محوج إلى التعامل والتحاور ، وهما محوجان » « إلى أحكام صادقة ، وهذه الأحكام الصادقة تحتاج إلى أن تكون » « مقررة في النفوس ، ممكنة في العقائد ، والبرهان قليل الجدوى في » « حمل الجمهور على الحق ؛ فالخطابة هي العناية بذلك » انتهى بتصرف قليل .

وقال في الخطيب : « إن الخطيب يرشد السامع إلى ما يحتاج إليه »

« من أمور دينه ودنياه ؛ و يقيم له مراسيم لتقويم عيشه ، والاستعداد »
« إلى معاده »

طرق تحصيلها : لا شك أن الخطابة منصب خطير ، ومرتقى
صعب المنال ، لا يصل إليها طالبها ييسر ، بل يحتاج مبتغيها إلى زاد
عظيم ، وصبر ومعاناة ، واحتمال للمشاق ؛ ليصل إلى تلك الغاية السامية .
وطرق تحصيلها في الجملة ما يأتي :

(١) فطرة مواتية ، وسليقة تلائم الخطابة : بأن يكون الخطيب
خالياً من العيوب الكلامية ؛ من فأفة ونحوها ، وأن تكون مخارج
حروفه صحيحة ، وأن يكون فصيحاً ، طلق اللسان ؛ ثابت الجنان ،
ذكي القلب . وقد يكون بعض الناس مستعداً كل الاستعداد للخطابة ؛ إذ
يكون قد مدحه الله كل مؤهلاتها من صوت جهوري ، وعقل ألمعي ، وقلب
ذكي ، ونفس متوثبة ، ولسان مبين ، وخاطر حاضر ، وبديهة مستيقظة
وفراسة مدركة ، ونظرات نافذة ، ومثل هذا لا يحتاج إلا إلى التعليم
والممارسة ، وتنمية مداركه ليكون خطيباً مصقعا ، ومدافعاً مدرها .
(٢) دراسة أصول الخطابة : ولا شك أن هذه الأصول

لا بد لها من عوامل أخرى ؛ إذ هي وحدها لا تكفي ؛ بل لا بد أن يكون
معها استعداد كامن ، أو رياضة ومران شديد . قال ابن سينا في منزلة
أصول الخطابة في تحصيلها : « هذه الصناعة قد يتعاطى أفعالها كل إنسان ؛ »
« بأن يتأمل ما يختلفون فيه من مدح أو ذم أو شكاية أو اعتذار أو مشورة ؛ »
« فمنهم من يكون تصرفه في بعض هذه المعاني ، ومنهم من هو »
« متصرف في جميعها ، ومنهم من يبعد في ذلك بملكة حصلت له من »

« غير أن تكون القوانين الكلية محصلة عنده ، ومنهم من يجمع إلى »
« الملكة الاعتيادية ملكة صناعية ، حتى تكون القوانين محققة عنده »
« وهو الذى أحاط بهذا الجزء من المنطق (الخطابة) علما واكتسب »
« الملكة بالمزاولة . والملكة الاعتيادية وحدها ، إن تنجح فلا عن بصيرة . »
« فالقوانين على هذا هادية مرشدة ، تساعد فى تحصيل الخطابة بأناقة
السبيل ولا تكون وحدها الخطيب ، بل هى مهذبة للفطرة ، مساعدة لها .
(٣) قراءة كلام البلغاء ودراسته دراسة متعرف لمناحى التأثير ،
وأسرار البلاغة ، ومتذوق لما فيها من جمال الأسلوب ، وحسن التعبير ،
وجودة التفكير ، قال ابن الأثير فى المثل السائر : - « إن فى الاطلاع »
« على أقوال المتقدمين من المنذوم والمنثور فوائد جمّة ؛ لأنّه يعلم منه »
« أغراض الناس ، ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم »
« وإلى أين ترامت به صنعتته فى ذلك ؛ فإنّ هذه الأشياء مما تشجّد »
« القريحة ، وتزكى الفطنة . وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها »
« تصير المعانى التى ذكرت ، وتعب فى استخراجها كالأشياء الملقى بين »
« يديه ، يأخذ منه ما أراد ؛ وأيضاً فإنّه إذا كان مطلعاً على المعانى »
« المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه . ومن »
« المعلوم أن خواطر الناس (وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة) فإن »
« بعضها لا يكون عالياً على بعض أو منحطاً عنه إلا بشيء يسير . »
« فقرة كلام البلغاء تقدم للقارىء أرسالا من المعانى والأساليب ينال منه
يسر وسهولة من غير معاناة ولا كد ذهن .

(٤) الاطلاع على كثير من العلوم التى تتصل بالجماعات . كالاقتصاد

والشرع، والأخلاق، والاجتماع، وعلم النفس، والأديان؛ فأن الاطلاع على هذه العلوم فوق أنه ينمي فكره، ويوسع مداركه، يجعله على بصيرة في مهمته، ويضع أمامه المصباح الذي يهديه إلى طرق التأثير؛ فيصيب غايته، وينال غرضه.

(٥) الثروة الكثيرة من الألفاظ والأساليب؛ بحفظ كثير من خطب من اشتهر باللسن والبيان؛ فأن الخطابة تحتاج إلى تعابير كثيرة، تحتاج إلى أن يعبر عن المعنى الواحد بعدة عبارات، وأساليب متغايرة؛ لكيلا تذهب جدة المعنى، ويصيب السأم النفوس. ولا يمد الخطيب بالعبارات المتغايرة المتحدة المعنى إلا ثروة في الألفاظ والأساليب؛ وحفظ كثير لأقوال المتقدمين، واستيلاء تام على نواحي البيان،

(٦) ضبط النفس، واحتمال المكاره؛ فأن الخطابة منصب خطير؛ إذ قد تعترض الخطيب زوابع من كل ناحية، وقد يقابل بالسخرية والاستهزاء، وقد يكون المخاطبون ممن يتقصون عوراته، ويتسقطون هفواته، وكلهم له رقيب عتيد. فإذا لم يدرع الخطيب بضبط نفس وسيطرة تامة على إحساسه ومشاعره، لم يستطع السير إلى غايته. وقد لما قال خطيب عربي: «لقد شيبني ارتقاء المنابر» وهو قول يدل على مقدار ما كان يعانيه ذلك الخطيب في الاستيلاء على نفسه حتى لا تجشأ ولا تجيش، وحتى لا يضطرب، ولا تأخذه الحبسة؛ لذلك نقول يجب أن يربى مرید الخطابة نفسه على احتمال المكاره، والحام، وضبط الأحساس، ومحاربة مظاهر الاضطراب والوجل؛ فأن الاضطراب يورث الخيرة، والخيرة من أسباب الارتاج، والوجل يضعف أثر الخطبة في نفوس السامعين،

إذ تهون عليهم لهوان قائلها .

(٧) الارتياض والممارسة : فأن الفطرة والاطلاع ، وثروة الألفاظ والقراءة الكثيرة ، والعلم بالأصول الخطائية لا تكفي في تكوين الخطيب ؛ لأن الخطابة ملكة وعادة نفسية لا تتكون دفعة واحدة ، بل لا بد لمريدها من المعاناة والممارسة والمران ؛ لكي ينمي مواهبه ، إن كانت فيه فطرتها ، ولكي يطب لعيوبه إن كان فيه عيوبها . فان وجدت في نفسك أول الامر نقصا خطايا فكماله ، ولا يؤنسك إعراض الناس عنك من النجاح ؛ فأن كثيراً من الخطباء الممتازين كانت فيهم عيوب كلامية ، فأصاحوها . جاء في كتاب تاريخ الحضارة في الحديث عن ديموستين خطيب اليونان : « إنه عندما خطب على المنبر العام » « قوبل كلامه بالقهقهة ؛ إذ كان صوته ضعيفاً جداً ، ونفسه قصيراً ، » « فتوافر عدة سنين على رياضة صوته ؛ ويروى أنه كان ينقطع » « شهوراً طويلاً ونصف رأسه محلق ؛ لئلا يحاول الخروج . وكان يلقي خطباً » « وفيه حصى ، وهو على شاطئ البحر ؛ ليمرن نفسه على التغلب » « بصوته على جلبه الناس . ولما رجع إلى المنبر كان قد أخضع صوته » « لأرادته . وقد كان يحافظ كل المحافظة على إعداد جميع خطبه قبل » « إلقائها ؛ ولذا صار أرق خطيب ، وأعظم مفوه في بلاد اليونان » وكانت تلك حال كثير من خطباء العرب الممتازين ؛ فقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ « ويقال إنهم لم يروا قط خطيباً بلدياً إلا وهو في أول » « تكلفه لتلك المقامات كان مستثقالاً مستصفاً أيام رياضته كلها إلى أن يتوقع » « واستجيب له المعاني ، ويتمكن من الألفاظ - إلا شيب بن شيبة ؛ »

«فانه ابتداءً بحلاوة ، ورشاقة ، وسهولة ، وعذوبة ؛ فلم يزل يزداد منها،»
«حتى صار في كل موقف ، يبلغ بقليل الكلام ، ما لا يبلغه الخطباء المصارع»
«بكثيره» . ورياضة النفس على الخطابة ، تكون بأمور كثيرة ، بعضها
يتعلق بالألقاء وبعضها يتعلق بالأسلوب والفكرة ؛ لأن الخطابة فكرة ،
وأسلوب ، وإلقاء محكم ، ومن الرياضة التي تتعلق بالفكرة ، أن يعود نفسه ضبط
أفكاره ، ووزن آرائه ، وعقد صلة بينها وبين ما يجري في شئون الناس ، وعامة
أمورهم ؛ ليكون على أهبة القول الخطابي ، إن وجدت دواعيه . ومنها أن
يكون كثير التأمل في شئون الحياة ؛ عميق الفكرة فيها ، كثير الدراسة
لأحوالها ؛ وأن يعود نفسه الاتصال بالناس ؛ ليخلط نفوسهم بنفسه ؛ فيحس
بأحاسيسهم ، ويكون قريباً منهم ، إن وجد ما يدعو إلى خطابهم . ومن
الرياضة التي تتعلق بالأسلوب أن يتحدث بحيد الكلام ، أو يكتبه كثيراً ،
وأن يكون في صرانه الخطابي محاكياً للبغاء في أساليبهم ؛ أو مقتبساً
منهم ، أو سائراً في مثل درجهم . ومن الرياضة التي تتعلق بالألقاء أن
يعود نفسه إخراج الحروف من مخارجها ، وأن يقرأ كل ما يستحسنه
بصوت مرتفع ، مصوراً بصوته معاني ما يقرأ ؛ بتغيير النبرات ، ورفع
الصوت وخفضه ، وأن يغشى الجماعات والمحافل التي تكون ميادين قول
وإذا عنت له فكرة ووجد الفرصة سانحة - فليقل غير هياب ولا وجل
ولامستحي ؛ فأن الاستحياء في هذا نوع من الضعف ، وهو يجر إلى
الحبسة ، وموت المواهب ؛ وعليه أن يقول مرتجلاً ما استطاع إلى ذلك
سبيلاً ، وإن ضعف أسلوب ارتجاله ، أو أصابته حبسة مرة لا يئس من
أن يجيد مرتجلاً ، ويتسبب سبب بلاغته مرة أخرى ، بل قد يصير

ذلك له عادة ، وشأننا .

والقول الجملى ، يجب على المرید أن يروض نفسه على الخطابة
الجيدة ؛ حتى تصير له شأننا . وقد قال الجاحظ فى هذا كلمة محكمة ، فقد
جاء فى البيان والتبيين : «وأنا أوصيك ، ألا تدع التماس البيان والتبيين ،»
«إن ظننت ، أن لك فىهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ،»
«وإشاكلاتك بعض المشاكلة ، ولا تهمل طبيعتك ، فيستولى
«الاهمال على قوة القريحة ، ويستبد بها سوء العادة ، وإن كنت ذابيان
«وأحسست من نفسك بالنفوذ فى الخطابة والبلاغة ، وبقوة المنة يوم
«الحفل ، فلا تقصر فى التماس أعلاها فى البيان سورة ، وأرفعها فى البيان
«منزلة» وليست الرياضة فقط لطالب الخطابة ، بل هى لازمة لمن شدا
فيها ، وعظم أمره ، وعد من أفصح الخطباء ، فقد كان شيشرون أخطب
خطباء الرومان ، يتمرن على إلقاء الخطبة ، قبل أن يقدم على إلقائها ،
وكانت تلك حاله حتى قتل .



أصول الخطابة

تكوين الخطبة

مقدمة : لا شك أن من يريد إلقاء خطبة في موضوع ، يجمع العناصر أولاً ، ثم يرتبها ، ويضع كل عنصر في موضعه اللائق به ؛ ثم يعبر عن ذلك . وقد تحدث منه تلك الأعمال الثلاثة في أسرع وقت ، وأقصر زمن ، كما ترى في الخطب الارتجالية ، وفي المجاوبات ، والمناقشات الخطابية . وقد تحدث بعد تروية وإمعان ، وتفكير ، وفي زمن طويل وذلك في الخطب التي تهياً ، وتحضر ، وتعد إعداداً . ومهما يكن من حال الخطيب والخطبة فتلك الأعمال الثلاثة لا بد أن تكون . وقد جاء في كتاب علم الخطابة للعالم لويس شيخو « قال ابن المعتز والشيباني . » « إن البلاغة بثلاثة أمور : أن تغوص لحظة القلب في أعماق الفكر ، » « وتتأمل لوجوه العواقب ، وتجمع بين ما غاب وما حضر ؛ ثم يعود » « القلب على ما أعمل الفكر ؛ فيحكم سياق المعاني ، والأدلة ، ويحسن » « تنضيدها ؛ ثم تبديه بألفاظ رشيقة مع تزيين معارضها ، واستعمال » « محاسنها . قال بعض الحكماء : العلوم الأدبية مطالعها من ثلاثة » « أوجه : قلب مفكر ، وبيان مصور ، ولسان معبر »

ويسمى العمل الأول إيجادا أو اختراعاً ، والثاني التنسيق ، والثالث التعبير ، وتلك هي الأركان التي تقوم عليها الخطبة ، والعناصر التي تتحد في تكوينها .

الأيجاد

هو إعمال الفكر لاستنباط الوسائل التي من شأنها : إقناع السامع واجتذابه ، وإثارة حماسه إلى ما يدعو إليه المتكلم . إن عمل الخطيب أن يقدم حقائق ، أو ما يشبه الحقائق ، ويجب أن يكون عند تقديمها بحال لا تمنع من قبول كلامه ، بل يجب أن يكون بحال تجذب الناس إليه ، وتدفعهم إلى الانصات له ، وتقبله بقبول حسن ، وأن يجتهد في حمل السامعين على الأذعان لما يقول ، والتسليم به ، وإثارة حماسهم له . قال ابن سينا في الشفاء « التصديقات الصناعية التي يحتال لها بالكلام ثلاثة أصناف : « الأول العمود ، والثاني حال المتكلم عند تأدية الكلام في سمته كما يتفق » « أن يكون ، سمته صالح متخشع فاضل ، أو سمته صادق جاد ، أو خلاف » « ذلك ، أو يكون له لطف في تأديته ، والثالث : استدراج السامعين » ويجب أن يكون الأيجاد شاملاً لكل هذه العوامل ؛ ولذا قالوا إن الأيجاد يشملها ، وسماها الأول الأدلة ، والثاني الآداب الخطابية ، والثالث إثارة الأهواء .

١ — الأدلة

الدليل ما يتوصل به إلى بيان صحة الحكم سلباً أو إيجاباً والأدلة الخطابية ، لا يلزم أن تكون قطعية موجبة لليقين ، بل يصح أن تكون ظنية توجب في ذاتها الظن ، ولكن بما يستخدمه الخطيب من وسائل يرفع ذلك الظن في نفوس السامعين إلى مرتبة اليقين ؛ بل يجعله في أعلى درجاته ، ومثال الأدلة القطعية في الخطب قول علي بن أبي طالب

رضى الله عنه، في بيان قدرة الكائنات، بجوار قدرته تعالى : «بلا قدرة»
«منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها ؛ ولو قدرت على»
«الامتناع، دام بقاؤها» .

فهذا الدليل قطعى إلزامى ، ولا شبهة فيه ، عند أهل النظر .
ومثال الأدلة الظنية قوله لعمر : عندما استشار الصحابة : في سفره على رأس
الجيش لفتح فارس : «مكان القيم بالامر مكان النظام من الخرز ، يجمعه ، ويضمه»
« فإذا انقطع النظام ، تفرق الخرز ، وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيه »
«أبدأ . والعرب اليوم (وإن كانوا قليلا) فهم كثيرون بالأسلام عزيزون»
«بالاجتماع ؛ فكن قطبا ، واستدر الرحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار»
« الحرب ؛ فأنت إن شخصت من هذه الأرض ، انتقضت عليك »
«العرب من أطرافها ، وأقطارها ؛ حتى يكون ما تدع وراءك من »
«العورات ، أم إليك مما بين يديك . إن الأعاجم إن ينظروا إليك»
« غداً ، يقولوا هذا أصل العرب ؛ فاذا قطعتموه ، استرحم ؛ فيكون »
«ذلك أشد لكليهم عليك ، وطمعهم فيك» .

وترى أن كل ما اشتمل عليه هذا الكلام من أدلة ظني ؛ ولكنه
مع ذلك يسوق النفس إلى الأقناع كرها ، لا طوعا .

والأدلة الخطائية سواء ، أكانت إلزامية ، أم إقناعية ؛ تحذف
في الغالب إحدى مقدماتها ؛ لأن الأساليب الخطائية ، تتجافى عن
الأساليب المنطقية الجافة ؛ إذ يقبح الأسلوب المنطقي فيها إلا إذا كانت
الخطابة قضائية ؛ فإن الأسلوب المنطقي قد يحسن ، وقد يكون مجملها
م ؛ خطابة

وقد قال ابن سينا في علة حذف إحدى المقدمات في الكثير الشائع :
« إن الخطابة ، إنما تحذف الكبريات فيها ؛ لأنها لو صرح بها لزال »
« الأقناع ؛ لأن تلك الأحكام إذا حصرت بالكافية ، علم كذبها ، وخصوصا »
« في المشوريات منها » .

والأدلة لها ينايع تصدر عنها ، وتستنبط منها ، ويتجه إليها عند
طلبها ، وتسمى (مواضع) وقد ذكرها الأقدمون من اليونان ؛ ليسهل
على الخطباء والمجادلين الحصول على ما يبرهنون به دعاويهم ؛ ولتحنوا
بها قضاياهم التي يسوقونها ؛ وقد قال ابن سينا فيها : « إن الحجج في »
« الخطابة ، تكتسب من المواضع ؛ فمن طلب الأقناع ، وهو لا يعلمها »
« كان كحاطب ليل ، يسعى على غير هداية ؛ لالبخل من الموجود ، »
« بل لنقصان في الاستعداد »

المواضع

فالمواضع هي المصادر التي يمكن الخطيب ، أن يتخذ منها ما يستدل به
على دعواه ، كالتعريف ؛ فإن الخطيب يمكنه ، أن يتخذ منه في بعض
الموضوعات مصدرا لا متدلالة ، فإذا كان مثلا يدعو إلى الصدق ، يصح
أن يبرهن على ضرورة الأخذ به ، بتعريفه ، وذكر خواصه ، ولوازمه
التي من شأنها أن تبينه نافعا . وكالتشبيه ؛ فإن الخطيب يستطيع أن
يعقد صلة بين شيء غير مسلم به ، وآخر مسلم به من السامعين ؛ ويتخذ
من تلك المشابهة دليلا على ضرورة ما يدعو إليه ، وصدقه ، وهكذا ،
وقد قسم العلماء المواضع إلى ذاتية ، وعرضية

المواضع الذاتية

فالذاتية تؤخذ من ذات الموضوع ؛ لا من شيء خارج عنه ؛ كأن يبين فوائد العلم ، بذكر خواصه اللازمة له ، وقد ذكر الفلاسفة عدداً من المواضع الذاتية ؛ نكتفي ببيان ما نراه كثير الشيوع على السنة الخطباء قديماً وحديثاً . ومن ذلك :

« ١ » التعريف : تعريف الشيء ؛ يكون دليلاً خطائياً ، أو بعبارة أدق مقدمات دليل خطائى . ولذلك طرق عدة منها (١) أن يعرفه بخواصه التى تفيد ، فيما يدعو إليه ؛ كقول على رضى الله عنه داعياً إلى الأخذ بهدى المتقين ، واصفاً لهم :

« والمتقون هم أهل الفضائل ؛ منطقهم الصواب ، وملبسهم »
« الاقتصاد ؛ ومشيمهم التواضع ؛ غضوا أبصارهم ؛ عما حرم الله عليهم ؛ »
« ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ؛ نزلت أنفسهم منهم فى البلاء ، »
« كالتى نزلت فى الرخاء ^(١) ولولا الأجل الذى كتيب عليهم ؛ لم تستقر »
« أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب ؛ وخوفاً »
« من العقاب » .

(٢) ومنها أن يعرفه بالاستعارات أو التشبيه أو نحوها ، كقول شبيب بن شيبه فى مدح خائفة : « ألا إن لأمير المؤمنين أشباهها »
« أربعة : الأسد الخادر ^(٢) ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والريبع »

(١) معنى هذه الجملة أنهم فى البلاء كما هم فى الرخاء ، لا يهنون ، ولا يحزنون
لأملهم فى الله ، وطمعهم فى رحمته ، وصبرهم ، وخشوعهم .
(٢) الخدر يطلق على أجمة الاسد . فاسد خادر مقيم فى أجمته

« الناضر ، فأما الأسد الخادر ، فأشبهه منه صواته ، ومضاءه ، وأما البحر »
 « الزاخر فأشبهه منه جوده . وعطاءه ؛ وأما القدر الباهر ، فأشبهه منه »
 « نوره ، وضيائه ؛ وأما الربيع الناضر ، فأشبهه منه حسنه ، وبهائه »
 (٣) ومنها أن يعرفه ببيان أنواعه ، وذكر أقسامه . ومن ذلك
 قول على رضي الله عنه في بيان الرزق : « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، »
 « ورزق يطلبك ؛ فإن لم تأتته أذاك ، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك ، »
 « كفاك كل يوم على مافيه ؛ فإن لم تكن السنة من عمرك فإن الله »
 « تعالى ، سيؤتيك من كل غد جديد ، ما قسم لك ، وإن لم تكن السنة »
 « من عمرك ، فما تصنع بالهم لما ليس لك . ولن يسبقك إلى رزقك »
 « طالب ، ولن يغلبك عليه غالب ، ولن يبطل عنتك ما قدر لك . »
 وترى من هذا أن طرق التعريف الخطابي ، ليست ، هي الطرق
 المنطقية وحدها ، بل تكون بها ، وبغيرها ، مما لا يقره المنطق تعريفا
 مصورا للموضوع .

والتعريف يكون موضعا خطايا (١) - عند ما يرى الخطيب أن
 التعريف كاف لفض النزاع ؛ وإنهاء الخصومة ؛ إذ يكون تعيينا لموضع
 النزاع ، وبذلك يسير في طريق ، يجتمع فيه الخصمان ؛ فلا تتشعب
 مسالكهما ؛ إذ في تشعبها توسيع لهوة الخلاف ؛ وتطويل لمداها
 (٢) وعند ما يرى أنه يستطيع استنباط الدليل من خواص الشيء ؛ إذ
 تكون هي مناط الحكم ، كما إذا ادعى أن العدل محمود ؛ فإنه يذكر صفاته
 وخواصه الذائعة ؛ ويكون ذلك دليلا على جدارته بالترفضيل ، وإعلاء مكانته
 (٣) وعند ما يريد مدحا ، أو ذما لأحد من الناس ، فيذكر

صفاته الحسنة : كما رأيت في وصف شبيب بن شيبه للخليفة مادحا
(٤) - أو يريد حضا على أمر ، أو تنفيرا منه ، فإنه يذكر صفاته الحسنة
إن أراد الأول ، وصفاته القبيحة إن أراد الثاني

(٥) - وعند ما يريد إيضاح أمر أشكل فهمه على السامعين ، فيعمد إلى
تعاريف كاشفة ، تجذب القلوب إليه ، وتوضح للسامعين ما أشكل
عليهم أمره .

٢ - التجزئة : المراد بالتجزئة أن تتجه في الحكم إلى الجزئيات ؛
تتبعها بالحكم الذي تريده جزئيا جزئيا ؛ حتى تستخلص النتيجة التي تريدها .
ولها طريقتان

(إحداها) - أن تتبع الجزئيات ؛ لتستنبط منها حكما واحدا
لكليها . وذلك مثل قول قطري بن الفجاءة في وصف الدنيا :
« كم واثق بها قد أجمعت ، وذى طمأنينة إليها قد صرعت ، وذى نخوة »
« قد رده ذليلا ، وكم من ذى تاج قد كبته لليدين والفم . سلطانها دول ، »
« وغيثها رنق ^(١) ، وعذبتها أجاج ^(٢) ، وحلوها صبر ، وغذاؤها سام ^(٣) »
« وأسبابها رمام ^(٤) ، وقطافها سلع ^(٥) ، حيها بعرض موت ، وصحيتها »
« بعرض سقم ، ومنيعها بعرض اهتضام . مليكها مسلوب ، وعزيزها »
« مغلوب ، وسايماها منكوب ، وجامعها محروب ^(٦) ، مع أن وراء ذلك »
« سكرات الموت ؛ وهول المطلاع ، والوقوف بين يدي الحاكم العدل ؛ »

(١) رنق معناها كدر . (٢) أجاج . معناها مر . (٣) سام جمع سم .

(٤) الأسباب الحبال . ورمام معناها بالية ، واهية (٥) القطاف الثمر . وسلع . مر

(٦) المحروب المسلوب

« ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » .
ألا تراه فى ذلك قد تتبع الجزئيات ؛ ليتخذ من حالها حكما كليا ؛ على
ما فى الدنيا ، بأنه إلى زوال ، ومن فيها إلى الموت ، والوقوف بين يدى
الحاكم العدل ؛ وبأنها لا يصح أن تكون غاية العباد ، ومطالبهم الأسمى
وثانيتهما) - أن تتبع الجزئيات لتخص واحدا من بينها ، بحكم
لزيادة التنبيه على خصائصه ؛ وللحث على الأخذ به ، أو التنفير منه ، كقول
جامع المحاربي للحجاج ، وقد شكّا إليه سخط أهل العراق عليه : « أما »
« إنهم لو أحبوك ، لأطاعوك ، على أنهم ما شئتوك لنسبك ، ولا لبلدك »
« ولا لذات نفسك ؛ فدع ما يبعدم عنك ، إلى ما يقربهم إليك ، والتمس »
« العافية ممن دونك ، تعطها ممن فوقك ، ولا يكن إيقاعك بعدو عيذك »
« ووعيدك بعد وعدك » ، فترى من هذا انه استقرى أحواله حالا حالا ،
ونفى عنها السبب فى الكراهية ، ثم قصر السبب على الحكم ، وأشار
إليه إشارة فى قوة التصريح . ثم أخذ ينبيه إلى ما يجب ، وما من شأنه
إدناء القلوب النافرة .

وترى من ذلك كله أن التجزئة منهج خطائى ، يعتمد إليه الخطيب
عندما يريد المبالغة فى إثبات الحكم ؛ والحرص على تأكيد ، وتقريره فى
نفوس السامعين . وهى لا يعتمد إليها إلا فى مقام الاطناب ، ولا يتجه
الخطيب إليها فى مقام الإيجاز ؛ لأن غيرها يغنى عنها ، ففى كلمة المحاربي
السابقة لو كان يقصد إلى الإيجاز ، لقال له من أول الامر : إن السبب
فى السخط حكك ، ثم بنى عليه ما أراد ولكن بدأ بالنفى عن الاحوال
السابقة واحدة واحدة ؛ ثم خص الحكم بالسبب ، فكان ذلك دالا على

مزيد العناية به وذلك من نوع الأطناب المفيد

(٣) التعميم ثم التخصيص هذا مقابل التجزئة ، إذ يبدأ فيه بذكر العام ، ويحكم عليه بما يراد ، ثم ينزل منه إلى الخاص . وذلك كثير على السنة الخطباء ، يبدئون خطبهم بقضايا كلية مسلم بها ، أو في منزلة المسلم به ، للتقرير ، ثم يخصصون بعد ذلك بعض الجزئيات بالذكر وما الحكم الرائعة التي يبتدئ بها كثير من الخطباء خطبهم ، إلا من ذلك النوع ولقد قال ابن سينا في هذا : « جملة ما يقال في ذلك إن الخطباء قد اعتادوا أن يأتوا في صدر خطبهم ، بنظر عام في مقصدهم ، لما يأتون « في خطبهم » . ومن أبلغ التعميم ثم التخصيص قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : « أما بعد أيها الناس ، اسمعوا مني ، أ بين لكم ؛ « فأنى لأدري ، لعل لا ألقاكم ، بعد عامي هذا ، في موقفي هذا . أيها « الناس ، إن دماءكم ، وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم ، أشهد « فن كانت عنده أمانة ، فديؤها إلى الذي ائتمنه ، وإن ربا الجاهلية « موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به رباعي العباس بن عبد المطلب . « وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة « ابن الحارث بن عبد المطلب » . فتراه صلى الله عليه وسلم ، يبتدئ بحكم عام ، فيسقط الربا كله ، ثم يخص ربا العباس بالأسقاط ؛ ليبين للناس أنه يبتدئ بتنفيذ الأحكام على أقرب الناس إليه ؛ فيكون في ذلك أسوة حسنة . ثم يبين أن دماء الجاهلية ساقطة ، وأول دم يسقطه دم من يعد هو من أوليائه ؛ ليكون أول الآخذين بحكم الدين . وفي هذا ترى

الانتقال من العام إلى الخاص على أبلغ وجه .

ومن الابتداء بقضايا كلية مسلم بها ، لتكون تمهيداً للمطلوب
قول الأحنف بن قيس في وفادته لعمر بن الخطاب : «يا أمير المؤمنين إن»
«مفاتيح الخير بيد الله ، والحرص قائد الحرمان ، فاتق الله فيما لا يغني عنك»
«يوم القيامة قتيلاً ولا قاتلاً ، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل ،»
«والإنصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود ، واستمache الممتاح»

(٤) العلة والمعلول : التعليل روح الاستدلال ، فالعلة الباعثة على
الفعل ، والغاية المنشودة منه . طريق للحكم عليه بأنه خير ، أو شر ، وبأنه
صحيح ، أو باطل ، وبأنه سائغ ، أو غير سائغ ؛ لذلك يعتمد الخطباء إلى
ذكر البواعث على الأفعال ، والدوافع إليها ، ليتخذوا منها سنداً في الحكم
عليها . وأخص من يفعل ذلك المحامون ، ورجال النيابة ، فانهم يتخذون
من الدافع على الجريمة دليلاً موجباً لتخفيف العقوبة ، أو دليلاً على وجوب
التشديد فيها ، ويتخذون من البواعث على الأقرار ، أو الإنكار دلائل
موجبة أو سالبة . ومن ذلك ما جاء في مراجعة أحد المحامين الفرنسيين
في إثبات أن الدافع لأقرار المتهم ، يحمل على عدم الأخذ به فقد قال .
«تقولون إنه لا بد من الحكم ، لأنه أقر وتقولون إن هذا الأقرار حر .»
«أما رأيتم كيف وصف لكم الشهود ذلك المنظر؟ ألم يظهروا لكم التأثير»
«الذي كان المتهم فريسته؟ ألم يظهروه لكم يقاوم ، ويبكي ، ويقع على»
«الأرض ، ويجذب شعر رأسه؟ ألم تروا أن العذاب النفسي الذي وقع»
«المتهم فريسته هو الذي دفعه ، لأن يقر ، ثم ما كاد ينهض على قدميه»
«حتى لجأ لكل إنسان يحاول أن يسترد إقراره ، فأسرع إلى محاميته ،»

« وطلب منه بكل الطرق أن يدفع به للمحاكمة ؛ وصار يصيح في كل
 « فرصة ، وفي كل مكان . إنني برىء ، إنني برىء ... افرضوا يا حضرات ،
 « المحلفين ، أن نظام التعذيب كان لا يزال قائماً ، وجاءكم المتهم وأثر
 « الحديد في يديه ، وقد أفلتت من قسوة معذيبه ، فهل كنتم تقولون
 « له أنت مذنب ؛ لأنك اعترفت ؟ إنه يقول لكم : لقد رأيت دمي
 « يتساقط ، وسمعت عظامي ، تتحطم ، فغلبنى الألم . وقال الطبيب
 « إن الموت قاب قوسين أو أدنى ، فغلبنى الخوف ، فأقررت ، ولكني
 « برىء ؛ أكان منكم أنتم الذين تحاكموننا أو أنتم الذين تتهموننا - أكان
 « منكم من يقول له : لقد أقررت ، وأنا أحكم عليك بأقرارك ؟ لا لا
 « ليس فيكم هذا الشخص » . ففي هذا الدفاع القيم ، ترى أن ذلك المدره
 « المجيد ، قد أخذ علة الأقرار ، والداعى إليه ، حجة على بطلانه ، ودليلاً على
 أن الواجب عدم الأخذ به

وقد يتجه الخطيب إلى العلولات والآثار ؛ للدلالة على أن الفعل
 لا يصح ، أن يقع ، وإن وقع ، فهو محل اللوم ، يجب الإقلاع عنه ،
 وأخذ الأثمة ؛ لمقاومة من هم واقعون فيه ، أو من يدعون إليه ،
 ويحثون عليه . ومن ذلك خطبة ديموستين ، التي بين لليونان فيها آثار فتح
 فيليب المقدوني لبلادهم ؛ وهي التضيق على الحرية ، وموت الديموقراطية
 اليونانية .

وقد قال في تلك الخطبة : « إن أخشى ما يخشاه فيليبس ، وأمقت
 « ما يمتته ، هو حریتنا ، هو نظامنا الديموقراطى ؛ فلكي يقضى على
 م • خطابة

« هذه الحرية ، وهذا النظام ، يهين جميع شراكه ، ويدبر جميع »
« تدابير ؛ أو ليس يجرى على مبدأ واحد في كل أعماله هذه ؟ إنه »
« يعرف تمام المعرفة ؛ أنه لو أخضع بلاد الأغر يق كافة ، وعمها »
« بفتوحه ؛ فإنه يظل غير آمن ، ما دامت ديمقراطيتكم صحيحة ، لم »
« تمس ؛ وهو يعرف أنه إذا أصابته هزيمة من تلك الهزائم التي »
« تقدرها الأقدار لبني الانسان ، فإن جميع الأمم التي قرنوا عنوة إلى »
« نيره تسارع إلى الانضواء إليكم ٠٠٠ أفى العالم أمة مقهورة تحتاج إلى »
« رد حريتها ليها ؟ ها كم أتينا . وإنما ذكر التضيق على الحرية ، وضياح »
« الديمقراطية وحدها ؛ لأنهما أعز شيء عند اليونان ، فذكرهم بهما ؛ »
« ليحفز همهم إلى مقاومة فيايب ، ومحاربتة ، فترى من هذا أنه استخدم »
« الآثار في الاستدلال على وجوب المقاومة ، ورد الأعداء وترى كيف »
« استخدم المعلول في الاستدلال على المطلوب »

هـ المقابلة : بين شيئين ؛ ليبين الحق فيهما ؛ فإن الأشياء تتميز
بأضدادها وتعرف بنظائرها . وهي معين للاستدلال الخطابي وفوق
ذلك تعطى الكلام حلاوة ، ورونتا ، ويتخذ الخطباء منها حججهم
بطريقتين :

(إحداها) أن يذكر الخطيب الشيء ومقابل له ؛ ويذكر صفاتهما ؛
ومن ذلك يتبين الحسن منهما كما قال علي رضي الله عنه للأشعث بن قيس
في فضل الصبر «إن صبرت جرى عليك القدر ، وأنت مأجور ، وإن جزعت »
« جرى عليك القدر ، وأنت موزور » .

ثانيتها أن يبرهن على بطلان المقابل ؛ فيثبت الشيء المطلوب كما

فعل على رضى الله عنه عند ما ناقشه الخوارج ؛ واعترضوا عليه بأباحة أموال أهل الجمل دون النساء والذرية ؛ فند قال : « إنما أبحث لكم »
« أموالهم بدلا عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل »
« قدومى عليهم ؛ والنساء والذرية لم يقاتلونا ، وكان لهم حكم الإسلام »
« بحكم دار الإسلام ، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ، ولا يجوز »
« استرقاق من لم يكفر . وبعد لو أبحث لكم النساء أيكم يأخذ »
« عائشة فى سهمه ؟ » فجلل القوم . فترى من هذا كيف أخفهم ذلك الخطيب العظيم ؛ إذ أبطل لهم دعواهم سبى النساء بتلك الحجة البالغة ؛ وهى أن السبى لو كان حقا ؛ لكان من الحق سبى عائشة أم المؤمنين ، ومثل ذلك لا يعقل من مؤمن . وإذا بطل هذا ، ثبتت صحة ما فعل ، وهو منع سبى النساء والذرية .

ولا يعمد الخطيب فى إثبات دعواه بأبطل نقيضها - إلا إذا كان إبطال النقيض أسهل عليه ، وأيسر ، من إثبات الدعوى ، من أول الأمر . وفى الحق أن تلك كلها أساحة لديه ، يستعمل منها ما يراه أسهل ، وأدنى إلى الإقناع ، وأقرب إلى الأجابة ، وأحرى بالتأثير ، وامتلاك ناصية القول .

٦ التشابه وضرب الأمثال . (١) يعمد الخطباء إلى تقريب الأمور التى يدعون إليها من نفوس الجماهير ؛ ليأخذوها قضية مسلمة ، لا يناقشون فيها ، ولا ينظرون إليها نظرة فاحصة كاشفة ؛ ويتخذون لذلك طريقا من مراكبه ، وصل إلى غرضه ، وهو عقد صلة بين ما يريدون وأمر معروف ، ويسمى ذلك التشابه أو المشابهة أو التمثيل

وهو أن يقيس الأمر الذي يدعو إليه على أمر معروف عندهم، مقبول لديهم؛ فيقبلوا الجديد لقبول القديم، وينسحب شرف القديم شرفاً للحديث، أو يعمد إلى الموازنة بين الحال التي يدعو جماعته إليها، والحال التي هي في مكان المسلم بها عند جماعات أخرى؛ كما فعل المغفور له مصطفى باشا كامل في بعض خطبه الجماسية إذ قال: «ألقوا أيها السادة بأنظاركم قليلاً إلى «
«الأمم الحرة، تجددوا كل فرد فيها، يدافع عن وطنه، ويذود عن «
«حوض بلاده - أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه، بل هو يرضاهما «
«ضحية للوطن، ويرضى نفسه قبلهما قربانا يقدمها لأعلاء شأن بلاده، «
«ويلعد الموت لأجل الوطن حياة، دونها الحياة البشرية، ووجودا «
«دونه كل وجود، فلم لا يكون المصري على هذا الطراز، ووطنه «
«أجل الأوطان، وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة «

ومن أبلغ أنواع التشابه الخطابي قول أبي عبيدة عامر بن الجراح، ينذر أهل الشام عند فتح بلادهم: «لا يغرنكم عظم «
«مدينتكم، وتشيد بنيانكم، وكثرة زادكم، وهول أجسامكم؛ «
«فأننا نزلنا بلاداً أخصب من بلادكم، وفتحنا أمصاراً ممصرة ومداثن «
«أحرز من مدينتكم، وخرج علينا أعلاج (١) موفورة أقواتهم، «
«مدرعون، مترسون، فصائد نجمهم، وذهب أمامنا ریحهم، ورددناهم «
«على الأعقاب، لا يلوى أولهم على آخرهم «

(٢) وقد يتجه الخطيب إلى التشبيه البياني المعروف، لالتحسين الكلام، وتزيينه، بل للاستدلال الخطابي، وتقريب المعاني التي يريد بها، وسوق ذلك سوق البرهان. وذلك يكون عندما ينتقدح

(١) العليج الرجل من العجم غير المسلمين

الرأى فى النفس ويستولى عليها استيلاء تاما . ويرى صاحبه أن
النفوس تفهم بالتشبيه ما حاك فى الفؤاد ؛ وجمال فى القلب ،
واستولى على النفس . ومن أبلغ ذلك ما جاء على السنة بعض الصحابة ،
رضى الله تعالى عنهم ، عند ما استفتاهم عمر رضى الله عنه فيما يستحقه
الجد من التركة ، مع الأخوة .

وقد قال زيد بن ثابت فى تأييد رأيه من أن الأخوة أولى (١)
« لو أن شجرة تشعب من أصلها غصن ، ثم تشعب فى ذلك الغصن »
« خيوطان (٢) . ؛ ذلك الغصن ، يجمع الخوطين دون الأصل ، »
« ويغذوهما ؛ ألا ترى يا أمير المؤمنين ، أن أحد الخوطين أقرب إلى »
« أخيه ، منه إلى الأصل . »

(٣) وقد يتجه بعض الخطباء الى ضرب الأمثال ؛ ليقربوا إلى
الناس ما يريدون من الأمور ، فيشبهون حال جماعتهم أو حالهم بحال
مفروضة لجامع يجمعهما ، كما فعل عمر رضى الله عنه فى إحدى
خطبه فى الحث على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إذ قال :
« أيها الناس اتقوا الله فى سريرتكم ، وعلايتكم ، وأمروا بالمعروف ، »
« وانهموا عن المنكر ، ولا تكونوا مثل قوم كانوا فى سفينة ، فأقبل »
« أحدهم على موضعه يخرقه ، فنظر إليه أصحابه ، فنعوه ، فقال هو »
« موضعى ولى أن احكم فيه فان أخذ على يده سلم ، وسلموا ، وإن »
« تركوه هلك ، وهلكوا معه . وهذا مثل ضربته لكم ، رحمتنا الله ، »
« وإياكم » . وقد يقول قائل أين هذا من الاستدلال وسوق البراهين؟

ونقول في الأجابة عن هذا : إن ذلك المثل قد تضمن أبلغ أنواع
الاحتجاج ؛ فهو قد بين لهم بطريقة قريبة من نفوسهم : موضحة لعقولهم ،
خالية من جفاف المنطق ، أن ترك الأمر بالمعروف في الأمة مؤد إلى
فساد الأمر ؛ واضطراب حاله ؛ والضرر حينئذ لا يقع على مرتكب
الآثم وحده ؛ بل يعم ، ولا يخص . وذلك دليل موضح لوجوب الأمر
بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وقد ذكره الفاروق في أبلغ عبارة ،
وأوجز بيان ، وأقرب القول إلى النفوس والمدارك .

وقد يتجه الخطيب إلى تصوير فكرته ؛ بذكر مثل خيالي ،
لا يتصور العقل وقوعه ، كتلك الأمثال التي تجيء على السنة البهائم ،
ومن ذلك ما جاء في بعض خطب علي رضي الله عنه ، فقد قال :

« إنما مثلي ، ومثل عثمان ، كمثل أثوار ثلاثة كن في أجمة : »
« أبيض ، وأسود ، وأحمر ، معن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهم »
« على شيء ؛ لاجتماعهن عليه ، فقال للثور الأسود والثور الأحمر : »
« لا يدل عايتنا في أجتنا إلا الثور الأبيض ؛ فإن لونه مشهور ، ولوني »
« على لونكما ، فلو تركتاني آكله ، صفت لنا الأجمة . فقالا : »
« دونك ، فأكله ، فأكله ، فلما مضت أيام ، قال للأحمر : لوني على »
« لونك ؛ فدعني آكل الأسود ؛ لتصفو لنا الأجمة ، فقال : دونك ، »
« فأكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : إني آكلك ، لا محالة فقال دعني أزدى »
« ثلاثا ، فقال : افعل ، فنأدى . ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض »
« ثم قال علي رافعا صوته ألا إني وهنت يوم قتل عثمان . »

وذلك النوع من الأمثال ، يسوقه الخطيب ، إذا أراد ،

أن يستتر في بعض كلامه ، فلا يبرح ببعض الأشخاص ، أو يصور المعاني خالية من كل علاقة لها بأشخاص ؛ أو يريد بها تقريب الأفكار من النفوس ، مع تمليح الكلام وتزيينه .

المواضع العرضية

هي مصادر الأدلة الخارجة عن ذات الموضوع ؛ وذلك لأن المخاطب أحيانا لا يدرك ما في ذات الموضوع من خصائص ، ومزايا ، وثمرات ؛ فيصعب عليه أن يقتنع بأدلة ؛ تستمد قوتها من تلك الخصائص ، فيستعان على إقناعه بأمر خارجية ؛ هي عنده صادقة ، وهو لها مدع ، فيبين له الخطيب أن تلك الأمور ، تؤيده ، وتحت على ما يدعو إليه ؛ فيسلم بما يقدم له من غير جدل ، ويد عن من غير نقاش ؛ لأن الأمر أحيل على ما هو عنده في مرتبة التقديس .

وأكثر تلك المواضع قوة ؛ وأثرا أمور منها :

(١) الدين : إذ هو أكثر الأمور سيطرة على القلوب ، خصوصا

قلوب العامة ؛ فإنه لهم المرشد الأئمين ، والمعزى لمن برحت بهم الآلام ، والمسلئ لمن نزلت بهم الهموم ، والمهذب لمن لا معلم له ، والمربي للوجدان ، والموقظ للضمائر ؛ والمتدينون لا يخضعون لشيء كما يخضعون لدينهم ، ولا يصدعون إلا بحكمه ؛ فإذا أيد خطيب في جماعة متدينة قضاياها بالدين ، وربط بينها وبين دينها صلة ، ووثق عرا الألفه بين ما يدعو إليه ، وبين ذلك الدين ، أجابت نداءه ، ولبته في حماسة ، وقوة ، وشعور دافق وحمية ، وخطباء العرب في صدر الإسلام ، كانوا يحاؤون خطبهم بشيء من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ؛ لتكون

لهم الحجة البالغة ؛ إذ كانوا يخاطبون قوما ، كل مجدهم جاء من الدين الأسلامي الحكيم ، ولأن القرآن الكريم في منزلة من البلاغة ، دونها أى كلام . والحديث الشريف في المنزلة الكاملة لبلاغة البشر ، وسيجىء إليك ذلك واضحا في تاريخ الخطابة .

وقد عد الاشتهاد بالدين من المواضع الخارجة ؛ لأنه ليس من ذات الموضوع ولا مشتقا من خصائصه ، ولكن جاء من شئ خارج عنه ، وهو يفيد اليقين والجزم ، وإن كن من شئ خارج عن الموضوع ؛ لأن مسائل الدين في مكانة من اليقين ، لا تعد لها مكانة ؛ فإذا اشتهد به استشهدا صادقا ، حلت دعوى الخطيب في القلب ، فلا تنزع منه ؛ لأنها تصير جزءا من أوامر الدين ؛ فتكسب منه تقديسا .

(٢) العادات : كل جماعة من الناس لها عادات ، تسودها ، وتسيطر عليها ، وهي متمكنة من نفوسها ، ومستولية عليها . وقد قال العلامة باسكال في سيطرة العادات ، على نفوس الناس ، وقوة ما يشتق منها من أدلة « ماذا تكون مبادئنا النظرية ، إذا لم تصدر عن العادة ؛ » « فالعادة هي طبيعة ثانية ، تقوض أركان الأولى ، ومنها نأخذ أشد » « أدلتنا قوة ، وأكثرها فيضيا ، وهي التي تعين وجهة النفس دون أن » « يفكر الإنسان ؛ وبها يصبح الإنسان نصراانيا ، أو وثنيا ، أو » « أو تركيا ، أو محترفا أو جنديا الخ ، ثم بها تستعين النفس وقتما تعثر » « على مكان الحقيقة » وقال العلامة جوستاف لوبون . « لو أن قدرة » « خارجة ، جعلت الإنسان أو الشعب ، يهرب من تأثير عاداته ، »

« لأصاب الفالج حياته فجأة ؛ لأن العادة هي التي تملى علينا كل يوم »
« مايجب أن نقوله ، ونفعله ، ونفكر فيه » .

وإذا كان لعادات الأمم هذه القوة ، وذلك السلطان على القلوب ؛
فيجب أن يعتمد عليها الخطيب في مقام التأثير ؛ بأن يقرب مايدعو
إليه ، مما يألّفون من عادات ، وماأصطلحوا عليه من عرف ؛ ليسكنوا
إلى الأمر ، ويخضعوا له ، ويطمئنوا إليه ؛ لأن إقبال الناس يكون
شديدا على الأمور التي تكون من جنس ما يألّفون . وقد كان الأحنف
ابن قيس وهو من أبلغ البلغاء ، والخطباء المسودين ، ممن يجيئون إلى
قلوب العامة من ناحية عاداتهم ، وما يألّفون ، قيل له : بم سدت ؟ قال :
« لو أن الناس كرهوا الماء ماثربته » ومعنى هذا أنه يحترم العرف ،
ويعرف سلطانه ؛ فهو يتخذ طريقا لسيادته ، ولتأثير بيانه .

ومن الخطباء الذين كانوا يلجئون إلى العادات أحيانا في التأثير
المغفور له سعد زغلول باشا ؛ ومن ذلك خطبته في الأزهر ، إذ جاء
فيها : « جئت اليوم ؛ لأؤدى في هذا المكان الشريف فرض صلاة »
« الجمعة ، ولا أقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه ، وكان له فضل »
« كبير في النهضة الحاضرة ؛ تلقيت فيه مبدأ الاستقلال ؛ لأن طريقته »
« في التعليم تربي ملكة الاستقلال في النفوس ؛ فالتلميذ يختار شيخه »
« والامتياز يتأهل للتدريس بشهادة التلاميذ الذين كانوا يلتفون »
« حول كل نابغ فيه » . ألا تراه في هذا أخذ يستدرج سامعيه بتقريب
مايرمى إليه (وهو نشر فكرة الاستقلال) مما ألفوه ، وما يعرفونه ،
م - ٦ خطابة

وما اعتادوه .

«٣» تتبع آثار السلف : لا تار سلف الأمة قوة في نفوس الأحياء منها ؛ وسلطان كبير في قلوبهم وقد كان المشركون ، لا يجدون أمرا يتخذونه تكأة لمخالفة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إلا أنهم يتبعون الآباء ؛ إذ كانوا يقولون كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم : « بل تتبع » « ما ألفينا عليه آباءنا » . وما كان هؤلاء البلغاء الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم قوم خصمون ، يعمدون إلى ذلك الاحتجاج ، إلا لما يعرفونه من تأثير آراء السلف في الخلف ؛ ولو كان الأولون على ضلال ، لا يعقلون شيئا ، ولا يهتدون . وأقوى الأفكار أثرا في النفوس ، ما جاء متصلا .

بآثار السلف ، مؤتلفا معها . قال العلامة جوستاف لوبون : « تقدم » « علم تركيب الأجسام ، من يوم أن بين علم التكوين ، مقدار تأثير » « الماضي في تطور الكائنات ؛ وسيتقدم علم التاريخ أيضا ، حينما ينتشر » « هذا ؛ لأن انتشاره لم يعم ؛ بدليل أن كثيرا من أقطاب السياسة » « لا يزالون على أفكار أهل القرن الماضي ؛ ممن كانوا يتخيلون ، أنه » « يتيسر للأمة ، أن تنخاع عن ما ضيها ، وتذنيء نفسها من جديد » « غير مستهدية في ذلك إلا بنور العقل وحده ، وفاتهم أن الأمة جسم » « منظم ، أوجده الماضي ، فهي كغيرها من الأجسام ، لا تستطيع » « الانتقال من طور إلى طور ، إلا بترك آثار الوراثة فيها على مهل . »

ولذا يحسن أن يقرب الخطيب بين فكرته ، وبين ما أثر عن سلف الجماعة التي يخاطبها ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما دام سلف تلك الجماعة ، لم يشتهروا بباطل ، ولم يعرفوا بسوء ، ومن أحسن

الخطباء الذين سلكوا ذلك المسلك الحسن المصرى ؛ فقد كن فى خطبه
يتجه فى تأييد أفكاره ؛ إلى ما كان عليه الصداقة ؛ رضوان الله تعالى
عنهم ، ومن خطبه فى ذلك قوله : « أيها الناس ، إن لله عبادا قلوبهم
محزونة ، وشروورهم مأمونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوأئهم خفيفة ،
« صبروا الأيام القلائل ؛ لما رجوه فى الدهور الأطاول ؛ أما الليل
« فقائمون على أقدامهم ، يتضرعون إلى ربهم ، ويسعون فى فكاك
« رقابهم ، تجرى من الخشية دموعهم ، وتحقق من الخوف قلوبهم ،
« وأما النهار فخاماء أتقياء أخفياء ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ،
« تخالهم من الخشية مرضى ، وما بهم من مرض ؛ ولكنهم خصصوا
« بذكر النار وأهوالها . لهم والله كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما
« حرم عليكم ؛ وكانوا أبداً بقلوبهم لدينهم ، منكم لانيأكم بأبصاركم ،
« ولهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على
« سيأتكم . أولئك حزب الله ؛ ألا إن حزب الله هم المفلحون . »

٤ - أقوال الأئمة ومن اشتهروا بالحكمة : وذلك باب واسع
من الاستدلال ، يتجه إليه الخطيب ؛ ليحلى به خطبته ؛ فإن لكلام
الحكماء المشهورين ، والأئمة المعروفين روعة ، وهزة فى النفس ، وهى
ثمرات تجاربهم ، ومخزونات أفكارهم ، وهى فى منزلة المسلم بها ؛
وكثير من الخطباء قديما وحديثا ، يبتدئون خطبتهم بحكمة مشهورة ،
أو قول حكيم عرف بالعلم ، والفكر الناضج ، ويكملون خطبتهم
بذلك النوع من الاستدلال . ومن ذلك قول الحسن البصرى فى دعوة

المسلمين إلى التآزر ، والتناصر ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر :
« إن المسلم مرآة أخيه المسلم ، يبصره عيبه ، ويغفر له ذنبه ، قد كان »
« من قبلكم من الساف الصالح ، يلقى الرجل الرجل ، فيقول يا أخى »
« ما كل ذنوبى أبعثر ، ولا كل عيوبى أعرف ، فإذا رأيت خيراً فرفنى »
« وإذا رأيت شراً فانهنى ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول : »
« رحم الله امرأً أهدى إلينا مساوينا . »

ومن أبلغ الكلام الخطابى المشتمل على ذلك النوع من
الاستدلال ؛ وإن لم يجيء فى خطبة قول المسعودى فى حب الأوطان
« إن من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة ، وإلى »
« مسقط الرأس تواقفة . وقد ذكرت العلماء : أن من علامة وفاء »
« المرء ، ودوام عهده ، حنينه إلى إخوانه ، وشوقه إلى أوطانه ، »
« وبكائه على ما مضى من زمانه ، قال ابن الزبير : ليس الناس »
« بشيء من أقسامهم ، أقنع منهم بأوطانهم ، وقال بعض حكماء »
« العرب : ، عمر الله البلدان ، بحب الأوطان ، وقالت الهند : حرمة »
« بلدك عليك ، مثل حرمة أبويك ، لأن غذاءك منهما ، وغداؤهما منه »
« وقال آخرون : أولى البلدان بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه . »
« وقال آخر : ميلك إلى موضع مولدك ، من كرم محبتك . وقال بقراط : »
« يداوى كل عليل ، بعقاقير أرضه ؛ لأن الطبيعة تتطلع بهوائها . »
« وتنزع بغدائها . وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة ، من أنفع أدويتها »
« وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم أرضه ، كما تثوب الجنة ، »
« ببيل القطر ، وللنفوس حنين إلى الأوطان ، وإن لم يطب ماؤها »

« وهو أؤها ؛ ولذا يقول بعض الأعراب يصف وطنه » :
وكنا ألفناها ، ولم تك مألفا وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها هواء ولا ماء ، ولكنها وطن
« ه » الشهادات والمواثيق : وهي الركن الركين للاستدلال في
الخطابة انقضائية ؛ فان الشهادات باب واسع للتقاضى ، وهي طريق
القرائن ، والوسائل لمعرفة الأحوال . وفي بعض القضايا تكون هي
نقطة الحوار ، وسبب الخلاف ، وتباعداً مطارح الأنظار ، هذا يعمل
على تزييفها ، وذاك يعمل على تأييدها .

وأما العهود فقد قال فيها ابن سينا : « إنها شريعة المتعاهدين » ؛
فكلاهما مأخوذ بها . مقيد بالسير في سبيلها ، مفهم إذا قدمت إليه ، أو
ذكر بها ؛ إذ فيها فصل الخطاب ؛ ولذا إذا اتخذها أحد الخصمين
دليلاً ، وكان صادقا ، لحن بالحجة ، ووصل إلى الغاية ؛ ونال المطلوب .

والشهادات والمواثيق من المواضع العرضية ؛ لأنها لم تشتق من
خصائص الموضوع ؛ وذاته ، بل هي أمور خارجة عنه ، مؤيدة له ،
منبثة لصدق الحـكم ، وإن لم تكن من ذات الموضوع ، وليست علة
لوجوده ، ولا خاصة من خواصه .

ومن الخطب العامة التي كانت الشهادة ركنها ، خطبه زياد بن
أبيه ، عند ما شهد الشهود بنسبه من أبي سفيان ، فقد قال : « هذا »
« أمر لم أشهد أوله ولا علم لي بآخره . وقد قال أمير المؤمنين : »

« ما بلغكم ، وشهد الشهود ما سمعتم ؛ فالحمد لله الذى رفع منا ، ما وضع »
« الناس ، وحفظ منا ما ضيعوا ، وأما عبيد ، فأنا هو والد مبرور »
« ورييب مشكور . »

(٦) القوانين : وهى الحجة الأولى فى الخطب القضائية ؛ إذ كلا المتنازعين يجتهد فى أن يتخذ من القانون حجة لا عواه ؛ أو طريقا للخلاص من ورطة الاتهام ، ويريد كلاهما أن يفسره تفسيراً ، يتفق مع غرضه ومقصده ، ومصلحة من نصب نفسه مرافعا عنه . والخطب التى كان القانون محور الاستدلال فيها ، والحجة المنشودة ، والغاية المقصودة كثيرة . وكل مرافعات النيابة ، والمحامين ، من ذلك النوع من الخطب ؛ وتلك الطريقة من الاستدلال

وكانت القوانين من المواضع العرضية ؛ لأنها ليست وصفام لازما الموضوع ، ولا خاصة له ، ولا علة لوجوده ، ولا كنها أمر خارج عنه حاكم عليه ، مرتب على الفعل آثارا حسنة ، أو آثارا سيئة لمن أوقعه . ومن أبلغ الخطب القضائية التى اشتملت على الاستدلال القانونى . مرافعة نائب عام فرنسى فى إثبات الجريمة على رجل متهم بقتل نفسهين إذ قال : « إبنى أمام هاتين الجنتين ، أمام هذين الجرحين الناغرين » « أشعر بالنفور ، والاشمئزاز ، يملأن نفسى ، ويخيل إلى ، أنى أرى » « حول تلك الدار الحزينة ، بجوار ذلك الزوج الذى يدعو زوجته : » « وتلك الطفلة التى تنادى أمها ، فلا تجيب ، مدينة بأمرها ، فى حزن » « شامل عام ، وأرى ذلك المشهد الرهيب الذى تبعه أهل البلد جميعا » « يشاركون أسرة الفقيد فى حزنها ، ولكن لا ، لا ، إبنى أشيخ »

« بوجهى عن هذا المنظر المحزن ، وأخلو إلى نفسى ، أسأئها ، ورائدى »
« مهمتنا المشتركة المقدسة ، وأواجه تبعة خطيرة ، فلا أشعر بأقل »
« شك أو تردد ، وأسمع صوت ضميرى ، يقول لى : إن هذا الرجل »
« مذب ، مذب أمام الله ، ومذب أمام الناس ، ومذب لا عذره . »
« وهذه الجرائم الخطيرة تقتضى عقوبة زاجرة رادعة ، فالعدالة تقتضىها »
« والقانون ينص عليها ، ومصاحبة المجتمع تدعو إليها ، وبقدر ما أنا »
« مؤمن بأننى أؤدى واجبى ، حين أطلب منكم تطبيق تلك العقوبة »
« الكبرى ، أوقن بأنكم تؤدون واجبكم ، حين تنطقون بها »

هذه المواضع العرضية بين يدى الخطيب ، يتجه إليها ، إن لم تجده فى مهمته المواضع الذاتية ، أو وجد هذه أقرب مسلكا من تلك ، وأهدى سبيلا ، وأكثر تأليفا . وقد يجمع بين الطريقتين إن اقتضى المقام ، وساعدت ، الأحوال ، وتهيأت الأسباب .

وعند الاقتصار على العرضية ، يجب أن يختار أحراها بأظهار المطاوب ، وأقربها إلى أفهام الجمهور ، (أن كان مخاطب الجمهور) ، وأحسنها وقعا فى النفوس . ويجب عليه الابتعاد عما يستغلق على العقول إدراكه أو يدع ب فهمه ، إلا إذا كان مخاطب قوما ، تغنيهم الإشارة عن العبارة ، والتلويح عن التصریح ؛ فلا مانع من أن يخاطب بالادقيق العميق ؛ ليكون فى ذلك متعة فكرية لهم . والله ولى التوفيق .

٣- الآداب الخطابية

الآداب الخطابية . هى التى يجب أن يتحلى بها الخطيب ، عند إلقاء الخطبة ، وما يجب أن يتخذه فى سياسة السامعين ، وملاحظة

أحوالهم . وهى على ذلك قسمان : قسم يتعلق بحاله هو عند الخطبة ، وقسم يتعلق بالسامعين ، وما يجب أن يطبله بما أوتى من عقل أريب .
آداب الخطيب الخاصة : به يجب أن يظهر فى الخطيب عند الخطبة
ثلاثة مظاهر : (١) سداد الرأى ، (٢) وصدق اللهجة ، (٣) والتودد
للسامعين .

(١) فأما سداد الرأى ، فيكون بدراسته دراسة تامة للموضوع الذى يخطب فيه ؛ فان الرأى المحكم لا يكون إلا بدراسة عميقة ، وإحاطة تامة ، وإطلاع واسع ، وعلم غزير ، وفكر قوي . وليس معنى ذلك أنه لا يخطب إلا إذا كان محضرا ، مهيئا للكلام ، بل المراد ألا يتكلم إلا فى موضوع سبق له دراسته ؛ والأحاطة به ، حتى يكون كلامه مسددا ؛ سواء أكان يلقي الخطبة بعد تهيئه ، أم يلقي الكلام ارتجالا من غير سابقة تحضير ؛ فان المرتجل لا يحسن ارتجاله ، فى كل الأحوال بل لا يحسن إلا إذا ألقى كلاما قويا فيه آراء محكمة ، ولا يتم له ذلك ؛ إلا إذا كانت له سابقة إطلاع على ذلك الموضوع ، أو ماله به علاقة تمكنه من أن يدلى فيه برأى قيم له شأن ؛ فعلى الخطيب ألا ينحوض فى حديث ؛ ليس له به علم ؛ حتى لا يشط ؛ فيبدى رأيا فطيرا ؛ والرأى الفطير مبتسر لا ينال الحق من كل نواحيه ؛ وقد يكون مع الحق على طرفى نقيض .
ومما يساعد على تكوين الرأى الناضج بعد الدراسة التامة . سلامة الفكر من هم قاطع ، وغم شاغل ؛ لان من شغل بالهم لا يخلص له رأى ولا فكر وقد قال الغزالي . إن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ، ولا يستقيم له خاطر ، وكان كسرى إذا دهمه أمر

بعث إلى مزاربته ، فاستشارهم ، فأذا قصرُوا بالرأى ، ضرب قهارمته ،
وقال : « أبطأتم بأرزاقهم ، فأخطئوا في آرائهم » . وقال بشر بن المعتمر
في وصاياه للخطيب : « خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك »
« وإجابتهما إياك ؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف »
« حسبا ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش »
« الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ، ومعنى بديع » .
فصفاء الذهن ، وصحوة لها أثرهما ، في إحكام الرأى ، وإجادة اللفظ .
من هذا علمت في الجملة ، كيف يتهيأ للخطيب رأى سديد في
الموضوع الذى يخطب فيه ؟ ثم اعلم أن سداد الرأى دعامة الخطب الأولى ؛
لكى يثق الجمهور بفكره ، ويتجه إلى رأيه . ويرى بعض^(١) علماء
الاجتماع أن سداد الرأى ، وقربه من الحق ، ليسا شرطافى تأثير الخطيب ؛
بل يزعم ذلك القائل : أن قواد الجماعات ، وخطباءها يجب أن
تغلب عاطفتهم عقولهم ؛ وأنهم ليسوا إلا مسحورين بفكرة قريبة
من الحق ، أو نائية عنه ، وقد تكون معادية له . ولو سلمنا ذلك
القول ، لكان على الخطيب أن يدرس الفكرة التى يدعو إليها
وأن يحيط بها خبرا ، وأن تكون الجماعة واثقة به ، مطمئنة إليه
معتقدة أن مايقول هو الحق البين ، وإن كان فى الواقع باطلا ؛ فالغاية

(١) زعم هذا الرأى فى «عصور الحديثة جوستاف لوبون قال فى كتابه روح
الاجتماع « ليس القواد غالبا من أهل الرأى . والحصافة بل هم من أهل العمل »
« والافتدام وهم قليلو التبصر على أنهم ليس فى قدرتهم أن يكونوا بصراء »
م - ٧ - خطابه

المنشودة ألا يكون كلامه في ذاته حقاً؛ بل أن يظهر كذلك في نظر السامعين والمظاهر التي ترى الناس أن الأمر حق كثيرة منها: (١) أن يورد الأمر في صيغة جلية واضحة قريبة من أفهامهم؛ بصورة لهم بصور تثير خيالهم، وتوضح لهم المبهم. (٢) وأن يورد الأدلة التي يراها موجدة للجزم في نفوسهم؛ وإن لم توجد الجزم في ذاتهم. (٣) وأن يجتهد في استدراك ما عساه يرد عليه من اعتراض، قبل إيرادها؛ كما قال النائب العمومي في مرافعته في قضية مقتل بطرس باشا غالى؛ وقد توقع أن الدفاع سيطعن في تقرير الأطباء: «لم يكن من» «قصدي، أن أطيل الكلام في الجريمة من حيث ثبوت أركانها؛ فإن» «المتهم سجل على نفسه بأقراره، سواء في التحقيق، أم أمام قاضي» «الأحالة أنه قتل المرحوم بطرس باشا عمداً بعد سبق إصرار على القتل» «والترصد له؛ ولكن الدفاع أسمعنا في الجلسة الماضية ثلاثة وثلاثين» «شاهداً، سمعت شهادتهم، وفكرت فيها، فألنيتها، تحوم من بعيد» «حول نقط يريد الدفاع أن يدرا بها عن المتهم مسئولية القتل من جهة» «خاصة، وتحفظ بها الجناية من جهة عامة؛ فكان لابد لنا من الكلام» «عن هاتين المسألتين، وإن كنا لا نرى هذه الطريقة التي يسلكها» «الدفاع، إلا بعيدة جداً في التأدية إلى هذه الغاية. إذا نظرنا نظرة عامة» «إلى أقوال الأطباء الذين جاء بهم الدفاع؛ ليتوصل بشهادتهم إلى» «إثبات أن الجاني غير مسئول عن نتيجة جنايته (وهي القتل) لا يسعنا» «غير القول بأننا لا يمكننا، أن نجعل لها من الأثر، ما يعارض شهادة» «أطباء الاتهام؛ نحن لا نريد بذلك أن نعرض بكفاءة فريق، وتفق»

«الفريق الآخر عليه فيها ، ولا سيما ما يقال ، من أن هناك أسبابا بعثت»
«إلى هذا الخلف بين الفريقين ، حتى في الأشياء المحسوسة ، فنحن نجل»
«كلا الفريقين ، ونحترم لكل فريق رأيه من الوجهة العلمية» .

٢ صدق اللهجة: وهو أن يظهر الخطيب مخلصا فيما يدعو إليه ،
حريصا على الحقيقة فيما يعمل ؛ فإنه إن ظهر كذلك ، وثق الناس به ،
وصدقوه فيما يدعو إليه ، وأحسوا بأنه شريف ، تحب إجابته ، لشرفه
وشرف ما يدعو إليه ، ومن أجل أن يكون الأخلص باديا ، يجب
أن يكون من حاله ، ما يطابق مقاله ، فلا يتجافى عمله عن قوله ،
بل يكون أكثر الناس أخذا بقوله ، كما فعل طارق بن زياد عندما دعا
جيشه إلى الأقدام على القتال ولو كان فيه الموت ؛ إذ جاء في خطبته .
« وإن انتهز الفرصة فيه لممكنة إن سمحتم لأنفسكم بالموت ؛ وإنى »
« لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص »
« متاع فيها النفوس ؛ إلا وأنا أبدأ بنفسى ، وأعلموا أنكم إن صبرتم »
« على الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرفه الألطويلا » .

ومما يظهر الحرص على الحقيقة ، والاتجاه إليها ، ألا يسرف في مدح
ولا ذم ، ولا في وعد ، ولا وعيد ؛ فإن الأسراف مظنه الكذب ،
والاعتدال مظنه الصدق ، ومن أطلق لسانه بالوعد أو الوعيد ، تخاف
عمله عن قوله ، واستثقل العمل ، حيث سهل عليه القول . ومما يظهر
استقامة العمل الابتعاد عن هجر القول . وقد قال الماوردي في آداب
المتكلم : « أن يتجافى هجر القول ، ومستقبح الكلام ؛ وليعدل إلى »
« الكناية عما يستقبح صريحه ، ويستهجى فصيحته ؛ ليبالغ للغرض ؛ »

« ولسانه نزه ، وأدبه مصون ». وإن نراه اللسان تدل في عرف الجاهير على نراه القلب ؛ واستقامة العمل ؛ لذلك يجب على الخطيب ألا يكون فاحشا في تعبيره ؛ ولا متجها إلى الألفاظ المأجنة في خطبه ؛ لأنه إن فعل ذلك ، دل به على عدم استقامة عمله ، وذلك يمنع صدق لهجته ، وتصديقه في خطبته .

ومن أمثل الخطب الواضح فيها صدق اللهجة خطبة عمر بن عبد العزيز التي قال فيها : « أيها الناس ، الحقوا ببلادكم ؛ فإني أنساكم » « عندي ، وأذكركم ببلادكم . ألا وإني استعلمت عايكم رجالا ، لا أقول » « هم خياركم ، ألا فن ظلمه إمامه مظلمة ، فلا إذن له على ^(١) » « ومن لا يظلمه » « فلا أرينه . ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال ، فأن ضمنت » « به عنكم ، إني إذن لضمنين . والله لولا أن أنعش سنة ، أو أسير بحق » « ما أحببت أن أعيش فواقا ^(٢) »

٣ التودد من السامعين : ويكون بالتواضع لهم ، وأن يكون ممن يألفون ، ويؤلفون ؛ فلا يكون جافيا ، خشنا ، قاسيا . ، وأن يمدح الجماعة التي يخاطبها ، ويذكرها بأحسن صفاتها . وقد قال ابن سينا : « من رحم كان أدنى إلى التصديق ، ومن أحب كان أخلق بأن » « يميل إلى معاونة المحبوب ، ومن مدح ، أو أعجب بنفسه ، كان ميله إلى »

(١) معنى هذه الجملة والتي تليها أن من ظلم يدخل عليه من غير إذن . ومن لم يظلم لا يصح أن يراه لأنه لا يفتح بابه إلا للمظلوم
(٢) الفواق هنا الزمن بين فتحة اليد وقبضتها . والمراد ما أحببت أن أعيش زمنا يسيرا قدر فواق

«مادحه الذى أعجبه بنفسه . وتصديقه إياه أكثر ، ومن أغضب على
«إنسان . كان أخرى أن يكذبه ، ومن تمكنت منه القسوة : كان
«أجدر ألا يدعن للرحمة .»

ويجب على الخطيب فى تودده للجماهير ، أن يبين لهم أنه يسعى
لمصلحتهم ، وأنه يؤثرهم على نفسه ، وأن يظهر أنه لا غرض له شخصي ؛
فأن الغرض إذا ظهر من الخطيب ، جعل الريبة تتطرق إلى قوله .
ومن الخطب التى اجتهد الخطيب فيها فى التودد ، ونفى الغرض الشخصى
عن نفسه ، خطبة يزيد بن الوليد بن عبد الملك التى قال فيها : «أيها الناس»
«والله ما خرجت أشرا ، ولا بطرا ، ولا حرصا على الدنيا ، ولا رغبة فى»
«الملك ، وما بى إطراء نفسى وإنى لظلم لها ، ولقد خسرت إن لم يرحنى»
«ربى ، ولكنى خرجت غضبا لله ودينه ، وداعيا إلى الله وسنة نبيه ،»
«لما هدمت معالم الهدى ، وأطفئ نور التقوى ، وظهر الجبار العنيد»
«المستحل لكل حرمة ، والراكب لكل بدعة ، مع أنه والله ما كان»
«يؤمن بيوم الحساب ، ولا يصدق بالثواب والعقاب ، وأنه لا بن عمى»
«فى النسب ، وكفى فى الحسب . فلما رأيت ذلك استخرت الله فى أمره»
«وسألته ألا يكلنى إلى نفسى . ودعوت إلى ذلك من أجانبي من أهل»
«ولايتى ، حتى أراح الله منه العباد ، وظهر منه البلاد بحول الله وقوته ،»
«لا بحولى وقوتى .»

آداب الخطيب مع السامعين : صناعة الخطيب من شأنها
الاتصال بنفوس من يخاطبهم ، والقرب من قلوبهم ؛ والناس مختلفون
مشارب ، وعادات ، وأخلاقا ، وسنا ، ومهنة ، ومرتبة ، ولكل طائفة

من الناس أحوال ، تقتضى نوعاً من الخطاب ، لا تقتضيه أحوال الجماعة الأخرى ؛ وعلى الخطيب أن يلبس لكل حال لبوسها ، ويعالج كل طائفة بأنجع دواءها ؛ ليستقيم له الطريق ، ويصل إلى غرضه ؛ فالشباب يثير حماسهم ويوقظ قلوبهم ، ويدفع إلى إقناعهم كلام لا يثير عاطفة الشيوخ ؛ لأن المناسب لهؤلاء نوع غيره ، فعلى الخطيب أن يقصد إلى النوع الذى يوافق جماعته شيوخاً ، أو شباباً .

والأغنياء يرضى كبرياءهم نوع من الكلام ، لا يقتضيه مقام الخطبة إن ليسوا كذلك ؛ والعلماء يجتذبهم الثناء الحسن ، وطيب الأُحدوث والتوقير ، والتعظيم ، وأن يكون الكلام الذى يلقى عليهم أقرب إلى العمق ، والدقة ؛ ليسترعى انتباههم فعلى الخطيب أن يعرف ذلك ، ليصل إلى موضع التأثير فى قلوبهم . والشخص الشديد الدين يرضيه السمات ، والوقار من الخطيب ؛ فعلى هذا ألا يظهر بين يديه إلا وقوراً ظاهرة التمسك بالدين وروحه ؛ لكى ينال تقديره ، ويجتذب نفسه . ومخاطبة الرؤساء تقتضى نجماً بالحياء ورزاقاً وهدوءاً وابتعاداً عن مظاهر التعلق المزرى ؛ لكى لا يبتذل ، كما تقتضى ابتعاداً عن أى مظهر من مظاهر التعالى ، وأخذاً بالتألف وحسن المدخل ، وألا يعترض صراحة بل تأميراً إن كنت ما يقتضى الاعتراض كما لا يصح له أن يقر على قبيح بل يذبه فى رفق وفى تؤدة وحذر . وهكذا لكل جماعة نوع من الخطاب ، وعلى الخطيب ، أن يحىء إليها من ناحيته ؛ لتكون معه فيما يدعو إليه وقد قال الفارابى فى إحدى رسائله : « إن أنفع الطرق التى يستأكلها » الخطيب تأمل أحوال الناس ، وأعمالهم وتصرفاتهم ، ماشها ، وما »

« غاب عنها ما سمعه ، أو تنامي إليه منها ، وأن يتعن بالذعر فيها ، ويميز محاسنها »
« ومساوئها وبين النافع والضار لهم منها ، ثم ليجتهد في التمسك بمحاسنها »
« وحض الناس على طلبها ؛ لينالوا من منافعها » ويقول أيضا : « إن الخطيب »
« لا ينجو في جميع متصرفاته من أن يلقى الجمهور ماثلا إلى أمر »
« محمود ، أو آخر مذموم ، وله في كل واحد من الأمرين فائدة »
« وموضع رياضة للتصرف ؛ وهو أن يحاول دفع السامعين إلى »
« ذلك الأمر المحمود الذي يلقاه ؛ إن وجد السبيل إلى الدفع إليه ، »
« وينبهم على فضيائته ، ويوجب عليهم التمسك به ، متى وجد »
« فرصة لذلك . وإذا تلقاه الأمر المذموم ، فليجتهد في التحذير منه ، »
« والتجنيب عنه ، وإن لم يجد إلى ذلك سبيلا ، فلا ينبهم على »
« الاعتبار بمن نالهم مضار مثابها . فقد ظهر أن للخطيب في جميع »
« أحواله جلها ، ودقها ، خيرها ، وشرها ، موضع الرياضة لنفسه ، »
« وإرشاد الجمهور ؛ وإذا تيقن ذلك ، فينبغي أن يقدم على سياسة »
« الأحوال بقلب قوى ، ونية صادقة ، وصدر واسع ، وثقة أن »
« ما يأتيه من ذلك ، وإن قل ، يجدى عليه نفعا مجل » .

فعلى الخطيب أن يدرس الجماعة دراسة عميقة متغلغلة ؛ وأن يعرف
حالتها معرفة الخبير الدقيق النظار ، وأن يكون كلامه على صورة
ملائمة لأخلاقها ، ومألوفها ، وإن كان ما يدعو إليه يتنافى مع طبيعة
الجماعة التي يخاطبها ، اجتهد في التأليف بينهما ، فإن سددت خطاه فيما
أراد ، فهو ممن أوتوا الحكمة ، وفصل الخطاب

صفات الخطيب

وإذ قد بينا لك ما يجب أن يدرك به الخطيب عند ملاقة الجماهير ، وما يجب أن يلاقيهم به ، وجب أن نذكر لك صفات الخطيب الكامل ، أو القريب منه ، التي رسخت في نفسه الخطابة ، حتى صارت ملكة فيه أو كالملاكات ، والتي بمجموعها يمتاز الخطباء عن غيرهم من المتكلمين ، والتي هي مناط القدرة على كل ما يوضع في عنق الخطيب من تكاليف البيان ، وهما هي ذه .

«١» قوة الملاحظة ؛ ليدرك أحوال السامعين عند إلقاء خطبته أهم مقبولون عليه ؟ فيسترسل في قوله ؛ ويستمر في نهجه ، أم هم معرضون عنه ؟ فيتجه إلى ناحية أخرى ، يراها أقرب إلى قلوبهم ، وأدنى إلى مواطن التأثير فيهم . يجب أن تكون نظرات الخطيب إلى سامعيه نظرات فاحصة كاشفة ؛ يقرأ من الوجوه خطرات القلوب ، ومن اللمحات ما تكنه نفوسهم نحو قوله ؛ ليجدد من نشاطهم ، ويذهب بفتورهم ، ولتصل روحه بأرواحهم ، ونفسه بنفوسهم .

«٢» حضور البديهة : لتسعه بالعلاج المطلوب ، إن وجد من القوم إعراضاً ، والدواء الشافي إن وجد منهم اعتراضاً ؛ وقد يلقى الخطيب خطبته ؛ فيعقب بعض السامعين معترضاً ، أو طالباً الأجابة عن مسألة ؛ فإذا لم تقدم البديهة الحاضرة كلاماً فيما يسد به الخلة ، ويدفع به الزلة ضاعت الخطبة ، وآثارها . يروى أن عتبة بن أبي سفيان بعد أن ألقى خطبة بمكة ، صاح به أعرابي ، فقال : أيها الخليفة ، فقال لابه ، ولم تبعد فقال : يا أخاه ، فقال سمعت ، فقل . فقال : تالله إن تحسنوا ، وقد أسأنا

خير من أن تسيئوا ، وقد أحسننا ، فإن كان الإحسان لكم ، دوننا فما أحقكم باستقامه ، وإن كان منافاً أولاً لكم بمكافأتنا . رجل من بني عامر ابن صعصعة يلقاكم بالعمومة ، ويمت إليكم بالخئولة ، قد كثره العيال ، ووطئه الزمان ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر . فقال عتبة : أستغفر الله منكم ، وأستعينه عليكم ؛ قد أمرنا لك بغناك ، فأيت إسرأعنا إليك يقوم بأبطائنا عنك . فانظر إلى الجواب المسدد الذي هيأته البديهة الحاضرة ، ولولا المسارعة به لذهب أثر الخطبة ، ومهابة الخطيب

(٣) طلاقة اللسان : اللسان أداة الخطيب الأولى ؛ فلا بد أن

تكون الأداة سليمة كاملة ؛ ليتسنى له استعمالها على أكمل وجه وأتمه ؛ وزلاقة اللسان ، وذربه عنوان الفصاحة ، وطريق البلاغة ، وقد بالغ الناس في مكانها ، حتى عدها بعض المتسامحين ركن الخطابة الوحيد ، وجعل غيرها بالحل الثاني . ونحن وإن كنا لانوافق صاحب هذا القول ، نعد طلاقة اللسان من أئزم صفات الخطيب ، وأشدّها أثراً في انتصاره في ميادين القول .

(٤) رباطة الجأش : يجب أن يقف الخطيب مطمئن النفس ، غير مضطرب ، ولا وجل ، والا لم يستطع ملاحظة السامعين ، وأثر كلامه فيهم ، وهم إن أحسوا بضعفه ، واضطرابه ، صغر في نظرهم ، وهان هو وكلامه في أعينهم ؛ فلا يستطيع إثارة حماسهم ، ويذهب كلامه هباءً منثوراً ؛ والاضطراب يورث الحيرة والدهش ؛ وقد جاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري : « الحيرة والدهش يورثان

الحبسة والخصر ، وهما سبب الأرتاج والأفحام».

(٥) القدرة على مراعاة مقتضى الحال : مراعاة مقتضى الحال لب الخطابة ، وروحها ؛ فكل مقام مقال ، ولكل جماعة من الناس لسان تخاطب به ؛ فالجماعة النائرة الهاشجة تخاطب بعبارات هادئة ؛ لتكون بردا وسلاما على القلوب . والجماعة الخنسة الفائرة ، تخاطب بعبارات منيرة للحمية ، موقظة للهمم ، حافزة للعزائم . والجماعة التي شطت ، وركبت رأسها تخاطب بعبارات فيها قوة العزم ، ونور الحق فيها إرعاة المنذر ، ويقظة المنقذ ، واعتزامة الأيد القوي ، وفيها روح الرحمة ، وحسن الأتيار ؛ ليجمع الترهيب مع الترغيب ، ومع سيف النعمة ، ريحان الرحمة ؛ لذلك وجب أن يكون الخطيب قادرا على إدراك حال الجماعة وما تقتضيه ، والأتيان بالأسلوب الذي يلائمه .

وهذه الصفات الخمس لا يعد الخطيب خطيباً إذا لم تكن فيه كاملة ؛ وأما الصفات الآتية فتفاوت فيها أقدار الخطباء بمقدار ما ينالون منها . وهي هذه

(١) قوة العاطفة : لا يؤثر إلا المتأثر ، ولا يثير الحماسة في قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه ، واعتقاداً بصدقه ؛ لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان ؛ وكما أن الماء الذي علا سطحه ، ينساب في المجرى المنخفض ، كذلك ذو العاطفة العالية ، والحماسة الشديدة ، هو الذي ينحدر من فيه الشعور ألقاظاً ، والعواطف عبارات وأساليب ؛ تلهب الحس ، وتوقظ النفس ، وتثير الحمية ، وتحفز الهمة . لا بد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من

حاسة سامعية ؛ ليفيض عاينهم ، ويروى غلتهم ، وإلا أحسوا بفتور نفسه ؛ فضاع أثر قوله .

(٢) النفوذ وقوة الشخصية : وهى هبة من الله ، يهبها بعض الناس ؛

ترى كل من يلقاه يحس بقوة روحه ، وعظم نفسه ؛ فتستمد كلماته من نفسه قوة ، نظراته شعاع ينفذ الى القلوب ، وصوته يهز النفس هزات روحية ، تجعلها تلقف عباراته ، فتنتطبع فيها مكبرة . وإذا وهب الله خطيباً تلك الروح ، قاد الجماهير ، وساقها بعصا موسى ، فلا تشرد منه شاردة ، ولا يتخلف عن قافلة الجماعة السائرة إلى الامام بهديه متخلف ، فهى كما ترى صفة للنوع الكامل من الخطباء ، وقد آتى الله بعض خطباء العرب أشطراً من هذه القوة ، كأكرم بن صيفى فى الجاهلية وأبى بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، والحسن البصرى فى الإسلام ، وناعميك بما كان عاينه النبى صلى الله عليه وسلم من قوة الروح فذلك نور النبوة ، وعبقرة قدسية ، وقبس ربانى .

(٣) أن يكون ثقة : إذا اشتهر الخطيب بسوء أو بنقيض ما يدعو

إليه كان من حاله لسان يناقض مقاله ؛ فيضعف تأثيره ، ولا يصل إلى قلوب الناس تفكيره ، ويشك السامعون فى قوله ، ويرتابون فى صدقه ولا بذهب بروح الخطبة شئ أكثر من الارتياب فى نية الخطيب ، والتشكك فى طويته ؛ فأريب معول يهدم أثر البيان هدماء ، وينقض ما يفضل الخطيب بقوة أنكاثا . والخطيب الذى لم يمنح الثقة ، عاينه عملان مرتقاها صعب : عاينه أن يجتهد فى جلب الثقة ، ودون ذلك خرط القتاد ، وعاينه بعد ذلك أن يسوق كلامه فى صورة محببة مثيرة ؛

وذلك في قدرته ان تمكن من الأول .

(٤) التجمل في الشارة والملابس : قال أستاذنا الشيخ محمد المهدي

« بلل الله ثراه : « هذا وإن لم يكن من الصفات التي تقوم عليها الخطابة »
« أمرت بحب العناية به ؛ لأنه مطمح الأنظار ، والنظر يفعل في القلب »
« كما يفعل الكلام في السمع ؛ فهو من هذه الناحية لا ينقص اعتباره »
« عن اعتبار الصفات الأصلية ؛ ألا ترى أن معاوية لما رأى النخار »
« مرتديا عباءة رثة ، أنكر مكانه ، وهيبته ، حتى اضطر النخار »
« إلى أن يقول : « إن العباءة لا تكامك إنما يكامك من فيها » .

(٥) سعة الاطلاع : قال أستاذنا المهدي رحمه الله : « إن الخطابة ليس »

« لها موضوع خاص تبحث عنه ، وهو بمعزل عن غيره ، بل ترتبط »
« بكل شيء من شئون الناس في دينهم ، ودنياهم . ومسالك القول فيها »
« متشعبة ، كتشعب مسالك الكتابة ، فكما يكون الكاتب »
« ملما بكل صنف من صنوف المعارف ، كذلك يكون الخطيب » .
« والواقع أن الخطيب سواء أكان اجتماعيا أم سياسيا ، أم دينيا ، أم شوريا ، يجب »
« أن يكون ملما بكل ماله صلة بالجماعة التي يخاطبها ؛ ليعرف نواحي التأثير ، »
« والمواطن التي يطرق حسها من ناحيتها ؛ فالخطيب الديني يجب أن يكون ملما »
« بالاجتماع ، والاقتصاد ، والسياسة ، والشرائع ؛ ليستطيع أن يصل إلى »
« قلوب السامعين ، بربط صلاحهم الدنيوي في كل نواحيه بصلاح دينهم »
« وقلوبهم . والخطيب الاجتماعي يجب أن يكون عالما بدين الجماعة التي »
« يخاطبها ؛ لكي لا يصدر عنه ما ينافيه ، فتنفر منه القلوب ، وهو يعمل »
« على استدنائها . وهكذا كل خطيب يجب أن يكون ملما بكل »

ماله صـلة بالجماعات ، وطرق التأثير فيها ، والابتعاد عما ينفرها ،
لكيلا يجعل قلوبها عنه متجافية .

العيوب البيانية

وإذ قد بينا صفات الخطيب ، يجب أن نبين العيوب التي تتمصل
بالبيان ، لكي يعتمد مرید الخطابة إلى معالجتها ، إن كانت فيه وكانت
المعالجة في استطاعته

وهذه العيوب ثلاثة أقسام :

القسم الأول يتعاقب ببيان المراد ، والوصول إلى الغرض ، وهو
ما كان منشؤه عدم السير على قوانين الخطابة ، وعدم ملاحظة فن
الألقاء ، كعدم مراعاة مقتضى الحال ، أو عدم انتظام الأشارات ، أو
النقص في إثارة حماسة السامعين ، وكون الصوت عند الألقاء جاء
مطرداً على وتيرة واحدة ، من غير أن يكون مصوراً للمعاني تمام
التصوير ، وكالسرعة الزائدة . وهذه كلها يكفي في الابتعاد عنها المعرفة
التامة بأصول هذا العلم ، وحمل النفس على الأخذ بها ، والاسترشاد
بهديها ، والمران ، والممارسة

القسم الثاني عيوب النطق : وهي كثيرة . وأكثرها شيوعاً :

اللثغة ، والتممة ، والفأفة ، واللفف ، والحبسة

ولنتكلم على كل منها ثم نذكر بعض الطرق لمعالجتها ، إن كان
ذلك في الأمكان .

أما اللثغة فهي تعذر النطق بحرف ، والنطق بحرف آخر
بدله . وقد بين الجاحظ الحروف التي دخلتها اللثغة فضل بيان .

وهذا ما يكتبه بتصرف واختصار قليابين : « الحروف التي تدخاها »
 « اللثغة أربعة أحرف : القاف ، والسين ، واللام ، والراء . فأما التي على »
 « الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط ، لأنه ليس من الحروف »
 « المعروفة ، وإنما هو مخرج من المخارج ، والمخارج ، لا تحصى ولا »
 « يوقف عليها . . . واللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء ، كما »
 « يقولون بثرة ، إذا أرادوا بسرة ، وبأثم الله ، إذا أرادوا باسم الله . »
 « وأما اللثغة التي تعرض للقاف ، فإن صاحبها يجعل القاف طاء ، فإذا »
 « أراد أن يقول : قلت . قال : طلت . وإذا أراد أن يقول : قال لى . »
 « قال : طال لى . »

« وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول »
 « بدل قوله : اعتقلت : اعتييت ، وبدل جل جلى »
 « وأما اللثغة التي تقع في الراء ، فإن عددها يضعف على عدد »
 « لثغة اللام ، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف : فمنهم من إذا أراد »
 « أن يقول : عمرو وقال عمى ، فيجعل الراء ياء ، ومنهم من إذا أراد أن يقول : »
 « عمرو قال : عمغ ، فيقلب الراء غينا ، ومنهم من إذا أراد أن يقول : عمرو »
 « قال : عمذ فيجعل الراء ذالا ، وإذا أنشد قول الشاعر »

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

قال : واستبدت مدة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

« ومنهم من يجعل الراء ظاء »

« وأما اللثغة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء ، وسليمان بن »
 « يزيد العدوي الشاعر في الراء ، فليس إلى تصويرها سبيل . هذا ما »

يقال في اللغزة بالأجمال.

وأما التمتمة فهي التمتع في التاء ؛ ويقال إن كانت فيه هذه الحال تمام

والفأفة هي التمتع في الفاء ؛ ويسمى من كان فيه هذا العيب فأفاء قال الشاعر :

لست بفأفاء ولا تمام ولا كثير الهجر في المناء
وأما الالف فقد قال فيه أبو عبيدة إنه إدخال بعض الكلام في بعض ، ومن كان كذلك سمي ألف .
وقد قال الشاعر :

كان فيه لففا اذا نطق من طول تحببهم وأرق
وقد قال بعض الباحثين إن منشأ هذا العيب في بعض الأحوال أن الألفاظ بسبب سمة المخيلة تسبق القصد ، فالتكلم يستعمل اللفظ ثم يتركه إلى سواء قبل أن يتم تكونه .
وأما الحبسة فهي ثقل النطق على اللسان ، من غير أن يتردد في حروف بعينها كالفأفاء ، والتمام ، وقد يكون السبب في ذلك عدم وضوح ما يريد أن يقوله ، أو الحياء والخجل .

هذه العيوب كلها قد تكون ناشئة بسبب عارض جثماني أصاب الجسم ، كاللغزة التي تكون بسبب فقد بعض الأسنان ؛ أو بعض حركات يكون لها أثر في أعصاب اللسان ، وكأنها شديدة للأعصاب كتملك الحال التي وصفها الشاعر في الالف الذي كان منشؤه الهم ، والأرق . والتعيبس . وعلاجها في هذه الحال يكون أولا بعلاج ذلك

العارض والطب له ، عند الأطباء من دواء .

وإذا لم تكن هذه العيوب مما يتناولها علم الأطباء فبعضها يتعذر التخلص منه كاللثغة الفاحشة التي تكونت في الصغر ، ونمتها العادة ، وصليت بكبر السن ، فإن المعالجة حينئذ تكون فوق الأمكان ، وأعظم من استطاع الإنسان ، وإن كان في قدرة الخطيب القادر المالك لعنان القول سترها ، كما فعل ديموستين في لثغته ، فقد كان يسمى إلى سترها بوضع حصى في فيه عند الكلام ؛ ليكون مخرج الرائ على حقيقته ، وكما فعل واصل بن عطاء ، فقد حذف الرائ من كلامه حذفاً تاماً ، لما تعذر عليه الأغلاق عن لثغته .

وقد قال الجاحظ في شأنه . « ولما علم واصل بن عطاء أنه ألتغ »
« فاحش اللثغ ؛ وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذ كان داعية مقالته ، »
« ورئيس نحله ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل ، وزعماء الملل ، »
« وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وأن البيان »
« يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب وريضة ، وإلى تمام الآلة ، »
« وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج ، وجهارة المنطق ، وتكميل »
« الحروف ، وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة »
« كحاجته إلى الجلالة ، والفخامة ، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به »
« القلوب ، وتنشئ إليه الأعناق ، وتزين به المعاني . وعلم واصل أنه »
« ليس معه ما ينوب عن البيان التام ، واللسان المتمكن ، والقوة »
« المتصرفة ؛ كنحو ما أعطى الله نبيه موسى من التوفيق والتسديد »

« مع لباس التقوى ؛ وطباع النبوة ؛ رام أبو حذيفة ^(١) إسقاط الرأى من »
« كلامه ، وإخراجها من حروف منطقته ، فلم يزل يكابد ذلك ، ويغالبه ، »
« ويناضله ، ويساجله ، ويتأقنى لستره ، والراحة من هجنته ، حتى انتظم »
« له ما حاول ، واتسق له ما أمل ، ولولا استفاضة هذا الخبر ، »
« وظهور هذه الحال ، حتى صار لغرابته مثلاً ، ولظرافته معلماً ، لما »
« استجزنا الأقرار به ، والتأكيده ، ولست أدنى خطبه المفوطة »
« ورسائله المخددة ؛ لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت حاجة »
« الخصوم ، ومناقلة الأء كفاء ، ومفاوضة الأخوان . »

فاللغة التي تكونت بمضى الزمن ، ولم تعالج قبل استقرار العادات
من المتعذر الأقلع عنها إقلاعاتاً ^(٢) وإذا كان ذلك كذلك ، فليجهد في
سترها ، بالأقلال من الألفاظ التي تظهر عيب لسانه . ولا نطالبه بما
أخذ به واصل نفسه ؛ فإن ذلك فوق طاقة إنسان غير ممتاز ، ولكن
لا نكافه شططا إذا طالبناه بأن يتجنبها في الخطب التي يكتبها قبل
إلقائها .

وإن اللغة العربية من أغزر اللغات ألفاظاً ، وأكثرها
مترادفاً ، وبعيد أن ترى معنى ليس له عدد من الألفاظ يدل عليه

(١) كنية واصل بن عطاء (٢) يقول الجاحظ في لغة الرأى التي تقلبها غينا
(وأما التي على الغين فهي أيسرهن . ويقال إن صاحبها لو جهد نفسه جهده
وأخذ لسانه وتكلف مخرج الرأى على حقها والاف فصاح بها لم يكن بعيداً أن
تجيبه الطبيعة .)

دلالات خطابية .

هذا ويجب على المصاب باشعة فاحشة أن يجتهد أيضا في تخفيفها ؛
فأن ذلك في قدرته ، وإن كان عاجزا عن محوها محوا تاما ، والرياضة
تسهل الصعب ، وتجعل البعيد في قدرة المتناول .

أما ماعدا الالتماع من العيوب السابقة ، فلأرادة دخل عظيم في
معالجته ، وليس من شك في أن الرياضة البيانية ، تفيد أكبر فائدة ،
وخصوصا إذا لوحظ أن أكثر هذه العيوب ، سببه السرعة في الكلام ،
وعدم التروى والتدقيق ، والحجل في الصغر ، والكبر قد زادها رسوخا
وقوة ؛ فعلى المتكلم الذي يروض نفسه أن يباعد الحياء في المقامات البيانية ؛
فأنه فيها عجز وضعف لا يليقان ، ولا يستحسنان ، وأن يأخذ نفسه
بالتأني ، والتوقف ، والتثبت عند القول ، وأن يقصد إلى كل كلمة
قصدا خاصا ، كأنها المراد من بيانه ، والغاية المقصودة من كلامه ،
وإذا اعتراه عيبه ، سكت حتى تعود إرادته مسيطرة سيطرة تامة ،
ثم ينطق بالكلمة ثانية . وإذا أخذ نفسه بتملك المزاولة حيناً بعد حين ،
وكرر تلك الممارسة وقتاً بعد آخر ، وواتته طبيعته ، وأعانته الفطرة
القوية ، انتصر على هذه العيوب . فالتأني في النطق يفيد في هذه
العيوب عموما ، واللفف خصوصا ؛ فأن المتكلم إذا أخذ نفسه به ،
وحملها عاياه ، كان النصر من نصيبه حتما . يحكى أن مطربا كان به لفف
أخذ نفسه بمعالجته بالتأني والتروية ، حتى صار لا يظهر في تغريده ،
ولكن إذا تحدث ، أو تكلم ، ظهر واضحا ؛ لأنه إذا تحدث لم
تحكم إرادته ؛ لعدم الحاجة إلى ذلك ، فتنساب نفسه ، ويظهر

عيبه ، وإذا غنى حكمت إرادته فأخفى عيبه ، واستمرت الحال كذلك ، حتى كان الأتخفاء عادته في غناه دون حديثه ؛ فالرياضة هي العماد في درء هذه العيوب ، والأرادة هي السلاح الوحيد الذي يقيم به حربا عوانا عليها ، نتيجتها الفوز حتما ، مالم يقل ذلك السلاح ، أو يلقي في غمده .

القسم الثالث العيوب الصوتية : كأن تكون رنات الصوت مزعجة

أولا تكون من القوة بحيث تسترعى الانتباه ، أو يكون بالخطيب ضيق تنفس ، بحيث لا يستطيع أن يقول كلاما مفيدا ، من غير أن يقطع النفس بيانه ، ويفسد عليه استرساله . وهذه العيوب بعضها يعالج بالمران ، وبعضها يستعان عليه بالطب مع المران . وقد كان قدماء اليونان يعنون عناية خاصة بتربية الصوت ، ويجعلونها فنا قائما بذاته ، له أساتذة ، قد خصصوا لدراسته ، يربون الشبيبة على السيطرة على أصواتهم ، والغلب عليها ، ليجعلوا رناتها ملائمة للمقامات البيانية المختلفة ، وليجعلوا من المران دواء للعيوب الصوتية . وأدل شيء على أن المران له الأثر الواضح في معالجة تلك العيوب حال ديموسين ، فقد كان ضعيف الصوت ، فلما أراد أن يكون خطيبا ، راض نفسه ، فأخذ يقوى رثتيه ، وصوته بالصياح ، وهو يصعد الجبال الوعرة ، أو على ساحل البحر محاولا أن يكون صوته أعلى من صخب الأمواج ، وقد كان له ما أراد بتلك المحاولات

وستتكم على الصوت كلاما أوسع من هذا عند الكلام على
الأتقاء

إثارة الأوهاء والميول

مقدمة في الإقناع الخطابي

مرمى الإقناع الخطابي ليس هو الأُلزام والاضطحام فقط ، بل مرماه حمل المخاطب على الأذعان والتسليم وإثارة عاطفته ؛ وجعله يتعصب للفكرة التي يدعو إليها الخطيب ، ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الاقتضاء ؛ ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية ، تساق جافة ، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية ، بل بذلك ، وبإثارة العاطفة ، ومخاطبة الوجدان وإن الخطيب قد يستغنى عن الدلائل العقلية ، ولا يمكنه في أية حال الاستغناء عن المثيرات العاطفية ، بل إن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على المراد منهم مخاطبة وجدانهم ، والتأثير في عواطفهم . جاء في كتاب الآراء والمعتقدات : « مع قلة اطلاعنا على سنن المنطق العاطفي ، فإن الاستقراء » « يدلنا على بضع قواعد يستعملها أعظم الخطباء في أغلب الأوقات ؛ » « إذ أنهم بدل أن يقضوا أوقاتهم في تنظيم الأدلة ، وتنسيق البراهين » « التي إن أقنعت ، لا تؤثر في السامعين ، يحركون بالتدريج » « ساكن هؤلاء السامعين بضروب المؤثرات التي يتفننون في تنويعها » « لعلهم أن ما يوجدده أحد المحرضات من تأثير لا يلبث أن يهين ، » « وينفذ . وهم باستدراج لبق ، وكلمات ساحرة وصوت عذب » « يكونون جوا عاطفيا ملائما لقبول استنباطاتهم » . وترى من هذا أن الخطيب الذي يخاطب الجماهير لا يعول في خطبه على المنطق بمقدار

مايعول على خلق جو عاطفى مهياً لقبول مايقدم له من آراء .
(٢) وإن أكثر علماء الاجتماع يذهبون إلى أن الجماعة تقبل
الدلائل العاطفية الوجه-دانية ، ولا تملمها ، ولا تقبل البراهين العقلية بل
تسامها ؛ إذ أن الذى يظل الجماعة المتحدة المشاعر والأهواء-العاطفة ؛
لا العقل ؛ ولو كان أحادها من ذوى الفكر الصائب ؛ والعقل الناضج ؛
فأن هؤلاء إذا انضوا تحت لواء الجماعة ؛ غلب عليهم روحها العام ،
وسرت إليهم عاطفتها ؛ واستولت عليهم مشاعرها . ولقد قال بعض
الباحثين فى أحوال الجماعات إن الخطيب : إذا خاطب العاطفة أَرْضَى
ثمانين فى المائة من السامعين ؛ وأثار اهتمامهم .

وقال جوستاف لوبون فى كتابه روح الاجتماع : « إن البراهين »
« والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات ؛ ولهاذا كان الخطباء الذين »
« يعرفون كيف تتأثر إنما يخاطبون شعورها ، دون العقل ؛ لأنه لا »
« سلطان لقواعد المنطق عليها ؛ فلاجل إقناع الجماعة ، ينبغى الوقوف »
« أولاً على المشاعر القائمة بها ، والتظاهر بموافقتها فيها ؛ ثم يحاول »
« الخطيب تعديلها بموازات صغيرة عادية ، تشخص أمامها صوراً »
« مؤثرة . وينبغى أن يكون قادراً على الرجوع القهقرى ، متى وجد »
« المقتضى ، وأن يتفرس فى كل لحظة أثر كلامه فى نفوس السامعين »
« حتى يغير منه كلامست الحاجة . وهذه الضرورة التى تلجىء الخطيب »
« إلى سرعة تغيير الكلام بحسب الأثر الحاصل فى نفس السامع هى »
« التى تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل ؛ لأن الخطيب »
« يتبع فى هذه الحالة سلسلة أفكاره ، لا حركة فكر سامعية ؛ فلا يكون »

« لكلامه أقل تأثير فيهم . أما المنطقة فلا تنهم تعودوا الاقتناع بالأدلة »
« المسألة الدامغة : لا يمكنهم الخروج عن عاداتهم هذه إذا خاطبوا »
« الجماعات ؛ لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم » .
من هذا السياق تعرف مقدار العاطفة في التأثير الخطابي ؛ وأنها
قطب الرحى في الاقتناع الذي يصبو إليه الخطيب ، ويجعله هدفه الذي
يصبو إليه سبامه .

وإذا كان ذلك كذلك كان من الواجب أن يجعل الخطيب الركن
الركين في خطبته العمل على إثارة الأهواء والميول ؛ وكان من اللازم
عائنا ونحن نبحث في أصول الخطابة أن نقدم أريدها طرائق للوصول
إلى عاطفة الجماهير ، ومخاطباتها ، وتهيئتها لما يريد من غرض ، وهما نحن
أولاء آخذون في بيان ما يتيسر الأخذ به منها .

قواعد عامة لاثارة الأهواء والميول

ان طرق الاتصال بقلوب الجمهور من السامعين كثيرة متشعبة ،
وكثير من الخطباء يساءلها بركانه نفسه ، وقوة قريحته ، وحسن
استعداده ، وصداق إحساسه ، وقوة فرائسته ؛ فلا يحتاج الى تبين
مبين ، ولا تذكر مذكر ، ولكن ذكرها يفيد الشادى ، وينير السبل
أمام الاستعداد القوى ، ويجعله على بينة من أمره .

وهذه الطرق مع تشعبها ، ترجع إلى أمور أعظمها أثراً ،
وأوضحها مظهراً .

(١) الاعتقاد بصدقة ما يدعو إليه ؛ يجب أن يكون الخطيب

شديد الثقة بقوله ؛ فلا يكون مضطرباً خائر النفس غير قوى الإيمان

والإسرى ذلك الضعف إلى سامعيه ؛ فإنه لا يؤثر إلا المتأثر ، وما كان من القلب يصل إلى القلوب . تكلم رجل عند الحسن البصرى بمواعظ جمة ، وممان تدعو إلى الرقة ، فلم ير الحسن قد رق ، فقال الحسن : إما أن يكون بنا شر ، أو بك ؛ يشير إلى أن النفس مطمئنة الوائقة بما تقول المذعنة له ، لا بد أن يصل كلامها إلى شغاف القلوب ، ما لم يكن المخاطب في قلبه شر يمنعه من السماع ، وإجابة داعي الحق ، والاطمئنان إلى قول القائل ، ويقول بعض علماء الاجتماع إن إيمان الخطيب كجبال الجاذبية التي تجذب إليه الجمهور ، وتوثق عرالتأثير بينهما ، فأى شك أو ضعف في إيمانه يقطع تلك الجبال ، فينفذ الجمهور من حوله . وقد قال العلامة جوستاف لوبون في كتابة روح الاجتماع في وصف قائد الجماعة وخطيبها : « إنه يكون مسحورا بالفكرة التي صار يدعو » « إليها ، حتى استولت على نفسه استيلاء لا يرى معه إلا ما كان منها ، » « وأن كل ما خالفها وهم باطل ، كما جرى للزعيم « روبسبير » أسكرته » أفكار روسو ، فقام يدعو إليها » وقال بعد بيان أن ضعف الأيمان تأثيرهم سريع الزوال : « أما أصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا » « من نفوس الجماعات ، وحركوها ، مثل (بطرس الراهب) ، ولوثر ، » « و (سافونا رول) ، ورجال الثورة الفرنسية ؛ وغيرهم ؛ فانهم لم » « يتمكنوا من خاب العقول ، واجتذاب الأرواح ، إلا بعد أن » « سكروا بخمر المذهب الذي اعتقدوه ؛ وبذلك توصلوا إلى توليد » « تلك القوة الهائلة في النفوس ، وهي التصديق الذي يجعل المرء عبداً » « لخياله » . فترى من هذا كيف كانت قوة اعتقاد الخطيب من أسباب

إثارة عواطف السامعين لقوله . وفي الحق إن قوة الاعتقاد تكسب الكلام حرارة، والصوت رنات مؤثرة، والألفاظ، قوة، والمعاني روحاً، وتجعل من الملامح والنظرات نوراً يشع شعاعاً، يصور ما في القاب من إيمان قوى، وإخلاص عظيم، وكل هذا يخلق جواً عاطفياً حول الخطيب، يجعل كلامه متصلاً بالوجدان .

٢ - المشاركة الوجدانية قال مكدر جل في بيانها: « إنها الحالة »
« الانفعالية أو الوجدانية التي تكون عند الأنسان إذا وجد »
« إنساناً آخر متأثراً، فتجعله يشعر بنفس شعوره، كما لو انتقل هذا »
« الشعور بطريق العدوى » .^(١)

فيجب أن يحس الخطيب بأحاساس الجماعة، ويشعر بشعورها، يغضب لما يغضبها، ويفرح لما يفرحها، ويحزن لما يحزنها، ويسر لما يسرها آلامها وآلامه، ومصائبها ومصائبه؛ ليكون الاتصال الروحي أداة تأثير فيها، ويستخدمه في استفزاز مشاعرها أو تهدئة تأثرتها، وليلبي عليها ما يريد من آراء؛ إذ أن ذلك الاحساس المشترك بينهما يجعله قادراً على إثارة ميولها، وإصابة أهوائها^(٢) ودفعها لما يرمى . وإذا رأى الجماعة متحسسة لا مريراه باطلاً؛ لا يفجئها بالمخالفة؛ ولا يصددها بالمعارضة؛ لأن ذلك يبعد عواطفها عن عواطفه، وميولها عن ميوله،

(١) من كتاب في علم النفس للأستاذة حامد عبد القادر. ومحمد عطيه الابراشي
ومحمد مظهر سعيد

(٢) لعل هذا هو المراد في أن الذين يعيشون ارسقراطيين ليس منهم
خطباء إلا نادراً

بل يسايرها ، حتى تلوح له الفرصة : ويرى أنه قد استدرجهم إلى ما يبغي ؛ فيهجم بفكرته ، وذلك ليكون الحبل بينه وبينها ممدودا ، ولا تتقطع الأسباب ؛ فيذهب التأثير . ذكر الدكتور جوستاف لوبون حادثة راها في أثناء الحرب السبعينية فقال : « رأيت ذات يوم أناسا »
« يسوقون أحد قواد الجيش العظام إلى سراى اللوفر ؛ حيث مقر »
« الحكومة ، والناس أكداس من حوله ؛ يزجرون ؛ ويتميزون »
« غيظا ، وهم يتهمون به بأنه كان يأخذ رسم أحد المعامل ؛ ليبيعه »
« للبروسيين ، فلما وصلوا به ، خرج أحد أعضاء الحكومة ، وكان »
« خطيبا ذائع الصيت ؛ ليخطب في الناس ، وهم ينادون : الموت ، الموت »
« عاجلا ، وكنت أنتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة ؛ بقوله : »
« إن الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون ، وإن »
« رسومها تباع في المدينة عند جميع باعة الكتب ، غير أنني بهت ؛ »
« إذ سمعته على تقيض ما ظننت يقول ، وهو يتقدم نحو الجموع : سيأخذ »
« منه العدل أخذاً لارحمة فيه ؛ فاتركوا حكومة الدفاع عن الأمة ، »
« تم التحقيق الذي بدأتموه ، وسنزجه في السجن حتى حين . قال »
« هذا ؛ فرأيت الثورة قد سكنت ، وتفرق الجمع ، ولم يمض ربع ساعة »
« حتى كان الفريق في داره ، ولو أنه خاطبهم بما جال بخاطري من »
« الأدلة المنطقية التي اعتقدتها دامغة ، لمزقوه إربا . » فانظر إلى الخطيب اللبق كيف أدرك أن مصادمة الجماعة قد تذهب بحياة قائد عظيم من قواد الدولة ، فلم يفعل ، وأظهر الموافقة ؛ فتم له ما أراد . ومما يصح

الاستشهاد به في هذا المقام ؛ لأنه صورة واضحة لاستخدام المشاركة
الوجدانية وسيلة لتنفيذ المراد تصوير شكسبير لجماعة من الرومانيين
في موقفهم من مقتل يوليوس قيصر ؛ فلننقل لك بعض ذلك الفصل ^(١) ،
وهو ما جاء على لسان أنتوني في رثاء يوليوس قيصر مع الثناء على
بروتس قاتله فقد قال : « أيها الرومان ، بني وطني ، أعبروني أسماعكم ؛ »
« فاني ما جئتكم للتمدح بقيصر ومناقبه ، ولكن لأواريه »
« لحده ، وأهيل عليه التراب ؛ فقد جرينا على أن ما يعمل الإنسان »
« من شر يخلفه ، وما يعمل من خير يرسم معه ؛ في غمار الرمم ، »
« ولقيف الرفات ، وهذا شأن قيصر معنا اليوم ، نتناسى مناقبه ، »
« ونعدد معايبه ؛ قال لكم بروتاس ، وهو رجل الشرف الصميم : »
« إن قيصر فيه طمع ، فاذا كان كذلك ، كان ذنبه يوجب الأسى »
« والأسف ، كما كان جزاؤه أدعى للحزن والشجن . إني أقف بينكم »
« الآن في جنازة قيصر بأذن من بروتاس ، وهو رجل النبل »
« والفضل ، وبأذن زملائه الآخرين ، وكلهم مثله أجلاء فضلاء ، »
« ولكن قد كان لي في قيصر صديق حميم ، وبر كريم ، لم أعهد فيه »
« الطمع الذي يرميه به بروتاس رجل الفضل والشرف . »

« أنا كم قيصر بالأسرى مكباين ؛ فلأت دياتهم بيت المال ؛ فهل »
« كان في عمله هذا ما ينبيء عن طمع . كان قيصر يبكي شفقة ورحمة »
« كلما ذرفت الفقراء دموع الفاقة والأملاق ؛ وعهدى بذى الطمع »
« أخشن طبعاً ، وأغلظ كبداً ، ولكن بروتاس يقول إنه ذو طمع ، »

(١) من تهريب رواية يوليوس قيصر للاستاذ محمد حمدي بك .

«وبروتاس؛ كما تعلمون رجل الفضل والشرف . ألم تروا أنني قد عرضت»
«عاليه التاج ثلاث مرات في في لوپر كل ؛ فكان يرفضه في كل مرة ؛»
«فهل كان هذا الطمع فيه ؟ . ومع ذلك فأنا بروتاس يقول : إنه ذو طمع»
«وبروتاس رجل الفضل والشرف . لا أريد أيها السادة أن أدحض دليل»
«بروتاس ؛ ولا أن أقارعه بالحجة بالحجة ؛ وإنما أقول ما أعرفه من الحق»
«الصراح . لقد كنتم كلكم تحبون قيصر حبا جما ؛ فهل كان ذلك من»
«غير داع ، وبلا مسوغ ، إذن ما الذي يمنعكم الآن أن تقيموا عليه»
«شعار الحداد . يا للعدالة ؛ لقد أويت إلى قلوب الوحوش الضارية ؛»
«فغادرت الآن أناسا جبارا اعتيا ، فاقد الرشد والصواب . عفوا ، سادتي ،»
«إن قلبي مدرج مع قيصر في أكفانه ؛ فأمهلونني حتى يرتد إلى .»

أحد السامعين : الظاهر أن في كلامه شيئا من الحق .

آخر : إنك إذا نظرت في الأمر بلا تحيز ، وجدت قيصر مظلوما .

ثالث : أجل ، وإنني لأخشى أن يعقبه شر خلف .

رابع : ألاحظتم هذه العبارة : «إنه لم يأخذ التاج» ؛ فكفى بهذه دليلا على أنه لم يكن فيه طمع .

الأول : إذا ثبت كذبهم ، فلا بد من الانتقام له .

الثاني : مسكين أنتوني ؛ إن عينيه تنقدان من البكاء .

الثالث : ليس في روما أخلص من أنتوني .

الرابع : هاهو ذا قد عاد للكلام .

«أنتوني : بالأمس كانت كلمة يفوه بها قيصر تقيم العالم ، وتقعده ،»

«أما الآن ، فهذه هي الطريقة التي لا يأت به أحقر حقير». ثم يستمر في كلامه ، ولا ينتهي من خطبته إلا وقد تحفزت الجماعة للانتقام من قتلة قيصر .

وترى من هذا كيف استطاع الخطيب بمشاركته للجماعة في وجدانها ظاهراً أن يصل إلى غرضه ، ولذا نقول إن الخطيب ينقاد ؛ ليقود ، ويطيع ؛ ليطاع ، ويأخذ ؛ ليعطى ، يساير إرادة الجماعة ؛ ليملي إرادته عليها ، وكل ذلك بالمشاركة الوجدانية ؛ فليرفعها الخطيب حق رعايتها ، وليعرف أن ذلك ليس معناه أن يكون سيقاً لا رأى له ، ولا فكر ، بل معناه أن يجتهد في ألا يهاجمها فيما تألف ، دفعة واحدة ، بل يمهّد لما يرى ، ويربط بين ما يدعو وإحساسها . وقد رأيت كيف استدرج أتونيو الجماعة ، وأملى عليها إرادته من طريق موافقتها في شعورها ، وهوها . وقد نقلها من التقيص إلى التقيص .

٣- النفوذ : لنفوذ الخطيب الأثر الفعال في تحريك الميول .

وإيقاظ المشاعر ؛ فهو عامل عظيم من عوامل إثارة الأهواء ، بل ربما كان أقربها نجاحاً ، وأدناها إلى الأجابة ، وقد عرفت شيئاً من ذلك في صفات الخطيب الكامل ، والآن نوضح ما أجمالنا هنالك فنقول : إن النفوذ يجعل صاحبة متحكماً في أهواء ومشاعر من مخاطبه . وقد قال فيه جوستاف لويون « يمكن أن يقال : إن النفوذ سلطة ، أو عمل أو «فكر يستولى بها على العقول ، وتلك السلطة النفسية تعطل « ملكة النقد ، فتملأ النفس دهشة واحتراماً ، ولا يمكن تفسير الشعور « الذي يحدث منه كما هو الشأن في كل شعور ، إلا أنه لابد أن «

« يكون من جنس الاجتذاب الذى يحدث فى نفس الشخص النائم »
« نو ما مغناطيسيا » . والنفوذ نوعان : نفوذ شخصى طبعى ، و نفوذ كسبى ،
والأول يكون هبة يهبها الله لبعض الأشخاص ، فيؤثرون بأنفسهم ،
من غير أى أمر خارجى يعرض لهم ، ومن ذلك ما أتاه الله العظماء الممتازين ،
كعمر بن الخطاب ، وأبى بكر الصديق ، و نابليون . والنفوذ الكسبى
ما جاء من سمعة حسنة ، أو اشتهار بنبل ، أو شجاعة ، أو منصب ، أو
لقب ، أو تحمل بوسام ، أو ثروة فى بعض الأحيان ، ولا شك أن بعض
هذه الأنواع فى استطاعة مريد الخطابة أن يكون من أهلها ، وبعضها
من الواجب عليه أن يكون متحلياً بها ، فيجب أن يكون الخطيب
من ذوى السمعة الحسنة ليس فى ماضيه ما يشين . ولقد كان ميرابو
الخطيب المشهور فى الثورة الفرنسية مع ما أوتى من نفوذ شخصى ،
وشهرة بالبيان ، يرى ماضيه السيئ فى شبابه حجر عثرة يمنعه أن يصل
إلى التمام فى قيادة الجموع ؛ ولذا كان يقول : « ويل للماضى » .

والنفوذ الشخصى الطبعى أقوى عملاً ، وأشد تأثيراً ؛ فمن أتاه
الله ذلك النفوذ ، ملك من النفوس ، والمشاعر والأهواء ، ما يجعله يقول
فيطاع من غير أى اعتراض ، بل من غير تفكير فيه ؛ يتأثر بقوله
أشد الناس بغضاله . يحكى أن بعض أعداء نابليون ذهب للقاءه . فقال
لصاحبه ، وهو ذاهب إليه : « أيها الصديق ، إن لذلك الرجل الشيطان »
« فى نفسى تأثيراً لست أدركه ؛ حتى إنك لترانى إذا اقتربت منه »
« تأخذنى الرعدة ، كالطفل الصغير ، ويخيل إلى أنه قادر على إدخالى »
« فى سم الخياط ، وإحراقى بالنار » . ويجب على من لم يؤت ذلك

النفوذ أن يسعى في كسب نفوذ، أيا كان، من طريق شريف ؛ فإن النفوذ له أثر في كل مقام وقد وصف (ديكوب) وكان من النواب الفرنسيين ومن علماء النفس ، الخطيب النيابي المجهول الذي لا نفوذ له فقال : « إذا استوى على منبر الخطابة ، أخرج من محفظته أوراقا ، فذرها » « أمامه على الترتيب ، وشرع يخطب مطمئنا ، وهو يفتخر في نفسه » « بأنه سيبث عقيدته ، لتسكين روح سامعية ؛ لأنه وزن أدلته ، وحررها » « وأعد شيئا كثيرا من الإحصاءات والحجج ، وأيقن أن الحق » « في جانبه ، وأن معارضته لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة الذي يأتي » « بها ، هكذا يبدأ معتمدا على صواب رأيه ، واصفا إخوانه ، لا اعتقاده » « أنهم لا يطلبون إلا الحق ، وبينما هو يخطب إذ تأخذه الدهشة من » « اضطراب الحاضرين ، ثم يتقزز بالوضوء الناتج ، من ذلك » « الاضطراب ، ويتساءل ، لم لا يسود السكون ؟ وما السبب في هذا » « الانصراف العام ؟ وما الذي يدور على السنة أولئك الذين يتحدثون فيما » « بينهم ؟ وما السبب القوي الذي يحمل ذاك على ترك مجلسه ؟ يتساءل » « الخطيب هكذا ، والخيرة تعلو جبهته ، فيفرك حاجبيه ، ويمسك » « عن الكلام ، ويشجعه الرئيس ؛ فيعود بصوت مرتفع ، فيزيد » « الأعضاء في عدم الأصغاء إليه ، فيجهر ، ويهتز ، فيزداد الجلبة » « حوالبه ، ويعود لا يسمع نفسه ، فيمسك عن الكلام مرة أخرى » « ثم يخشى أن يدعو سكوته إلى أصوات الأقفال ، الأقفال ، فيرجع » « إلى خطابته بما فيه من قوة ، وهناك تعلو الجلبة ، ويختلط الحابل » « بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون » . فانظر إلى الخطيب

الذى لا نفوذ له ، وإيست له سمعة جاذبة للنفوس كيف يلتقي الصعوبات وقد يذلها ، وقد يرتد دونها خاسئاً ، وهو حسير .

٤ - اللذة والآلم : ١ - الذات والآلام هي المسيرة للإنسان في

هذه الحياة ؛ فهو يعمل إجابة لداعى اللذة ، ويمتنع توقياً للآلام . وهما في الحقيقة العنصران المحركان للعالم الإنسانى سلباً وإيجاباً ؛ غير أن اللذائد تختلف باختلاف الأشخاص ؛ فأنسان لذته حسية عاجلة ، وآخر لذته في المعنويات ، أو في الحسيات الآجلة ؛ فالمتفنى ، والعالم ، والمخترع ، والشاعر ، والكتّاب ؛ كل أولئك مندفعون بقوى الذات المعنوية التى يجدونها ، فيما يقومون به من عمل ، وإن اللذة التى وجدها نيوتن عند ما كشف الستار عن قانون الجاذبية لا تعدلها فى نظره لذة ، واللذة التى وجدها انشتاين فى كشف قانون النسبية ، لا تعدلها أيضاً فى نظره أية لذة حسية ، واذة الصوفى التى يجدها فى فنائه فى الذات العلية ، هى كل الوجود فى زعمه . وإن كثيراً من الناس يؤدبون الفرائض ، ويطيعون الديان رغبة فى ثوابه ، واثقاء لعقابه ، وقايل من المؤمنين من يطيع الله ؛ لأنه يجد لذة فى الطاعة ، لا طمعا فى جنة ، ولا خوفاً من نار .

والخطيب اللبق هو من يعرف هذه الحقيقة ؛ فيخاطب الناس بما ينير لذاتهم ، وما يرون فى الأخذ به اتقاء لآلام متوقعة ؛ فهو يلوح بالمنفعة التى يراها مطايا لهم ، ويبين لهم أن الآلام فى تقيض ما يدعوا إليه . وانظر إلى طارق بن زياد فى خطبته المشهورة ، فقد حرق السفن ، ثم حثهم على القتال مبيناً لهم أن لا قوت لهم إلا ما أخذوه من عدوهم

بسيوفهم ، وأنهم قد صاروا كالأيتام على مأدبة اللثام ، وقد كان على رضى الله عنه وهو الخطيب العظيم يقول : « إن للقلوب شهوات ، » « وإقبالا وإدبارا ، فاتوها من قبل شهواتها ، وإقبالها ، فأن القلب إذا » « أكره عى » . ولقد عرف هذه الحقيقة أولئك الذين كانوا يحركون المسيحيين فى الحروب الصليبية ، فما كانوا يكتبون بأثارة الروح الدينية ، بل كانوا يقولون فى الأرض المقدسة : « إنها تفيض لبنا » « عسلا » .

٢ - إن الرغبة نتيجة المنة ، فالإنسان يرغب فيما يجد فيه اللذة ، ويرهب ما يجد فيه الألم ، ويظهر أن الرغبات الانسانية هى المتحركة فى الآراء والمعتقدات . ولقد قال الفيلسوف سبينوزا « نرى الأشياء مليحة برغبتنا لا ببصيرتنا » وإذا كان ذلك كذلك ، فعلى الخطيب أن يتعرف رغبات الجماعة ، التى يخاطبها ، ثم يعقد صلة بينها وبين ما يدعو إليه ، ويبين أنهما من مشرب واحد ، ومن طريق واحدة ، وإن فى دراسة رغباتها تعرفا لذاتها وآلامها ، فليدرسها ؛ ليعرف من أى جانب يطرق حسها ، وليعرف لذاتها وآلامها ، فيصل إلى وجدانها . وإن رغبة الأمة أو الجماعة من الناس هى التى تشكل مثلها العليا ، فالمثل العليا للأمة عنوان الرغبات ، ومن طريقها يستطيع الدارس لأمة معرفة رغباتها ، فإذا رأيت أمة مثلها العليا فى طلب استقلالها ، والمحافظة على كيانها ، فاعرف أن رغبتها فى ذلك الاتجاه ، وأن تلك الرغبة مظهر لآلام الاعتداء ، ولذة الحياة الحرة المستقلة ، وإذا رأيت أمة مثلها العليا فى حب السلام والدفاع عن المظلوم ، فاعلم أن رغبتها فى تلك

الناحية ، وأن لذتها في نفع بني الانسان ، وآلامها في آلامهم . ومن أجود الخطب التي استخدمت فيها آلام الأمة ، ورغباتها ، ومثابها العليا في إثارة ميولها إلى ما يريد الخطيب خطبة الرئيس ولسن رئيس الجمهورية الأمريكية في مجلس الشيوخ ، يدعو به إلى الموافقة على دخول أمريكا في الحرب العالمية ، فقد جاء فيها : « إن هذه الحرب هي ضد » « جميع الأمم ، لقد أغرقت مراكب أمريكية ، وأعدمت نفوس » « كثيرة من الأمريكيين ، بطرق تأكدت لدينا فظاعتها ؛ فكان » « لها وقع مخيف ، ولكننا رأينا أن نفس تلك الطرق تستعمل » « لأغراق مراكب ، وإبادة نفوس من أمم أخرى كثيرة ، من » « المحايدين ، والأصدقاء ، بدون فرق ، كأنما هذه الحرب قد شجرت » « ضد جميع الناس على السواء ؛ فإدام الأمر كذلك ، وجب على كل » « أمة أن تقدر لنفسها خطة ، تقابل بها ذلك العداء ، وخطتنا التي » « يجب علينا أن نختارها الآن ضرورة جدا ؛ ولا تقبل التأخير . وجاء » فيها : « إن واجبي الذي أتممته الآن أيها السادة هو واجب محزن ؛ » « وصعب جدا . إن من المحتمل أن يكون أمامنا عدة أشهر ؛ لنقوم » « في أثنائها بتجارب صعبة ، وتقديم ضحايا عظيمة ، إنه لأمر شديد » « الخطورة ، أن نقود شعبنا العظيم المسالم إلى حرب هي أفظع الحروب ، » « وأشدّها هولاً ، يقف فيها التمدين نفسه في كفة الميزان ، غير أن » « الحق فوق السلم ، والحق الذي ندافع عنه هو المحافظة على أقرب » « الأشياء إلى قلوبنا ، المحافظة الديمقراطية على الشعوب المهضومة »

« الحقوق ؛ ليتمكنوا من الاشتراك في حكم أنفسهم ؛ هو المحافظة »
« على حقوق وحرية الأمم الصغيرة ؛ هو المحافظة على توطيد أركان »
« حق عام ؛ أساسه اتحاد الأمم الحرة ، اتحادا يضمن الطمأنينة للجميع »
« الأمم ؛ ويجعل العالم كله حرا . إننا أمام واجب كهذا لا نضن »
« بحياتنا ، ومالنا ، بل نقدر أنفسنا ، وما نملك ، وسيرى العالم أنه »
« قد جاء اليوم الذي سنحت فيه لأمريكا الفرصة ؛ لكي تنفق قوتها ، »
« وتسفك دماء أبنائها ، في سبيل المبادئ ، التي كانت سبب وجودها ، »
« والسلام الذي صانته طول حياتها . »

انظر إلى ذلك الخطيب كيف أثار النعمة بذكر آلام الاعتداء
على السفن الأمريكية ، ثم كيف ذكر الجماعة برغبتها في السلام وانه مرتبه ،
وكيف نبهها إلى مثاها الأعلى ، وهو توطيد أركان الحق العام ، وجعل
أساسه اتحاد الأمم الحرة اتحادا يضمن الطمأنينة لجميع الأمم ، ثم اتخذ
من تلك القواعد دعائم لدعوته ، وهو الدخول في تلك الحرب ، ومحاولة
من زعمهم مظلومين ، معتدى عليهم .

والخطباء الذين يستخدمون آمال الأمة ، وأمانيتها في إثارة أهواء
السامعين إلى رغبتهم (وكثير ما هم) ، إنما يستخدمون اللذات ،
والرغبات ، والمثل العليا ؛ لأن أمل الأمة ليس شيئا غير لذتها المرجوة ،
والمطلب الأسمى الذي يسعى الجميع إليه .

والقول الجملي : إن اللذات والآلام والرغبات ، والآمال ، والمثل
العليا أمور تنبع من معين واحد وكلها يستطيع الخطيب استخدامه
في إثارة أهواء الجماعة ، وميولها لما يدعو إليه .

(٥) الغرائز : إذا اجتمع عدد من الناس متحدة مشاعريهم ، كانت لهم وحدة فكرية تجمعهم ، وهي في كل واحد منهم بقدر مشترك ، لا تفاوت بينهم فيها ، وتلك الوحدة الجامعة التي لا يتفاضلون فيها مصدرها الغرائز ، ولذا قال علماء الاجتماع : إن الرعيم الذي يملك قلوب الكثرة في الأمة لا يخاطب الذكاء بل يخاطب الغرائز ؛ لأنها الوحدة الجامعة والقدر المشترك في الجميع . وقد عرف بعض علماء النفس الغريزة بأنها ميل فطري في النفس يدفع الإنسان لأن يسلك مسلكاً خاصاً ، أو تصدر عنه حركات مؤتلفة ، تؤدي إلى غاية معينة ، وإن لم يشعر بها الإنسان نفسه ، وهذه الحركات ليست نتيجة خبرة أو تعلم ، ويتصل بها انفعال نفسي ، يكون واضحاً بارزاً في كثير من الأحيان .

فالغريزة سلوك فطري ، يكون من غير خبرة سابقة ، ويرمى إلى ما فيه مصالحة الشخص والجنس .^(١)

والغرائز كثيرة ، ولها أقسام عدة ؛ وليس هذا المقام مقام تفصيلها وبيانها ، فلذلك علم قائم بنفسه ، هو علم النفس ، ويهمننا في هذا المقام أن نقول : إن منها غريزة الحرب ، وغريزة المقاتلة وحب الخصام ، والأبوة والأمومة ، والاستغاثة ، والاستطلاع ، والسيطرة ، وحب الظهور والثناء ، والاجتماع ، والضحك ، وغيرها .

ويمكن الخطيب أن يتخذ من بعض هذه الغرائز سلاحاً في ميدانه يثير به الأهواء والعواطف نحو قوله : فغريزة المقاتلة^(٢) يستطيع أن

(١) من كتاب أصول علم النفس الأستاذ أمين مرسى قنديل

(٢) قال الأستاذ قنديل في كتابه أصول علم النفس في هذه الغريزة « هي التي تدفع الأفراد والقبائل إلى الكفاح والاستماتة في الحرب لاحقر الاسباب

يستخدمها الخطيب في استفزاز الجماهير ، إذ يحثهم على قتال أعدائهم ، كما فعل على رضى الله عنه ، عندما دعا جيشه إلى قتال مخالفيه ، بعد أن قتلوا عامله على الأنبار ، فقد خطب خطبة كلها إثارة لتلك الغريزة ، وجاء في تلك الخطبة : « هذا أخو غامد قد باغت خيله الأنبار ، وقتل »
« حسان البكرى ، وأزال خيالك عن مسالحها »^(١) ، وقتل منكم رجلاً »
« صالحين ، وقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، »
« والآخرى المعاهدة ، »^(٢) فينزع حجلها ،^(٣) وقالبها ،^(٤) وورعائها^(٥) ، »
« ثم انصرفوا وافرین^(٦) ، ما نال رجلاً منهم كلم ،^(٧) ولا أريق لهم »
« دم ، فلو أن رجلاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان به ملوماً ، »
« بل كان عندي جديراً »

« فوا عجباً من جد هؤلاء في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، فقبحا »
« لكم حين صرتم غرضاً^(٨) يرمى ، يغار عليكم ، ولا تغيرون ، وتغزون »

وأنتفها ، ولا تزال كذلك فعالة قوية فيهم . ظاهرة كل الظهور في الاطفال وفي الكبار أيضاً على الرغم من تغير أشكالها ، ومظاهرها ، تحت تأثير الرقي الاجتماعي ، والعقل المدرب والوازع القانوني والخوف ولكن أثرها مع ذلك لا يزال يبدو واضحاً في الجماعات أكثر منه في الافراد . فقد يثير حفيظة الامة وغضبها سبب ما ، فتندفع جميعاً طالبة غسل الدم بالدم . ففي أحضان هذه الغريزة . الراسخة في النفوس . نشأت الجماعات المتحضرة اليوم)

(١) المساح جمع مسلحة بالفتح . وهي الثغر حيث يتوقع مجيء العدو
(٢) المماهدة الذمية (٣) الحجل بكسر الحاء وسكون الجيم الخللخال (٤) القلب يضم القاف السوار (٥) الرعات جمع رعثة بفتح الراء وهي القرط (٦) وافرین أى تأمين (٧) الكلم الجرح (٨) الغرض ما ينصب ليرمى بالسهم ونحوها

« ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون » . فانظر إلى على كيف أثار غريزة الغضب والمقاتلة فيهم ، بذكر إباحة الحمى ، وانتهاك الحرمات ، وقتل النساء والذرية ، وببيان أنه لا يرضى بهذه الحال ، إلا من يرضى بالنزل الهون ، وكل هذه إثارة لتلك الغريزة على أبلغ وجه يستطيعه بليغ وقد يربط المتكلم فكرته بهذه الغريزة إذا كانت متغلغلة بقوة في نفس الجماعة التي يخاطبها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على الصبر والتؤدة ، والحلم : « ليس الشديد بالصرعة^(١) إنما الشديد من يملك نفسه » « عند الغضب » وكقول أبي بكر رضى الله عنه في رجوعه من إحدى الغزوات : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » . يريد رضى الله عنه جهاد النفس بمنعها من سوء . فكان هذا وذاك ربطاً لتلك المعانى النفسية العالية السامية بغريزة المقاتلة ، تلك الغريزة المتغلغلة في النفس العربية والتي لا تعدل بها شيئاً سواها . وبذلك الربط تستفيد تلك المعانى قوة وجلاء

وغريزة حب الثناء يستطيع الخطيب أن يستخدمها في إثارة الأهواء لما يدعو إليه بأن يبين أن الشرف والمجد والسيادة فيه كما فعل المغفور له سعد باشا زغلول في حفل الطلبة لتحيتته سنة ١٩٢١ إذ جاء في خطبته فيهم : « أتوجه والخشوع يماً لجوارحي » « إلى تلك الأرواح الطاهرة ، أرواح أولئك الأبطال الذين نادوا » « بالحق ، والحق منكر ، ففاضت أرواحهم ، وألسنتهم تردد ذلك » « النداء ، فاضت ، وقد شرفونا بأقدامهم ، وألزموا السكل باحترام »

(١) الصرعة القوى الذى يصرع غيره

« مصر واسمها ، وييضوا وجوهنا ، والآن ، فليناموا هادئين ؛ فقد »
« انباج فجر الاستقلال مضمخا بدمائهم ، وخافوا من بعدهم من يستحق »
« ذلك الفداء ، ييض الله برحمته أجداثهم ، وأسكنهم جنات العلا ، »
« وأرضى عن أعمالنا أرواحهم ، وأراحهم بتحقيق آمالنا . لله در الشبيبة »
« ما فعلت ؛ فأنها قد فتحت ماضمت صدورها من كنوز الفتوة ، وملأت »
« قلب البلاد عزة وحماسة ، وملأت رءوسها حكمة ، وملأت حركاتها نظاما »
« تلك الشبيبة التي هي عماد الحركة الحاضرة ؛ ومبعث أنوارها الساطعة ؛ »
« أشكرها شكر اجزيلا ، وأرتاح جدا ؛ لأن المستقبل سيكون بيدها ، »
« وهي يد ماهرة » . فانظر إلى ذلك الخطيب القادر كيف جاد بعقود
الثناء للشبيبة التي يخاطبها ، وأشار إلى أن المستقبل سيكون لها ، وكل
ذلك إغراء أى إغراء لهم بأن يستمروا على نهج الاستقلال الذى
يدعو إليه .

وهكذا يستطيع الخطيب القارئ للنفوس المسيطر على البيان
سيطرة تامة أن يتخذ من الغرائز التي تناسب موضوعه طريقا لا إثارة
أهواء السامعين لما يدعو إليه ، وجذبهم لفكرته ، وضم الشارد
لجماعته .

(٦) بواعث الانتباه : كل الأمور التي تبعث الانتباه القسرى ،
وتجذب السامعين إلى الخطيب ، والأصوات لكلامه ، وتوجههم إلى
فكرته ، من شأنها أن تبعث ميولهم إليه ، وتلفتهم عما سواه ، وهذه
أمور كثيرة منها .

— ١ — الجدّة ، والغرابة ، والتغيير ، لكي يثير نشاطهم ؛

فأن الجدة تكسب الفكرة طلاوة ، وتعطيها رونقا وبهجة ، والتغيير يدفع عن النفس السأم ، ويجعل نشاطها دائما مستمرا ، والكلام يكتسب تلك الجدة بالأكثر من ضرب الأمثال الغريبة الشائقة التي تثير خيالهم ، والتشبيهات البديعة التي توقظ أفهامهم ، ومن الخطب التي تشتمل على ذلك خطبة بسمارك في جعل السيادة الدستورية لبروسيا إذ جاء فيها : « أيها السادة إذا لم ترضوا الروح البروسية في هذا الدستور : « فاني أعتقد أنه سيبقى حبرا على ورق ، وإذا أنتم حاولتم أن تسوموا « البروسيين الأذعان لهذا الدستور ، فأنكم ستجدون منهم ما وجدته « الأقدمون من جواد الاسكندر بوكيفالوس الذي كان يحمل مولاه ، « ويسير به جريئا مبتهجا ، بينما هو يقذف الفارس الذي يتطاول إلى امتطاء « صهوته ، ويلقيه على الرغام ، يتمرغ بذهبه ، وفروده ، وسائر حليه « وملابسه ، . ولكن يعزيني الآن اعتقادي الراسخ بأن الوقت لن « يطول حتى تنظر الأحزاب المختلفة إلى هذا الدستور ، كما نظر « الطيبان في أسطورة لافونتين إلى جثة المريض الذي كانا يعودانه « إذ يقول أحدهم : لقد مات ، ولقد تنبأت بذلك مذكرأيته . ويقول « الآخر : لو أنه استمع إلى نصيحتي ، مات »

ومن الجدة أن ينوع الخطيب أسلوبه فأحيانا يأتي بكلامه في صورة استفهام ، وأخرى في صورة تقرير ، والثالثة في صورة طلب ، وهكذا ، وأن يغير في الصوت ، فلا يصح الاستمرار طويلا على وتيرة واحدة ، إذ الصوت النمطي المطرد ، يزيل الانتباه ، فيجب التغيير في الصوت ،

ليكون فيه تنشيط ، وإثارة للاهتمام ، وإيقاظ للغافين . وفي كل ذلك
إثارة للميول والأهواء

- ب- التكرار والتوكيد . إن للتكرار والتوكيد أثرا كبيرا

في إثارة الأهواء والميول ، وإذا استعملهما الخطيب بمهارة ودقة جذب
السامعين إلى رأيه ، وأخذهم إلى ناحيته . جاء في كتاب الآراء
والمعتقدات لجوستاف لوبون : « إن التوكيد والتكرار عاملان قويان »
« في تكوين الآراء ، وانتشارها ، وإليهما تستند التربية ، في كثير »
« من المسائل . وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في »
« خطبهم ، ولا يحتاج التوكيد إلى دليل عقلي يدعمه ، وإنما يقتضى أن يكون »
« وجيزا حماسيا ، ذا وقع في النفس »

وقال في كتاب روح الاجتماع : « للتكرار تأثير كبير في عقول »
« المستنيرين وتأثير أكبر في عقول الجماعات ، من باب أولى ، والسبب في »
« ذلك كون المكرر ، ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي »
« تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ، فإذا انقضى شطر من الزمن ، »
« نسي الواحد منا صاحب التكرار ، وانتهى بتصديق المكرر ، وهذا »
« هو السر في تأثير الإعلانات العجيب ، يقرأ الواحد مائة مرة أن »
« أحسن الحلوى من صنع فلان ، فيخيل إليه من التكرار أنه سيم »
« ذلك من مصادر شتى ، وينتهي باعتقاد صحة الخبر . »

وإذا كان التكرار منبها للمشاعر صارفها إلى الخطيب ، فيجب
أن يتجه إليه بما لم يجد أن المقام يحتاج إلى الأيجاز ، فيعمد
إلى التوكيد . فالتكرار أولى في مقام الأطناب ، والتوكيد أولى في

مقام الابهجاء ، ويجب أن يلاحظ في التكرار أن يكون بعبارات
وأساليب مختلفة ، وأن يكون انظر فيه إلى المعنى من جوانب متعددة ،
وقد رأيت التكرار البليغ المفيد في خطبة علي رضي الله عنه عند ما قتل
عامه على الأنبار التي سبقت إليك .

وقد اختار جوستاف لوبون مثلاً للتوكيد والتكرار منشوراً
يظهر أنه اشتراك في نشر في إحدى صحف أوروبا وقد جاء فيه : « من »
« ينتج القمح الذي نحتاج إليه ؟ هو الفلاح ومن يزرع الشعير والحبوب »
« كلها ؟ ومن يربي المواشي والأغنام ؟ هو الفلاح ومن يرعى الضأن »
« للحصول على أصوافها ؟ هو الفلاح . ومن ينتج الخمر والنبيذ ؟ هو »
« الفلاح . ومن يطعم الطرائد ؟ هو الفلاح ولكن من يأكل أطيب »
« الخبز ، وأطرى اللحوم ، ومن يلبس أغر الثياب ، ومن يشرب خمر »
« بوردو ، والشمبانيا ؟ ومن ينتفع بالطريفة هو ابن الطبقة العليا المثرية »
« ومن يتسلى ، ويستريح كما يريد ؟ ومن يتمتع بأطيب النعم ومن »
« يسمح للنزهة ، ومن يتفياً في الصيف ، ويتدفأ في الشتاء ؟ هو »
« ابن الطبقة العليا المثرية . ومن يأكل طعاماً غير شهى ، ومن يندر »
« شربه للخمر ، ومن يشتغل بدون انقطاع ، ومن يكابد حرارة »
« الصيف وصبارة الشتاء ، ومن هو شديد البؤس كثير الشتاء ؟ هو »
« الفلاح » . فترى من هذا كيف كرر ونوع في التكرار وكيف كان
متحريراً في كلامه المكرر إثارة الالهواء والميول

اثارة الاهواء نحو المراد مباشرة

ما سبق كان أمورا كلية تستخدم في كل غرض خطابي ، وهي في هذا أشبه بالنظريات العامة ، وهناك أمور جزئية . وهي ما يتعلق بالمراد من الخطبة مباشرة من غير وساطة ، وهذه تختلف باختلاف أغراض الخطيب ، ولكل بواعث تختص به ، ولذا تبين بعض الأغراض بالأجمال ، وطرق الاثارة ونحوها ، وما لا نقوله يقاس على ما نقوله .

(١) البغض والمحبة : فإذا كان غرض الخطيب تأليف القلوب ، وجمعها على محبة زعيم ، أو الائتلاف حول قائد ، يبين لهم (١) ما تحلى به من السجايا ، وما امتاز به من المواهب (٢) وحسن مآثره ، وسابق خدماته ، لمن يدعوه إليه ، (٣) وإخلاصه لهم ، وتواضعه ولين جانبه (٤) وما يرجي لهم من خير في الائتلاف حوله ، ونصرته ، وكل هذا يثير محبتهم ، ويقربه من قلوبهم ، ويدنيه من نفوسهم ،

وإذا كان الغرض التبغيض في شخص . وإبعاد الناس من حوله ، يبين لهم ما طبع عليه من قبيح الخصال في لفظ نزيه ، وعبارات رائقة لا تخدش الناموس الاجتماعي ، ولا إقذاع فيها ، (٢) ويبين أعماله السيئة ، وماضيه السيء ، (٣) وخبث طويته ، وعدم إخلاصه للجماة (٤) وما في الائتلاف حوله من عقي سيئة ، وإعزاز للباطل ، وإذلال للحق ، ومن الخطب المشتمة على إثارة المحبة لنوم ، واليغضاء لآخرين خطبة أبي حمزة الشاري في مكة عندما دخلها . ومتجىء إليك

كاملة في الجزء التاريخي^(١)

(ب) الرغبة والنفور من أمر : إذا كان غرض الخطيب إثارة الرغبة في أمر من الأمور (١) بين منفعة وثمرته التي تعود على الجماعة من الأخذ به (٢) وصوره لهم في صورة آخاة بذيابط القلوب . مستولية على الأبواب والأفهام ؛ فيثير خيالهم نحوه ، وفي إثارة الخيال إثارة للرغبة في الحصول ، (٣) وذكر لهم أنه قريب المتناول ، ليس بعيداً عن أيديهم ؛ بل هو في طاقتهم ، وفي متناول قدرتهم ، (٤) وبين أن الآخذين به في أسنى المراتب الإنسانية .

وإذا كان الغرض تنفيرهم من أمر ، (١) بين المضار الناجمة عن ملابسته ، (٢) وصوره لهم في صورة تنفر منها النفس ، وتتنزز (٣) وحقره ، وحقر الآخذين به وبين أنهم صغار الناس ، وأنهم في المرتبة الدون ، والمكان المهون

ومن أبلغ الترغيب والتنفير ما جاء في خطبة للمرحوم مصطفى كامل باشا عن الاحتلال الأجنبي ، والدعوة لمقاومته : « كل احتلال » « أجنبي هو عار على الوطن وبنية ، والعار واجب أن يزول ، ولست » « أقصد بهذا الكلام أن أسألكم باسم الوطن إعلان ثورة دموية ضد » « محتل البلاد ، كلا ، ثم كلا ؛ إن أقل الناس إدراكاً لمصلحة من يعلم » « أنها منافية لكل ثورة ، وإنما أسألكم أن تعملوا بكل الوسائل السامية » « على استرداد الحقوق المسلوقة منكم ، وأن تعملوا لأن تحكم البلاد » « بآبناء البلاد ، نعم ، إنني أعلم أن الاحتلال قوى السلطة ، عظيم الرهبة »

(١) وهي في البيان والتبيين أيضاً

« شديد العقاب ، وأن العمل ضده موجب للعذاب ، مسبب للفقر »
« والفاقة ، ولكن في الرضا بالاحتلال الخيانة ، والعار ، وفي العمل ضد »
« الاحتلال الشرف ، والتخار ، فياذوى النفوس الأبية ، وياذوى الضمائر »
« الحية ، اطابوا الشرف ، ولومع النقر ، اخدموا الوطن ، ولو أسقطت »
« على رؤوسكم الصواعق ، كونوا مع مصر ، إن سعيدة فسعداء ، وإن »
« تعيسة ^(١) فتعساء ، قولوا لعدوها في وجهه : أنت عدو لنا ، »
« ولصديقها : أنت صديق لنا . لا تحبوا من يرميها بنبال الموت ، بل »
« امنعوه عنها إن قدرتم ، ثم ردوها في صدر راميها إن استطعتم »

(ج) الفرح والحزن : إذا أراد الخطيب إثارة دواعي الفرح في نفوس المخاطبين ، والأشهاد معهم في أفراحهم (١) ذكر لهم ما في الأمر الذي هو موضوع الخطبة من مزايا ، وما يجني منه من ثمرات ، وما يكون له عليهم من العاقبة الحسنى (٢) وبين أنه في ذاته بعيد المنال ، غير ميسور الحصول ، وأنه لا يؤخذ إلا بشق الأنفس ، (٣) وأشار إلى شغف الناس بطلبه ، وأنه الرغبة المحبوبة ، والغاية المنشودة ، والأمل المطلوب

ومن أمثل الخطب المشتملة على مظاهر الفرح والسرور خطبة المغفور له سعد باشا زغلول عندما أقام له أعضاء مجلس الشيوخ قبل أول انعقاد له حفل تكريم ، فقد جاء فيها بعد أن شكر لهم تكريمهم :
« وبعد ، فإني أهنيكم من كل قلبي بالثقة التي اكتسبتموها من البلاد »
« ومليكها المعظم ، وأعد نفسي سعيدة بأنني أول وزير مرمي للحكومة »

(١) لم يصح الوصف من تعيس على تعيس وتعيسة

« دستورية ، تستمد قوتها من إرادة الشعب ، وتستند في بقائها »
« على ثقة نوابه ، وتستظل برعاية ماليك دستوري ، يحترم كل الاحترام »
« المبادئ الدستورية ، ويرى في تنفيذها أقوى ضمانة لحقوق الأفراد »
« وأقوم طريقة لحكم البلاد . »

« ستصبح هذه المبادئ نافذة المفعول فينا ، ويصبح أمر الكل »
« للكل ، ويشعر كل مصري أن حياته ، وحريته ، وشرفه ، وماله »
« وولده كل ذلك تحت حماية القانون ، وأن على القانون حارسا قويا أميناً »
« من البرلمان ، وأن البرلمان تحت حراسة أمة يقظة ، والكل في ذمة »
« الله وعنايته »

« بعد يوم واحد تجدد الوزارة نفسها مسئولة أمام نواب البلاد ، »
« وأن عاينها أن تبرر أعمالها العامة أمامكم ، كما تبررها أمام ضمايرها »
« الخاصة ، وتشعر من جهة أخرى بخفة ثقل المسؤولية الملقاة عليها ، »
« لوجود قوة بجانبها ، تقاسمها هذه المسؤولية ، كما تشاظرها النظر في »
« إدارة أمور البلاد »

« بعد يوم واحد يحل احترام الحكومة محل الخوف ، ويشتهد »
« القرب منها بعد البعد عنها ، إذ يستيقن الكل أنها ليست إلا قسماً »
« من الأمة تخصص لخدمتها العامة ، حسب القانون والمبادئ »
« الديمقراطية ، وأن لكل واحد فيها حصّة مباشرة ، أو بالواسطة »
« فيبذل الكل جهودهم في معاونتها على القيام بمهمتها الخطيرة . »

وإذا أراد الخطيب أن يثير عوامل الأسى والشجن في نفوس سامعيه ، وأن يظهر ما في نفسه من آلام (١) ذكر المحنة ، وآثارها في

النفس ، وآلام وقعها - (٢) ثم ذكر وقعها في نفسه خاصة ؛ وما ناله بسببها من آلام (٣) وبسط القول فيما آتى الله المفقود من مزايا .
وصفات اختص بها

ومن أبلغ الخطب التي تثير الحزن في النفس ، وتبين منزلة المفقود خطبة علي بن أبي طالب في رثاء أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وما هي ذي كما جاءت في كتاب إيجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني .
« رحمك الله أبا بكر كنت إلف رسول الله صلى الله عليه وسلم »
« وأنسه ، وثقته ، وموضع سره ، كنت أول القوم إسلاما ، وأخلصهم »
« إيمانا ، وأشدهم يقينا ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء في دين الله »
« وأحوطهم على رسول الله ، وآمنهم على أصحابه ، أحسنهم صحبة »
« وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم »
« وسيلة ، وأقربهم برسول الله صلى الله عليه وسلم سننا وهديا ، ورحمة »
« وفضلا ، وأثرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده »
« جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيرا ، كنت عنده بمنزلة »
« السمع والبصر . صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه »
« الناس واسيته حين يخلوا ، وقت لله عند المكاره حين عنه »
« قعدوا ، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة ، وكنت ثاني اثنين »
« وصاحبه في الغار ، ورفيقه في الهجرة ، وخليفته في دين الله ، وأمته »
« أحسن الخلافة حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن أصحابك »
« وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقت بالأمر حين فشلوا »

« ونطقت حين تبعبعوا ^(١) مضيت بنور الله إذ وقفوا ، واتبعوك »
 « فهدوا ، وكنت أصوبهم منطقا ، وأطولهم صمتا ، وأبلغهم قولا »
 « وأكثرهم رأيا ، وأشجعهم نفسا ، وأعرفهم بالأُمور ، وأشرفهم »
 « عملا ، كنت للدين يعسوباً ^(٢) أولا حين نفر عنه الناس ، وآخرا »
 « حين أقبلوا ، وكنت للمؤمنين أبا رحما ، إذ صاروا إليك عيالا فحملت »
 « أثقال ما ضعفوا ، ورعيت ما أهملوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شمرت »
 « إذ خنعوا ^(٣) وعلوت إذ هلعوا ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركت »
 « أوتار ما طلبوا . وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك »
 « ما لم يحتسبوا ، وكنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمن »
 « الناس في صحبتك ، وذات يدك وكنت كما قال ضعيفا في بدنك ، »
 « قويا في أمر الله ، متواضعا في نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا في أعين »
 « الناس كبيرا في أنفسهم ، لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا »
 « لأحد مطمع ، ولا لمخلوق عندك هوادة ، الضعيف الذليل عندك »
 « قوى عزيز ، حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف »
 « ذليل حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء ، أقرب »
 « الناس إليك أطوعهم لله ، شأنك الحق ، والصدق ، والرفق ، »
 « قولك حكم ، وأمرك حزم ، ورأيك علم وعزم ، فأبلغت ، وقد نهج »
 « السبيل ، وسهل العسير ، وأطغأت النيران ، واعتدل بك الدين »
 « وقوى الأيمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، وأتعبت من »

(١) البعجة تتابع الكلام حتى لا يفهم ، وذلك من الاضطراب

(٢) يعسوب الرئيس الكبير . (٣) الخنوع الخضوع والذلة .

« بعدك إيتابا شديدا ، وفزت فوزا مبينا ، فجلبت عن البكاء ، »
 « وعظمت رزيتك ، وهدت مصيبتك إلا نام ، فأننا لله وإنا »
 « اليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره ، فوالله »
 « لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبدا . »
 ولما انتهى من خطبته رضى الله عنه بكى الناس حتى علت أصواتهم
 كما ذكر الرواة .

الأمل واليأس : عانت مما سبق أن الأمل رغبة مستقبلية ، ولذة
 مرجوة ، فمن أراد أن ينبرها (١) اتجه إلى بيان المزايا . والثمرات ،
 وصور فيها السعادة المعسولة . (٢) ثم بين أنها سهلة التناول قريبة
 من ذى الهمة ، دانية القطوف لمبتغيها . (٣) ثم ذكر أن العمل يخفى
 المستحيل ، ويكثر من الممكن ، ويجعل كل شيء فى قدرة الإنسان
 إلا ما اختصت به الأقدار ، وعلا عن مغالبة بنى الإنسان . (٤) ثم
 يوجه الناس فى عملهم إلى الاستعانة بالله والثقة به ، والاطمئنان إلى
 تأييده ونصرته ، فأن توجيه الجماهير إلى الاستعانة بالله إحياء لروح
 الدينية فى نفوسهم ، وفى إحيائها إحياء للأمال ، إذ التفويض مع العمل
 يجعل الرجاء غالبا ، واليأس بعيدا « إنه لا يئس من روح الله إلا القوم »
 « الكافرون » .

ومن أبلغ الكلمات المحيية للأمل الباعثة له قول الخطيب الشاب
 المرحوم مصطفى باشا كامل فى إحدى خطبه : « هناك فئة من المصريين »
 « لا أنكر إخلاص رجالها للوطن العزيز ، ولا كن أنكر عايتهم »
 « اليأس الذى يتظاهرون به فى كل وقت ، وفى كل مكان ، فهم ما عملوا »

« أجابوك ، نحن يائسون من مستقبل الوطن ، معتقدون بظلمة الأيام »
« لآتية ، فبالله كيف يستطيع طبيب أن يحكم على غليل بعدم الشفاء »
« قبل أن يفحص داءه ، ويعطيه الدواء ، على أن انرى الكثيرين من »
« الأطباء لا يئسوا أبداً من شفاء المريض ، حتى فى آخر لحظة من »
« حياته ؛ فكيف يئس رجال من بنى مصر ، من مستقبل البلاد ، وهم »
« إن كانوا قد خبروا داء مصر ، فيعلم الله ، ويعلم الناس أنهم إلى اليوم »
« ما قدموا لها الدواء ، كيف نئس من المستقبل ، والمستقبل بيد الله وحده »
« وكثيراً ما تأتى الحوادث بخلاف المنتظر ، وبغير حساب ، ألم يكن »
« الكثير من المصريين ، ومن غير المصريين فى يأس من مستقبل الدولة »
« العلية ، ويعتقدوا أنها على مقربة من الموت ، فهاهى اليوم قد ساءلتها »
« الحوادث التى ساقها الأعداء مؤامير البطش بها ؛ فظهرت بمظهر »
« القوة والحياة ، وأصبحت جميعاً فرحين بسلامتها ، معتقدين »
« حسن مستقبلها ».

« كيف نئس من المستقبل وقد أرانا التاريخ أتمأحكمها الأجانِب »
« قروناً طويلة ، ثم قامت بعد الذل ، والاسترقاق مطالبة بحقوقها ، »
« وأخرجت الأعداء من ديارها ، واستردت حقوقها وحريتها . هى »
« النفوس الصغيرة التى يخلق عندها الأمل بكلمة ، أو تلغراف ، ثم »
« يستولى عليها اليأس بكلمة ، أو تلغراف ، أما النفوس العالية الكبيرة »
« فيدوم فيها الأمل مادام الدم فى العروق ، وما دامت الحياة ، وأى »
« حياة ترضاها النفوس الشريفة مع اليأس ؟ أيجمع المرء فى جسم واحد »

«الموت والحياة ؛ إذ اليأس موت حقيقى ، وأى موت ...»

وقد يرى الخطيب أن الجماعة التى يخاطبها قد استولت عليها آمال بعيدة التحقق ، متعسرة الوقوع أو متعذرته ؛ وأن فى الجرى وراءها تركا لميدان العمل ، وركضا فى ميدان الخيال ، وأن الآخذين بها أشبه بمن هم فى أحلام ؛ فهو مضطر إلى أن يقول لهم ما يلقى القنوط من هذه الناحية فى نفوسهم . وذلك مركب صعب ، ومزلق خطر ؛ لذا يجب أن يكون المتصدى له حذراً يلقى اليأس ، ويحتاط من إمالة النفس ، والطريق لذلك : (١) أن يبين أن سبيل المجد ما كان عمالياً ، لا خيالياً ، وأن التمسك بما هم آخذون به أقرب إلى الخيال ؛ وليحذر أن يكون فى ذلك مصادمة لأحاسيسهم ، بل يمهّد لهم بتايعة تدون به أنه مشاركهم فى آمالهم ، وأن إحسانه من إحساسهم ، ثم يعقب بعدة استثناءات حتى يستدرجهم إلى ما يريد ، ويأخذهم إلى ما يبغي (٢) وقد يكون من الوسائل المجدية أن يبين المخاطر ، والمشاق التى تكنف من يبغي ذلك المطب ، ويسعى إليه . (٣) وترب الأمتال بمن جهدوا أنفسهم ولم يصلوا إلى مبتغاهم ، ولم ينالوا متمنّاهم ، مع أن مرافهم عن العمل المجرى النافع - مفيد فى ذلك جدي فائدة ، ويوجه النفوس إلى العمل المنتج الثمر .

ومن الكلام الجيد المفيد هذا المعنى إفادة تامة ما جاء فى خطبة لمصطفى كمال باشا ، فى الرد على بعض من يدعو للجامعة الإسلامية بزعمه تركياً : «أيها السادة ، إني أفهم الجماعة الإسلامية على الصورة»
«الآتية : إن أمتنا ، وحكومتنا التى نمثلها تتمنيان لجميع المسلمين»

« الذين على ظهر الأرض كل سعادة ، وأن تحيا كل جماعة إسلامية في »
« مختلف البلاد حياة مستقلة ، ولعمر الله ، إنا نشعر بسرور وسعادة »
« من ذلك ؛ فأن سعادة جميع الأمم الإسلامية ورفاهية العالم الإسلامي »
« هي في نظرنا كسعادتنا ، ورفاهيتنا . إننا مرتبطون بهذا الأمر ، »
« كما أننا نرى الأمم الإسلامية مرتبطة بنا ، وبسعادتنا على هذه »
« الصورة ، وهذا أمر يتجلى كل يوم »

« إنما إذا أردنا أيها السادة ، أن نجتمع هذا المجتمع الكبير في »
« شكل إمبراطورية مادية ، فهذا خيال محض ، مخالف للعلم ، والمنطق »
« والفن ، إننا يجدر بنا ألا ننسى قط أن لكل جسم سياسى نهاية من »
« القوة ، لا يعلوها أبداً ، كما أن هناك خطوطاً طبيعية ، معقولة »
« للشكل الإنسانى الحسن ، وكما أن الشكل الإنسانى مبنى على هذه »
« القاعده ، فأن الجماعات التى تتألف من الناس كذلك ، لا تشذ عنها »

« أيها السادة لننعم النظر في موقفنا قبل قرون ، انظروا إلى »
« إفريقيا ، وسوريا ، والعراق ، ومقدونيا ، وبلغاريا ، والعرب ، وغيرها »
« من أقسام ممالكنا ، ثم وازنوا بين حالنا إذ ذاك ، وحالنا اليوم ، هل »
« من الممكن أن تعيش هذه الأمم المختلفة الطبائع ، والبيئات تحت »
« ظل إمبراطورية واحدة ؛ هذا أمر مغاير للطبيعة والعقل ، وقد »
« كانت النتيجة مارأيناه ؛ إذ لا بد أن يختلف الأمر في إفريقيا ، وأن »
« يختلف في سورية ، وأن يختلف في العراق ، وأن يختلف في بلادنا ؛ »
« فأذا سعيننا ؛ لنجعل الجميع واحداً أخطأنا ، إنما نحن نتمنى أن تتشكل »
« كل جماعة إسلامية تشكلاً طبعياً ، وأن تحافظ على استقلالها وأن »

« تعيش عيشة حرة ، ولا شك أننا أمة تقرباً ن سعادة الأمم الإسلامية »
« سعادة لنا ، ثم إننا نحن والعالم الإسلامي جماعة كبيرة ، تمتف حول »
« عرش الخلافة ، وكلنا نقدهه ، ونبجله »^(١)

ه الغضب والخوف : قديرى الخطيب أن الجماعة خنسة فارة ،
ويرى أن الأمر الذى يدعوهم إليه خطير ، يحتاج إلى حماسة ونخوة ،
وإباء وحمية ، وغيره على الحمى ، أو الدين ، أو العرض ، فهو يعمد إلى
إثارة الغضب ؛ ليوقف تلك السجاليا من رقدتها ، وينبها من غفلتها ،
ويتخذ منها قوة ملتهبة تذلل الصعب ، وتذيب الصم الصلاب ،
والطريق لذلك : (١) أن يذكر الأهانة ، ويعظمها ، ويصورها فى صورة
مذكية للحفاظ ، مثيرة للهمم ، (٢) وأن يذكر العار الذى يلحق
الجماعة ، إن لم تتحفظ لغسل تلك الأهانة ، بالذود عن حماها ، والذب عن
حياضها (٣) وأن يضرب الأمثال ، بذكر الأشباه والنظائر ، ويجعل لهم
الأحرار من الناس مثلاً يحتذى ، وذوى الهمم القعساء أسوة تؤسى .
ومن أقوم الخطب التى تثير الحمية ، وتدفع ذوى الأقدام إلى
الأقدام خطبة على بن أبى طالب ، فى حث جنده على الجهاد ، وهاهى ذه :
« أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهى »
« الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم ، تقولون فى المجالس كيت »
« وكيت ، فإذا جاء القتال قلتم : حيدى حيدى »^(٢) ، ما عزت دعوة من »

(١) ألقيت هذه الخطبة قبل إخراج الخليفة من تركيا (٢) كلمة يقولها
المهارب كأنه يسأل الحرب أن تنجى عنه ويقول حيدى أى ابتعدى يا حيداد
هى كالكراع مبنية على الكسر

«دعاكم ، ولا استراح قاب من قلساكم^(١) ، أعاليل بأضاليل^(٢) . وسألتوني
« التأخير ، دفاع ذى الدين المطول^(٣) بهيئات بلا يمنع الضيم اللليل ،
« ولا يدرك الحق إلا بالجد ، أى دار بعد دار كم تمنعون ؟ أم مع
« أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز
« بكم ، فاز بالسهم الاخيبي ، أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا
« أطمع فى نصرتكم ، فرق الله بينى وبينكم ، وأعقبى بكم من هو خير
« لى منكم ، لوددت أن لى بكل عشرة منكم رجلا من بنى فراس بن
« غنم^(٤) ، صرف الدينار بالدرهم .»

وقد يرى الخطيب الجماعة فى اندفاع ، وعصيان ، وثورة ويرى
أن علاجها إلقاء الرعب فى قلوبها ، وبث الرهبة فى نفوسها ؛ ليستقيموا
على الجادة ، ويسلكوا السبيل ، فيلقى فى ذلك خطبا سداها ، ولحمتها نث
الروح فيهم ، وتخويفهم ، وطريق ذلك :

(١) أن يبين لهم سوء العقبي الماهم يفعلون ، وأن الطامة الكبرى
فى طريقهم غير القويم^(٢) وأن يبين أن فوات كثير من رغباتهم ، وطامباتهم ،
فى استمرارهم على غيهم ، وأن الحرمان هو النتيجة الأولى لسلوكهم
(٣) وأن ينيط عقابا خاصا ، يقع بالمستمر على غيه ، الموعث فى سيره ،
والموغل فى إثمه . وإليك لتجد فى خطب العصر الأموى ، وصدر
العباسى شيئا كثيرا مشتملا على ذلك النوع من الخطب المرعدة المبرقة ، كما
ترى فى خطب الحجاج بن يوسف الثقفى ، وخطب زياد ابن أبيه ، وبعض

(١) قهركم (٢) جمع أعلولة وأضلولة (٣) صيغة مبالغة من المطل وهو
تأخير الدين (٤) قبيلة من بكر

خطب عبد الملك بن مروان ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ومن ذلك
خطبة عتبة بن أبي سفيان في أهل مصر ، وقد بلغه تمامهم بحكم بني
أمية ، فقد قال فيها : « يا أهل مصر ، إياكم أن تكونوا لالسييف حصيدا »
« فان لله فيكم ذبيحا لعمان ، أرجوا أن يوليني نسكه ، إن الله جمعكم »
« بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذي حق حقه ، وكان والله »
« أذكركم ، إذا ذكر بخطبة ، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ؛ نعمة »
« والله فيكم ، ونعمة منه عايكم ، وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم »
« عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل ، بعد أنس الحق ، بأحياء »
« الفتنة ؛ وإماتة السنن ، فأطأكم والله وطأة لارفق معكم ، حتى تنكروا »
« مني ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا »
« استشهد عايكم الذي يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور » .

وقد يكون التخويف بسوء العقبي يوم القيامة ؛ فيذكر الخطيب السامعين
بهول ذلك اليوم ، ومافيه ، وبالموت والبلى ، وبأن مافي الحياة الدنيا إلى
فناء ، ومافي الآخرة إلى بقاء ، وأمثلة الخطب في ذلك خطب النبي
صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين ، ومن نهج نهجهم ، ومن خطب
النبي صلى الله عليه وسلم في التذكير بالموت خطبته التي جاء فيها : « أيها الناس »
« كأن الموت فيها على غير ناقد كتب ، وكأن الحق فيها على غير نقد »
« وجب ، وكان الذي نشيع من الآثمات سفر عما قليل إلينا راجعون »
« نبوئهم أجداثهم ، ونأكل من ترائهم ، كأننا مخلدون بعدهم ، ونسبنا »
« كل واعضة ، وأمنا كل جائحة » . وخطبته عليه السلام التي جاء فيها :
« أيها الناس ، إن لكم معالم ، فاتموا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية ، »

« فانهوا إلى نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى ، »
« لا يدري ما الله صانع فيه ، وآجل قد بقي ، لا يدري ما الله قاض فيه ، »
« فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة »
« قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، فوالذي نفس محمد بيده ، ما »
« بعد الموت من مستعجب . »

-و- الرحمة : من المقامات الخطائية ، ما يكون قطبها إثارة بواعث

الرحمة في نفوس السامعين ، واستدراار عطفهم على طائفة من الطوائف ،
أو شخص من الأشخاص ، أو تحريك همهم لعمل إنساني جليل ،
فيه مواساة لبنى الإنسان ، أو مداواة لكارمهم ، كأثناء مستشفى لمرضى
السكر ، أو للولادة ، أو للفقراء ، أو ملجأ لليتامى ، أو إغاثة لمنكوبى
حريق ، أو منكوبى سيل طاغ قد طم ، أو جرحى حرب ، أو
مهاجرين منكوبين ، أو نحو ذلك من الأعمال الإنسانية التى تستمد
قوتها من شفقة ذوى القلوب ، ففي هذه الأحوال يتجه الخطيب إلى عاطفة
الرحمة فى مخاطبيه ، فيثيرها ، وطريق ذلك : (١) أن يصور المحنة فى صورة تنير
المشاعر ، وتستدر العطف (٢) ويبين للناس أن من وقعت بهم هذه المصيبة
ما كانوا متوقعين ، بل جاءتهم بيئات وهم نائمون ، أو فجأتهم من حيث
لا يشعرون . (٣) ويذكر أنها إصابة للمقدار ، وكل امرئ معرض لها ، ومن
يصاب بها يكون فى مثل حاجة هؤلاء (٤) ويبين أن بنى الإنسان أو الجماعة
المؤتلفة منهم جسد واحد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد
بالحمى والسهر (٥) وأن الرحمة من كمال الإنسان ، وأن من لا يرحم
لا يرحم ، ومن لا قلب له لا يعد فى مصاف ذوى الكمال (٦) ويحسن أن

يعرض صورا للحادثة ، إذا وجد في عرضها ما يثير الرغبة في المعاونة (٧) وليجعل الخطيب الداعي إلى الرحمة من حاله ما يناسب مقاله ، فيجعل من ملامح وجهه ، ونفحات صوته ، وحركاته ، وإشارات ما يصور عاطفته وإخلاصه فيما يدعو إليه ، فإن لذلك أثره الواضح في ذوى القلوب الرحيمة (٨) وليكثر من ضرب الأمثال ؛ فأن ذلك يثير الخيال في الناحية التي يريد بها الخطيب ، وإثارة الخيال في تلك الناحية من موقظات الشفقة ، والعطف الانساني .

وإثارة عواطف الرحمة قد تكون لب الدفاع في بعض الجنايات ، كما إذا كان المتهم معترفا بجنايته ، ولكن دفعه إليها دافع شريف ، كدفاع عن شرف ، أو عرض ، أو كرامة ، فعلى المحامي أن يصور الدافع في صورة مثيرة للعطف عليه ، وأن يحيط مرافعته بأطار من الحوادث التي تثير الرحمة في نفس القضاة خصوصا إذا كانوا محافزين ، كما فعل محام فرنسي في دفاعه عن امرأة مزقت وجه خديعة زوجها ؛ إذ رأتها معه في بيتها ، فقد جاء في ختام كلامه : « أنتم يا حضرات المحلفين . قضائنا ، وواجبكم » « أن تسألوا أنفسكم ، أفعلت ما فعلت ، عامدة قاصدة ، أم دفعها اليأس » « لذلك الفعل ، بغير إدراك ؟ لا يجوز لكم أن تقضوا بالاثانة ، إلا إذا » « تأكد لديكم أن المتهم كانت حرة الإرادة ، وكانت تستطيع أن » « تمتنع عن فعل ما فعلت . ولم تمتنع » .

« هل ارتكبت هذه المتهم الواقعة أمامكم فعلتها بدافع سيء ؟ » « أ كانت تستطيع أن تقف غضبها عند حد ، وتسيطر عليه ؟ هذا هو » « لب الموضوع . فأن وجدتم أنها احتملت كل أنواع الآلام والمذاب »

«وأنها لجأت للتهديد والرجاء، وأنها حاربت سنة كاملة؛ فاحكموا ببراءتها»
«وما تصاب امرأة كهذه إلا والله في أمرها حكمة؛ إنها لم تفعل في»
«حياتها إلا ما هو حسن، ومع ذلك حرمت زوجها؛ ولها الآن أربعة»
«أشهر كاملة محرومة من ابنتها؛ أليس ذلك مؤلماً؛ لا زوج ولا ولد؛»
«وكما ذهبت ابنتها لزيارتها في السجن؛ زادت آلامها آلاماً، نقول:»
«لها تعالى يا أمه؛ لا تبقى في هذا المسكن؛ إنه بارد مظلم؛ تعالى معي»
«للمنزل؛ فتجيبها أمها: غداً غداً يا ابنتي؛ سأحضر؛ ولكن غداً لا يحضر»
«أبدًا؛ لك الله يا بنية؛ لقد وعدناك بأنك ستأخذين أمك مساء الأمس.»
«حضرات المحلفين؛ لقد أبطأنا كثيراً؛ فانطقوا؛ انطقوا سريعاً»
«بحكمكم؛ والله يتولاكم برعايته»

التنسيق

هو تنظيم أجزاء الخطبة، وإحكام تركيبها، وربط بعضها ببعض، ووضع أدلتها في شكل منتج؛ فالتنسيق هو في الحقيقة بناء الخطبة، ونظام عقدها، يجعل معانيها متساوقة، فيأخذ بعضها بحجز بعض، ويجعل الغرض منها واضحاً، إذ لا يذكر المعنى إلا بعد التمهيد له، فيكون قريباً مألوفاً، وواضحاً مكشوفاً. وإذا أخذ به تمام الأخذ، مع تجنب لعيوبه، والتحرى لمحاسنه، ضمن للمتكلم حسن الأصغاء، وكال الانتباه.

وقد ذكر العلماء للخطبة ثلاث مراحل: الأولى المقدمة، والثانية الأثبات، والثالثة الخاتمة. وتنسيق الخطبة أن يراعى الخطيب قوانين هذه الأقسام، فيتبع محاسنها، ويجانب معاييبها. وقبل بيانها نقول: إن هذه المراحل لا تكون في كل الخطب، بل من الخطب ما لا يشتمل إلا على مرحلة الأثبات كبعض خطب الشكر، والتهنئة، والمدح، ومن الخطب ما لا يشتمل إلا على الأثبات والخاتمة؛ كبعض المراثي. وبعض الخطب، يشتمل على تلك العناصر، ككثير من الخطب المطنبية، ومرافعات الخصوم في المحاكم، وخطب الشورى في المجالس الشورية، والخطب السياسية في المؤتمرات الدولية، وغيرها.

(١) المقدمة

هي ما يجعله الخطيب صدر خطبته، (١) لينثر الفكر إليها (٢) وليعطى السامعين صورة إجمالية لها (٣) وليحصر لهم معانيه، وأفكاره في نطاق

لا يعدوه ، ولا يتجاوزوه ، ويسمى الأول حسن الافتتاح ، والثاني بيان المقصد ، والثالث تقسيم الخطاب .

وإن من الخطب ما لا يحتاج إلى ذلك كله ، فبعضها لا أقسام فيه ، فلا حاجة إلى تقسيم خطاب ، وبعضها موجز . فلا يذكر فيه إلا افتتاح صغير يناسبه ؛ إذ التكرار في هذه الحال يعيبها ، فإن من العبث التكرار مع الإيجاز ، وذكر المقصد أولاً مجملاً ، ثم بيانه ثانياً تكرار لا يتفق مع الإيجاز .

ومن الخطب ما يحتاج في مقدمته إلى كل هذه الأجزاء ، كالمرافعات للمطالبة في المحاكم ، والخطب الشورية المطالبة ، وبعض الخطب السياسية ، وخطب الجدل والمناقشات ، وقد لمحت من هذا أن ذكرها جميعاً لا يكون إلا في مقام الأطناب .

ونحن على أية حال نبين هذه الأمور ، ونذكر ما يستحسن فيها ، وما يستهجن ؛ ليكون عامها سلاحاً في يد الخطيب يستعمله إن أُلجأته ضرورة إليه ؛ أو مست الحاجة ؛ أو وجد منها ما يناسب المقام ، ويجمل الخطاب .

- ١ - حسن الافتتاح : إذا أراد الخطيب أن يجعل لخطبته افتتاحاً ،

وجب أن يعنى به تمام العناية ، وأن يجمله بكل وسائل التجميل المناسبة التي تجذب الأفكار إليه ، وتهيب الأسماع ، وتجعل النفوس تتقبله بقبول حسن ، فإن الفكرة الأولى عن شيء ، أو عن أمر ، أو عن شخص تثبت ، وتقر بالنفس ، ومحوها يحتاج إلى عناء شديد ؛ فإن كانت حسنة صعب تهجينها ، وإن كانت سيئة صعب تزيينها .

والافتتاح (إن وجد) أول ما يلقي الخطيب به الجماعة ، فإن وقع من نفوسهم موقع القبول ، كانت الخطبة غالباً على غرارها ، واستطاع أن يصل إلى قلوبهم ، وإن لم يصادف قبولا ، صعبت الحال ، واحتاج الأمر إلى خبير بأحوال النفوس ، حاذق طرق العلاج ، ووسائل الشفاء من ذلك النفار ، وهذا الشماس .

قال ابن الأثير في كتاب المثل السائر : « وإنما خصت الابتداءات »
« بالاختيار ، لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام ، فإذا كان ذلك »
« الابتداء لا ثقاً بالمعنى الوارد بعده ، توافرت الدواعي على استماعه ، »
« ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن ، كالتحميدات »
« المفتتح بها أوائل السور ، وكذلك الابتداءات بالنداء ، كقوله تعالى »
« في أول سورة الحجج : « يا أيها الناس ، اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة »
« شيء عظيم ، فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للأصغاء إليه »

والخطباء مذاهب شتى في افتتاحهم ، ولا نستطيع حصر طرقها لأن أفضل منها جهام رجعته إلى حسن تصرف الخطيب ، وجودة تقديره ، وإننا إذا كرون بعضها على سبيل المثال ، لأعلى طريق الحصر .

(١) فمن الخطباء من يفتتح خطبته بما يشير إلى موضوعها ، ويلوح بالقصد منها ، وقد كان يستحسن ذلك الجاحظ ، وابن المقفع ، فقد جاء في البيان والتبيين نقلاً عن ابن المقفع ، وتعليقاً عليه : « وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت »
« الذي إذا سمعت صدره ، عرفت قافيته ، كأنه يقول فرق بين صدر »
« خطبة النكاح ، وبين صدر خطبة العيد ، وخطبة الصلح ، وخطبة »

«المواهب ؛ حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه ، فإنه»
 «لاخير في كلام لا يدل على معنائك ، ولا يشير إلى مغزائك ، وإني العمود»
 «الذي إليه قصدت ، والغرض الذي إليه نزلت » . ومن أبلغ الافتتاحات
 التي تشير إلى موضوع الخطبة افتتاح على رضى الله عنه في خطبته بعد
 اختلاف الحكمين ، واستنصار معاوية بقول حكمه عمرو بن العاص
 فقد قال كرم الله وجهه : «الحمد لله ، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ،»
 «والحدث الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس»
 «معه إله غيره ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله . أما بعد»
 «فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تورث الحيرة ، وتعقب»
 «الندامة ، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم»
 «مخزون رأى ، لو كان يطاع لقصير أمر ، فأيتهم على إباء المخالفين»
 «الجفأة ، والمنايذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضمن الزند»
 «بقدره ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصيح الاضحى الغد
 (٢) ومن الخطباء من يبتدىء خطبته بحكمة أو مثل سائر ، أو
 ببعض أقوال المتقدمين ، أو آية كريمة ، أو حديث شريف يناسب
 المقام ، ويكون حجة في الاستدلال ، كخطيب يبتدىء خطبته في تعاون
 الجماعة في إصلاح حالها ، وتقويم الفاسد من أمرها بتلاوة قوله تعالى :
 «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن»
 «المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ، وكقول أبي العباس السفاح بالشام بعد
 الاستيلاء على الملك من آل مران :

«ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وأحلوا قومهم دار»

«البوار، جهنم يصلونها، فبئس القرار. نكص بكم يا أهل الشام، آل حرب»
«وآل مروان، يتسكعون بكم الظلم، ويتمورن، بكم مداحض»
«الزلق، يطئون بكم حرم الله، وحرّم رسوله، ماذا يقول زعماءكم»
«غدا، يقولون: ربنا، هؤلاء أضلونا، فآتهم عذاباً ضعفاً من النار»
«إذا يقول الله عز وجل: لكل ضعف ولكن لا تعلمون الخ»
وكقول أبي جعفر المنصور في مقدم إحدى خطبه بالشام بعد أن
صار الأمر للعباسيين

شئنة أعرها من أخزم من يلق أبطال الرجال يكلم
(٣) ومن الخطباء من يبتدىء خطبه بذكر كلام خصومه،
ودلائلهم، والدوافع التي دفعتهم إلى رأيهم، ثم يعقب بالنقض كما ترى
في كثير من الخطب السياسية، وخطب الخصوم في مجالس القضاء
ومطارح الخلاف

(٤) ومن الخطباء من يفاجئ السامعين في مفتتح كلامه بما يزعجهم
كما كان يفعل الحجاج في ابتداء خطبه: ومنها خطبته التي أولها
أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
(٥) ومن الخطباء من يفتتح خطبته ببيان أنه من الجماعة التي
يخاطبها، وأنه في مستواها، ليقربها إليه، ويكون لكلامه فضل تأثير
فيها كما قال ولسن في افتتاحه خطبة له في اتحاد العمال:

«لقد قدمت إليكم على أني رئيس للولايات المتحدة، ومنع ذلك»
«أود لو وضعتم فكرة المنصب جانبا، وعدتموني رجلا من بني الوطن»
«جاء إلى هنا؛ لكي يتكلم كلام المشورة، والنصيحة، لا كلام السلطان»

« كلام رجال ، يخاطب كل منهم الآخر ، ويريد أن يكون صريحاً في »
« وقت قد يكون أعظم حرجاً مما عرفه تاريخ العالم بأسره حتى الآن »
« فالواجب يقضى على كل رجل في هذا الوقت أن ينسى نفسه ، ومصالحه ، »
« ويملاً نفسه بكل ما في النظرية التي يعتنقها الوطن والعالم من نبل ، »
« ويعمل في ميدان جديد ، يترفع عن شؤون الحياة العادية ، ويكون »
« حيث ينظر الرجال إلى أقدار الجنس البشري الخ الخ »

(٦) ومن الخطباء من يفتتح خطبته بأحياء آراء قديمة للجماعة ،
يبني عليها ما يدعونه إليه من جديد ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم
عند ما أئذر عشيرته الأقربين ، إذ سأله عن صدق حديثه ، فقال :
« أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم »
« مصدقي ، فقالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً » فألقى عليه السلام خطبته
وقد يحيي الخطيب بافتتاحه كلاماً كان قد قاله ، ليربط بين ما قاله
أولاً وما يقوله الآن ، فيكون ذلك إيناساً للمعلومات ، وتوثيقاً لها
(٧) وقد يبتدىء الخطيب خطبته ، بالثناء على السامعين ، ليهيء
نفوسهم ، لتلقى كلامه بالقبول ، إذ لا شيء يهز أعطاف السامعين
كالثناء عليهم ، وذلك باب واسع يصح الدخول فيه بشرط الاتزان
وضبط النفس .

(٨) والخطب الدينية يستحسن فيها أن تبدأ بالحمد لله^(١) وبيعض

(١) كان الخطباء في صدر الاسلام وفي العصر الاموي وفي العصر العباسي
يبتدئون خطبهم بالحمد لله . وتعتبر الخطبة براء اذا لم تبدأ بذلك . ولبس هذا
البداء عيباً كما توهم بعض الناس . لان هذه الخطب كانت دينية بحتة أو تنحو

الأحاديث الشريفة ، أو الآيات القرآنية التي تناسب المقام الدينى الذى يتكلم فيه

وإذا لم يكن موضوع الخطبة دينياً ، ولم يرد أن يبدأ بما يلبسها الشعار الدينى ، فليختر من الافتتاحات ما يكون فيه : جده ، ليكون فيه إثارة للاهتمام ، وتنشيط للأفهام ، وليجتهد فى ألا يبدو التكلف فى افتتاحه وإلا ثقل على النفس كلامه ، فيصعب عليه الوصول إلى غرضه ومهما يكن من أمر الافتتاح فيجب (١) أن يكون قصيراً موجزاً ؛ لكيلا يشغل الذهن بغير المطلوب ؛ فينصرف عن الطلب الأول إلى ما هو بالمحل الثانى (٢) وألا يكون مبتذلاً تمجده الأسماع (٣) وأن يكون موافقاً للموضوع .

هذا ويلاحظ أن كثيراً من الخطباء لا يتجهون إلى افتتاح خاص لكلامهم أياً كان نوعه بل يهجمون على المقصد . ولا ضير فى ذلك ؛ لأن الافتتاح ليس أمراً لازماً للخطبة ؛ ولكن إن جئ بها يجب أن يلاحظ فيه ما بينا . وقد يسمى بعض الأدباء ذلك افتتاحاً ساذجاً

ب- المقصد : أن يذكر المتكلم فى صدر كلامه الموضوع الذى سيتناوله إجمالاً ، من غير تفصيل ، وذلك لتهيء الأذهان لتأقيقه ، ويشعروهم برفق إلى ما سيقوله .

ولا بد عند ذكر المقصد من ملاحظة ثلاثة أمور (١) أحدها أن يذكره فى قضية عامة ، لا يبتئها على مقدمات ، لأنه لو بناها على

منحى دينياً فى جملتها : وكان الخطباء متدينين يتيمنون بذكر اسم الله سبحانه وتعالى ، وبذلك يحيطون خطبتهم بسياج من الدين الحكيم .

مقدمات ، كان ذلك سياقاً برهانياً ، وهو أجدر بالأثبات منه بالمبادئ ،
فمثلاً إذا كان موضوعه الذي هو بصدد الكلام فيه الدعوة إلى تثبيت
نظام ، أو منع فوضى ، قال : السطان وازع الله في أرضه . وإذا
كان يريد الدفاع عن منهم ، ببيان أن أدلة الاتهام تحوم حولها الشبهات ،
يقول مثلاً : المتهم برىء حتى يقوم الدليل على جنايته ، وكل شك يكون
في مصلحة المتهم ، لا في مصلحة الاتهام . وإذا كان يريد أن يخطب
جمعاً يحثهم على إحياء القرآن الكريم ، بحفظه ، والعمل به ، يقول مثلاً :
في القرآن نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وفي كل هذا
ترى الموضوع قد ذكر في قضية عامة

(وثانيها) أن يكون واضحاً في الدلالة على الموضوع ؛ لأنه إن
لم يكن كذلك ، لم ينمر ثمرته المرجوة ، وألقى في نفس السامع روح
التبرم ، وكان ذلك طريقاً لورود السأم إلى قلبه .

(وثالثها) أن يلقي في جملة تثير خيال النفس ، وتهزها ، فتنشط إلى
سماع ما يقال ، وتهتز أوتار القلب لكل ما يجيء به الخطيب من معان ،
وعبارات جيدة محكمة ، ومن أبلغ المقدمات التي اشتملت على مقصد
بليغ قول على بن أبي طالب رضي الله عنه في إحدى خطبه التي يحث فيها
على قتال العدو :

« أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة »
« عنه ألبسه الله ثوب الذلة ، وشمله البلاء ، وألزمه الصغار ، وسيم »
« الخسف ، ومنع النصف ، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم »

« ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً الخ الخ (١) »

هذا وليس بلازم أن يذكر المقصد دائماً ، بل قد يوجب المقام إهماله ، وذلك إذ أراد الخطيب أن يستدرج السامعين إلى ما يريد أن يأخذهم به ولو صرح لهم به لنأوا عنه ، وأعرضوا بجانبهم ، وقاطعوه ، ففى مثل هذه الحال ، يجب عليه أن يأخذهم فى رفق إلى ما يريد ، من غير أن يصرح بمقصده ؛ ألا ترى فيما ذكرنا فى موقف انونيو فى رواية يوليوس قيصر ، لو صرح لهم بغرضه فى أول الأمر ، وهو بيان أن قتلته ظلمة ، ما استطاع أن يتم خطبته ، بل ربما مزقته الجماعة كل ممزق .

لذا نقول إن المقصد ليس بلازم ذكره فى كل الأحوال ، بل من الأحوال ما يجب فيها إخفاء الموضوع ، حتى يبالغ الخطيب غايته ، من تهية النفوس ، لتلقيه إن كانوا عنه معرضين ، وله غير مدعين ، أو اضطر إلى أن يخاطبهم بغير ما بالفون

ح - تقسيم الخطاب : إذا كانت الخطبة واسعة الأطراف ، مترامية

النواحي ، كثيرة الشعب ، كان على الخطيب أن يجمع أشباتها ، ويضبط أجزاءها ، ويقسمها تقسيماً جامعاً لأطرافها ، وحواشيها ، وذلك .
(١) ليجمع عناصرها عنصراً ، عنصراً ، وتتميز أجزاؤها جزءاً ، جزءاً ، فلا يكون فيها اضطراب ولا تهوئش ، ولا شرود . (٢) وليقف السامع على سياقها ، وترتيبها ، فيكون على بينة منها ، فيترقب كل جزء فى موضعه ، وذلك داع لا تنباهه ، ويقظته ، وحرصه على الإدراك ،

(١) قد تقدم بعضها وارجع اليها كاملة فى كتاب البيان والتبيين
ج ٢ ونهج البلاغة ج ١ -

والفهم بعد السماع والالتفات . (٣) ولكيلا يضيع جزء منها ، في مهيب الاضطراب ، والطول ، واتساع أطراف الموضوع .

(١) ويجب على الخطيب أن يذكر الأقسام في صدارة الخطبة في وضوح وجلاء ، وإيجاز . (٢) كما يجب أن تكون الأقسام جامعة لكل أطراف الخطبة ، غير تاركة جزءاً من أجزائها . (٣) وأن تكون فيما بينها متباعدة ، بحيث لا يكون قسم داخل في قسم آخر ، حتى لا يكون اضطراب ، وتهویش ، وتكرار من غير حاجة إليه ، فيلقى في النفس سامة وملالا . (٤) وأن تكون العلائق وثيقة بين الأجزاء ، بحيث يكون كل جزء كالترتيب على سابقه ، حتى لا تكون الخطبة مقطعة الأوصال ، منفصلة العرا ، غير حسنة الانسجام (٥) وأن يشرح الأقسام بالترتيب الذي ذكره في صدرها ، حتى لا يضطرب فكر السامع ، ولكيلا يابس عليه ، ولكي يكون النظام سكاماً ، فلا يكون تهویش ، ولا خلل .

وأكثر ما يكون التقسيم في المرافعات القضائية ، والخطاب السياسية الوطنية ، والشورية المسهبة ، كما ذكرنا ، ومن المرافعات التي ذكر التقسيم الخطابي في أولها ، مرافعة أحمد لطفى السيد بك ، في الدفاع عن المتهمين في حادثة دنشواى ، فقد قال في مقدمة دفاعه : « بعد أن سمعت المحكمة مرافعة زملائي ، يكون مركزى حرجاً ، ومجالى ضيقاً ، « وإني لأخشى أن أقول الحق . وأحصر دفاعى في ثلاث كلمات : فالكلمة « الأولى عن سبب الجريمة ، والكلمة الثانية عن تطبيق القانون ، والكلمة « الثالثة في العقوبة ، والطايات ، وتقدير المسؤولية » . ثم أخذ يشرح

تلك العناصر .

وإذا كان الخطيب في خطبته يرد على خطيب آخر، يحسن بالتقدير الممكن أن يجعل الأقسام . ذات اتصال بكلام الخصم، وأقسام كلامه؛ ليتلاقى الرد مع قول الخصم، فيتمضح النقض، ويظهر التفنيذ، ومن أجدود ما جاء في ذلك مرافعة المرحوم أحمد بك لطفي في الدفاع عن قاتل بطرس باشا غالى رئيس الوزارة المصرية الـأسبق، فقد ذكر بعد افتتاحه ما يأتى :

« تطلب النيابة معاقبة المتهم بمقتضى نص المادة ١٩٤ على اعتبار »
« الفعل المسند إليه جريمة تامة ، وتستند فى ذلك على (١) أن المتهم »
« مسئول قانونا عن وفاة المرحوم بطرس باشا غالى، سواء أ كانت تلك »
« الوفاة نتيجة مباشرة للأصابات التى أحدثها فى جسم الفقيد، أم كانت »
« نتيجة الصدمة الناتجة عن العملية »

« (٢) وأن الاصابات المذكورة فى الواقع هى التى أحدثت الوفاة »
« مباشرة . والدفاع يحجب عن التهمة بما يأتى : »

« (١) انه يجب لمسئولية المتهم عن جريمة القتل التام، أن تكون »
« إصابة المتوفى ، أحدثت الوفاة مباشرة . »

« (٢) أن طريق إثبات العلاقة السببية بين الجروح وبين الوفاة ، »
« لا يقوم إلا بطريق واحد، وهو الكشف الطبى الشرعى الذى يجب »
« أن يعمل بطريق تشريح الجثة »

« (٣) أنه بالرغم من ذلك ، لم يثبت من الأدلة التى أقامتها »
« النيابة ، أن الاصابات المذكورة، سببت وفاة المرحوم بطرس باشا »

« غالى ، وأنها ما كانت نتيجة العملية ، أو أى سبب آخر مجهول »
« (٤) أنه مهما كان وصف الجريمة قتلا ، أو شروعا فى قتل ، فإن »
« المتهم أيضا غير مسئول عنها ، ويجب تبرئته منها ؛ لأنه وقت ارتكاب »
« الفعل لم يكن مالكا لقوة الإرادة والاختيار ؛ فتسبب عنه قتله »
« لذلك يجب أن نتكلم عن كل من هذه النقط » . ثم يأخذ فى بيانها
بأطناب . وترى من هذا كيف بنى أقسام كلامه على تفنيد كلام الخصم

(٢) الأثبات

هو موضوع الخطبة ، وغرضها ، إذ فيه تأييد القضية التى يدعو
إليها بالدليل ، والدليل عمود الخطبة ، وقطبها ، وقد كان بعض الأقدمين
من الفلاسفة ، يرى أنه لا يسوغ للخطيب أن يستعمل من وسائل
الأقناع سواه ، كما ذكر ابن سينا فى الشفاء ، ولكن الحق غير ذلك ، كما
علمت فى الأقناع الخطابى الذى بيناه .

والأثبات قسمان : أحدهما شرح الأدلة التى يعتمد عليها الخطيب فيما
يدعو إليه ، وتوضيح القضية بضرب الأمثال ، ونحوها ، ويسمى ذلك القسم
تبيانا ، والآخر هو إبطال حجج الخصم بما ينقض دعواه ، ويسمى تفنيدا

التبيان

١- الأقيسة الخطابية والمنطقية

فى التبيان يشرح الخطيب دعواه ، ويؤيدها بما يراه مثبتا لها ، مقما
لأركانها ، منيرا الأفكار لا أدراكها . وقد تكلمنا فيما مضى فى طرق

إثارة الأهواء ، ومصادر الاستدلال . ونريد أن نتكلم هنا في وضع الأدلة وضعاً يلائم الخطابة ، ويتفق مع الغرض المنشود منها ، والمرمى المقصود .

ولا شك في أن وضع الأدلة الخطابية يخالف وضع الأدلة المنطقية وبعبارة أدق ، نقول : إن الأقيسة الخطابية لا تتفق مع الأقيسة المنطقية من كل الوجوه ؛ ولا تتلاقى معها في كل النواحي

(١) لأن الأقيسة المنطقية تتألف من قضيتين تسميان مقدمتين ، ولا بد أن تكون كلتاها يقينية ، بينما الأقيسة الخطابية ، أو الأساليب الخطابية ، لا تستلزم دائماً ذكر المقدمتين ، بل يكفي في كثير من الأحيان بذكر إحدى المقدمتين ، وتطوى الثانية ؛ لفهمها من فحوى الكلام ؛ وروح الخطاب . ولا يلزم أن تكون مقدمات القياس الخطابي يقينيتين ، بل يكفي في كثير من الأحيان بالظن الغالب ، أو العرف الشائع ، أو المشهور المستفيض ، أو قول من عرف بالحكمة والسداد ، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فيما مضى

(٢) ولأن الأقيسة المنطقية ؛ يكفي في وضعها بذكر المقدمتين والنتيجة ، من غير أن يكسو المنطق الكلام بأي طلاء يجعله لدى العاطفة مقبولا ؛ بينما الأقيسة الخطابية لا يكفي في وضعها بذلك ، بل لابد من كساء ؛ من ألفاظ سهلة رشيقة ، أو ضخمة فخمة ؛ وضرب الأمثال ؛ والتقريب والتوضيح ؛ بالموازنات ، والمقاييسات

(٣) وفي الجملة إن الأقيسة المنطقية مقيدة بأشكال ووجوه لا تعدوها ؛ لكي تكون عصمة الذهن من الخطأ تامة ، بينما الخطيب غير مقيد في

استدلاله بأشكال ووجوه ، بل هو يتتبع مع مواضع التأثير ، ومخاطبة
الوجدان والعاطفة ، كما يتتبع الراعى مواضع الكلام ، ومنابت العشب ،
ومساقط الماء ؛ ليغذى أرواح السامعين ، كما يغذى هذا أبدان مراعاه
والأمثلة على ذلك كثيرة ، بل كل الخطب لا تخلو من أن تشمل
على أقيسة محللة من قيود الأشكال المنطقية . ولا ننكر أن التزام
الشكل المنطقي في بعض أجزاء الخطبة قد يكون مجحلاً لها ، يعطيها
رونق التحقيق ، ويكون ذلك شيئاً طريفاً في وسط التأثيرات الخطابية
وأساليب البيان ، ولكن ذلك لا يحسن إلا إذا كان المخاطبون ممن
يدركون تلك المناحي ، وممن يفهمون ذلك النوع من الخطاب ؛ فإن
لكل قوم قدراً من المعاني ، ونوعاً من الكلام ؛ وقد قال بشر بن المعتمر
في رسالته التي دفعها لأبراهيم السكوني ، وهو يعلم الصبيان الخطابة :
« ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار »
« السامعين ، وبين أقدار الحالات ؛ فيجعل لكل طبقة من ذلك ،
« كلاماً ؛ ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على »
« أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني : على أقدار المقامات »
وعلى كل حال يجب ألا يكثر ذلك في الخطبة ، فيسودها
الجفاف ، وتذهب الطرافة ، وتنبو التعابير ، وتبعد عن المألوف في
حسن الخطاب ، وتخرج الخطابة عن معناها ، وطبيعتها ، وعلى الخطيب
إذا استعمل قياساً منطقياً في خطبته أن يعقب عليه بتوضيح معناه ،
بعبارات خطابية ، وعبارات موشاة توضح مبهمه ؛ وترطب جنافه .
وأكثر ما تحسن الأشكال المنطقية في مرافعات المحامين التي

تقييد بقيود وثيقة من مواد القانون ، وتخريجاته ، وتطبيقه . ولا تحسن إلا بالشروط التي أسلفناها ، ولا بد أن تكون في صدر الجزء الذي تتعلّق به ، أو في ختامه . فمثلاً إذا كان المحامى يريد أن يثبت أن أن عقد بيع مزرعة كان صورياً ، وأنه خرج مخرج الوصية ؛ لأنّ الصفقة كبيرة ، ولا يعرف المشتري مصادر مالية ، تناسب الثمن ، ولأنّه لم يدفع الضرائب عن المزرعة ، بل دفعها البائع إلى أن مات ، ولأنّه لم يستوف أجرها طول حياة البائع ، ولأنّ البائع أب للمشتري - إذا أراد المحامى هذا الأثبات ، قال فى أدل الكلام فى هذا الجزء ، أو فى آخره : المشتري ابن البائع ووارث له بعد موته ، وقد باعه تلك المزرعة الكبيرة بيعاً صورياً ، يخرج مخرج الوصية شرعاً ، وكل وصية للوارث لا تصح شرعاً إلا بأجازة الورثة ؛ فهذا العقد لا يصح إلا بأجازة ، الورثة ، ثم يأخذ فى بيان ما يراه مثبتاً لهاتين المقدمتين بأقيسة قد اختلطت فيها الحقائق بالأساليب الخطائية . هذا إذا ذكر ذلك القياس أولاً . وإن أراد أن يذكره آخره ، شرح الحقائق على النحو الذى ذكرناه ، ثم عقب به ، فيكون ثمرة للشرح الذى سبقه . ويكون له وقع حسن فى نفس القاضى ومجلس القضاء .

الأقيسة والأساليب الخطائية : وإذا عرفنا الفرق بين الأقيسة المنطقية ، والأقيسة الخطائية ، وما يستحسن من المنطق فيها ، والشروط التى يجب اتباعها عند وضع الاشكال المنطقية فى الخطبة إذا عرفنا ذلك ، وجب أن نعرف الاوضاع الخطائية التى يسوق فيها الخطيب الأدلة على صحة دعواه ، وبيان مرماه

لذا نقول: إن لذلك طرائق متشعبة؛ ومسالك متباينة؛ يشتقها الخطيب من حال الجماعة؛ ومن تجاربه الخاصة؛ ولا لك لاستطيع لها إحصاء؛ فنكتفي بذكر بعض أوضاع؛ شاع استعمالها في الاستدلال الخطابي.

١- الاستدراج: ألا يفجأ السامعين بالتزمير بحما يعتقد دكله، بل يشككهم فيما يعتقدون، وفيما يفعلون، أو يصرح لهم ببعض ما تنتججه براهينه؛ حتى إذا آانس منهم رشدا، وأدرك منهم ميلا خاطبهم بكل نفسه، وقد يكتفي ببيان ذلك القدر؛ إن لم تكن النفوس قد تهيأت، والعقول قد استيقظت لأدراكه كله. والاستدراج باب خطابي واسع النطاق، وقد تصدى لشرحه بعض علماء الأدب العربي، ونقل لك ما كتبه فيه ابن الأثير في المثل السائر إذ جاء فيه: « هذا الباب قد استخرجته من كتاب الله تعالى، وهو من مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال، والكلام فيه، وإن تضمن بلاغة، فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة؛ في استدراج الخصم إلى الأذعان والتسليم، وإذا حقق النظر فيه، علم أن مدار البلاغة كلها عليه؛ لأنه لا انتفاع بأيراد الألفاظ المليحة الرائقة، والمعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مستجلبة لبوغ غرض المخاطب بها. والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيرا في خلاصة، لا قصيرا في خطابه... وقد ذكرت في هذا النوع ما يتعلم منه سلوك هذا الطريق، فمن ذلك قوله»

« تعالى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا »
« أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا ، فعليه »
« كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدي من »
« هو مسرف كذاب . ما أحسن مأخذ هذا الكلام ، وألطفه ، فانه أخذهم »
« بالاحتجاج على طريقة التقسيم ، فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون »
« كاذبا ، فكذبه يعود عليه ، ولا يتعداه ، أو يكون صادقا يصبكم بعض الذى »
« يعدكم ، إن تعرضتم له ، وفى هذا الكلام من حسن الأدب »
« والأصاف ، ما أذكره لك فأقول : إنما قال يصبكم بعض الذى »
« يعدكم ، وقد علم أنه نبي صادق ، وأن كل ما يعدهم به ، لا بد أن يصيبهم كله »
« لا بعضه ، لأنه احتاج فى مقابلة خصوم موسى عليه السلام ، أن »
« يسلك معهم طريق الأنصاف ، والملاطفة فى القول ، ويأتيهم من »
« جهة الناصحة ؛ ليكون أدعى إلى سكونهم إليه ، فجاء بما علم أنه »
« أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل فى تصديقهم إياه ؛ فقال : وإن يك »
« صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، وهو كلام المنصف ، وذلك أنه »
« حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يعد به ؛ لكنه »
« أردف بقوله : يصبكم بعض الذى يعدكم ؛ ليضم بعض حقه فى ظاهر »
« الكلام ؛ فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا ، فضلا »
« عن أن يتعصب له ، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل »
« كأنه برطلهم فى صدر الكلام بما يزعمونه ؛ لئلا ينفروا منه . . . »
« ومما يجرى على هذا الأسلوب قوله تعالى : وأذكر فى الكتاب »

« ابراهيم : انه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لآئيه : يا أبت ، لم تعبد مالا »
« يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت ، إني قد جاءني من »
« العلم ما لم يأتك ؛ فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت ، لا تعبد الشيطان »
« إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت ، إني أخاف أن يمسك »
« عذاب من الرحمن ؛ فتكون للشيطان ولياً . هذا كلام يهز أعطاف »
« السامعين » . ثم أخذ يشرح الاستدراج في هذه الآية الكريمة ، وهو واضح للمتأمل البصير . وترى من هذا كله كيف يتخذ الاستدراج طريقاً لا ثبات المدعى ؛ وذلك بأن يبدأ الخطيب في إلقاء الريب فيما عليه من مخاطبتهم ، ثم يلقي إليهم ببعض ما تنتجه الأدلة مغضياً النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التي تنتجها البراهين ، حتى إذا اطمأن إلى أنه قد أخذ بزمام الجماعة ، يقودها إلى حيث شاء ، ألقى إليهم بالنتائج كلها لبراهينه . والاستدراج كما رأيت يكون في المقامات الخطابية التي يكون الخطيب فيها متصدياً للدعوة لا مراً لم تألفه الجماعة ، أو لفكرة تناقض أمراً اتفقت عليه .

ب - القصص : قد يعتمد الخطيب إلى وضع أدلته في شكل قصص ؛ فيذكر حال جماعة تشابه الجماعة التي يخاطبها ، ويذكر ما يجري بينها من مناقشات في الموضوع الذي يتكلم فيه ، ويجري الحجة على ما يدعو إليه على السنة الفريق الذي يدعو إلى الرشاد ، وقد يذكر المعنى الذي يرى إتيه مصوراً في قصة فرضية ، أو حقيقية ؛ ليكون المعنى واضحاً مكشوفاً ، كما كان يفعل الخطباء القصاص في العصر الأموي . ومن أبلغ القصص الذي كان طريقاً منتجاً للاستدلال قصص الحسن

البصري ، ومن أبلغه ما قاله في بيان أن الناس متساوون ، لا فرق بين شريف ووضيع بعد الموت فقد قال : « قدم علينا بشر بن مروان أخو »
« الخليفة ، وأمير المصريين ، وأشب الناس ، فلما صرنا به إلى الجبانة »
« فاذا نحن بأربعة سودان ، يحملون صاحبنا لهم ، فصلوا عليه ، ثم »
« حملنا بشرا إلى قبره ، وحملوا صاحبهم إلى قبره ، ودفننا بشرا ، ودفنوا »
« صاحبهم ، ثم انصرفوا ، وانصرفنا ، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر »
« بشر من قبر الحبشى ، فلم أر شيئا قط كان أعجب منه » . انظر إليه
قد بين مساواة الناس بعد الموت في ذلك القصص الواضح الذى يدفع
إلى التسليم قسرا ، وفيه من لطف الإشارة ، وحسن التعريض ما يزيد
جمالا ، ويستغنى به عن كل استدلال .

ومن وضع الأدلة في وضع قصصى كل الأمثال الفرضية التى
يذكر فيها قصص غير حقيقى ، وتجربى حقائق على السنة الحيوان
كما فعل ابن المقفع فى كتابه كناية ودمنة ، ومن ذلك النوع . خطبة
سيدنا على رضى الله عنه التى ضرب فيها مثلا : الثور الأبيض ، والاسود ،
والأحمر ، وقد ذكرناها فيما مضى فارجع إليه .

ج - الأقيسة الاضمارية وذو الحدين والتمثيل والخلف : قد يستعمل

الخطيب تلك الأقيسة فى خطبته لتلاؤمها مع الأغراض الخطابية ،
وأسلوب البيان ، والحقائق التى يرمى إلى بيانها الخطيب ، وتلك الأقيسة
تؤدى بعض ما تؤديه الأقيسة المنطقية ، ولا يضر ذكرها ، بعبارات
البلغاء . ولا ينافى روعة الكلام . وقد قال ابن سينا فى الشفاء

« الخطابة معولة على الضمير (١) والتمثيل » وقال في موضع آخر : « إن »
« الخطابة إنما تحذف الكبريات فيها ؛ لأنها لو صرح بها لزال الاقتناع »
(١) والقياس الاضماري شائع الاستعمال في الخطب فان أكثر
الخطباء يعمدون في استدلالهم إلى طى بعض المقدمات ؛ لأنها مفهومة
من خوى الكلام . وواضحة من لحنه ، ومن ذلك قول على في خطبته
عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة « إن في طاعة الامام عصمة »
« لأمركم ؛ فأعطوه طاعتكم غير ملومة ، ولا مستكره بها » وروى من
هذا أن إحدى مقدمات القياس محذوفة إذ لو وضع الكلام وضعاً منطقياً
لقليل إن في طاعة الامام عصمة لأمركم وكل ما اشتمل على عصمة أمركم
يجب الأخذ به الخ . فحذفت كبرى القياس . ولا تكاد تجد خطبة
تخلو من ذلك النوع من الحذف ، إلا في النادر القليل .

« ٢ » والقياس ذو الحدين : أن يفرض في القضية فرضين . ويبين
أن كلا منهما يؤدي إلى غاية . أو يثبت نقيض ما يدعو إليه خصمه
كما قال على رضي الله عنه في كتاب أرسله إلى طلحة والزبير رضي الله
عنهما « قد علمتما أنكما ممن أرادني وبايعني ، فان كنتما بايعتماني طائعين »
« فارجعا إلى الله ، وتوبا من قريب ، وإن كنتما بايعتماني كارهين ، فقد »
« جعلتما لي عليكما السبيل بأظهاركما الطاعة ، وإسراركما المعصية »

« ٣ » والتمثيل أن يقيس الأمر الذي يدعو إليه على أمر مسلم به
عند الجماعة . فيلحقه به في الحكم لجامع بين الأمرين ، وكثيراً ما يكون
ذلك في الخطابة ، خصوصاً إذا أراد الخطيب أن يقرب ما يدعو إليه
(١) يقصد بذلك القياس الاضماري وهو ما حذفت فيه كبرى القياس .

من المعروف لديها المؤلف عندهما ، ومما جرى مجرى الاستدلال التمثيلي قول على رضى الله عنه فى شأن مبايعة المؤمنين لآبى بكر رضى الله عنهما :
« لكن نبينا كان نبى رحمة ، مرض أياما وليالى ؛ فقدم أبى بكر على »
« الصلاة ، وهو يرانى ، ويرى مكانى . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه »
« وآله وسلم رضينا لأمير ديننا ، إذ رضى رسول الله صلى الله عليه وآله »
« وآله وسلم لأمير ديننا ، فسلمت عليه وبايعت ، وسمعت ، وأطعت »

(٤) قياس الخلف : وهو الذى يقصد فيه إثبات المطلوب بإبطال نقيضه كقوله تعالى : « لو كان فىهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله »
« رب العرش عما يصفون » وكثيراً ما يتخذ ذلك وسيلة للإثبات ولا بطلان دعوى الخصوم فى الخطب القضائية فى دور المحاكم . ومن ذلك مرافعة بعض وكلاء النائب العمومى فى فرنسا ، يطالب بإعدام متهم بالقتل ، ودلل على ذلك بعد إثبات القتل ، بإبطال كل طلب للتخفيف فقال « أيجوز لى - بعد ما أظهرته لحضراتكم من الظروف »
« المشددة ، أن أتحدث عن الظروف المخففة ، ولو لمجرد الرد عليها ، »
« ظروف مخففة أين هى ؟ أين مكانها ؟ إنى لا أرى فيها حولى إلا »
« دماً مهراقاً ؟ أتبحثون عنها فى سوابق التهم ؟ فما أسوأها من »
« سوابق ، لقد نسى ما علمه له أهله من دروس حكيمة ، ولم يصغ »
« لنصائح والده ، فقاده سوء الخاق لا ارتكاب الجرائم ، أم تبحثون »
« عنها فى الباعث له على ارتكاب الجريمة ؟ لقد قتل ، ليسرق ، لقد »
« أسال هذا الدم الغالى البرىء ، الذى لا ترده أموال الدنيا جميعها ، »
« ليكسب مقدار حقيراً من المال دراهم معدودة ، أم تريدونها فى »

«الطريقة التي ارتكبت بها جريمته ؛ لقد ارتكبتها بطريقة وحشية ،»
«تقشعر من هولها الفطرة الانسانية ، أم في وقفته أمام القضاء ،»
«وها هو ذا يقف لا موضع للندم في قلبه ، ولا أثر للأسف في نفسه»
«يقذف في وجه القضاء بالأكذوبة ، تتلو الاكذوبة غير هياب ،»
«ولا وجل»

هذا ، ويجب على الخطيب في إيراد قضيته وتأييدها بدلائلها ،
أن يجعل كلامه متماسكا آخذا بعضه بحجز بعض ، بحيث تكون كل
فكرة ممهدة لما تليها ، منبئة عنها ، أو مشيرة إليها ؛ لأن الفكرة
لا تعيش إلا مع أخواتها ، أو مع ما يلائمها ، فإن ذكرت من غير
تمهيد ، لم تستقر في النفس ، ولم تسكن في القلب ، وفوق ذلك
لا يكون الكلام متسقا في تركيبه ، متساوقا في معانيه

ولذلك يجب على الخطيب أن يلاحظ قانون تسلسل الأفكار ،
ملاحظة تامة ، ليستخدمه في إثارة أفكارهم ، وتهيئتها لما يريد ، فإن
أثار خواطرهم نحو فكرة ، ألقى اليهم فيها ما يرضي هممتهم ، وما يكون
إجابة لطلبهم ، فيستقر في النفس ؛ لأنه يكون بيانا في وقت الحاجة
اليه ، فيتمكن في النفس أبلغ تمكن ، وينبت فيها أقوى ثبات
التفنيد

هو أن يبين الخطيب بطلان ما يدعيه الخصم
والتفنيد مقام خطير لا يناله إلا ذو البيان القوى الذي أوتي أكبر
حظ من حضور البديهة ، والعلم الغزير ، والاستيلاء على أساليب القول ،
إذ هو جواب الخصم على ما يدعي من مذهب ، وما يؤيده دعواه من حجج ،

وهو إزالة تأثير حجج الخصم، وأثرها في نفوس السامعين، وقد قال ابن عبد ربه في العقد الفريد : «إن أجوابات هي أصعب الكلام كله مركبا. وأعزه»
«مطلبا، وأغمضه منصبا، وأضيقه مسلكا؛ لأن صاحبه يعمل مناجاة»
«الفكرة، واستعمال القريحة، يروم في بديته نقض ما أبرم القائل في رويته»
«فهو كمن أخذت عليه الفجاءة، وسدت له الخارج، قد اعترض الأُسنة»
«واستهدف للمرامي لا يدري ما يقرع فيتأهب له، ولا ما يفجؤه من»
«خصمه فيقرعه بمثله. ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بجامع الكلام»
«فقداه بزمامه بعد أن رأى فيه، واحتفل، وجمع خواطره، واجتهد»
«وترك الرأي يغيب، حتى يختمر... فلا يزال في نسج الكلام»
«وامتثباته؛ حتى إذا اطمأن شارده وسكن نافرده، صك به خصمه»
«جملة واحدة، ثم قيل له: أجب، ولا تخطيء، وأسرع، ولا تبطل»
«فتراه بجواب من غير أناة، ولا استعداد يطبق المفاصل، وينفذ»
«المقاتل، كما يرمى الجندل بالجندل، ويقرع الحديد بالحديد، فيحل به»
«عراه، وينقض به مرائره، ويكون جوابه على أكثر كلامه»
«كسحابة لبدت عجاجته، فلا شيء أعضل من الجواب الحاضر، ولا»
«أعز من الخصم الألد الذي يقرع صاحبه، ويصرع منازعه بقول»
«كمثل النار في الخطب الجزل»

وللتفنيد حالان : إحداهما أن يتصدى لنقض براهين الخصم قبل أن يدلى بها وذلك بأن يفند كل ما يتصوره دليلا لخصمه، ويفرض كل الفروض، ثم يهدمها فرضا، فرضا، حتى لا يبقى أمرا ثابتا سوى

دعواه ، ويعمد إلى هذا بعد أن يشبع السامعين ، بدلائل إيجابية ، على صا ق دعواه ؛ ليكون التعقيب قطعاً لطريق الأثبات على الخصم ، ومهاجمة له في صميم استدلاله .

ثانيهما : أن يرد على الخصم بعد إلقاء أدلته ، بأن يبين ما فيها من غلط وتلباس ، ويبطل ما يتجه إليه من نظر .

ومهما يكن وقت رده ، فيجب أن يكون هو متنبها يقظا إلى كل ما يعتمد عليه خصمه ، من دليل ، وأن يكون في رده عليه واضحاً ، معلناً أن الغرض الوصول إلى الحق ، لا القلب والسبق ، وألا يثمرد عن موضع النزاع ، ولا يحيد عن الاعتصام بأداب اللياقة وحسن الأخلاق .

وأوجه الرد على الخصوم متعددة مختلفة متباينة : منها إبطال مقدمة دليل خصمه ، ومنها إقامة الدليل على نقيض دعواه ، والموازنة بين الدليلين ، وإثبات أن دليله أقوم قيلاً ، وأسد منهجاً ، ومنها المنع وعدم التسليم ، وبيان أن لا دليل على ما يقول ، ومنها الاستشهاد بالثقات على ما يقول .

وأقوم أساليب الرد أن يبتدىء عند تفنيد أدلة خصمه ، يذكرها واضحة قوية الوضوح ، ويحسن أن يضعها في شكل قياس منطقي ؛ لأن الأشكال المنطقية ، يساعد وضعها على تزييف ما يراه الخصم ؛ إن كان هناك موضع للتزييف ، ثم يتجه عند نقضه إلى الأقيسة الخطائية ، والأشكال المنطقية معاً ، على النحو الذي أسلفناه في التبيان .

ومن أمثل الخطاب المشتملة على تفنيد كلام الخصم في نهوض استدلال مع الأدب الجهم، والخطاب الرائق، ما جاء في إحدى خطب المغفور له سعد باشا زغلول في الجمعية التشريعية يرد على الحكومة فيما كانت تراه في إنشاء الجماعات التعاونية فقد قال : « موضحنا الذي تتناقش فيه » «والذي أستلفت إليه أنظار حضراتكم هو هذا، كيف تتكون شركات » «التعاون ؟ هل تتكون بأمر من السلطة الإدارية ، أو بدون أمر » «من هذه السلطة ؟ ترى الحكومة وجوب ألا توجد هذه الشركات » «إلا بأمر إداري ، وترى اللجنة أنها توجد كسائر الشركات التي لا تحتاج » «في تكوينها ، إلا إلى العقود ، ولكن لا يكون وجودها حجة على » «الغير ، إلا إذا سجلت عقودها ، بطريقة خاصة ، وبحسب شروط » «خاصة . تقول الحكومة تأييداً لرأيها : إن الشركات في حاجة ضرورية » «إلى اقتراض المال ، وكل شركة محتاجة إلى اقتراض ، لا يمكنها الحصول » «عليه بفائدة معتدلة إلا بواسطة ؛ ويلزم كون شركات التعاون في » «حاجة إلى وساطتي هذه ألا توجد إلا بأذني ؛ فلذا أنا اشترط وجوده » «هذا الشرط . مقدمات غير مسامة ، ونتيجة باطلة . أما وجه بطلان » «القدمة الأولى ، وهي أن كل شركة في حاجة إلى اقتراض المال ، » «فأن الذي نعلمه أن هناك كثير من الشركات مكتفية برؤوس أموالها ، » «وما تنتجه رؤوس الأموال هذه من الأرباح ، بدون حاجة إلى » «الاقتراض ، وهي مسألة بديهية ، يعرفها الناس جميعاً : فلا تحتاج » «إلى دليل ، وأما المقدمة النائية وهي أن كل شركة تكون محتاجة إلى » «الاقتراض ، لا يمكنها الحصول على المال بفائدة معتدلة ، إلا من طريق »

«الحكومة وتدخلها ، فهي مجرد دعوى من الحكومة ، قد ادعتها»
«ولم تقم الدلائل عليها ، ولا أظنها تستطيع ذلك ، ومع ذلك فهي تريد»
« أن تبني عليها أمرا مهما جدا ، وهو أن يكون لها حق في أن تأذن »
« للشركات بالوجود . ووجه بطلان هذه المقدمة أن الشركة مادامت »
« قانونية ، وما دامت حالتها تدعو إلى الاطمئنان ، فلا يوجد مانع »
« بمنع المصارف من إقراضها المال بتلك الفائدة المعتدلة »

«وأما بطلان النتيجة فلائنه لا يلزم من كون شركات التعاون ، »
«تحتاج إلى وساطة الحكومة في الحصول على المال ، ألا توجد إلا»
«بأذنها بلأئنه لا رابطة تربط مسألة الوساطة بمسألة الأذن ، إذ من »
« المعلوم أن الشركة موجود معنوي له حقوق ، وعليه واجبات ، »
«والموجود المعنوي كالموجود الحقيقي سواء بسواء . فكما أن الشخص »
« الحقيقي لا يحتاج في وجوده لأذن من الحكومة ، كذلك الشخص »
« المعنوي ، لا يحتاج في وجوده ، إلى هذا الأذن منها ، والحكومة »
«لا يمكنها أن تقول : ان وجود هذه الشركات موقوف على إذني»
«مادامت محتاجة إلى وساطتي في الحصول على المال ، كما أنها لا يمكنها»
«أن تقول:إن وجود هذا المولود في الحياة متوقف على إذني ، مادام »
« محتاجاً الى الغذاء ، والكساء ، والرعاية ، والتربية .» ثم يسترسل
رحمه الله في تفنيد خطابي مجيد بعد ذلك التفنيد المنطقي المبين .

٣ - الخاتمة

هي آخر ما يلقيه الخطيب من خطبته. فلها الأثر الباقي الواضح، إذ هي آخر كلامه ذكراً، فكانت أعلقه بنفوسهم، وأكثره اتصالاً بقلوبهم. فأن كان وقعها حسناً، انسحب ذلك على الخطبة حسناً، وإلا ساء الأثر وضاعت الغاية المنشودة، والأمل المرجو، والأمر المبغى، ولذلك يجب أن يكون فيها من جمال التعبير، وحسن الانسجام، وجودة المعنى، وإصابة الغرض، ولطف المقطع، وإحكامه، ما يبقى أحسن الآثار وأحكم الأفكار.

ويحسن أن تكون الخاتمة مشتملة (١) على موجز لما ألتزمه، وتوضيح كامل لثباته، وسرماه. (٢) وأن تكون مثيرة للعاطفة في الأمر الذي يريد الخطيب، فإن تهديداً وإنذاراً كان فيها أقواهما، وإن كان إثارة للحماسة، وحفزاً للهمم، التي في الخاتمة أبلغ ما يثيرها، وإن كان يريد من خطبته إثارة عاطفة الرحمة، أتى بأشد ما يثيرها في خاتمة القول.

ومن أقوى الكلام الذي حسن اختتاماً، قول علي بن أبي طالب في كتاب أرسله إلى معاوية يرد به على تهديده إياه: «وأنا مقل نحوك» «في جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديد» «زحامهم، ساطع قتاتهم، متسربلين سربال الموت، أحب اللقاء إليهم» «لقاء ربهم، قد صحتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت» «مواقع نصالها في أخيك، وخالك، وجدك، وأهلك، وما هي من»

« الظالمين يبعيد » .

ومن أبلغ الاختتام ما قاله المرحوم سعد باشا زغلول مختتما إحدى خطبه التي قالها إثارة للحمية .

« أيها المصريون ، استمروا بكل همة وإقدام في طريق »
« استقلالكم ، واحترام حقوقكم ، وستلاقون فيه عقبات ، فذللوها »
« بعزمتكم ، وآلاماً فقا سوها بحسن احتمالكم ، وستطلب منكم ضحايا »
« فابذلوها بكرمكم ، وسيقع عليكم ضغط شديد فتابلوه بهممكم العالية »
« وعزمتكم الصادق ، إذ كلما علت الهمم ، وصدقت العزائم ، هانت »
« الخطوب ، ودنت المنى ، ونجح المسعى ، وكان النجاح عظيماً ، وكلما »
« كان ثمن الاستقلال غالياً ، وأكلافه باهظة ، حرصنا عليه بعد نياله »
« وكان علينا بركة ، وعلى البلاد نعمة وسرورا » .

التعبير

تكامنا في الفصول السابقة في إيجاد المعاني الخطائية، وتنسيقها ،
والآن نتكلم في طرق تأديتها ، والتعبير عنها ، والدلالة عليها ، والألفاظ
التي تناسبها ، والأساليب التي تليق بها ، وما يجب أن تكون عليه
الخطبة في مناهجها ، ومقاطعها ، وفي الجملة نتكلم في الانشاء الخطابي
وما يجب أن يكون عليه .

(١) وقبل أن نخوض في الموضوع ، يجب أن نشير إلى مسألة
كتب فيها بعض الكتاب ، وهي مكانة الألفاظ في الانشاء ، ، فإن
بعض الأدباء الذين تأثروا بعض الآداب الأوربية ، وحاولوا أن
يقبسوا منها في كتاباتهم العربية أخذوا يبتنون بين النشء ، أن المعول
عليه في الانشاء المعنى ، لا اللفظ ، وأن المعنى المحكم لا يحتاج إلى اللفظ
الجميل ، لأن الجمال كله يرجع إلى المعنى ، إذ هو مناط التقدير ، وسبب
التأثير ، بل يذهب بهم فرط غلوهم إلى ادعاء أن تحسين اللفظ يذهب
بجلال المعنى ، وأن جودة الصقل تجعل على المعنى غشاء كثيفاً يمنع من
البروز والظهور ، وقد صادفت فسكرتهم هوى في نفوس بعض
الكتاب ، فخلت كتابتهم من الديباجة العربية ، بل أسفت في
بعض الأحيان إلى الابتذال ، وبرودة الألفاظ ، وخروج الأسلوب
على المنهج العربي ، وهم يعدون طريقتهم هي الطريقة المثلى .

وفي الحق إن ذلك شطط ، وهضم لمكان الألفاظ في الدلالة
والتأثير ، ولعله كان محاربة لشطط آخر في جانب الألفاظ ، فأنا قدورثنا

عن عصور ضعف اللغة العربية ، عناية باللفظ ، لا بالمعنى حتى جعلوا
المعنى بالمحل الثانى ، واللفظ المكان الاول فكان الانشاء ضجيج ،
الفاظ وقمقة عبارات ، والمعنى تافه صغير .

(٢) ولسوك الجادة المستقيمة يجب أن نعطي المعنى حقه ، واللفظ
حقه ، وأن نعرف أن الالفاظ هى التى تظهر المعانى ، وتجملها وتبديها
فى رواء بهى . ويعتقد جوستاف لوبون أن شطراً كبيراً من تأثير قواد
الجماعات ، خطباء ، وكتابا يعود إلى الالفاظ التى يثيرون بها صوراً
وآمالاً فى نفوس الجماعات ، وإن كانت فى ذاتها معانيها مبهمه ، غير
محدودة ، ولا مضبوطة ، فهو يقول : « لبعض الالفاظ ، والجمال »
« سلطان لا يضعفه العقل ، ولا يؤثر فيه الدليل ، ألفاظ ، وجل »
« ينطق بها المتكلم خاشعاً ، أمام الجماعات ، فلا تكاد تخرج من فيه ، »
« حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين ، وتعنو الوجوه له احتراماً ، »
« وكثيرون يعتقدون أن فيها قوة إلهية ، ألفاظ وجل تثير فى النفوس »
« صوراً ، لا كيف لها ، ولا انحصار ، محفوفة بالأكبار والأعظام »
« إبهامها يزيد فى قوتها الخفية » . وإذا كانت هذه الالفاظ التى تثير
صوراً مبهمه ، غير معروفة بالتعيين ، لها ذلك الأثر ، فكيف يكون
الشان للمعنى المحكم قد كسى بلفظ جميل ، وألقى فى أسلوب منسجم ،
وعبارات تثير فى للنفس أخيلة ، وأمانى ، وأحلاماً .

(٣) ويظهر أن المعركة قديمة بين أنصار الالفاظ ، وأنصار
المعنى ، فأنا نرى فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري دعوة
صارخة إلى العناية بالالفاظ ، بجوار العناية بالمعنى ، ويرد على من يرى

أن العبرة في جودة الكلام إلى معانيه فقط ؛ ويرى أن تفاوت البلاغة في البلاغة ، ليس بأيراد المعاني ، بل بجودة الألفاظ ، وحسن تسبكها فيقول : « ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ ، أن »
« الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ، ما عملت لأفهام المعاني فقط ؛ »
« لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الأفهام ، وإنما »
« يدل حسن الكلام ، وإحكام صنعته ، ورواق ألفاظه ، وجودة مطالعته »
« وحسن مقاطعه ، وبديع مبادئه ، وغريب مبادئه ، على فضل قائله ، »
« وفهم منشئه ، وأكبر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ ، دون »
« المعاني ، وتوخي صواب المعنى أحسن من توخي هذه الأمور في »
« الألفاظ . »

ونرى أيضاً ابن الأثير يرد على من يزعم أن الألفاظ تتساوى في الحسن مادام المعنى واحداً فيقول في المثل السائر : « ومن يبالغ به جماله »
« إلى أن لا يفرق بين لفظ الغصن ولفظ العسلوج ، وبين لفظة السيف »
« ولفظة الخنثليل . . فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ، ولا يجاب »
« بجواب ، بل يترك وشأنه ، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوى »
« بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد ، وشواء أخلاق ، ذات »
« عين حمرة ، وشفة غليظة ، كأنها كلوة ، وبين صورة رومية بيضاء »
« مشربة بحمرة ذات خد أسيل ، وطرف كحيل ، ومبسم كأنما نظم »
« من أقاح ، وطرة كأنها ليل على صباح ، فإذا كان بإنسان من سقم »
« النظر أن يسوى بين هذه الصورة ، وهذه ، فلا يبعد أن يكون به »
« من سقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه . ولا فرق بين »

« النظر والسمع في هذا المقام : فإن هذا حاسة وهذا حاسة ؛ ومن له »
« أدنى تأمل يعلم أن للألفاظ في الأذن نعمة لذيدة ، كنغمة أوتار ، »
« وصوتاً منكراً كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة »
« العسل ، ومرارة كمرارة الخنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى »
« النعمات والطعوم » .

(٤) ومن هذا كله ترى أن تحسين اللفظ يجب أن يكون بجوار
إحكام المعنى ، وأنه لا غنى للمنشئ عن المعنى المحكم ؛ لأنه عمود الكلام ،
والمقصد الأسمى ، ولا عن اللفظ لأنه بهاء القول ، وزينته ، غير أنه
يجب أن يلاحظ المنشئ السذاجة ، وأن يبدو التحسين طبعياً من غير
تكلف ظاهر ، فيجتهد في تحسين اللفظ ، ولكن يظهر به في مظهر
الطبعي الذي لا تعمل فيه ؛ لأن التكلف إن ظهر . ثقل على النفس ،
وكان الكلام مستهجنًا ، وقد قال أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتابه
نقد النثر : « ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سمي سديداً ؛ »
« وكان العيب معها بعيداً ، أن يكون في جميع ألفاظه ، ومعانيه جارياً »
« على سجيته ، غير مستكره لطبيعته ، ولا متكاف ما ليس في وسعه ؛ »
« فأن التكلف إذا ظهر في الكلام ، هجنه ، وقبح موقعه ، وحسبك »
« من ذم التكلف أن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، »
« بالتبرؤ منه فقال تعالى : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من »
« المتكافين) » .

فنحن وإن طالبنا المنشئ خطيباً أو كاتباً أن يعنى باللفظ ، ويعمد

إلى تجميله ، وتحسينه ، فليس معنى ذلك أن يتكلف ، ويبدو متكلفاً ، متشادقاً متفهيماً ، بل معناه أن يجعل كلامه منسجماً ، متآخياً النبرات لا تنبؤ ألفاظه ، ولا تتجافى عباراته ، ولا يسف في أسلوبه إلى العامية .
الفرق بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي : (١) لم يفرق

كثيرون من النقاد الأقدمين بين الأسلوب الكتابي ، والأسلوب الخطابي ، فقدمة يعد البلاغة في الكتابة والخطابة واحدة ، ولكنه يتساهل مع الخطيب المرتجل ، ويغفر له هنات لا يغفرها للكاتب ، ويروى قول عبد الله بن الازهم : « إني لست أعجب من رجل تكلم » « بين قوم ، فأخطأ في كلامه ، أو قصر عن حجته ، لأن ذا الحجا ، قد » « تناله الخجلة ، ويدركه الحصر ، ويعزب عنه القول ، ولكن العجب » « ممن أخذ دواة وقرطسا ، وخلا بفكره وعقله ، كيف يعزب عنه » « باب من أبواب الكلام يريد ، أو وجه من وجوه المطالب » « يؤمه »

وأبو هلال العسكري يقول : « واعلم أن الرسائل والخطب » « متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان » « أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل ، فالألفاظ الخطباء تشبه الألفاظ » « الكتاب ، في السهولة والعذوبة ، وكذا فواصل الخطب ، مثل » « فواصل الرسالة ، ولا فرق بينهما ، إلا أن الخطبة يشافهها ، والرسالة » « يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة في أيسر » « كلفة »

(٢) والذي نراه ويراه كثيرون من الأدباء المحدثين ، وبعض المتقدمين

أن لا كتابة إنشاء ، ولا خطابة إنشاء آخر ؛ لأن الكاتب غير الخطيب ويلاحظ في عبارات الثاني مالا يلاحظ في عبارات الأول ، فأن كلمات الخطيب يلاحظ فيها أمران لم يلاحظا في الكتابة : أحدهما أن الكلمات تمر على لسان الخطيب قبل أن يلقيا ، وثانيهما أن لها أثرا في آذان السامع ، ولجرسها وقع في نفسه ؛ فالسامع للخطيب يذوق ، ويسمع ، ويفهم ، ويلاحظ النطق . أما القارئ للكاتب ، فينظر إلى استقامة الأسلوب ، ويفقه المعنى فقط ؛ ولذلك يجب أن تكون ألفاظ الخطبة سهلة النطق ؛ لا يتعثر اللسان في إبرازها ، ولا تتزاحم حروفها ؛ فلا تتقارب مخارجها ، ولا تتباعد ، وأن تكون ذات رنين خاص ، يهز أوتار النفس ويثير الشعور ، ويجب أن تكون مقاطع الخطبة ذات وقع مؤثر ، يلذ للسمع ، ويحمل الكلام . أما الكتابة فلا يشترط في مقاطعها مثل ذلك الشرط ، بل ربما لا يلاحظ أن يكون لها فواصل (٣) وإن الكتابة قد تقيد بقيود المنطق ، ولا تشتمل على ما يثير الشعور ، ويوقظ الوجدان ، كالمذكرات القانونية ، وأشباهها ، ولا يعد ذلك عيبا فيها ؛ أما الأسلوب الخطابي ، فاذا ذهب عنصر الشعور والوجدان منه ، فقد أكبر خصائصه ، وأعظم مزاياه .

(٤) وإن التكرار والتفنن في التعبير عن المعنى بعبارات وأساليب مختلفة وسيلة من وسائل التأثير الخطابي ، يتجه إليه الخطيب ، فيكرر القضايا الكلية مرة مقررا ، ومرة مستفهما ، وأخرى مستنكرا ، ومرة متهمكا ، وأخرى عاقدا بينها وبين سابق عرفانهم ، وذلك كله من غير شك في غير المقامات التي لا تقتضى إيجازا ، أما الكتابة فأن أكثر الأساليب

فيها لا يكون على هذه الشاكلة. بل بالتحليل، والتفصيل، والاستقراء، ونحو ذلك.

(٥) وإن الخطيب مأخوذ في إطنابه، وإيجازه بحال السامعين، من حيث قبولهم، أو رفضهم، وإقبالهم، أو مللهم، فقد يشير إلى بعض العناصر إشارة، ويلم بها إلمامة، بينما يطنب في العناصر الأخرى، ويسهب في القول، لأن حال السامعين تقتضى ذلك. أما الكتابة، فيجب أن يوفى فيها الكاتب ما يكتب، بأيجاز أو بإطناب، لأن بين يديه الموضوع فقط، وليس كذلك الخطيب، إذ يلاحظ السامعين فيطنب أحيانا، ليرضى شهوتهم، وليستفز شعورهم، ويوجز، بل يشير، إن اضطر إلى ذلك، فتبدو الخطبة بآدى الرأى غير متناسبة الاجزاء، ولا متلائمة، ولا لكنها الحال هي التي اضطرته، والجاته، والكاتب في فسحة هو وقارته.

(٦) هذا مجمل صغير يشير إلى ما بين الأسلوب الخطابى، والأسلوب الكتابى، من فروق، وقد يقول قائل: إن بعض الخصائص الخطابية نجدها في بعض الكتابات، ككتاب يرسله زعيم إلى أمته، أو مقال صحفى، يكتبه الكاتب في صحيفة بحث فيه الأئمة على فعل، ويدعوها إليه، أو ينهاها عن أمر، ويبغضها فيه. ونحن نوافق القائل على ذلك، ونقول: إن الأسلوب الخطابى غالب في الخطابة، والكتابى غالب في الكتابة، وقد تستعير الكتابة من الخطابة أسلوبها، كما إذا كان الكاتب فى مقام يشبه مقام الخطابة، كزعيم يخاطب أمته عن طريق الصحف إذا تعذر عليه خطابها عن طريق المشافهة، وقد يستعير الخطيب من

الكتابة أسلوبها ، ويكون ذلك موافقا لمقتضى الحال ، كبعض المحامين الذين تستغرق مرافعاتهم الدفوع القانونية ، والبحوث الاشتراعية . فمن الكتابة ما يكون خطابة ، تنقصها المشافهة ، ومن الخطب ما يكون كتابة ينقصها القلم .

وما دمنافى مقام التعبير عن الخطبة دون سواها ، فلنتجه إلى بيان الانشاء الخطابى فضل بيان :

الانشاء الخطابى

نريد فى هذا الموضوع أن نتكلم فى ألفاظ الخطبة ، وأساليبها ومقاطعها ، وما ينبغى أن يلاحظه الخطيب فى كل منها .

الالفاظ : نريد بالالفاظ الكلمات المفردة ، وقبل أن نبين ألفاظ الخطبة نقول : إن بعض علماء النقد الأدبى ، كعبد القاهر ، أنكر أن تكون للكلمات فصاحة خاصة ، وجعل الفصاحة والبلاغة خاصيتين بالتركيب ، ولا تتناولان المفرد ، فهو يقول فى دلائل الإعجاز : « هل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظام ، » « وحسن ملاءمة معناها ، لمعانى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ، » « وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة ، وفى خلافا قلقة ونائية » « ومستكرهة ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق » « بين هذه وتلك ، من جهة معناها ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم » « وأن الأولى لم تلق الثانية فى معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية فى مؤداها ، وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى : »

« وقيل يا أرض ، ابلعي ماءك ، ويا سماء ، أقلعي ، وغيض الماء : وقضى »
« الأمر : واستوت على الجودي : وقيل بعداً للقوم الظالمين) فتجلى »
« منها الإعجاز : وبهرك الذي ترى : وتسمع : إنك لم تجد ما وجدت »
« من المزية الظاهرة : والفضيلة القاهرة : إلا لا أمر يرجع إلى ارتباط »
« هذه الكلم بعضها ببعض : وأن لم يعرض لها الحسن والشرف »
« إلا حيث لاقت الأولى الثانية ، والثالثة الرابعة ، وهكذا إلى أن »
« تستقر بها إلى آخرها : وأن الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من »
« مجموعها » . ثم يسترسل في تحليل أوجه البلاغة في الآية الكريمة .
وأكثر علماء البلاغة والنقد على أن للألفاظ فصاحة خاصة بفردتها
وقد ذكرنا لك بعض مقالة ابن الاثير في هذا المقام آنفاً بفارجع إليه .
وبهذا الرأي نأخذ : وعليه نعتمد ، وعلى ذلك نذكر بعض الاوصاف
اللازمة للكلمات التي تتألف منها الخطبة ، ولا نتعرض لما قاله علماء
البلاغة في مقدمة علومها : من وصف للكلمة الفصيحة : فذلك يعم
الكتابة : والخطابة ، والشعر ، وانما نتعرض لما هو من خصائص
مفردات الخطابة ، وميزاتها ، ولوازمها ، وهي كثيرة منها .

(١) أن يكون اللفظ واضحاً مكشوفاً وقريباً معروفاً ، من السهل إدراك
معناه ، والوصول إلى مرماه ، لا يبعد عن مألوف السامعين ، ولا يتناءى عن
معروفهم ، وإلا كان غريباً يعلو على مداركهم ، ومن يفهمه منهم يحس
بأنه غير أنسى ، ويشبه أن يكون وحشياً ، لأنه يعيش في غير بيئته ،
ويخاطب به غير أهله ، وقد تكون الكلمة التي على هذه الشاكلة من
العربية الصحيحة التي كانت شائعة عند العرب ، ولكنها غير شائعة

عند الجماعة التي يخاطبها ؛ ولهذا تستهجن مخاطبتهم بها ؛ لأن الخطبة للتأثير فيهم ، وإثارة وجدانهم . ولا يكون ذلك إلا بما هو مفهوم لهم ، مأنوس الاستعمال عندهم .

(٢) ألا تكون الألفاظ مبتذلة أو مستفلة إلى درجة العامية .
فيذهب رواء الخطبة ، ويضيع جلال معانيها ، كاستعمال لفظ أتعشم في موضع أرجو أو آمل ، أو أطمع . وكاستعمال لفظ أفكر في موضع أفكر ، أو أفكر ، أو أتأمل ، أو أذكر ، ونحو ذلك من الألفاظ العامية ، أو المبتذلة القريبة منها ، التي شاع استعمالها على السنة بعض خطبائنا خطأ ؛ فعلى الخطيب أن ينتقى ألفاظ الخطبة ، من غير أن يغرب ، فيبعد عن المفهوم المألوف ، ومن غير أن ينزل فينطق بالمبتذل أو العامي ، في حضرة من يفهم الفصحى ، قال بشر بن المعتمر في وصاياه للخطيب « فأن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، ولطف مداخلك » « واقتدارك على نفسك ، أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها » « الألفاظ الواسعة ، التي لا تلطف عن الدهاء ، ولا تجفو عن الأكفاء » « فأنت البليغ التام » .

(٣) وأن تكون في الخطبة ألفاظ مناسبة مثيرة لخيال الجماعة ، موقظة لذكريات حية في نفوسهم ، فان كل جماعة عندها طائفة من الألفاظ ، إذا ذكرت ، أثارت خيالات تهز النفس بالسرور والاطمئنان ، أو بالسخط والغضب ، كألفاظ الأئهاء ، والمساواة ، والحرية ، والديمقراطية ؛ عند النوار في الثورة الفرنسية ؛ فانها كانت تهزم ، كل عمل يربطه الخطيب بها يندفعون إليه ، ويقدمون عليه ، وعلى

نقيض ذلك كانت ألفاظ الاستبداد ، ونظام الطبقات ، والباستيل
تهز النفس بالغضب ، وتثير فيها ذكريات مؤلمة ، فإذا ذكر عمل مقرون
بها نفروا منه ، ونأوا عنه ، وثار سخطهم على القائم به ، وكذلك
الشائن في كل الجماعات . والخطيب الماهر من يقبس من هذه الالفاظ
في الخطبة ، ما يكون له الاثر الكبير فيما يريد ؛ ولكن يلاحظ أنه
لا يحسن وجود هذه الالفاظ في الخطبة ، إلا بشرطين : أحدهما
الملائمة التامة بينها ، وبين ما يريد ، فإذا كان يخطب في جماعة يحتمهم
على طلب الاستقلال السياسى ، أكثر من ذكر الالفاظ التى تثير
الخيال فى هذه الناحية ، من مثل الكبرياء القومية ، العزة الوطنية ،
الحرية السياسية ، عار الاحتلال ، ذلة الاستعباد - وإذا كان يخطب
قوماً فى الحث على أداء فريضة الحج ، ذكر الحرم الشريف ، ومقام
إبراهيم ، والبقيع ، وزمزم ، وغير هذا من تلك الأسماء التى تثير معانى
عميقة الاثر ، وإذا كان يخطب فى الحث على الصوم ذكر قرب الصائم
من ربه ، والتجرد من ملاذ الحياة ، ومشاركة نفس الصائم للمعانى
القدسية ، وغير ذلك من العبارات التى تثير الوجدان ، وتوقظ فى النفس
معانى سامية ، وليحذر الخطيب من أن يقحم فى خطبته ألفاظاً تثير
ذكريات غير ملائمة للموضوع ؛ كأولئك الخطباء الذين يقحمون كلمة
الاستقلال فى أكثر الموضوعات الخطابية ، لادنى ملابسة ، ولاقل علاقة .
ثانيهما : ألا تكون تلك الالفاظ قد أبلاها الاستعمال ؛ وذكرها
يؤدى إلى الابتذال ؛ فإذا لاحظ الخطيب ذينك الشرطين عند الاستعمال
كان الاثر بايغاً ؛ وقد قال العلامة جوستاف لوبون فى بيان تأثير ذلك

النوع من الألفاظ، وسببه: « السرف في تأثير الألفاظ للصور التي تحضر »
« في الذهن بها، وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية. بل الغالب »
« أن أشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً، مثال ذلك كلمات »
« ديمقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية، وهكذا مما أبهم معناه »
« ويحتاج في تعيينه إلى مؤلفات ضخمة، والجميع، يسلم أن لها سلطاناً »
« ينساب في النفوس، كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية »
« كلها، وفيها تتمثل الأميال الباطنية على اختلافها، والأمل في تحقيقها. »
(٤) أن يختار الألفاظ الجزلة في مقامها، والرقيقة كذلك، ففي نحو
التهديد والفخر، وإثارة الحمية، والحماسة، والحث على الجهاد، يختار
الألفاظ الجزلة القوية، وفي نحو إظهار الأذى، والألم، يختار الرقيق
من الألفاظ. وقد يتساءل الإنسان عن حقيقة الجزل، وحقيقة الرقيق،
فلا يجد تعريفاً مميزاً مصوراً، لأن ذلك أمر يدركه ذو الذوق الأدبي،
في نطقه، وفي جرسه، ووقعه في الأسماع وللشعور، وقد بين ابن
الأثير جزل الألفاظ ورقيقها من غير تعريف، فقال: « لست أعنى »
« بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً، عليه عنجبية »
« البداوة، بل أعنى بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم، ولذاذته »
« في السمع، ولذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسافاً، »
« وإنما هو اللطيف الرقيق الناعم للمس، وسأضرب لك مثلاً للجزل »
« من الألفاظ، والرقيق فأقول: انظر إلى قوارع الألفاظ عند ذكر »
« الحساب، والعذاب، والميزان، والصراط، وعند ذكر الموت، »

«ومفارقة الدنيا، وما جرى هذا المجرى، فأنت لا ترى شيئاً، من وحشى»
«الالفاظ، ولا متوعراً، ثم انظر إلى ذكر الرحمة، والرافة، والمغفرة،»
«والملاطفات في خطاب الأنبياء، وخطاب النبيين والتائبين من العباد»
«وما جرى هذا المجرى، فأنت لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف الالفاظ»
«ولا سفسافاً، فنال الأول وهو الجزل من الالفاظ قوله تعالى : «
» (ونفخ في الصور، فصعق من في السموات ومن في الأرض، إلا من»
«شاء الله ثم نفخ فيه أخرى؛ فإذا هم قيام ينظرون، وأشرققت الأرض»
«بنور ربها، ووضعت الكتب، وجيء بالنبيين، والشهداء، وقضى»
«بينهم بالحق وهم لا يظلمون، ووفيت كل نفس ما عملت، وهو أعلم»
«بما يفعلون، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً، حتى إذا جاءوها»
«فتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها، ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليهم»
«آيات ربكم، وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى، ولكن حقت»
«كلمة العذاب على الكافرين. قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها»
«فبئس مثوى المتكبرين. وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً،»
«حتى إذا جاءوها، وفتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها، سلام عليكم»
«طيبتم، فادخلوها خالدين. وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا»
«الأرض، نتبوا من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين). فتأمل»
«هذه الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله، وذكر النار»
«والجنة، وانظر، هل فيها لفظة إلا وهي سهلة مستعذبة، على ما بها من»
«الجزالة، وكذلك ورد قوله تعالى: (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم»
«أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعاءكم»

« الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم . وضل عنكم ما كنتم »
 « تزعمون) . وأما مثال الثاني وهو الرقيق من الألفاظ فقوله تعالى »
 « في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم : (والضحي والليل إذا سجي ، »
 « ماودعك ربك ، وما قلى إلى آخر السورة ؛ وكذلك قوله تعالى في »
 « ترغيب المسألة : (وإذا سألك عبادى عنى ، فأنى قريب ، أجيب دعوة »
 « الداعى : إذا دعان) ؛ وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم فى كلا هذين »
 « الحالين من الجزالة والرقّة » ويقول بعد كلام طويل : « اعلم أن الألفاظ »
 « تجرى من السمع ، مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة ، »
 « تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة »
 « تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ، ولطافة مزاج ، ولذا »
 « ترى ألفاظ أنى تمام ، كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا »
 « سلاحهم ، وتأهبوا للطراد . وترى ألفاظ البحترى ، كأنها نساء »
 « حسان ، عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلين بأصناف الحلى ، وإذا »
 « أنعمت نظرك فيما ذكرته ههنا ، وجدتني قد دللتك على الطريق »
 « وضربت لك أمثالا مناسبة . »

من هذا الكلام القيم نستطيع أن نتصور الألفاظ الجزلة ،
 والألفاظ الرقيقة ، وإن لم نحددّها بتعريف جامع مانع ، ويكفيّنا ذلك
 فى هذا المقام ، وعلى الخطيب أن يضع كل نوع منها فى موضعه . فعندما
 يكون فى حاجة إلى قرع الحس ، وإثارة ، يختار الجزل . وعند ما يريد
 أن يمسّ شعور المخاطبين مسارفيقا ، لأن المقام يقتضى ذلك ، اختار
 رقيق الألفاظ ، ولينها ، ومن ذلك خطبة المغفور له سعد باشا فى حفل

الطلبة التي ذكرناها

ومن الكلام الجزل القوى قول الشعبي معتذراً عن اشتراكه في
فتنة ابن الاشعث « أجذب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل . واستجلسنا »
« الحذر، واكتحلنا السهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء »
« ولا فجرة أقوياء . »

الأسلوب : لا تتكلم هنا على الأسلوب من حيث التقديم والتأخير،
والفصل والوصل، وغير ذلك، مما عنت به علوم البلاغة، وإنما تتكلم
هنا في الأوصاف التي هي خاصة بالأسلوب الخطابي أو ضرورية له
وهي كثيرة منها .

(١) التصرف في فنون القول، بأن تتعاقب على المعنى أو المعاني
ضروب مختلفة من التعابير، من تقرير، إلى تعجب، إلى تهكم، إلى
نفي، إلى كسب كلامه جدة، ولئلا يذهب نشاط السامعين،
ويعتريهم السأم والملال، وذلك لا يكون إلا في حال تكرار المعاني،
وقد بينا منزلة التكرار في تثبيت الأفكار، وإيقاظ المشاعر، وتقرير
الحقائق، وحمل النفس على الاطمئنان إليها، فيكرر بأساليب مختلفة،
واللغة العربية ثرية بالألفاظ، متشعبة الأساليب، وفيها من طرائق
الحقيقة والتشبيه، والاستعارة، والمجاز ما يسد الحاجة، ويمد
الخطيب بما يحتاج إليه من فنون القول، وأنواع التعبير .

(٢) حسن التألف بين الكلمات، وتأخي النغم، بحيث تتحدر
الكلمات على اللسان في يسر وسهولة، ويحسن وقعها في الأسماع، فلا
تكون واحدة منها نائية عن أخواتها، أو ساكنة في غير مستقرها، فتكون

قلقة في النطق ، وثقيلة على السمع ، وقد ذكر ابن الأثير أن من نظم الكلام أن تكون كل كلمة مع أختها المشاكلة لها ؛ لئلا يكون الكلام قلقلًا نافرًا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم ، في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها .

(٢) تنوع الأسلوب بتنوع المقامات ، وتنوع أحوال السامعين ، وبمراعاة من الخطيب ، ومنصبه ، وعمله ، وما يليق صدوره عنه ، وما لا يليق ، فلكل مقام نوع من الأساليب ، ففي مقام التحميس والتهديد ، تختار الأساليب الفخمة ، والعبارات الضخمة ، وفي بعض مقامات التأبين ، وإظهار الألم والآسى تختار العبارات السهلة الرقيقة المؤثرة ، ولكل قوم خطاب ، فالعامة تختار لهم العبارات الساذجة حتى لا تعلو على أفهامهم ، ولا تسمو على مداركهم ، والعلماء يخاطبون بعبارات منتقاة دقيقة محكمة ، ويحلى الكلام ببعض الأساليب المنطقية ، والمتدينون يستشهدونهم بشواهد من الدين ، ويحلى الكلام بمقتبسات من الكتب المنزلة . والذين شغفوا بآثار الأقدمين يرطب الكلام ببعض أمثالهم ، وقصصهم ، وحكمهم ، والمأثور عنهم . ولكل خطيب عبارات تستحسن منه فن الخطباء من لا يجمل منهم الهزل ، ولا يليق بهم إلا الجد ، فلا يصح أن يكون في كلامهم إلا ما هو مقبول منهم ، ومن الخطباء من يجمل خطيبهم بعض المداعبات ؛ فيحسن أن يكون ذلك منهم بقدر محدود ؛ ليستروح به السامعون ، فيستجموا نشاطهم ؛ ويبعد سأمهم ، وهكذا يجب على الخطيب أن يلاحظ في أسلوبه وعباراته أحوال السامعين ، وما يقتضيه المقام ، وما يحسن منه ، وما لا يحسن .

(٤) تجميل الكلام في بعض الأحوال بسجع قليل غير بادي التكلف ، قصير الفقرات . وقد وجدنا السجع قديماً وحدثنا أولياء وأعداء فقوم تعصبوا له ، وآخرون تعصبوا عليه ، وممن تعصبوا للسجع ابن الأثير وأبو هلال العسكري وغيرهما .

وابن الأثير يعد من ذمه عاجزاعنه ، ويقول فيما يحسن في السجع : « ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة » « لا غثة ، ولا باردة ، واعني بقولي غثة باردة : أن صاحبها يصرف » « نفسه ، إلى السجع نفسه ، من غير نظر إلى مفردات الألفاظ » « المسجوعة ، وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى تركيبها ، وما » « يشترط له من الحسن ، وهو في الذي يأتي ، من الألفاظ المسجوعة » « كمن ينقش أثواباً من الكرسف ، أو ينظم عقداً من الخزف الملون ، » « وهذا مقام تزل عنه الاقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب » « هذا الفن ، بعد الواحد ، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلاً ، فإذا صفاه » « الكلام المسجوع من الغثاء ، فأن وراء ذلك مطلوباً آخر ، وهو » « أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً » « للفظ فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه على باطن مشوه ، ويكون » « مثله كعمد من ذهب ، على نصل من خشب »

هذا كلام واضح قيم ، ولكن بعض كتاب العصر الحاضر يستحسنون الاسترسال في الكتابة والخطابة ، والتحرر من تلك القيود اللفظية منعا لضجة الألفاظ ، وإيثاراً للسذاجة في التعبير وابتعاداً عن كل وسائل التزيين ، وهم لذلك يستهجنون السجع في الكتابة والخطابة معاً

والحق عندى أن السجع فى ذاته حسن ، وقد عرف حلية فى اللغة العربية ، قديمها وحديثها ، ولكل لغة مستحسنات ومناهج ، تأخذ منها روحايتها ، وقوة تأثيرها ، ولذلك لا أرى ما يمنع من اتخاذ بعض السجع فى الخطابة بشرط ألا يظهر التكلف ، والإثقل ، وضعف تأثيره ، وبشرط أن يكون قليلا ، لأنه حلية ، والحلية لا تجمل إلا إذا كانت بقدر معلوم إذا زادت عنه ثقلت ، وسترت المحاسن ، فكانت عيبا ، وشينا . فالخطيب إذا أخذ من السجع ذلك القدر فى خطبته ، حسنت ، خصوصا إذا كانت فى قوم ، يؤثر فيهم ذلك النحو من الكلام كعامة مصر . فإن الكلام الموسيقى المسجوع يهز نفوسهم ، واعتبر ذلك بأمناهم وحكمهم ، فإنك تجد السجع أبين أوصافها .

غير أنه يجب أن يلاحظ أن السجع لا يليق فى بعض الخطب كالرافعات القانونية ، فإنها لا يحسن فيها إلا الحقائق عارية ، وحسبها جمالا أنها حقائق ، وليكتف من وسائل التأثير بجودة التعبير ، وحسن الالتقاء ، وإحكام الفكر ، والالتئام إلى القلوب من ناحية ما يؤثر فيها .

(٣) المقاطع : يجب أن يختار الخطيب المقاطع التى يقف عليها ، بحيث

يكون وقوفه عند نهاية جزء تام من المعنى الذى يريد ، وبأن يكون المقطع ذا رنين قوى ، بلا النفس ، ويوجهها نحو الغرض الذى يريد الخطيب ، وتخير المقاطع فى الكلام ، وأما كن الوقوف عمل مهم من أعمال الخطيب ، وقد وفاه أبو هلال العسكري فى الصناعتين بحثا واستشهادا ، فقد جاء فيه : « قال الأحنف بن قيس ما رأيت رجلا » « تكلم فأحسن الوقوف ، عند مقاطع الكلام ، ولا عرف حدوده ، »

« إلا عمرو بن العاص ، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام ، وأعطى حق »
« المقام ، وغاص في استخراج المعنى بألف مخرج ، حتى كان يقف عند »
« المقطع وقوفاً يحول بينه وبين تبليغه من الألفاظ... وقال معاوية لعمر بن »
« سعيد ، يا أشدق ، قم عند قروم العرب ، فسل لسانك ، وجل في ميادين »
« البلاغة ، ولا يكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال ، فاني شهدت رسول »
« الله صلى الله عليه وسلم أملي ، على علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) كتاباً »
« وكان يتفقد مقاطع الكلام . ولما أقام أبو جعفر صالحاً خطيباً بحضرة »
« شبيب ، قال يا أمير المؤمنين : مارأيت كاليوم أبين بيانا ، ولا »
« أربط جنانا ، ولا أفصح لسانا ، ولا أبلى ريقاً ، ولا أغمض عروقا »
« ولا أحسن طريقاً ، إلا أن الجواد عسير لم يرض ، فحملته القوة على »
« تعسف الآكام وخبطها ، وترك الطريق اللاحب ، وايم الله لو »
« عرف في خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من نطق بالسان »
ومن هذا كله ترى ان مقاطع الكلام كانت غرضاً يطلبه
المجيدون من البلغاء والخطباء ؛ لأن حسنه يجعل المعنى لدى السامع
واضحاً ، والرنين مؤثراً ، والوقف جميلاً . ويجمل الالتقاء أبلغ تجميل .
خاتمة في الكلام في التعبير : قبل أن نترك الكلام في التعبير الخطابي
ومناهجه . ننقل إليك صحيفة قيمة أعطاها بشر بن المعتز المعتزلي
ابراهيم بن مخزومة السكوني ، وفيها كلام جيد في الأسلوب الخطابي ،
والمعاني الخطابية ، وهما هي ذى ، كما رواها الجاحظ في البيان والتبيين .
« مر بشر بن المعتز ، على ابراهيم بن جبلة بن مخزومة السكوني
الخطيب ، وهو يعلم فتياهم الخطابة ، فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه إنما

وقف ؛ ليستفيد ، أو ليكون رجلاً من النظارة ؛ فقال بشر : اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميته ، وكان فيها ذلك الكلام : خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ، ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى إليك مما يعطيك يومك الاطول ، بالكد والمطاوله والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاناة ؛ ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون كلامك مقبولا قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلاً ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراد معنى كريماً ، فليتمس له لفظاً كريماً ؛ فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ، ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس إظهارهما ، وترتهن نفسك بلبستهما ، وقضاء حقهما . وكن في ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رقيقاً عذبا ، ونظماً سهلاً ، ويكون معناه ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، إما عند الخاصة ، إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة ، إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة ، مع

موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاص ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهاء ، ولا تجفو عن الألفاء كفاء ، فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ، ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك ، وفي أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تنصر إلى قرارها ، وإلى حقها من أما كتبها المقسومة لها ، والقافية لم تحمل في مركزها ، وفي لسانها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها ، نافرة من موضعها ، فلا تكرر عليها على اغتصاب الألفاء كن ، والنزول في غير أوطانها ، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وإن أنت تكلفتها ، ولم تكن حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لسانك ، بصيرا بما عليك أو مالاك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك ، أنه فوقك ، فإن ابتليت بأن تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطبع في أول وهلة ، وتعصى عليك بعد إجابة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه يياض يومك ، أو سوداد ليلك ، وعاهده عند نشاطك وفراغ بالاك ، فإنك لا تعدم الأجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق

فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى

الصناعات إليك، وأخفها عليك فأنت لم تشتهه ولم تنزع إليه، إلا
وييند كما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشا كله، وإن كانت
المشاكلة قد تكون في طبقات، لأن النفوس لا تجود بمكنونها إلا
مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرغبة، كما تجود به مع المحبة والشهوة؛
فكذا هذا.)



الأداء

قد شرحنا في الفصول السابقة إيجاد الخطبة ، وتنسيقها . والتعبير عنها ، وهنا نتكلم عن طرق أدائها ، والحال التي يكون عاينها الخطيب عند مخاطبته الجمهور ، وما يتخذ في تهيئتها ، فستكلم إذن عن طريق تحضير الخطبة ، ومواضع الارتجال ، وعن الوقفة الخطائية ، وعن النطق الحسن الذي يليق بالخطابة ، وعن الصوت ، وعن الأشارات

(١) التهيئة

إن الخطيب يلقي خطبته إما بعد تحضير وإعداد ، وإما على البديهة والارتجال ، ولكل مواضع ومحاسن ، فالتحضير يحسن بل يكون لازماً (١) إذا كانت معلوماته في الموضوع الذي هو بصدد القول فيه لا تسمح له بالتول على البداهة ، وإن تكلم قال كلاماً مبتسراً لا يقيم حقاً ، ولا يخفض باطلاً ولا يجذب نفساً ولا ينفر من أمر ، فهو يدرس الموضوع من كل نواحيه ، ويقتله بحثاً ودرساً ، ليستطيع أن يدلي فيه بحجته فيصيب المحز . ويدرك الشأو ، وينال السبق .

(٢) وكذلك يعتمد إلى التحضير إذا كانت عنده فسحة من الوقت يستطيع فيها أن يبدى ويعيد ، وأن يتثبت فيما يقول ، ويختار لمعانيه أجود الألفاظ ، ويتجه إلى أقرب الطرق التي يصل منها إلى النفوس ، ويهز بها أوتار القلوب هزاً رقيقاً ، أو عنيفاً كما يريد .

(٣) ويعتمد إلى التحضير أيضاً إذا كان بين قوم يتسقطون هفواته ، ويتتبعون سقطاته ، يحصونها عليه إحصاء ، ويحاسبونه عاينها حساباً عسيراً ، فهو يتقدم اليهم بسلاح التحقيق ، مستنداً على متكأ من

الحقائق ؛ فلا يسقط إن حاولوا أن يأخذوا عليه ما يسقط ، ولا يعثر ، ولا يزل ، ولا تنزلق قدمه في مزلق الخطر ، ومداحض الزلل ، ولذلك كان أكثر خطباء اليونان والرومان يهيئون خطبهم قبل إلقائها ، ولا يجروا واحد منهم مهما تكن ثقته بنفسه قوية ، ومهما يكن صيته ذائعاً ، ومعروفاً باللسن والبيان على الوقوف من غير سابقة تحضير ، وإلمام تام بما يقول ، خشية أن يأخذ عليه النقاد شيئاً ، أو يسقط بين أيديهم سقطة تذهب برواء قوله ، وحسن مذهبه ، وما يدعو إليه ، وكان المغفور له سعد زغلول باشا ، مع قدرته على الارتجال ، وعظيم إلمامه بما يقول ، يكتب خطبه ، إذا كانت رسمية ، أو شبه رسمية ، حتى لا يسبق لسانه تحت تأثير الحماسة ، إلى ما لا يريد أن يقيد نفسه به .

ولا يتوهم من متوهم أن في تحضير الخطبة ، ما يعيب قدرته ، فإن العيب أن يقول كلاماً مبتدلاً لا قيمة له ، ومعناه تافه صغير ، ولتكن له أسوة حسنة في كثير من كبار الخطباء^(١) الأقدمين ، والمحدثين ،

(١) جاء في كتاب القديم والحديث للاستاذ الباحث محمد كرد علي (طالما هذب شيشرون خطبه وتمرن على القائما حتى انه في سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على الالقاء ، وكان القدماء يعلقون شأننا عظيماً على الالقاء في المجالس العامة ، حتى لقد أفرط شيشرون في قوله ان الخطاب العام ، يتطلب تهيرات لطيفة منتقاة . . . بيد أن كثيرين من خطباء اللاتين . وقدماء خطباء اليونان . كانوا لا يحفلون بأعداد خطبهم ، ويظهر أن هورتانسيوس وهو أستاذ شيشرون . لم يكن موافقاً لتلميذه على قضاياه . وهورتانسيوس هذا كان على جانب من الذكاء وحسن الذاكرة بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه وكانت طريقة القائد الخطيب الروماني (كالبا) غريبة في بابها فكان

فأن كثيرين منهم ، مع قدرتهم التامة على الارتجال يأخذون للموقف
الأنهية ، ويعدون له العدة ، عالمين بأن الخطيب كالمجاهد ، لا يخوض
غمار الحرب من غير أن يدرع بدروعها ، ويتتربس بتروسها ، ويلبس
لها لأمته ، ويتخذ لها شكته ، وليس ذلك في الخطيب إلا بالتحضير
والتهيئة ، والاستعداد للموقف من كل نواحيه ، وإن الذي يتعرض
للخطبة من غير سابق تحضير ، ولا تهيئة ، ولم يكن ذا إلمام سابق
بالموضوع يجنى كلامه ضعيفا في معناه ، ومبناه . بل إن ذا الإطلاع
الواسع ، والعلم الغزير بما يقول إن لم يراجع نفسه آنا بعد آن ، ويفكر
طويلا فيما يعتزم قوله وقتا بعد آخر ، يضعف أسلوبه الخطابي ، وتلين
عباراته ، وينحدر إلى منهوى من الابتذال سحيق ، وتتجه معانيه
اتجاها سطحيًا ، وتفقد قوة التأثير في المشاعر والأهواء .

ينقطع في داره مع خدامه غداة يريد أن يلقي دفاعا ، ويلقى عليهم محررا نفسه
فيما يريد أن يخوض عبا به ، ويخرج من الغد في حالة هياج خارقة للعادة ،
وعينه تقدحان شررا وهو في أشد أحوال التجمس ، يعيث به هواه ، ويذهب
إلى ميدان الغوروم . واعتاد بعض الشبان الخطباء من الرومان ، أن يأتوا إلى
المحكمة بدفاعهم ، مكتوبا على الورق ، وكان كنتيليان من أساتذة الخطابة عند
قدماء اللاتين يرى أن يتقيد الخطباء في إعداد ماسيتلون ولا سيما المبتدئين ،
ويرى أن الارتجال لا يأتى للمرء إلا في أواخر عمره ، بعد أن يذوق الأمرين
في صناعة الخطابة ، ويعرف حلوها ، ومرها ، ولم يكن في عهده . وهو القرن
الأول للمسيح ، سوى خطيبين مرتجلين هما بورسيوس لانترو وكاسيوس .
وما عداها كانوا كسكل الناس يعدون خطبهم قبل إلقائها . . . ولما جاءت
الثورة الفرنسية اضطرب أرباب السياسة إلى الارتجال فأخذوا يخطبون قومهم
بدون أن يستعدوا ثم ارتقت الخطابة عندهم في الكليات ، والمحاكم ، والمجالس ،
حتى قال موريس آجام ، ما من شيء يضاد الارتقاء في الخطابة أكثر من إعدادها
بالكتابة قبل الإلقاء

طرق التحضير : وطرق التحضير كثيرة متشعبة (١) فن الخطباء من يكتفى في تحضيره بدراسة الموضوع دراسة تامة ، ثم جمع عناصره في خاطره ، وترتيبها بينه ، وبين نفسه ، ويستحضر الألفاظ اللائقة بالمقام . والعبارات الجديرة بالموضوع ، وهذه طريقة لا يتبعها إلا المتمرن على المواقف الخطابية الذي اندرج في سلك الخطباء ، وكثير من الأدباء يعد الخطبة التي تحضر . وتأتي على هذه الشاكلة مرتجلة ، ولكننا نرى الارتجال أن تقال الخطبة على البداهة . من غير أي تحضير للموقف سابق (١) . ويظهر أن تحضير خطباء العرب كن على هذه الشاكلة . ومن ذلك ما جاء في أخبار يوم السقيفة ، عند ما اختلف المهاجرون ، والأَنْصار رضى الله عنهم في أمر الخلافة ، فقد قال عمر رضى الله عنه في وصف حاله عند ما اشتد الخلاف بين الفريقين : « فأردت أن أتكلم » « وكنت زورت كلاماً في نفسى ، فقال أبو بكر على رسلك يا عمر » « فما ترك كلمة كنت زورتها في نفسى إلا أتكلم بها » وهذا يدل ان تزويرهم الخطبة ، وتحضيرها إنما كان في الجنان ، وفي النفس ، ويدل من جهة ثانية ، على ان تحضير الكلام فى النفس وتزويره ، والاستعداد للموقف قبل الكلام ، لا يعد من قبيل الارتجال ، والقول على البديهية . فأن الفرق بين المرتبتين واضح جلى .

(٢) ومن الخطباء من يدرس الموضوع ويهيئ معاني الخطبة .

(١) جاء فى كتاب القديم والحديث للاستاذ محمد كرد على (كان فيرير من أعظم من وجد من رجال المحاماة . كان يفكر طويلاً فيما يريد أن يلقيه ويتأمله فلم يكن ممن يعتمد على الكتابة)

ويرتبها ترتيباً محكماً ، ثم يكتب عناصرها وأجزاءها في مذكرة يستصحبها عند الخطبة ، لتكون مرجعاً له وضابطاً ، وليحفظ المعاني والأفكار من أن تضيع بضلال الذاكرة ، وذلك النوع من الخطباء كثير ، وفي الأخذ بهذه الطريقة مزايا كثيرة ، لما فيها من ضبط للأفكار وجمع للخواطر ، وإحكام للمعاني ، وهي كسابقتها لا يتجه إليها إلا الخطباء الذين مروا على القول ، وعرفوا مقاتله ، ومواضع التأثير فيه ، وأصبحت لهم طرق خاصة في الالتقاء ، يتجهون إليها من غير قصد ، بل بمقتضى الألف والاعتياد . ولكن تمتاز عن سابقتها (١) بأنها تفيد ضعيف الذاكرة ، ولا يحتاج إليها قوى الذاكرة ، لأنه ليس في حاجة إلى كتابة العناصر ، وضبطها في القسطاس ، إذ هي في وعيه وخاطره . (٢) وبأنها تحسن إذا كانت الخطبة طويلة ، جمعاً لأشتاتها ، ولكيلا يقع في التكرار الملل .

(٣) ومن الخطباء من يطلع على الموضوع ، ويدرسه بعناية ، ثم يتكلم فيه بينه وبين نفسه بصوت مرتفع في غرفة قد انفرد فيها ، أو في مكان خلوي ، أو يتكلم على بعض الناس ، ومثل ذلك النوع من الخطباء مثل المطربين ، إذ يلحنون القطع التي هم بصدد تريلها ، والتغريد بها في وسط الناس ، ويتمرنون على ذلك أمداً غير قصير . حتى تستقيم لهم النغمات ، فكذلك هذا النوع من الخطباء . وقد كان كذلك « كالباء » الخطيب الروماني . وكان فرنيو وتيرس من خطباء الفرنسيين يحدثون أصحابهما في موضوع خطبهما قبل إلقائهما . وعندى إن هذه الطريقة يعتمد إليه من يريد أن يربى في نفسه طريقة إلقاء خاصة يمرن عليها

حتى تصير له ملكة ، وعادة .

(٤) ومن الخطباء من يكتب الخطبة ، ويتجرب في الكتابة أبلغ الأساليب التي توصله إلى غايته ، وتؤدي به إلى ما يريد ، ويحكم معانيها ، ويحملها كل ما ينبغي من وسائل التأثير ، وطرق الإقناع التي يصوبها نحو هدفه ، ويرمي بها إلى غرضه . وبعد الكتابة يقرأ ما كتب مرارا ، وينقحه في كل مرة . وبهذه القراءة التي يتجرب بها جودة الإلقاء وحسن النطق ، تعلق معاني الخطبة مرتبة الترتيب التام بذاكرته ، ويحفظ كثيرا من ألفاظها وعباراتها ، وهذه الطريقة يتبعها كثير من المحامين في القضايا ذات الشأن التي تحتاج إلى تحضير كبير ، وجمع لعدة نصوص قانونية ، أو عبارات جاءت على ألسنة الشهود ، وقد شاهدت المحامين الذين ترفعوا في قضايا القنابل التي نظرت في سنة ١٩٣٢ أمام محكمة الجنايات المصرية بين أيديهم مرافعاتهم مكتوبة ، ولكنهم يلقونها من غير أن يقرأوا ما كتبوا ، فلا يتركون صغيرة ولا كبيرة ويحجبون على ألسنتهم كثير من العبارات التي ساقوها فيما كتبوا .

(٥) ومن الخطباء من يكتبون خطبهم ، ويحسنون تحريرها ، ثم يحفظونها حفظا تاما ، ومنهم من يتحلل أحيانا مما حفظ ، إن وجد المقام يدفعه إلى غيره ، كما كان يفعل أرولدى سيشل من خطباء الثورة الفرنسية ، يكتب ويحفظ خطبه ويغير عند الإلقاء ، ويعمل بقول فولتير : إن الألفاظ تريد الأفكار ، ومنهم من يكتب ويحفظ بدون أن يغير شيئا كما كان يفعل فيكتور هوغو ، فقد كان يكتب خطبه ويستظهرها ، وكثيرا

ما كان يقول : لا يستطيع المرء أن يكون خطيبا ، إلا إذا كتب خطبته وتلك الطريقة يتبعها أكثر المبتدئين في الخطابة

(٦) ومن الناس من يكتب الخطبة ، ثم يلقيها بالقراءة في القرطاس الذي كتبها فيه ، وأكثر المحاضرين في موضوعات علمية في مصر على هذه الطريقة ، ويحسن لمن يسلك ذلك المسلك خطيبا كان أو محاضرا أن يقرأ ما كتب قراءة جيدة قبل إلقائه ، وعند الإلقاء يجتهد في أن يلقي بعض المحاضرة أو الخطبة من غير المكتوب ؛ ليكون في ذلك تجديد في الإلقاء ، وأن يكون في قراءته مشرفا على السامعين بنظره وقتا بعد آخر ؛ لتتصل روحه بأرواحهم ، وليعرف أحوالهم ، وذلك يتيسر له بالقراءة الجيدة المكررة قبل الإلقاء ؛ إذ تمكنه هذه عند الإلقاء من أن ينظر في القرطاس إلى أول الجملة ، فيتذكر باقيها ، فيقوله وقد ترك نظره القرطاس عند قوله ، وأشرف به على السامعين ، وهكذا يفعل في كل أجزاء المحاضرة أو الخطبة .

والطريقة المثلى لطالب الخطابة : (١) أن يبتدئ بكتابة الخطبة وحفظها وإلقائها كما حفظ ، ثم يأخذ نفسه بالتغيير شيئا فشيئا فيما حفظ حتى إذا شد في الخطابة ، وتقدم في المران عليها ، كتب الخطبة ، وعنى بأن تعلق كل معانيها بقلبه ، وأكثر ألفاظها بذاكرته ، ثم يتقدم لإلقائها ، وقد تحصن بذلك التحضير ، فإذا صارت له الخطابة ملكة وعد في صفوف الخطباء ، اكتفى بدراسة الموضوع دراسة وافية ثم كتب العناصر ، أو لم يكتبها إن أسعفته ذاكرة قوية ، أو كانت الخطبة قصيرة ، لا عناصر لها ، وألقى الخطبة مكتفيا بذلك التحضير الذي

يعد أقل أنواعه كلفة ، ولا يكتفى به إلا أعظم الخطباء قدرة .

(٢) الارتجال

(١) وإذا كنا قد أوجبنا التعذير والتهيشه ، فليس معنى ذلك أن الخطيب لا يحتاج إلى الارتجال ؛ إذ القدرة على الارتجال ألزم الصفات للخطيب ، بل لا يعد الخطيب في نظري في صف الخطباء الممتازين إلا إذا كان من القادرين عليه ، الذين لا يفرق الأتسان بين أسلوبهم المرتجل ، وأسلوب خطبهم المحضرة .

إن حاجة الخطيب إلى الارتجال لواضحة ، فقد يحضر الخطيب ، ثم يرى من وجوه السامعين ، وحالهم ما يحمله على اتجاه آخر ؛ فإن لم تسعفه بديهية حاضرة ، وخاطر سريع ، ومران على الارتجال طويل ضائع هو وما يدعو إليه ، والتقاء الناس بالمكاء والتصديّة والصفيّر والسخرية ، والاستهزاء في كل مكان ، وقد يخطب الخطيب ، فيعترض عليه بعض الناس في خطبته ، فإن لم تكن له بديهية حاضرة ترد الاعتراض وتقرعه بالحجة القوية ، ذهبت الخطبة وآثارها ، يروى أن أبا جعفر المنصور كان يخطب مرة ، فقال اتقوا الله فقال رجل اذكرك من ذكرتنا به . فقال أبو جعفر : « سمعا سمعا لمن فهم عن الله ، وذكر به ، وأعوذ بالله » « أن أذكر به ، وأنساه ، فتأخذني العزة بالآثم ، لقد ضللت إذا ، وما أنا » « من المهتدين ، وما أنت ؟ والتفت إلى الرجل ، فقال : والله ، ما الله أردت » « بها ، وإن كان لي قال قام فقال : فعوقب ، فصبر ، وأهون بها لو كانت » « العقوبة ، وأنا أنذركم أيها الناس أختها ؛ فإن الموعدة علينا نزلت رفينا » « نبئت ، ثم رجع إلى موضعه من الخطبة » فلو لم تكن قدرة المنصور

على الارتجال . ما استطاع أن يأتي بذلك النوع من الكلام ، وما استطاع حينئذ أن ينال من المتهم على مقام الأثرة ذلك التهميم .

وقد يعقب بعض الخصوم على كلام الخطيب بالنقض ، وذلك كثير في مرافعات المحامين والنيابة ، فأذا لم يتقدم بكلام قيم يسد به الخلة ، ويرد به الحق إلى نصابه ، ويتدارك من أمره ما هو جم فيه ، ضاع مقصوده وذهب أدراج الرياح مجهوده ؛ وذلك لا يكون إلا بقوة الارتجال التي تتكون بالمزاولة والمران .

(٢) وقد كان العرب أيام ازدهار الخطابة فيهم من أقوى الناس على الارتجال . قال الجاحظ في وصفهم : « وكل شيء للعرب فهو بديهية » « وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة » « ففكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى » « الرجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير » « أو عند المقارعة أو المناقلة ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة » « المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ؛ فتأتيه المعاني أرسالا ، » « وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه » « أحدا من ولده . . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون » « وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، » « وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم » « أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا » « إلى تحفظ ، أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليسوا كمن حفظ علم غيره » « واحتذى كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم »

« بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ »
« ولا طاب »

(٣) والمران على الارتجال يكون والعود أخضر ، والعادات لم
تتكون ، والنفس لم تجمد على نحو خاص من أئحاء القول يخالفها ، ولذا
قيل إن القدرة على الارتجال ، لا تتكون بعد الأربعين ، ويصعب أن
تتكون بعد الثلاثين ، بل تتكون في سن دون هذه السن .

ويتربى « ١ » بسماع الخطباء المرتجلين الممتازين ، لأن السماع يحفز
من عنده استعداد الكلام إليه ، ولأن فكر البشر يتغذى بالتقليد والمحاكاة
« ٢ » وبأن يأخذ نفسه من وقت لآخر بالكلام مرتجلا ، ويفشى
الجماعات ، ويتقدم إلى القول ، ليفك عقدة لسانه ، ويزيل حبسة الحياء
ويزى موريس آجام ان تمرين مرید الخطابة على الارتجال بأن يتكلم
كل صباح في موضوع من الموضوعات لنفسه ، ولو ربع ساعة ، فيتمرن
جرسه وصوته

« ٣ » ومن أمثل الطرق أن يجتهد في ألا يخطب من ورق ، وأن
يعرف ملخص مايقول ، بعد تحضيره ، فأذا دأب على ذلك ، وواتته
فطرة قوية ، واستعداد قوي ، قوى على القول على البديهة من غير
تحضير عند الاقتضاء .

« ٤ » وعلى مرید الخطابة أن يستنصح رفيقا له يدلّه على عيوبه ، كما أن
عليه أن يراقب نفسه مراقبة تامة ، ويأخذ نفسه بالأصلاح ، ولا يترك
عادة لا تستحسن تثبت ، وتنمو ، وعليه ألا يتقيد بعبارات خاصة ،
وإلا أثار سخرية الناس ، وممكن خصومه من العبث بسمعته البيانية .

(٣) النطق

النطق الحسن هو الدعامة الأولى للألقاء الجيد ، وإذا اعتري النطق ما يفسده ، ضاع الألقاء ، فضاعت معه الخطبة وأثرها ، وفقد الخطيب ما يسمو إليه من وراء البيان ، ولا شيء يذهب بالمعنى الجيد أكثر من النطق الرديء ، وكثيراً ما يفهم المعنى على غير وجهه ؛ لأن النطق قلبه ، ولم يصوره تصويراً صادقا .

والنطق الجيد يحتاج إلى عناصر أربعة لا بد من توافرها ، فإذا فقد أحدها ذهب أحد أركانه ، فاقتل بنيانه ، وهما هي ذى

(١) تجويد النطق بأن يخرج الحروف من مخارجها الصحيحة ، فلا ينطق بالثاء سينا ، ولا بالذال زايا ، ولا بالجيم كما ينطق العامة ، وهكذا كل مخارج الحروف ؛ فيجب أن يعنى الخطيب بأن يكون الحرف خارجاً من ينبوعه ، صادراً عن مخرجه الذى عرف عن العربى النطق به منه . وإن العناية بنطق الحروف نطقاً صحيحاً ، وإخراجها من مخارجها ليس معناها أن يتشادق الإنسان ذلك التشادق الذى يقع فيه بعض المتكلمين^(١) أو الخطباء . فيكسو النطق تكافاً يثير سخرية السامعين أو يثقل القول عليهم ، بل معناه أن ينطق بالحرف من مخرجه من غير تكاف ولا تشادق ولا توعر ؛ بل فى يسر ورفق وسهولة ، لأن ذلك التشادق يوقع أولئك المتكلمين فى نقىض ما يرغبون ، فينطقون بالحروف من غير مخارجها الصحيحة ، كبعض الخطباء الذين يدفعهم غلوهم إلى النطق

(١) كأولئك الذين يهملون ألسنتهم بالقاف مخمين النطق بها فيبدو التكاف واضحاً .

بلجيم بما يقرب من الشين ، فراراً من نطق العامة ؛ فيدفعهم فرارهم هذا من عيب العامية إلى عيب آخر لا يقل عن الأول خروجاً عن جادة الفصحى ، وقد قال بعض الأدباء : إن التشادق من غير أهل البادية عيب لأن أهل البادية في الزمن الأول كان نطقهم هو الصورة الصحيحة للنطق العربي القويم .

(٢) مجانبية اللحن ، وتحري عدم الوقوع فيه ، فيجب أن يعنى الخطيب بتصحيح الكلام الذى ينطق به ، وملاحظته في مفرداته ، وعباراته فيلاحظ بنية الكلمات ملاحظة تامة ، فلا ينطق منلاً بكلمة سوقة بفتححتين كبعض الخطباء ، فيذهب ذلك بروعة القول وبهائه ، ولا ينطق بغير ما توجهه قواعد النحو في آخر الكلمات ، فإن ذلك يفسد المعنى ، وقد يقلبه ، وليعتبر الخطيب بما روى من أن خارجاً من الخوارج قال في قصيدة هذا البيت .

ومنا يزيد والبطين وقعنّب ومنا أمير المؤمنين شبيب
برفع أمير المؤمنين فلما وصل البيت إلى علم عبد الملك بن مروان طلب
قائله وسأله : أنت القائل : ومنا أمير المؤمنين شبيب ؟ فقال : لم أقل هكذا
ولكنى قلت : ومنا أمير المؤمنين شبيب ، وفتح أمير (أى منا شبيب
يا أمير المؤمنين) فاعجب عبد الملك بفطنته ، وأخلى سبيله . فانظر كيف
كان اختلاف الحركة في آخر الكلمة قالبا للمعنى ، مغيرا للمقصد ، فالخطيب
الذى يقع فيه قد يفسد المعنى ، بل قد ينقلب المدلول اللفظي لكلامه ،
إلى تقيض المطلوب ، وعكس المراد . والنطق خطأ لا آخر الكلمات

فوق أنه قد يفسد المعنى ، يذهب برونق الخطبة ، وحسن وقعها ،
وجمال تأثيرها ، ولا يظن الخطيب أن جودة المعنى وإحكامه قديزهبان
بعض الأخطاء ، فأن الهنات الصغيرة إذا كثرت أحدثت تأثيراً سلبياً
للخطبة ، وأفسدت تأثير المعاني المحكمة . وإن جمهرة النظارة الآن في
مصر ممن لهم إلمام بقواعد النحو ، ولهم قدرة على ملاحظة الأخطاء ،
وإن لم تكن لبعضهم قدرة على مجانبتها في خطبهم ، بل في كتابتهم
أحياناً ، فأن المستمع يلاحظ مالا يلاحظه الخطيب ، ونظراته إلى
المتكلم وكلامه نظرات فاحصة كشفة ، وإذا أدركوا كثيراً من الأخطاء
صنع أثر الخطبة في نفوسهم .

(٣) تصوير النطق المعاني تصويراً صادقاً ، بأن يعطى كل كلمة
وكل عبارة حقها ، ويظهرها بشكل تتميز به عن سواها ، فالجمل المؤكدة
ينطقها بشكل يدل على التوكيد في النغم كما دل عليه بأداة التوكيد في
اللفظ ، والجمل الاستفهامية ينطق بها بشكل يتبين منه الاستفهام ، والمراد
منه في طريق النطق ، كما دل عليه بالأداة الدالة على الاستفهام ، وسنتكلم
عن هذا وافياً عند الكلام على الصوت

(٤) التمهّل في الألقاء : وهو ألزم الأمور للخطيب ، وليس بصحيح
ما يزعمه بعض الناس من أن الخطيب اللبق هو من يتدفق بيانه تدفقاً ،
وتتحدّر عباراته في سرعة ، ومن غير تمهّل ، فأن ذلك فيما أرى عيب
يجب التخلّي عنه ، والاحتراز منه ، (١) إذ النطق السريع المتعجل
حيث يجب الأناة ينتج منه تشويه المخارج ، وخلط الحروف بعضها
ببعض ، لأن عضلات الفم واللسان لا تأخذ الوقت الكافي للانتقال

من لفظ إلى لفظ .

(٢) والأسراع المفرط يجعل الخطيب يهمل الوقوف عند المقاطع الحسنة ، والمقاطع لها حسن الأثر كما علمت فيما مضى .

(٣) والخطيب السريع في نطقه لا يعطي السامع الفرصة الكافية لفهم ما يسمع ، وتذوق ما فيه من صقل اللفظ ، وجودة المعنى ، وحسن الخيال فإذا قرعت أذنه عبارة قبل أن يذوق ما في الأولى من جمال ، يعرفه التعب ، ويسكن قلبه السأم ، وينصرف عن الأصغاء .

(٤) والتمهل فوق ذلك يجعل الصوت يسرى إلى السامعين جميعاً بأيسر مجهود متناسب مع المكان والعدد ، بينما الأسراع يجعل الكلمات تحتاج إلى مجهود صوتي أكبر ، ليصل الكلام إلى الأذان .

وقد كان النقاد الأقدمون يعدون بحق من أمارات رباطة جأش الخطيب التمهّل في النطق ، فقد قال أبو هلال العسكري في الصناعتين : « وعلامة سكون الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه ، وتمهله في » « منطقته ؛ قال ثمامه : كان جعفر بن يحيى أبطق ، قد جمع الهدوء » « والتمهل ، والجزالة والحلاوة ، ولو كان في الأرض ناطق يستغنى عن » « الإشارة لكانه » .

وقبل أن نترك الكلام في هذا المقام نشير إلى نقطتين :
(إحداها) أن الكلام يجب أن يسوده التمهّل في الجملة لما بيننا ، ولا يمكن يصح أن يتفاوت في الجمل بعضها عن بعض ، فالجمل الدالة على الفرح والسرور يستحسن أن ينطق بها الخطيب بسرعة نسبية ، وكذلك الجمل الدالة على الغضب ، ليكون النطق مصوراً للمعنى الروحي

لهاتين الحالين تمام التصوير .

(ثانتهما) ألا يظن ظان أن التمهّل معناه أن يكون النطق هادئاً هادئاً تاماً ، فتعدم الخطبة الحياة والقوة ، بل يجب أن يكون في نفحات الصوت ورناته ، وملامح الخطيب ونظراته ، والتغيير النسبي في التمهّل والسرعة ، ما يعطى الخطبة الحرارة والقوة والحياة .

(٤) الصوت

من الناس من يسمع الإنسان صوته محدثاً أو قارئاً أو خطيباً ، فيشعر بنفحاته تنير ارتياحه ، وبرنينه يهز إحساسه ، وبعمقه يصل الى أبعد غور في نفسه ، ويتشكّله بأشكال مختلفة يتضح المعنى ، وينكشف المبهم ، ومن الناس من تسمع منه أجمل العبارات ، وأجود الألفاظ الدالة على المعاني ، فترى العبارات ؛ قد فقدت جزءاً كبيراً من بهجتها وذهب من المعاني أكثر روعتها ؛ فدلّ ذلك على أن للاصوات أثراً كبيراً في حسن وقع الكلام أو قبحه ، وليس المرجع في ذلك جمالها وقبحها ، ولكن عمقها وركوزها ، ورياضتها على تصوير المعاني ، وجودة نقل الخواطر ؛ فإن الألفاظ والأصوات تتعاونان في الدلالة على المعاني النفسية ، فالألفاظ التألم والحزن والغم مثلاً إذا سمعتها مجردة ما أثارت في نفسك شيئاً ، فإذا سمعتها من متألم ، واشترك صوت متألم بالآلام مع اللفظ ، أثارت في نفسك خواطر الأذى ، ومواضع الحزن ، وأحسست بالآلم العميق تشترك فيه مع من حكى لك آلام نفسه في نفحات صوته .

لذلك يجب على الخطيب أن يروض نفسه على تصوير المعاني ،
وأن يجعل من نغمات صوته ، وارتفاعه وانخفاضه دلالات أخرى فوق
دلالة الألفاظ ، وليعمل على أن يكون صوته ناقلا صادق النقل لمشاعر
نفسه ، وليرنه التمرين الكافي على أن يكون حاكيا صادق الحكاية
لمعاني الوجدان ، وخواطر الجنان ، وليعلم أنه لا شيء كالصوت يعطى
الألفاظ قوة حياة ، وأنه إذا أحسن استخدامه خالق به جوا عاطفيا
يظل السامعين ، وبه يستولى عليهم .

وإذا كان لنا أن نوصي مريد الخطابة بشيء ، فأنا نوصيه بهذين
الأمرين :

أولهما - أن يجعل صوته مناسباً لسعة المكان ولعدد السامعين
فلا ينخفض حتى يصير في آذانهم همساً ، ولا يعلو حتى يكون صياحاً ،
بل يكون بين هذا وذاك ، وبين المرتبتين متسع لفنون القول ،
ودرجات الكلام ، وأنواعه وغاياته .

وعند الابتداء يبتدىء منخفضاً ، ثم يعلو شيئاً فشيئاً ، فإن العلو
بعد الانخفاض سهل ، ووقعه على السامعين مقبول ، أما الخفض بعد
الارتفاع ، فلا يحسن وقعه ، ولذا يجب على الخطيب أن يوازن بين
طاقته ، وبين الزمن الذي تستغرقه خطبته ، والمجهود الصوتي الذي يجب
بذله ، وليجعل هذين على قدر تلك ، وإلا أصابه الأعياء قبل الوصول
إلى الغاية ، فكان كالمثبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى .

ثانيهما - ألا يجعل صوته نمطياً يكون على وتيرة واحدة ، وبشكل
واحد لا تغير فيه ولا تبديل ، فإن ذلك يلتقي في نفس السامع سامة

وملا لا ؛ ووراءها النفور والانصراف .

وليكن تشكيل صوته بأشكال صوتية مصورة للمعاني ؛ فإن الصوت كما ذكرنا يشترك مع الألفاظ في الدلالة على المعاني ، ويعاونها في التعبير عنها ، ويكون ذلك بتغييره بأشكال مختلفة ، فليجعل الجمل الاستفهامية تختلف في نغمة إلفائها عن الجمل التي للتمني ، وهذه تختلف عن جمل الرجاء ، وكما أن الأمر صيغة تدل عليه تختلف عن صيغة الخبر ، فليجعل المتكلم من نغمات صوته ما يدل على ذلك التغاير ، وهذا التفاوت . وإذا كانت اللغة قد جعلت صيغ الأمر هي التي تدل على الدعاء ، أو الالتماس ، فقد تركت للمتكلم واجب إشعار السامعين بالتغاير بينهما ، فليجعل لهجة الأمر تخالف لهجة الدعاء ، وتخالف لهجة الالتماس ، فإن لكل مقصدا خاصا يفهم من فحوى الكلام ، ومن صوت الخطاب .

وكما تختلف الجمل في معانيها تختلف الكلمات أيضا في معانيها ، وكل معنى يحتاج إلى نغمة صوتية معبرة عنه ، كما احتاج إلى لفظ دال عليه ، فالأشفاق ، والتوجع ، والكآبة ، والتردد ، والفرح ، والمضحك والدهشة ، والشكوى ، واليأس كلها ذات معان تحتاج إلى أصوات تناسبها ، وتساعد الألفاظ في الدلالة عليها .

هذا وكل جملة فيها كلمة ذات معنى رئيسي هو عمود الجملة ، والمقصد الذي سبقت له ، فنلا قول علي رضي الله عنه : « أعجب ما في » « الإنسان قلبه ، وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافا » كلمة قلبه هي ذات المعنى الرئيسي فيه ، فعند النطق يجب أن تعطى شعارا صوتيا

يدل على شرفها ، ويوجه الأ نظار إليها :

وإن الخطيب المتصرف المجيد لا يضل في تمييز هذه الأصوات إذا جعل دليله ما يشعر به من هذه المعانى ، وما يراه من الناس في محادثاتهم المعتادة ، في رفع أصواتهم أو خفضها ، فإن المحادثات المعتادة هي الحاكية الصادقة للحكاية للأمر المألوف ، والذوق المعروف ، فليكن في تغييرات صوته صورة مكبرة مزينة بحملة بجيد التعبير ، لما يجرى بين الناس ؛ فأنه إن فعل كان صادرا في نغماته عن إحساسهم ومشاعرهم وذوقهم العام .

(٥) الأشارات^(١)

إن الأشارات هي المخاطبة الصامتة ، أو هي لغة التفاهم العامة ، وهي في كثير من الأحيان صوت الشعور ، وعبارة الوجدان ، فالغضب يتغضن جبينه ، ويعبس وجهه ، ويقبض أصابعه بدافع شعورى من غير إرادة ؛ لهذا كان للأشارة أثر في إثارة الانتباه والشعور ، وتقوية الدلالة ؛ لأن المعنى معها تدل عليه دالتان بل ثلاث دلالات : إحداها لفظية ، والثانية صوتية ، والثالثة تلك الأشارات البيانية .
والأشارات البيانية بعضها شعورى اندفاعى لا يكون بالأرادة ،

جاء في البيان والتبيين : الإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغنى عن الخط ... وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة ، وحلية موصوفة ، على اختلاف في طبقاتها ودلالاتها ، وفي الإشاره بالطرف والحاجب وغير ذلك من الخوارج مرفق كبير

بل بدافع الاحساس الوقتي للخطيب الذي يشيره موقفة الخطيباني
كتمحيك الحاجبين للدهشة، أو تغضن الجبين للغضب، أو النظار الثمرر
عند الاحتقار، وبعضها إرادى قصدى يعمد إليه الخطيب للتأثير
فالأشارة للبعيد برفع اليد إلى أعلى بانحراف، ونحو هذه من الحركات
التي يعمد إليها الخطباء.

وسواء أ كانت الأشارات إرادية أم شعورية، فهي ذات أثر فى
تأكيد الكلام فى نفس السامع، وتقويته، غير أنه يجب أن يلاحظ
أن للأشارات قيودا لا تحسن إلا بها.

(١) فيجب أن تكون ملائمة للمعنى موافقة له، يشعر السامعون
بقوة دلالتها عليه، وإلا كانت حركات عابثة، لا معنى لها، كما يفعل
بعض المحامين، من مسحهم جبينهم آنا بعد أن من غير أن يكون عرق
أو وضع أيديهم على منظارهم، أو خلع طرايدشهم، فأن أمثال هذه
الحركات عابثة، لا تشير إلى معنى، ولا تنبئ عن أحساس نفسى قوى
أو ضعيف

(٢) ويحسن أن تسبق الإشارة القول، لتكون مهددة له، منبهة
به فينتنبه السامعون له، ويترقبونه؛ ليحجىء فى وقت الحاجة إليه، فيثبت
فضل ثبات، فالأشارة تكون مع الفكرة مصاحبة لها، والفكرة سابقة
على القول، فالأشارة مثلاً.

(٣) ولا يصح أن تتكرر الإشارة، فأن فى تكرارها ما يدعو إلى
السأم والملل، وما يوهن موقف الخطيب، ويضعف تأثير قوله.
هذا ويلاحظ أن الخطيب القوى من تكون عباراته وانسجام

بيانه قوية في ذاتها؛ فلا يصح الأ كثار من الأشارات والحركات، فأن ذلك يذهب بسمت الخطيب، ومهابته، وروائه عند السامعين .

وإن الذوق العام المصرى من ناحية الخطابة يشبه الذوق الانجليزى من حيث الرغبة فى قلة الأشارات، وملاحظة السذاجة، وألا يكون هناك تكلف لها؛ فأن ذلك ليس مألوفاً من كبار الخطباء عندنا، وهم الذين يوجهون الذوق العام فى متجهاته .

(٦) الوقفة

أحسن حال للوقفة الخطابية (١) أن يقف الخطيب على مرتفع ليشرّف على السامعين، ويصل صوته إليهم، وليتمكنوا من رؤيته فأن الرؤية تعين على حسن الاستماع .

(٢) وأن يكون فى وقفته مستقيم القناة، فلا انحناء ولا تقوس، وأن يبرز ب صدره إلى الأمام، ويعتمد على إحدى الرجلين إن كانت الخطبة تستغرق زمناً طويلاً؛ لكي يستطيع أن يبدل إحدى الرجلين بالأخرى ليريحها .

(٣) ويلاحظ أن ليس من المألوف عند كبار الخطباء فى مصر الانتقال من مكان إلى مكان كامثل، فيحسن حينئذ الوقوف فى مكان واحد لا يزايله إلا قليلاً، وإلا أثار سخرية السامعين وهزؤهم، فليجانب الخطيب ذلك ما استطاع إلى المجانبة سبيلاً .

فنون الخطابة

قد حصر أرسطو فنون الخطابة في ثلاثة أقسام : وهي الخطب التثبيتية ، والخطب القضائية ، وخطب المشورة . وكان تقسيمه هذا تابعا لأوقات المعاني الخطابية ، فالخطب التثبيتية وهي التي تتعلق بالمدح أو التأين أو التعزية وغيرها من الأمور التي تتعلق بحادث ثابت أو حال قائمه زمنها الحاضر ، والخطب القضائية لأنها تتعلق بأمور حدثت فيما مضى ، ويتناقش الخصمان في بيان تبعاتها ، زمنها الماضي ، إذ أكثر معانيها يتعلق به ؛ وخطب الشورى وهي تتعلق بأخذ الأهمية للمستقبل ، وإعداد العدة لما يكون فيه ، كان أكثر معانيها يتعلق بالمستقبل ، وهو زمن وقوعها .

والحق أن فنون الخطابة تتبع حاجات الأمة ، وأحوالها وشؤونها والضرورة الدافعة إلى القول للخطابي . وقد شاعت الخطابة في عصرنا في فنون وموضوعات كثيرة ، ولكل منها طرائق خاصة ، ومناهج بيانية امتازت بها ، وطرق للسبق فيها ، والغلب في ميادينها

وقد حصرت على تباين موضوعاتها في أقسام جامعة لها وهي :

- (١) الخطب السياسية . (٢) الخطب القضائية . (٣) الخطب الدينية . (٤) الخطب العسكرية . (٥) المحاضرات العلمية . (٦) خطب التأين (٧) وخطب المدح والشكر .

(١) الخطب السياسية

لم تزدهر الخطابة السياسية في عصر من العصور ازدهارها في ذلك العصر ؛ فقد سبقت كل أنواع الخطابة ، وصار التبريز فيها طريقا من طرق المجد المعبدة ، ومنهاجا مستقيما لمن يريد أن يتقدم إلى خدمة الأئمة بأقامة حكمها على نظام عادل مستقر ، ثابت الدعائم ، مشيد الأركان وقد تضافرت جملة أسباب ؛ فجعات للخطابة السياسية تلك المنزلة :

(١) فسيطرة الشعوب على الحكم في أكثر البلاد المتمدينة ؛ إذ قد صارت هي مصدر السلطان ، وموئل الحكم ، ومرجع أهل الحل والعقد ؛ لا يرمون أمرا من غير استفتائها ، ولا يحلون عهدا من غير الاستنارة برأيها ، ولا يثيرون حربا من غير الاستيثاق من تأييدها ولا يدخلون في عقد من غير الاستئناس بأرادتها ؛ فالحرية السياسية قد سيطرت على كل شيء ، وجأت في كل نفس المحل الأول ، والخطابة السياسية تنمو تحت ظل الحرية ، وتستمد غذاءها وقوتها منها إذ هي لا ترعرع إلا في جو حر طليق

(٢) وكانت دور النيابة . والغلب فيها ، والعمل على قيادة النواب ، ودعوتهم إلى ما يرتئيه الخطيب ، ومحاولة السبق فيها ، والسيطرة على أفكارها ، وتوجيهها إلى ما يرى من مصلحة تعم الجميع ، كان كل هذا من أسباب رواج الخطابة السياسية ، وسيطرتها .

(٣) وإن مناحرات الأحزاب ، ومحاولة كل حزب أن يكون لسانه أغلب ، ومبادئه أكثر انتشارا وذيوعا ، وأعضاؤه أكثر عددا

وأعز نفرا ، وأقوى صوتا ، وما يتخذ في سبيل ذلك من دعايات منظمة
كان سببا ثالثا من أسباب سيادة الخطابة السياسية .

(٤) وإن اتصال الشعوب بعضها ببعض ، وتقوية الأواصر ،
وعناية كل دولة بنشر الدعاية عن عدالة حكمها ، وأنها تسير بالقسطاس
المستقيم ، وأنها لا تبغى غير الخير ، وترقب العهود والمواثيق ، كل هذا
جعل للخطب السياسية النافذة للمحاسن ، النافذة للمعائب مكانا في
كل أمة ، حتى إن المانيا قد جعلت وزارة خاصة بالدعاية تسيطر على
طرقها ، وتبتكر أساليبها .

(٥) وإن نهوض الأمم المغلوبة على أمرها الذي قضى عليها ألا
يكون أمرها بيدها ردحا طويلا من الزمان ، استدعى أن يكون من
بين أهل اللسان والبيان فيها من يوقظ الحمية ، ويثير العزائم ، ويحيي
الآمال ؛ فوجدت خطب سياسية دافعة إلى الحياة الحرة ، مميّزة لليأس
كما ترى في خطب غاندى ، وسعد زغلول ، ومصطفى كامل ، وغيرهم من
أهل البيان والحمية الوطنية ، ومن تولوا قيادة الشعوب .

لهذه الأمور ولكثير غيرها ، كان للخطابة السياسية المكان
الأول من بين أنواع الخطابة . ولكثرة الخطب السياسية وتغلغلها في
حياة الشعوب ، وسيطرتها على مصيرها ، تشعبت إلى شعب ، وانقسمت
إلى أنواع هي : (١) الخطب النيابية (ب) الخطب الانتخابية (ج) خطب
النوادي (د) خطب « المؤتمرات السياسية » .

الخطب النيابية : هي التي تكون في دور النيابية ، وتشمل
خطب الأعضاء معترضين على الحكومة ، أو مؤيدين لها ، أو سائلين

أو مستجوبين ، أو متناقشين فيما بينهم ، كما تشمل الوزراء
مجيئين أو معترضين ، أو داعين إلى الموافقة على أمر .

والخطابة النيابية مزلق خطير لا ينجح في اجتيازها سالما إلا أولو
العزم من الخطباء ، ولا يكفي فيه أن يكون الرجل ذا بيان ولسن
وحضور بديهة ونهوض حجة ، وقدرة على الغلب في الخصام ، ومقارعة
الأقلام في ميادين البيان ، بل لابد للنجاح فيها من عناصر كثيرة .
لا ينالها إلا من كتب الله له النجاح المؤزر ، والفضل العظيم ، منها :

(١) أن يكون النائب فاهما لنفسية الشعب ، ماما برغبانه ، عارفا
لمطامحه وأمانية ، دارسا لأهوائه ومشاعره ، بل لابد أن يكون فوق
ذلك محسبا بأحاساسه ، شاعرا بشعوره ، حاكيا صادق الحكاية لآماله
ومطامعه ، لآله لسانه المعرب عنه ، وصوته الداوي بما يرغب من
حياة ، وليجعل الحكم بينه وبين النواب فيما يشجر من خلاف ، وما يقوم
من نزاع شعور الشعب ورغبته ، لأنهم إن حادوا عن تلك الرغبة ، وجانبوها
أخلوا بواجب الوكالة ، وخاعوا شعار النيابة ؛ ولذا يحسن بالنائب
الاتصال بناخبيه آنا بعد أن وكلا تهيأت الفرصة ، وأمكنته الأحوال ؛
لكيلا يبتعد بشعوره عنهم ، ولكي يكون على إمام تام بكل ما
يعرض لهم من شئون وأحوال .

(٢) وأن يكون علما بمشاعر النواب أنفسهم ورغباتهم ، لأنهم
الجماعة التي يخطب فيها ، فيدرس نفسياتهم ، ليؤثر فيها من طريق ما تشتهي
وتبتغي ، وليصل إليها من طريق إقبالها ، ولكيلا ترفض قوله ،
وتجعله دبر آذانها . ولا يظن ظان أنه لا يؤثر في النواب إلا المنطق

فأنهم وإن كانوا في الغالب من العلية المثقفة المهذبة تنطبق عليهم صفات الجماعات، من أنها يرد إليها التأثير من ناحية المشاعر أكثر مما يرد إليها من ناحية المنطق، لذلك يجب على الخطيب النيابي ألا يجعل المنطق هو كل شيء في كلامه؛ بل لابد أن يربطه بما يثير المشاعر، ويهز الأحساس، ويحفز الهمم، ولا يكون ذلك إلا إذا كان دارساً دراسة تامة لعقلية النواب ومتجهاتهم العاطفية، ليستدرجهم إلى ما يريد من طريق ما يالفون.

(٣) ودراسة العرف النيابي واللائحة الداخلية للمجاس؛ ليكون على بينة تامة، وعلم كامل بالنظم والقيود التي تحيط بالمناقشات، فلا يخرج عن نطاقها، ولا يعدو دأرتها؛ فإذا سأل وزيراً علم ما للوزير من حق التأجيل، وإذا أجابه عرف الحدود التي له في التعليق، فلا يمكن الرئيس من منعه، فيخشد بذلك المنع عزته، وإذا استجوب كان عليماً بماله من حق المناقشة في الجواب، وما للأعضاء من حق الاشتراك في المناقشة والمحاسبة، وفي الجملة يعلم ما للعضو من حقوق في المناقشة، والأسئلة والاستجابات وغيرها، وما أحيطت به هذه الحقوق من واجب، وما نيظ بها من تبعات. فإنه إن أخذ نفسه بعلم ذلك والعمل به، أحيطت مناقشاته بالأجلال، وصينت من المنع؛ وذلك من أسباب الأنصاف إليه؛ وربما أدى ذلك الأنصاف إلى الاقتناع

(٤) والامام التام بنظام الحكيم، والخبرة التامة بأحوال الحاكمين ومعاملاتهم للمحكومين؛ لكي يستطيع أن يؤدي عمله الذي ناب عن الجماعة في ادائه؛ فإن انتقد تصرفاً من التصرفات، انتقده عن خبرة

ومعرفة ، وكذلك إن أيد تصرفا ، وإن حاول أحد أن يلبس الأمر عليه ، كشفه بما أوتى من ذلك العلم . ومن الحقائق ما يضيع بين إفراط بعض النواب في التأييد ، وإفراط الآخرين في النقد ، ولو كانت هناك معرفة تامة بأحوال الحاكمين والمحكومين ، وانخذلت تلك الأحوال مصدرا للتأييد أو الاعتراض ، لالتقى المتعارضان ، وما تناحر الفريقان . وليعلم النائب أن عمله خطير ، وتبعاته جسيمة ، فقد تدفعه حماسة البيان ، واندفاعه الوجدان ، إلى حمل النواب على تقرير أمر ، أو انتقاد تصرف ، ووراء ذلك ما لا تحمد عقباه ، والمسلك الحق الذي يجانب فيه النائب الشطط ، ويلتزم جادة الاعتدال ، أن يعرف حال الدولة ، والصلة بين حكامها ومحكومياتها ، ليطب وهو على علم لما فيها من داء ويصف لها عن خبرة أنجمع دواء .

(هـ) التخصص في دراسة ناحية من نواحي الحياة في الأمة ، ليعمل على دراسة طرق إصلاحها ، فإن طرق الإصلاح متشعبة ، ونواحي متباينة ، ولكل ناحية أقوام يجيدون معالجة الإصلاح فيها والدربة التامة بوسائله وطرقه ، ولا يطالب النائب بأن يكون خبيرا بكل ما يصلح الشعب ، عالما بكل النواحي ، فأیوجه إذن عنايته إلى ناحية واحدة ويعن بدراسة طرق الإصلاح فيها ، فالماهر في الزراعة يوجه جل عنايته إلى وسائل ترقيتها ، وطرائق زيادة الغلات ، والطبيب يوجه أكبر عنايته إلى دراسة الأحوال الصحية ، ووسائل الوقاية من الأمراض والقانوني يتجه إلى الإصلاح القانوني ، ويعمل على تقريب مسافة الخلف بين العدل النسبي والعدل الحقيقي ، والاقتصادي يعنى بدراسة النظم

الاقتصادية في الأمم والحكومات ، وتقديم ما يرى الأخذ به يزيد الانتاج ، ويكثر من الثمرات .

وهكذا كل يعمل فيما هيء له ، ويقدم في ذلك مشروعات قوانين واقتراحات ورغبات ، وبذلك تتضافر كل القوى ، وتتلاقى كل عناصر الإصلاح ، ويتم بنيانه الكامل .

ومع اتجاها النائب إلى ما تخصص فيه لا ينصرف عن الاشراف على نظام الدولة ، وسير شئونها ، فإن النواب هم حراس النظام ، وحماته ، والرقباء على كل العاملين فيه .

(٦) الهدوء في القول ، والابتعاد عن إثارة عوامل الخصام ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فإن الخصام يدفع كلا المتخاصمين إلى أن يتعصب لفكرته ، والتعصب يدفع إلى المهاترة ، والمهاترة تدفع إلى الحق والجهل ؛ وإذا لم يكن بد من الاختلاف ، فليكن الاختلاف مظهره وممرماه طالب الحقيقة ، والسعى إليها ، والاخلال في طابها ، وليحذر كلا المختلفين من الغضب أن يسود مناقشتها ، فإنه إن سادها أفسدها ، وذهب الحق فريسته ، وإن أجوبة الغضب لا تكون مسددة ، والردود التي يسودها لا تكون محكمة ، فإن الإرادة تضعف عن أن تحكم الشعور ، وذلك قد يدفع إلى الشطط ، ووراء الانهزام في مساجلة الأقران . يروي أن سائلا سأل عمرو ابن عبيد المعتزلي في حضرة واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، فغضب عمرو . فقال له واصل : « إياك وأجوبة الغضب ، فإنها مندمية ، والشیطان » « يكون معها ، وله فيها همزة ، وقد أوجب الله على نبيه أن يستعين »

« من همزات الشياطين ، وأن يكونوا معه بقوله : (أعود بك من »
« همزات الشياطين) وقاما شاهدت أحدا تثبت في جوابه ، وما ينطق »
« به لسانه ، فاحقه لوم »

وليعلم الخطيب النائب أن الناس في داخل المجلس وخارجه يتبعون
كلامه بالتقريظ أو بالتزيف ، فليحذر من أن يسقط ، ولا طريق
لذلك إلا الأناة والروية ومجانبة الغضب .

(٧) الاجتهاد في موادة الأعضاء ؛ لكيلا يكون له من بينهم
خصوم ، يندفعون إلى مهاجمته بالحق وبالباطل ، ورحمه الله سعدت غلول
إذ قال في الجمعية التشريعية تلك الكلمة الحكيمة : « إننا إذا لم تسد »
« الصداقة أعمالنا ضنعنا ، وضاعت آمال الأمة فينا » . وموادة الأعضاء
تمنعهم أن يخالفوه إلا بالحق ، وإن خالفوه فهو خلاف إلى اتفاق
وإن لم يكن اتفاق فهي خصومة شريفة لا يضيع فيها الحق .

(٨) الابتعاد عن النعرة الحزبية ؛ فإن النعرة الحزبية تسد مسامع
النفس أن يصل إليها الحق ، وتجعل الأحزاب الأخرى لا تنصت
لقوله ، ولا تحجب داعيته ، وإذا لم يكن بدمن الحزبية ، فليضيق نطاق
سلطانها في نفسه ، وليجتهد في أن يجعل فكره في أكثر المسائل حرا
طليقا ، وكلامه لا يريد به إلا إرضاء الله والضمير ، والمصلحة العامة ، فإن
ذلك يجعل كلامه أعلق بالقلوب ، ودعوته أكثر اتصالا بالنفوس .

هذه الامور لو اتبعها الخطيب النائب في دار الشورى ، أدى
مهمته ، ووصل إلى غايته ، وكان من المصلحين .

أما لغة الخطابة النيابية ، فيجب أن تكون من الفصحى السهلة التي

لا تنزل إلى العامية : ولا تجعل قائلها من المتفهمين المتشادين ، فأنت
ضجة الالفاظ في المجالس النيابية تذهب بروح المعاني ، ودقة الأفكار
وحسن التأثير في كثير من الأحيان ، وليختر الخطيب العبارات التي
يجمع بين دقة الفكر وإثارة الخيال ، والتأثير النفسي

ولنتقل لك تلك المناقشة النيابية التي كانت بين المرحومين عبد
اللطيف بك الصوفاني ، وسعد زغلول باشا رئيس الوزارة المصرية ، في
مجلس النواب المصري سنة ١٩٢٤ عند عرض مصروفات السودان بدون
بيان تفصيلي لميزانيته ؛ فقد قال الصوفاني بك .

« أنا من رأى زميلي شوقي الخطيب افندى ^(١) في احتجاجه »
« على عدم تقديم ميزانية السودان مع ميزانية الحكومة المصرية »
« وخصوصاً وقد لاحظت في أثناء مراجعتي لأرقام الميزانية أن هناك »
« مبلغ ٧٥٠٠٠ ج . م تقريباً لموظفي حكومة السودان »

أصوات : ليس هذا وقته

عبد اللطيف الصوفاني بك : « إنني أقصد المسألة السياسية ؛ لأن »
« المبالغ المذكور ترك تفصيل إنفاقه إلى حكومة السودان ، دون »
« أن نقف على شيء من بيانه ، مع أن العلاقة بيننا وبين السودان لم »
« يطرأ عليها شيء مطابقاً من الوجهة القانونية كما هو معلوم ، أما من »
« الوجهة العملية ، فأذكر وقد كنت عضواً في مجلس شوري القوانين »
« والجمعية للتشريعية أن ميزانية السودان كانت تعرض علينا كل »
« سنة ، وبها التفصيل الوافي عما يختص بمصروفات السودان وإدارته »

(١) هو الذي أثار المناقشة في تلك المسألة

« فإذا جد حتى صار الأمر المؤلف لا يتبع ولا يراعى الآن ! ولا نعلم »
« سببنا نعلل به ذلك ، أو نرجع إليه لمعرفة هذه المخالفة ؛ فألى متى نحرم »
« حق الأشراف على السودان ! ويقال لنا إن حاكم السودان هو »
« الحاكم بأمره هناك ؟ . وإذا طلبت منه الحكومة بعض البيانات »
« لا يجيب طلبها ، أو سألته شيئاً لا يرد ، مع أنه موظف مصرى ، »
« يتقاضى راتبه من الخزانة المصرية بدون أن يأخذ قرشاً واحداً من »
« لندره ، وإذا طلبنا منه شيئاً أو معلومات سكت ، وكان سكوته »
« أبغ من الجواب . أملنا فيكم يا حضرات الوزراء ، ألا تقولوا لنا »
« ماذا نصنع ؟ فإن الأمة من ورائكم ، وهذه قوة عظيمة ، فإذا »
« ما قلتم ، تقدمت ، واعلموا أن قوة الحق فوق كل قوة ، وما القوة »
« المادية إلا هباء يتلاشى أمام الحق »

فرد عليه رئيس الوزراء سعد زغلة باشا بكلام قهقريه :
« يا حضرات الأعضاء ، يجب أن نعمل بجِد ، تريدون منا أو بعضكم »
« على الأقل أن نقدم ميزانية السودان ، ونحن لم نضع له الميزانية »
« بل السودان هو الذى يضع ميزانيته ؛ فنحن لا نستطيع أن نقدمها »
« لأنها ليست تحت يدينا ، ولم نضعها ! وأنا أقول إنه كان يجب أن »
« تكون ميزانية السودان معنا ، وأن نكون نحن واضعيها ، بل »
« يجب أن نكون واضعي اليد على السودان ، ويجب أن نسعى لذلك »
« وأنا ساع له ، ومعتمد على قوة الأمة ، وعلى حقها فى هذا ، ولدى »

« الأُدلة القاطعة ، والحجج القوية . ولكن لمن أقدمها ؟ أُلحِضرتك (١) ،
« أم لمغتصبي حقوقنا ؟ نحن نريد حقوقنا ، ونريد الوصول إليها ،
« وأنا أولكم وفي مقدمتكم ، ماوهن عزمي ، ولاضعفت همتي ، بل
« أريد أن أصل إلى هذا الحق بأية طريقة كانت ، وأمامي طريق
« مفتوح أريد سلوكه ؛ لأصل إلى غايتي ، فأن وصلت إليها ، فيها
« ونعمت ، وإلا عدت إليكم أنت (٢) لا تريد ذلك ، فإذا أضعف ؟
« والضرورة تقضى بتوجيه هذا السؤال ؛ لأنك تقول بعدم مخاطبة
« واضعى اليد على السودان ، وفي الوقت ذاته تطلب ميزانية السودان ،
« إنها ليست تحت يدي ، والسودان كله تحت يد قوية ، فإذا أضعف ؟ إما أن
« تتبع طريقي ، وإلا فدلتي على خير منها . إذا تكلمت في مجلس النواب
« فأنت مسئول عما تقول ، وعن الطريقة التي تريد أن تتخذها لتنفيذه ؛
« فأن أقرك المجلس على ما تقول فكالم مسئولون ، أما أنا فمُسئوليتي
« تكون على قدر إقرارى وموافقى »

« أنا في مقدمتكم في كل مافيه خير بلادى ، وعلى قدر فكرى
« أرى أن الطريق المفتوحة أمامى لتحقيق غرض الأمة وغايتها هى
« المفاوضة ، فأن كان عندك أو عند غيرك طريق لاستخلاص حقوق
« الأمة ، فوضحه لى ، وأنا أكون أول العاملين في هذه السبيل
« إن كان محققا لأغراض الأمة »

« إخوانى ، المسألة مسألة جدلا هزل ، وعمل لا كلام ، نحن هنا
« نتحمل مسئوليته كل أمر نقرره ، فيجب علينا قبل أن نصدر قرارا »

(١) الخطاب للصوفانى بك ، وهو لا يرى جواز المفاوضة ، ويريد سعد
بذلك السياق أن يجذبه إليها (٢) يخاطب الصوفانى بك

« يختص بهذه المسائل المهمة أن ندرسها ونفحصها ، وألا نطيع الهوى »
« بل نستشير العقل والحكمة . فكر في ذلك جيدا ، ولا تسع لأحراجي »
« لأن إحراجي إحراج للأمة ؛ لأنني أقول ، وأنا صادق فيما أقول : »
« إنني لا أريد إلّا ما تريده الأمة ، فإن أخرجت زغولوا ، فقد أخرجت »
« الأمة ، أنا لا أسعى في سياسة غير سياسة الأمة ، والذي يرشدني »
« ويدفعني إلى ذلك هو صوت في ضميري ، صرخ قبل أن يصرخ في »
« قلب أي إنسان ، وهذا الصوت يناديني دائما أن أقوم بواجبي »
« بدون أن يحضني عليه حاض ، أو يحثني عليه حاث ، ولكن في موقف »
« هذا يجب أن ألا حظ اعتبارات كثيرة ، ليس منها المحافظة على »
« مركزي ؛ لأن لي مركزا أعلى من المركز الرسمي ، ولكن إذا لم »
« أعمل الآن فلا اعتبارات ترجع إلى رعاية مصلحة الأمة ، لا إلى »
« مصلحة الشخصية ؛ فإن كنت لم أقدم ميزانية السودان ، فالأمر »
« سهل ؛ لأن الذي يضع ميزانية السودان هي حكومة السودان ... »
« دعونا من هذا ، واتركونا نعمل نحن في مراكزنا التي لاندين بها »
« إلا للأمة ، ولا نخشى إلا صوته ؛ فإن رأيتم فينا اعوجاجا ، فقوموه »
« لا بالسنتكم بل بسيوفكم . عاهدتكم ، وعاهدت الأمة من قبلكم ، »
« وأعاهدكم الآن ألا أحميد مطلقا عن رعاية مصلحة الأمة على قدر »
« استطاعتي ، وليس على المرء أن يكلف إلا ما يستطيعه ، فعليكم مادمتم »
« وطنيين أن تساعدوني ؛ لأن في ذلك مساعدة للأمة ووصولها إلى »
« الغاية المطلوبة »

- ب - الخطب الانتخابية : هي الخطب التي يتقدم بها لتركية

نفسه ، ومبادئه ، ومناهجه والرد على خصومه — من يريد أن يكون نائبا عن مخاطبيهم ، أو يتقدم بها بعض أنصاره مزكيا داعيا إلى إختياره ، رادا على الخصوم ، ذاكرا للمناقب ، مبينا المصلحة التي تدعو إلى ترجيح كفته ، وتأيد دعوته . والنجاح في هذه الخطب له طرائق مسلوكة ، وشروط معروفة ، تحتاج إلى مهارة ولباقة ، ودربة تامة بمخاطبة العوام والخواص والأوساط من الناس ، ومناحي تأثيرهم ؛ فإن هذا النوع من الخطب يلقيه الخطيب على جماهير غير متفقة في التهذيب والتفكير ، وإنا ذاكرون لك بعض ما يجب على الخطيب الانتباه أن يلاحظه :

(١) فهم روح الجماعة الانتخابية التي مخاطبها ، ودراسة مشاعر أهل الدائرة الانتخابية التي يتقدم للنيابة عنها ، فإن تلك الدراسة تكشف عن آمالهم ، وتبين الحاجات والرغبات المستكنة في نفوسهم ، فأذا تكلم المرشح أو مزيكه ، ساير تلك الرغبات ، أو ضرب على نغمتها ؛ فيكون كلامه مصورا لآمالهم ، حاكيا لأمانيتهم وبذلك يجتذبهم إلى تأييده ، ويحتاز أصواتهم

(٢) أن يستخدم الخطيب الانتخابي غريزة حب الثناء ، في التقرب من نفوسهم ، فيثني عليهم غير مسرف ، ويبين صواب نظراتهم ، وأنهم في مستوى من الأخلاص عظيم ، ثم يبين أنه يؤمن بسلطان الجماعات ، وأنها صاحبة الامر والنهي . ويرى بعض العلماء أن تعلق الجماعة الانتخابية من أقوى الوسائل لنيل المرشح بغيته منهم ، ونحن لا نوافق على التعلق ، لانه مذهب لجلال النيابة ، مضعف لنفوذ النائب

ولكننا نجيز : بل نوجب على الخطيب الانتخابي والمرشح أن يكون
لين الجانب سهل المامس ، وألا يكون فظاً غليظ القلب متغطرساً ،
يثنى على الجماعة بقدر غير بادي الملق ، لأن الملق إن بدا عرف النفاق ،
فذهب التأثير .

(٣) ذكر المنهج الذي يختاره ومذاهب الأصالح التي يراها
(١) وليلاحظ في منهجه أن يكون جزء منه يتعلق بالمصلحة التي تعود على
تلك الجماعة الانتخابية مباشرة ، ولا نطالبه بأن يجعل مصلحة تلك
الجماعة هي كل شيء في منهاجه ، لأن النائب في القانون يكون نائباً
عن الأمة كلها ، كما نصت على ذلك أكثر القوانين النظامية ، كما لا نطالبه
بخلو منهاجه من وعود تعود على تلك الجماعة بشكل خاص ، فإن
الناس مأخوذون دائماً بالمصالح التي تعود عليهم بالنفع القريب الداني القطوف .
(٢) وليلاحظ أيضاً ألا يعد إلا بما يعتقد أنه قدير على الوفاء
به ، فلا يغالى ولا يسرف ، لأنه إن فعل ظن به المكذب ، وكانت
وعوده مظنة الأخلاف ، فيذهب التأثير ، ولكن الدكتور جوستاف
لوبون يقول في كتابه روح الاجتماع : « أما المنهج الذي يحرره المرشح »
« ببيان ما ينوى من الأعمال ، فينبغي ألا يكون صريحاً ، حتى لا يتخذه »
« خصومه حجة عليه ، لكن يجب أن يطيل في المنهج الشفوى »
« ما استطاع ، ولا خوف عليه من الوعد بأجراء أعظم الأصلاحات »
« فأن ذلك يؤثر في نفوس الناخبين ، وهو في حل منه آجلاً ، إذ »
« القاعدة المطردة أن الناخب لا يبحث أبداً في هل المنتخب جرى »
« طبقاً لتصرحياته التي كانت السبب في انتخابه » وترى من هذا أن

ذلك العالم الجليل يرى أن المرشح للانتخاب لا يحاسب على ما وعده ،
ولسكننا نرى في التجارب الانتخابية التي كانت في الأمة المصرية أن
الناخبين من الناخبين يرقبون المنتخبين ، ويلاحظون تنفيذهم لمناهجهم
ووعودهم ، ونلاحظ أن خصومهم لهم بالمرصاد يحاسبونهم حسابا عسيرا على
ما يقولون ، فإن رأوا منهم إخلافا ولو في وعودهم الشفوية ، أثاروا
عليهم قالة السوء ، ولا يصح أن ننوهم أن التصريحات الشفوية لا
تصل إلى مسامعهم ؛ لأن لهم عيون على خصومهم ، وأذا ناسترقون
السمع منهم ؛ ولهذا نحن نرى أن الواجب على المرشح أو مزكّيه ألا
يعد إلا بما يقدر على الوفاء به ، وألا يسرف في الوعود ؛ لكي لا يكون وعده
مظنة الأخلاف

— ٤ — ذكر مبادئ الحزب الذي ينتمي إليه إن كان ؛ فيبين أن
مبادئه هي المبادئ السامية . وأنها أقرب للمبادئ إلى الأصلاح ، وأن
الهمة العالية تدنيها ؛ والمجد الوطني في اتجاهها ، وأن العزة الشائخة في
الأخذ بها ، والسير في مناهجها ، وعليه أن يوازن بين مبادئ حزبه
ومبادئ الأحزاب الأخرى ، فيبين أنه أقربها إلى سمو الحق ، وأدناها
إلى العمل ؛ وأن الطريق إليها واضح ، والمهيئ الموصول إليها قريب
وليكن ذكره لمبادئ تلك الأحزاب في أدب ورفق وحذر واتزان
ليكون نزيه اللسان ، عفيف البيان ؛ يحترم الآراء ؛ ويقدر الأفكار
فأنه لا يقنع أكثر من الاتئاد في القول ، والكلام النزيه البعيد عن
البهتان . والبذاء والسب . وليعتمد في ذلك الذكر إلى الأجمال بدل
التفصيل ؛ ليكون فضل البيان ، والتفصيل الكامل لمبادئ حزبه

هو ؛ لأنه المقصود ، وعمود الكلام

- ٥ - ذكر ماضى خدمات المرشح : وإذا كان المرشح نفسه هو الذى تصدى لبيان سالف خدماته ، فليعمد إلى الأيجاز فى ذكرها ؛ لأن ثناء الإنسان على نفسه غير مألوف ، والنفوس لا تقبله إلا على مفضض ، ولأنه إذا جرى على لسانه ، شأبه شائبة من المن والأذى . وإذا كان الخطيب غيره فلا مانع من تفصيل خدماته ، والأطناب فى ذلك ؛ وليحذر المبالغة والغلو والأسراف فى القول ، فأن ذلك يجعل كلامه عرضة للتكذيب ، فقوم يقولون عنه مستأجر ، وآخرون منافق ، وغيرهم متملق وكل هذا تكذيب ، وإثارة للريب فى خبره

ولا مانع من أن يوازن بينه وبين غيره من المرشحين ، وليكن ذلك فى قول خال من الطعن والسب ، وبخس الناس أشياءهم ، وقرضهم فى فضائلهم ، والنيل من كراماتهم ، فأن ذلك يذهب بروح التأثير ، ويجعل القول المقذع يذيع ، ويسيطر على الجوى الانتخابى ، وذلك مفسدة ومعة إذا ظهر تافى جو فكرى عشتب فيه الرذيلة ، واختلط فيه الحق بالباطل ، وضاع الحق وسط ضجة من البهتان

- ٦ - عدم التوعر : على الخطيب الانتخابى أن يتجه إلى السهولة فى التعبير ، فلا يتشادق ولا يغرب ، بل يتجه إلى تقريب الأفكار ، وتوضيح المبهات ، والأطناب فى شرح الحقوق والواجبات ، ولا يكتفى باللازم عن الملزوم ؛ لأنه يخاطب العامة ، والعامة لا يدركون إلا الواضح القريب الدانى

وعلى الخطيب الانتخابى أن يعلم أن تلك الخطب دروس سياسية

قانونية للشعوب : فليجتهد في ألا يقدم إليهم إلا الصحيح الذي لا تضليل فيه ، لكي يعلمهم الحقوق والواجبات النظامية ، وليسهل لهم المعلومات. لتكون قريبة معروفة دائية من مألوفهم ، وبذلك يوجه أفكارهم ، وينال تأييدهم ، وينفع أمتهم بتهديتهم .

هذه وصايا من أخذ بها من الخطباء الانتخابيين قارب النجاح في مهمته : ونال الثقة ، وفاز بالتأييد .

ج- خطب النوادي والمجتمعات : تكون خطب النوادي والمجتمعات في أكثر الأحيان ليسن حزب من الأحزاب خطة سياسية أو لتأييد فكرة من الأفكار والدعوة إليها ، والعمل على نصرتها ، أو حفز الهمم ، وإيقاظ العزائم ، أو للدفاع عن هم توجّه للحزب ، ورد كيد الخصوم في نحورهم ، وفي الغالب يكون المجتمعون في النوادي من الخاصة أو الأوساط ، وقليل أن يكونوا من العامة .

(١) ولذا يحسن أن تكون تلك الخطب محكمة الأفكار مع الوضوح والسهولة ، وأن تسرد فيها الأدلة المنطقية مع الوسائل الخطائية ، فيكون للمنطق فيها سلطان بجوار سلطان الخطابة ، وما يتخذ فيها من طرق لأثارة الأهواء .

(٢) وإذا كان الاجتماع للرد على هجوم وجهه أناس للحزب ، فليبتدىء الخطيب بتنفيذ الأدلة التي يسوقها الخصوم بالطرق التي بينها في التنفيذ ، فإذا انتهى من كشف ما في حجج الخصوم من بطلان ، انتقل إلى مهاجمة مبادئهم وأفكارهم والموازنة بين ما يدعوا إليه ، وما يدعون وليكن في تلك الموازنة عف اللسان ، لا يتجه إلى السب ، فإن الاتجاه

إليه عجز ، والأخذ به فتح لباب البهتان والتضليل ، وبذلك يخفى الحق في عتير من الباطل

(٣) وعلى خطيب الحزب أن يجتهد في أن يجعل عباراته نغمة قوية ، واضحة سهلة ، لا تنزل عن الألف كفاء ، ولا تعلو على الأوساط ولا تتساقط عن العوام . فأن الخطبة ستنتشر في الغالب في الصحف ، وتقرأها الطبقات كلها ، وإن كان السامعون من الخواص أو من قاربهم (٤) ولأن الخطيب الحزبي يخاطب الأمة كلها بكلامه في نأديه ونشرها في صحفه ، وجب أن تكون خالية من كل ما يؤخذ عليه قائماً بأي نوع من أنواع المؤاخذة ، فلا إسراف فيها ولا غلو ، ولا وعد بما يكون مظنة الأخلاف ، وإلا نزلت الخطبة بالقول والقائل ، وارتدت الدعوة إلى التأييد خسرانا مبينا . وإن قوما يظنون أنه لا حساب على القول ، فيسرفون في ذكر مبادئ واسعة النطاق في نواديهم ومجتمعاتهم فإذا عملوا تخلى عملهم عن دعواهم ، وقام منه دلائل لا تقبل النقض على غير ما يدعون ، والناس يسمعون ثم يرون ويعاينون ، فيحرمون هؤلاء من ثقتهم وتأييدهم ؛ لأن من يسرف في القول ، ويضؤل عمله ، لا يوثق به .

- د - خطب المؤتمرات السياسية : هذه خطب الكبراء ، والنائبون

عن الحكومات في المؤتمرات الدولية ، ويظهر لي أن عنصر الشعور وإثارة الألهواء أقل العناصر ظهوراً في تلك الخطب وأن أوضح ظاهرة فيها الدقة في حكاية المهمة التي ناب عن حكومته فيها ، وصدق التصوير

لاقصى ما تتسامح فيه دولته . وليس لنا أن نتعرض لبيان تفصيلي لما يجوز وما لايجوز في تلك الخطب ؛ فأن ذلك من عمل أناس يجيدون ذلك العمل ، ولسنا منهم فى شيء ، ولنسكتف من هذا بأن تنقل لك خطبة الرئيس ولسن فى مؤتمر السلام العام الذى كان منعقدا فى ٢٥ من يناير سنة ١٩١٩ وهامى ذى :

« أيها السادة ، إن الطبقات المختارة من الجنس البشرى لم تعد »
« حاكمة الجنس البشرى ؛ فحظوظ البشرى الآن فى أيدي شعوب العالم »
« كاه ، وإذا كنتم ترضون هذه الشعوب ، فأنتم تبررون ثقتهم ، وتقرون »
« السلام ، وإذا كنتم لا تعملون فى إرضائهم ، فإن كل اتفاق تضعونه »
« لا يقر السلام فى العالم ، ولا يوطده »

« وبخيل إلى أنكم تتصورون العواطف والمقاصد التى يعاضد بها »
« مندوبو الولايات المتحدة هذا المشروع العظيم ، مشروع جماعة الأمم »
« ففتح نعدده أساسا للعمل الذى أعربنا به عن مقاصدنا وغاياتنا فى هذه »
« الحرب ، والذى قبلته الشعوب المشتركة أساسا للتسوية »

« فأذا عدنا إلى الولايات المتحدة من دون أن نبذل كل ما فى »
« وسعنا لتحقيق هذا البرنامج ، فلن نلاقى سوى السخرية التى »
« نستحقها من بنى وطننا ؛ لأنهم كتلة تتألف منها ديموقراطية عظيمة »
« فهم ينتظرون من قادتهم أن يتكلموا ، ومن ممثليهم أن يكونوا »
« خداما لهم »

« فليس علينا إلا أن نعمل بالوكالة التى فى أيدينا ، وإتينا نقبل »
« هذه الوكالة بأعظم حماسة وسرور ، وبما أن هذا هو أساس العمل »

« كله ، فقد وقفنا عليه ، وعلى كل ذرة منه جميع اهتمامنا »
« ولا نجسر أن نضرب صفحا عن أية مسألة كانت في البرنامج »
« الذى تضمنته التعليمات التى فى أيدينا ، ولا أن نتساهل فى أى جزء »
« منها ، لأن ما ندافع عنه هو سلامة العالم ، هو موقف العدالة ، هو »
« المبدأ القائم على أننا لسنا أسيادا للشعوب ، ونحن قد جئنا إلى هنا »
« لنحرص على أن يختار كل شعب فى العالم أسياده ، وأن يتصرف »
« فى شئونه ، لا كما نريد نحن ، بل كما يريد هو . وصفوة القول إننا جئنا »
« الى هنا لنحرص على اقتلاع جذور الحرب وأسسها جميعها ، وقد »
« انفردت بأمر هذه الأسس عصابة من الحكام المدينين والهيئات »
« العسكرية ، وهذه الأسس هى الاعتداءات من الدول الكبيرة »
« وتأليف الامبراطوريات بقوة السلاح على الرغم من الرعايا ، وجعل »
« الجنس البشرى لعبة تتقاذفها الأيدي ، فلا شئ يأتى بالسلام سوى »
« تحرير العالم من هذه الأمور »

الخطابة القضائية

الفصل في الخصومات على وجه الحق أمر عسير ، وحل معضلات القضايا ، ومعرفة الحق من الباطل ، وتحري العدالة الحقيقية أمور فوق قدرة البشر ، وقد قال خير الخلق رسول الله محمد (ﷺ) فيما روته أم سلمة رضي الله عنها : « إنكم تختصمون إلي ، فلعل بعضكم أن يكون » « ألحن بحجته من بعض ؛ فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت » « له من حق أخيه شيئا ، فأنا أقطع له قطعة من النار » . وقد اتفقت على رواية هذا الحديث كتب السنة الستة .

وقال رجل من رجال القانون وشيوخه عمل في المحاماة وفي القضاء وفي الاشتراع ، وهو الغفور له سعد زغلول : « يظهر لي أن العدالة » « الحقيقية غير موجودة في هذا العالم » . لهذا كله كانت مجالس القضاء مكانا لمغالبة الخصوم ، ومقارعة الحجج ، وميدانا فسيحا للاستدلال الخطابي ، كل يحاول جذب القضاء إلى فكرته ، وإقرار دعواه ، وإجابة طلبه ، وقد قال بعض القضاة : « لا تقولوا : إن الحقيقة تدافع عن نفسها ؛ » « فإن ذلك يكون صدقا لو خلت النفوس مما يشينها ، ولكن الناس » « بحكم الطبع والعادة ليسوا أصفياء ، اتقياء الروح ؛ لذلك كان حتما » « علينا أن نفعل كما يفعل الذين يدخلون الحديد النار ليلين ، فنصهر » « أفئدة المصغين لنا في حرارة البلاغة ، حتى تقبل الحقائق التي » « نبيد بها لهم »

وهذا النوع من الكلام هو الذي نسميه الخطب القضائية .

وهو قديم بقدم الخصومات والمنازعات البشرية ، وقد جاء في كتاب الحمامة للمرحوم أحمد فتحي زغلول باشا : « قد كان لليهود في زمن موسى » عليه السلام رجال يشتغلون أمام القضاء فيما يشبه الحماماه اليوم ، « وأخص ما كانوا يعملونه حل المشكلات التي تظهر بين الأفراد من » المسائل القانونية ، وكانوا في عملهم هذا غير مأجورين ممن يعملون » لمصلحته ، لأنهم كانوا يأخذون جملاً من بيت المال » .

وكان قدماء المصريين في بعض عصورهم يخشون التأثير الخطابي بالصوت والألقاء والحركات والأشارات وجمال الشارة ، فحرموا المرافعات بغير الكتابة ، خوفاً على العدالة من أن تذهب فريسة قوة التأثير

وكان لقوة تأثير المرافعات في مجالس القضاء عند اليونان أثر واضح في الأحكام ، حتى سنت القوانين لمنع الخطباء من استخدام الوسائل لاثارة الوجدان والعواطف فيها ، وحتى عين في كل محكمة رجل يقاطع الخطيب أو يسكته ، كما رآه يحاول التأثير بقوة العاطفة والالفاظ ، وإثارة الإعجاب

والرومان مع قوة تأثير الخطباء عندهم تركوا العنان ، ولم يقيدوا الخصوم بأي قيد ، ثقة بالقضاء ، واعتماداً على وضوح القانون وصراحة قواعده وكذلك الشأن الآن في كل البلاد المتمدينة أطلق العنان لهم ، يدلون بحججهم ، غير مقيدين بنحو خاص من القول ، ولا بمنهاج من التعبير ، ولا بطريق من التفكير والتأثير ، فلا قيد إلا قيد النظام والقانون ، وفي غير ذلك هم طلقاء من كل قيد . وقد حرصت

الحكومات على أن يكون من رجالها من يثبت الجريمة ، ويؤثم
المجرمين ، ويقدم نصوص القانون الموضحة للعقاب ، وهؤلاء هم رجال
النيابة ، فلهم مرافعات في القضايا التي تتعلق بالنظام العام ، وعلى ذلك
يكون عندنا نوعان من الخطابة القضائية : مرافعات النيابة ، ومرافعات
المحامين ، ولنتكلم على ما يحسن سلوكه في كل منهما ، ليؤدى إلى النجاح ،
وسيكون كلامنا بالأجمال ، فالتفصيل لأهل الخبرة في هذه الأعمال

- ١ - مرافعة النيابة

(١) يشبه عمل النيابة الحسبة الإسلامية ، فكما أن المحتسب
يرفع الدعوى في حقوق الله سبحانه وتعالى ، كبعض الحدود ، ودعوى
الوقف ونحوها ، كذلك النائب العمومى ووكلاؤه يرفعون القضايا في
الأمر التي تتعلق بالنظام العام ، وهى الجنايات المنصوص عليها في
القانون ، ويقدم النائب الأدلة المثبتة للدعوى في الجملة : فأما أن
القرائن غير كافية للأدانة بعد رفع الدعوى فوض الأمر للمحكمة :
فقد جاء في منشور وزارة الحقانية الصادر في ٢٠ أبريل سنة ١٩٩٨
« وليست النيابة إلا خصما أقيم لرفع الدعوى باسم الهيئة الاجتماعية : »
« ولا يوجد في النصوص القانونية ما يسوغ لها أن تطلب براءة المتهم »
« كما شوه حصول ذلك في العمل من زمن غير بعيد : وإذا كانت »
« الأدلة القائمة على المتهم غير كافية لإثبات التهمة عليه لا شك أنه »
« لا يتعين عليها أن تشدد في طالب الحكم عليه بالعقوبة ، بل الواجب »
« الذى يفرض عليها فى مثل هذه الظروف أن تكمل الأمر إلى المحكمة »
« لتفصل فيه بما تراه ، إذ هى الحكم دون سواها »

(٢) ويلاحظ أن النيابة ليست خصما من كل الوجوه فهي من ناحية أخرى لها عمل يشبه عمل القضاة ؛ إذ الواجب على النائب أو وكيله أن ينظر إلى المتهم عند تحقيق اتهامه نظرة غير متحيزة إلى اتهام بل يزن الأدلة ، ويفحصها ، ويتعرف المجهول منها والمستور ، حتى إذا اجتمعت لديه الأسباب رفع الدعوى ، وعند الأدلاء بالحجج يجب أن تكون كل جهوده متجهة إلى الأخذ بيد العدالة ؛ ليضعها على ماوصل اليه من حقائق ؛ فلا يحاول إنجاح الاتهام بكل الطرق ، بل بطريق واحدة ، وهي سرد الحقائق ، وسوق الأدلة الناطقة بالاتهام ، لأن القانون جعل النيابة قيمة على الحقوق العامة ، ومعيونة للقاضي على إظهار الحقيقة ، لاعلى تأثيم مطلق ؛ ولذا نقول إن الواجب في مرافعة النيابة أن يسودها سرد الحقائق وسوق الأدلة فلا يكون فيها ما يثير الوجدان والعاطفة إلا بقدر محدود ، إلا إذا توقعت أن الدفاع سيثير جوا كذلك ، فأنها تقدم بما تراه موصلا لغايتها من غير إفراط ولا تفريط

(٣) وكما يجب على الخطيب القضائي الممثل للنيابة ألا يكثر مما يثير الوجدان والعاطفة ، كذلك يجب عليه أن يلتزم الاعتدال ، ولا يندفع وراء تيار من العبارات الخطابية ؛ فإن ذلك قد يستر الحقائق ، ولا يؤدي إلى كشفها ، وهو الواجب عليه ، وإذا جاز ذلك من المحامي الذي لا يهيمه إلا التبرئة ، والذي هو بطبيعة عمله ينظر النظرة المتحيزة ؛ فهو لا يجوز من النائب العام الذي لا يهيمه إلا الحق في ذاته ، والجميع بين يديه سواء ؛ ولذا لا تكون الحماسة في خطب النيابة إلا

بقدر، بل يحسن الهدوء، والاجتهاد في تصوير الجريمة، من غير مبالغة
- ٤ - وإذا عمد إلى وصف نفسية المتهم، فلا يمكن بعبارة مهذبة
عفيفة، لا تجنى فيها، ولا ما يشبه السب، كما فعل ممثل النيابة في قضية
القنابل التي كانت في سنة ١٩٣٢ ومنها ما جاء في تصوير نفسية أحد المتهمين
(محمد علي) فقد قال : « إني إذا أقدم لحضراتكم بهذا المتهم، إنما أقدم »
« نسيجا ليس له منيل بين باقي المتهمين، حاولت أن أفهم »
« نفسيته، وأن أعرف حقيقة عقلية، فأعجزني، حتى لقد ظننت، وأنا »
« أحاول ذلك أني كرجال الرقابة عاينه، راغ مني كما كان يروغ منهم »
« ليست نفس هذا المتهم إلا نفسا مضطربة، رى بها وسط »
« التيارات المتباينة، علم سطحى بالقراءة، ومطالعة مبتسرة للجرائد »
« وضعف في التكوين، ظم على جميعه، أن كان للحين المقدور سكرتيرا »
« لجماعة من جماعات العمال، فظن أنه أصبح شيئا مذكورا، وزاد هذا »
« عنده أنه كان يجالس بعض من فوقه مجالسة النظير للنظير، ألا ترون »
« دلائل الفخر في قوله : أنا قوى الإرادة جدا، ولم يؤثر على أحد »
« بطريق البلف، الاترون دليل الغرور في قوله عمن كانوا يراقبونه : »
« إنه كان يمتحن ذكاءهم الخ الخ » وترى في هذا وصف صادقا لنفسية المتهم مع
النزاهة التامة في التعبير

وإذا اعترض أحد على ممثل النيابة أو فرط من الدفاع كلام يشم
منه جرح، لا ينساق في الرد فيقع في الحماة التي وقع فيها خصمه، بل يرد
في رفق وهدوء، كما فعل المغفور أحمد زكي أبو السعود باشا عندما
كان وكيلا للنائب العمومي، ووقف ضد محام في مجلس تأديب، فرد المحامي

برد جارج ، فقد قال زكى باشا فى مذكرة كتبها فى الرد: «مثل النيابة»
« فى تحقيقها مع المتهمين بالجرائم مثل الطبيب يعالج الأمراض ، »
« فيوق إلى استئصال شأفتها ، ومنع أذاها عن الناس ، ولـكنه قد »
« يصاب فى الوقت نفسه بشىء من سمومها ، كذلك كان حالنا مع المتهم »
« فى هذه القضية ، شكادخوموه ، فحققنا شكواهم ، وأظهر التحقيق »
« إدانته ، فرفعنا أمره إلى مجلس التأديب ، سلم خصومه من نتائج »
« عمله ؛ ولم تسلم النيابة من لسانه ، لسنا ننكر على المتهم حقه فى »
« الدفاع ، لأن حرية الدفاع من المبادئ التى نحترمها ، ونعمل لتأييدها »
« ولـكننا نتكر عليه تهوره فى دفاعه إلى حد الطعن فى الذمم ؛ »
« وتجريح الضمائر ، كتبنا مذكرتنا ، كما يكتب القاضى حكمه ، »
« فقصرنا على رواية الوقائع ، وبيان الأدلة ، ولم نعرض لدفاع »
« المتهم بكلمة تؤذيه ، وكنا ننتظر أن يأخذ بأدب النيابة فى مرافعتها »
« فيجعل دفاعه مهذبا أثناء المحاكمة ، كما كان دفاعه مهذبا أثناء التحقيق ؛ »
« ولـكنه لم يستطع أن يضبط قلمه ، فخرى فى دفاعه على أسلوب لم »
« يألفه المترافعون ، ولا تميل إليه أسماع المتأديين »

«ومن الناس من يتوهم أن إجراءات التحقيق من الأمور التى يمكن»
«التصرف فيها تبعاً للشعور والعواطف ، يريدون من المحقق أن يكون»
«لينا متساهلاً ، فإذا ما آنسوا منه ميلاً إلى التشدد فى الواجب ظنوه»
«قسوة وشدة ، لأنهم لا يعرفون للواجب حداً يقفون عنده ، أولئك»
«هم الأميون الذين يجهلون القانون ، وهم لجهلهم معذورون ، وهم معذورون»

« أيضا لانهم إذا كرهوا عمل المحقق احتراموا شخصه ، وتهيبوه ، فلا »
« هم يصلون إلى ضميره بطعن ، ولا هم يمسون ذمته بسوء »
« لم يرد . . أفندى أن يقف في كراهته للتحقيق عند الحد الذي »
« يصل إليه عامة الناس في شعورهم ، فسمح لنفسه بالطعن في عمل »
« المحقق ؛ ليتسع أمامه مجال القول بالظنون ، بعد أن ضاق في وجهه مجال »
« القول الصحيح ، قعدت به همته عن مناقشة الدليل ، فزعم أني تحاملت »
« عليه ، ومعنى هذا التحامل أني هضمت شيئا من حقه ، فراجعت أعمالي »
« فألفيتها تنطبق على القانون من كل وجه . وراجعت الذاكرة ، فوجدتني »
« لا أعرف شخصه ؛ ولا أذكر أني صاخرته في حياتي قبل أن اشتغل »
« معه بالتحقيق . زعم أني تحاملت عليه ، وهو أعلم الناس بفساد هذا »
« الزعم ؛ فرأيت أن أقول كلمتي لا لأبرئ نفسي ، فهي أكبر من »
« أن تتأثر بطعن لا يؤيده دليل ، وإنما أقولها ، ليعلم الناس »
« أن . . . أفندى أساء إلى النيابة بقدر ما أحسنت هي إليه في المعاملة »
« رأيت منذ شرعت في التحقيق أن أسمح للخصمين بأن يأخذ كلاهما »
« من حرية القول حقه فيها ؛ فلا أذكر أني وقفت في وجه أحدهما »
« لكلمة أراد أن يثبتها ، أو سؤال طلب أن يوجه إلى شاهد ، أو »
« عمل من الأجراءات التي يسمح بها القانون ، ولم تكن سلطة التحقيق »
« إلا فيصلا بين الحق والباطل ، وضمان مساواة بين الدعوى »
« والدفاع ، كي لا يتغلب قوى على ضعيف . ارتاح . . . أفندى إلى »
« التحقيق ، فدافع عن نفسه هادئا مطمئنا ؛ وقد دفعه اطمئنانه إلى »
« إلى الاعتراف بوقائع يعاقب عليها القانون ، وما كان التحقيق ليكشف »

« أمرها لولا اعترافه ؛ وثق فاطمأن ؛ فاعترف ؛ فكيف يتفق هذا »
« الاطمئنان مع التماس الذي يدعيه ؛ هذا حقه في الدفاع قد استوفاه »
« وتلك أعمالى فى التحقيق ذكرتها فى الرد ؛ وأبنت وجه الصواب »
« فيها ؛ لا أقول إني معصوم ؛ ولا أقول إني ملك ؛ وإنما أقول : إني »
« لم أعمل فى التحقيق عملاً لا يرتاح إليه ضميرى ؛ تعمدت إظهار »
« الحق بوسائل مشروعة ؛ وأعتقد أنى وصلت إليه ؛ فإن كان فى »
« ذلك ما يغضب المتهم فأنا أول من يلتمس له عذراً ؛ لأن فى الحق »
« قضاء على حياته الأديبة ؛ وإنما لا ألتمس له العذر فى طعن لا يستند »
« فيه إلى سبب صحيح ؛ ولا يقصد به إلا التجريح ؛ وهو يعلم أنى لم »
« أعمل إلا ما قضى به واجبى ؛ وأنى كنت به رؤوفاً »
« هذه مرافعتى لم أذكر فيها كلمة أعتقد أنها غير صحيحة ؛ وقد »
« ذكرت فيها شيئاً من أعمال . . . أفندى فى قضية واحدة ليقاس عليها »
« عمله فى القضايا الأخرى ؛ فاحكموا بعمله على أخلاقه ؛ فأنا على »
« الأخلاق تحكمون » (١)

وهذا مثل قيم للرد اللادع على تجريح الدفاع من غير إسفاف ؛ بل
بتسام واعتصام بسلطان الواجب والحق

(٦) هذا ويلاحظ ممثل النيابة أن كل تطويل فى غير التحليل
والتفصيل عند الحاجة إليهما إضاعة لوقت القضاء ولوقته فى غير طائل
وكل إيجاز فيه نقص وعدم توضيح وإيهام بإخلال بالواجب المنوط به ،
والعدالة التى تعده من رعايتها وحمايتها ؛ والعاملين عليها ، والداعين إليها ،

فليتحرر الموضوع والشرح : وسرد الوقائع من غير حشو ، والاقتصار على المطلوب ، وعدم الأسراف في الألفاظ من غير إخلال .

(٧) وعبارة النيابة تستحسن فيها السهولة والانسجام والاسترسال مع عدم تكلف التحسين ؛ وإلا ضاعت الحقيقة وسط ضجة من الألفاظ ، وسيل من التعابير ، وعليه مع ذلك ألا يفوته أمران .
(أحدهما) أن يتجه إلى الألفاظ الفخمة القوية الزائدة إن كان يتكلم في سلطة القانون وقوة سلطانه ، ليلقى في روع السامعين مهابة القانون فيلتزموا خطة الطاعة ، ويخاف العصاة صولة العقاب

(وثانيهما) أن يلاحظ قوة رجال الدفاع ، فإن وجدهم من أهل البيان واللسن ، ومن يحاول التأثير بالكلام شهر عليهم مثل سلاحهم من غير أن ينسى أن عمله الدفاع عن الحق في ذاته ، وأنه ليس كغيره يتحيز ، ويسير وراء مصلحة من يتحيز له ؛ فإن كان له أن يتحيز فللمجتمع والحق والقانون ، لا لغيرهما .

(ب) مرافعات المحامين

المحامى هو العليم بالقانون الذى يستطيع أن يثبت حق ذى الحق ويدفع باطل المعتدى معتمداً في ذلك على علمه بما شرع القانون من حقوق ، وما ألزم من واجبات ، وما قيد به الحريات حفظاً للجماعة ، وتثبيتاً للمصالح .

ولسنا نتكلم هنا عن مرافعات المحامين من كل وجوهها ؛ فنثبت ما لهم من حقوق قانونية في حق الدفاع ، وما عليهم من واجبات ، وما قيدوا به من حدود ؛ ليؤدوا واجباتهم على الوجه الأكمل ، ولانبين

مراتب الأدلة ، ومواضع قوتها ، وما يجب اتخاذه منها في للقضايا المختلفة ، لا نتكلم في هذا ، ولا في ذاك ، فهما من شأن رجال القانون والمشرعين ، وذوى الدراية من المحامين ، وأهل الخبرة من القضاة .
وإنما نقتصر في كلامنا على ما يتعلق بأداء المرافعات ، وطرق تحضيرها في الجملة ، وما يحسن في لغتها ، وما لا يحسن ، وما يراعيه المحامي من مقتضيات ، وما ينهزه من فرص ، وغير ذلك مما هو لب الخطابة القضائية ، وفي الأخذ به نجاح المحامي ، والوصول إلى غايته ، إن كان قد اعتمد على أدلة قوية دامغة ، وفي الجملة كلامنا هنا في شكل المرافعات الخطابية

وقبل أن نخوض في بيان هذا يجب أن نذكر ما يتحلى به المحامي ؛ ليكون أقدر على النجاح في مهنته .

(١) الرغبة الصادقة في إنصاف المظلوم إن وجدته ؛ فإن تلك المهنة الشريفة ليست مرتزقا يتخذ للعيش فقط ، بل هي عمل شريف من قبيل الإصلاح الاجتماعي قبل كل شيء ، ومن هذه الناحية تكتسب المحاماة شرفها ، وينال المحامي مجدها ، وإلا فهي مهنة ككل المهن لا فرق بينها وبين الصناعات المادية التي تفيد الناس في نواحيها . قال الأستاذ الغرابلي باشا في محاضرة ألقاها على المحامين الذين هم تحت التمرين سنة ١٩٣١ : « المحامي هو قبل كل شيء نصير المظلوم ، ثم هو بعد ذلك الرجل »
« القانوني الذي يستطيع أن ينتصر لذلك المظلوم انتصارا مفيدا ، »
« وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم الناس وظيفة المحامي ، فن وجد في »
« نفسه ميلا فطريا لنصرة المظلوم ، ومحاربة الباطل ، فليسلك سبيل »

« الحمامة إذا أراد ، ومن لم يحس في نفسه بهذا الميل الغريزي ، فأنى أنصحده »
« أن يبتعد عن الحمامة ، وأن يشق له في الحياة طريقاً آخر » ، وقال في
الحمامة وطلب المال : « ومتى كان جمع المال غاية ، فما أشق الحمامة بهذه »
« الغاية ، بل ما أشق العدالة بحمامة تكون وسيلة لجمع المال : لأن »
« كل وظيفة من وظائف العدالة تفسد ، وتقلب إلى خطر محقق ، إذا »
« كان صاحبها طالب عيش قبل كل شيء ، إذ أن الوظيفة تكون في »
« هذه الحالة مسخرة لخدمة الشخص ، وليس الشخص هو المسخر »
« لخدمة الوظيفة ، فيألفها من جريمة شنيعة ، جريمة أولئك الذين »
« يستخدمون وظائف العدل لأشباع بطونهم »

وقد نظرت القوانين إلى الحمامة نظرتها إلى الناصر المظلوم ؛
ولذا جعلت على المحامي فريضة واجبة الأداء ، وهي التقدم للدفاع عن
ليس لهم محام يدافع عنهم ، أو يثبت حقوقهم متى ندبه القضاء لذلك ، وإلا
استحق العقاب .

(٢) الألمان التام بأحوال الجماعات ، وطوائف الأمة ، وعرف كل
طائفة ، ليستطيع أن يتخذ من عرفها ، وما يجري بين الناس في عامة
أحوالهم دلائل تثبت ما يقول ، وتقطع على الخصم طريق الانتصار ،
فعليه أن يعرف حال الزراع وما يجري بينهم ، وما هم عليه من أخلاق
وعادات ومعاملات ، وعليه أن يعرف حال التجار وعرفهم في مبادلاتهم
وما يصفقون به في الأسواق ، ويسيرن عليه في الأعمال ، وما كذا
في كل الطوائف ، فإن أفضية الناس متصلة كل الاتصال بأحوالهم
وشئونهم ، ويحدث لهم من الأفضية بقدر ما يحدث بينهم من شئون .

(٣) قوة الانتباه واليقظة التامة : وحسن المراقبة لما يجرى في مجلس القضاء ، ويقال من شهود وخصوم ووكلاء ، لكي يستطيع أن يعرف المقتل ، فيضرب الضربة القاصمة للخصم . وقد قال الأستاذ إبراهيم بك الهلباوى في ذلك : « كثيرا ما شعرت بتحول في تيار فكري » إلى نقط تصاح لموكلتي أستنبطها من طريقة الخصم : أو من ملاحظة « الحكمة ، وأعظم نعمة أشكر الله عليها توفيقى في انتهاء هذه الفرص » في لحظتها ، ثم التعبير عنها والاستفادة منها »

(٤) أن يكون متصفا بصفات الخطيب التي لا يعد المتكلم في صفوف الخطباء بدونها ، وقد بينها ، وذلك لأن المرافعة خطابة لها طابع خاص .

(٥) وقد أوجب الأستاذ العالم محمد على علوبة باشا : « (١) أن يكون المحامى على شىء غير قليل من أدب اللغة ، ليجد فيه بغيته متى » أعوزته الحاجة إليه . (٢) وأن يكون ماما بقواعد علم النفس » والاجتماع . (٣) وأن يكون ثابت الجنان يملك زمام نفسه عند » المفاجآت ، فلا يسد عليه انفعاله مسالك التفكير . » وقد علمت مما سبق ضرورة هذه الأمور للخطبة ؛ ليستطيع بالأول أن يكون ذا ثروة لغوية يصرف بها فنون القول ، ويسلك بها من طرائق البيان أقربها توصيلا . راي عرف بالثاني كيف يثير الوجدان والأهواء فى الناحية التى يريد بها ؛ ولكيلا تطيش حجته إذا أخذته الرهبة ، واستولت على لبه مفاجآت الخصوم .

(٦) الهدوء التام ، ومجانبة الغضب ، والاجتهاد فى ضبط نفسه

وعدم مسيرتها في سبيل الغضب إن لم يستطع التخلي عنه ؛ فإن المناقشات التي يسودها الغضب تدفع إلى المهارة ، والمهارة نوع من الحق والجهل كما ذكرنا ؛ ولأن المحامي إذا استرسل في غضبه ، ضاعت حجته ، وضل محجته ، ووجد الخصم الطريق إلى الغلب ، وكثيرا ما يثير الخصم الأريب خصمه الغضوب ؛ ليقتنص منه الحجة ؛ ويستحل منه القضية ؛ ويتركه يحرق الأرم ، ويعض بنان الندم ، فليعتصم المحامي بالهدوء في مساجلاته ؛ ليستطيع أن يسدد السهام ، وهو ثابت الجنان ؛ فلا يبتعد عن الهدف .

هذه بعض ما يتحلى به المحامي من صفات ، وما يكمل نفسه به من تهذيب ، وقد آن لنا أن نبين طرق إعداد المرافعة ، وطرق الأدلاء بها ، ولغة المرافعات

(١) إعداد المرافعات : إن إعداد المرافعات يجب أن يتناول الدرجات التي بها يصل المحامي إلى غايته ، وتلك الدرجات ثلاث : (أولاهها) جمع عناصر القضية ، واستخلاص الأدلة و (ثانيها) إعداد العدة للرد على معاساهيجي ، على السنة الخصوم ووكلائهم من أدلة (ثالثها) التفكير في الأسلوب الذي يتجه إليه ، والمسلك الذي يسلكه ليصل إلى إحساس القاضي ويمس به وجدانه ؛

(١) أما جمع العناصر والأدلة فيكون : (١) بدراسة أوراق القضية واستيعاب أجزائها ، واستقرائها استقراء تاما ، بعد الاستيثاق من أنها كاملة لم ينقص منها شيء ، حتى إذا أتمها قراءة ، ولم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة ، إلا غاص في فهمها ، واستبطن ماحوته (٢) رتب مأخذه

منها ، ووضعه في وضع مسلسل متماسك الأجزاء (٣) ثم يستنبط منه ما يراه مؤيدا لما يريد ، وإذا رأى في هذا الكفاية اقتصر عليه ، وإلا اتجه إلى القانون يستنطق مواده ، وينغوص في قواعده . حتى يصل إلى ما يراه مؤيدا له ، مثبتا لما يريد موكله ، ولو على سبيل الرجحان لا اليقين .

وهنا يثار بحث هو : أيجب على المحامي ألا يتقدم للمرافعة في قضية ، إلا إذا وجد أن ماتحت يده من الأوراق والأحداث يثبت أن موكله على حق مبین ؟ أم يصح أن يتقدم للدفاع ، ولو اعتقد البطلان ؟ يرى بعض كبار المحامين ، وبعض أولئك الذين أخذهم سلطان الحق والفضيلة والغيرة على تلك المنة الثمينة أنه لا يصح للمحامي أن يقف إلا إذا كان مؤمنا تام الأيمان بحق وكيله فيما وكله فيه ، وإلا كان في عمله تلبيس على القضاء ، وعرقلة للعدالة ، وسعى في نمرة الباطل .

ونحن نوافق صاحب هذا القول في القضايا المدنية والشرعية التي لا شبهة فيها ، والتي يلوح فيها حق الخصم واضحا مكشوفاً ، فعلى المحامي أن ينصح لموكله بالصلح ، ويبين له جلية الأمر ، ليحسم الخلاف ويعلمه الناس ثقة لا ريب في ذمته . وإن كان الأمر موضع نظر ، وأن الحق فيها قد التبس بالباطل ، ولم يتضح له جانب منهما ، تقدم وأثبت بما يراه موصلاً ، غير أنه لا يصح له أن يسلك من الوسائل الموصلة ، إلا ما يعتقد كل الاعتقاد أنه حق يؤيده القانون ، ومن غير تلبيس ولا تضليل .

أما القضايا الجنائية فإن المحامي يجب عليه أن يدافع، ولو أن التهم جان ، لأن الواجب أحد أمرين ، إما نفي الجريمة إن لم تكن الأدلة عليها قائمة بيقين ، وفي هذه الحال يكون دفاعه عن برئ بمقتضى القانون « إذا التهم برئ مالم يقيم الدليل القاطع على جريمته » ، فلا شئ في الدفاع حينئذ . وإما تصوير الحال التي وقعت فيها الجريمة استدراجا للعطف وإثارة للرحمة ، وليس المحامي في هذه الحال إلا رسول التهم يصور حاله ، وينطق بجنانته ، ويعرضه للمحكمة . وإن نظرة عاجلة إلى المجرمين ترينا أن كل مجرم منهم لابد أن تحاط جريمته بأحوال نفسية شاذة تخفف من حدة الجنائية ، وتلطف من شدة وقعها ، اللهم إلا العتاة القساة الذين يتخذون الأجرام مرتزقا من غير اضطرار ، فالمحامي يبين كل ما يصح أن يكون دفاعا . ولقد لاحظت القوانين ذلك ، فأوجببت أن يكون لكل متهم في جنائية محام يدافع عنه ، فالنيابة قد تقدم الرجل إلى المحاكمة ، ويده مخضبة بالدماء ، ومديته تنطف دما ، أو صدى الرصاصة التي ألهب بها رأس المقتول يدوى في الآذان ، ومع ذلك تندب له المحكمة من يدافع عنه ، إذ يجوز أن يكون مما أحاط بالجنائية ، ودفع إليها ، ما يخفف من شرّة هذه الجريمة ، وما دامت النيابة تترافع ضده ، فليكن من المحامين من يدافع عنه .

ولذا نقول إنه في إعداد المرافعة إذا لم يوصله بحثه في القانون وحوادث القضية وأوراقها إلى ما يثبت الدعوى بيقين ، فليكتف بالرجحان ، فإن لم يكن رجحان ولا شبهة ، فليرفض الدفاع في القضية المدنية والشرعية ، وليقدم في القضية الجنائية ، وعلى المحامي في هذه

الحال أن يشعر بشعور المتهم ، ويحس بأحاسسه ؛ ليستطيع أن يدافع عنه بحرارة ، ولينقل وجدانه إلى المحكمة ؛ قال بعض الباغاء في وصف محام قدير : « وسر مقدرته أنه يتعمق في درس الدعوى ، رياج إلى قلب »
« القضية ، فينظر بعين المتهم ، ويحس بأعبائه ، فيغضب غضبه ، »
« ويصيح صياحه ، كأنه يطلب الرحمة لنفسه ، ويترجم عن بأس المسكين »
« بياسه ، يأخذ شبكة الاتهام ، ويلقيها على نفسه بافتخار ، ثم يقطعها »
« تقطيعاً ، كأنه من مصارعى الرومان »

(٢) وأما إعداد الردود على ماعساه يكون دليلاً ؛ فيكون بأن يتخيل نفسه في موقف خصمه ، ثم ينظر في القضية بنظره ، ويجمع الأدلة التي تصلح له ، ثم يعود عليها بالهدم لبنة لبنة ، وبذلك يغشى مجلس القضاء ، ومعه كل الأسلحة ، فليقدر شهادات الشهود ، ثم يستعد للرد عليهم ، وليعرف أقوال الخصوم ، وليتمس من ثناياهم ما يهدم مطالبهم وليحذر أن يكون السب مما يعده من الخائر ؛ فإنه سلاح ذو حدين ، وربما كان ضرره أكبر من نفعه . ويظهر أن بعض الناس يتخذ من المحامى والخصومة ذريعة للنيل من كرامة خصمه ، فليحذر المحامى أن يتذرع لهذا الصنف من الناس ، وأن يكون سيقّة في يده ، ولا يصح أن يعبأ برضاه أو سخطه ، فإنه إن جعل رضاه مقياساً لجودة المرافعة ، نزل بها من عليائها . وقد جاء في كتاب الحماماه لآحمد فتحى زغلول باشا أن مونتيسيكو أوصى المحامين من هذه الناحية قائلاً : « أيها المحامون ، »
« ان فيكم غيرة على حقوق موكلينكم ، ونحن نمدح ذلك منكم ، لكن غير تكم »
« تكون جريمة إذا أنستكم ما يجب عليكم نحو خصومكم ، نعم أنا »

« أعرف أن واجب الدفاع يقضى عليكم بذكر سيئات خصومكم التي
« طوتها الأيام ، إلا أن في ذلك ضررا لا يخفى ، ونحن لا نسمح لكم
« بذلك إلا إذا قامت الضرورة على أنكم كنتم إليه ملجئين . خذوا
« عنا هذه الحسمة ، واذكروها على الدوام ، لا تقولوا الحق إذا لم يكن
« له من أثر غير الأضرار بفضلكم وكرامتكم ، فما أشد تعس اللسن
« إذا كان في أكل لحم الغير ميتا ، ولعلنا لا نعلم من أمر ، ولا يكدر
« صفونا أكثر من تجاوز بعض الألسنة حد الكمال في المقال . إن
« الذي تضحك منه الناس لا يفرحنا ، ولكننا تبكى دائما على أولئك
« التماسين الذين يشان شرفهم ، وتنتهك حرمتهم بقوارص المطاعن
« والكلام . أيليق أن يلحق الخزي ، ويركب العار كل من اقترب
« من رحاب هذا المجلس المقدسة ؟ يا للأسف ! هل يخشى البعض أن
« تظهر العدالة خالية من كل عيب ، بعيدة عن الرذائل والمساوىء
« وأى عمل يساء به الخصوم أكثر من انتحابهم وحرقتهم إذا خرجوا
« من الخصومة كسبين ، وقد جعلت حدة القول مذاق العدل مرا .
« نأشدتكم الذمة ، ما الذي نجيب به قوما يقولون لنا : أيها القضاة ، إننا
« أتينا للمثول بين أيديكم ، فكان حظنا أن رمينا بالنقائص وألبسنا
« جلايب المخازي ، ولقد انكشفت لكم جراحنا ، فلم تضمدوها ،
« وجلستم لتنصفونا من إساءات أصابتنا بعيدا عنكم ، فقالنا من
« الأساءات أمامكم ما هو أعظم ، وأشد وقعاً ، فلم تفوهوا ببنت شفة
« وأنتم الذين كنا نراكم في مجلس قضائكم ملائكة الأرض ، فسكنتم
« كأنكم أصنام من الخشب أو الحجارة لا تنطقون ، تقولون إنكم »

« ولنتيم القضاء لتحفظوا علينا أموالنا. وإن شرفنا أعز علينا من كل مال »
« ولتحفظوا أرواحنا، نعم وإن الشرف أعز على النفوس منها، فإن لم »
« تستطيعوا أن تردوا جماح خطيب أخذته حديثه، فدلونا على مجلس »
« قضاء أعدل منكم، وأحفظ لحقوقنا، وما يدرينا أنكم لم تقتسموا »
« تلك اللذة البربرية التي طامها خصومنا، ولم تفرحوا بما نالنا من اليأس ! »
« وما تولانا من الأضرار! وإن سكوتكم الذي نعهده ضعفا منكم »
« هو في الحقيقة إثم قد ارتكبتموه عمدا واختيارا »

« أيها المأمون، ليس لنا طاقة على احتمال مثل هذا العتب »
« والتعنيف، ولا نريد أن يقال أنكم كنتم في ترك الواجب عليكم »
« أسرع منافي إلى أدائه »

وكما لا يصح أن يجعل الردود على الخصوم سبا وشما، لما ذكره
ذلك القاضي الحكيم، كذلك لا يصح أن يجعل الرد على شهادات الشهود
بتجريح ذمم الاختيار، فإن ذلك فوق أنه طعن في الذم بالباطل، وتلبس
على القضاء، وعمل لا يليق بشرف المهنة، ولا بأدب الخطابة، هو
منع لفضلاء القوم من أن يؤدوا الشهادة، وحمل لهم على أن يكتموها
وفي ذلك ضياع للحقوق، وإهدار للدماء، وعرقلة للعدالة في كل نواحيها
وقد قال روس، كما جاء في كتاب المحاماة « ومن الأسف أن بعضهم »
« عندما يعجز عن تنفيذ الشهادة وبيان مقوطها يرجع على الشاهد بما »
« يحط من قدره، ويسقط من اعتباره، فيصايه نارا حامية، »
« وقودها التخيلات الوهمية، والشبهات التي لا دليل عليها. وينسون أنهم »
« بذلك يلحقون الضرر برجل من الاختيار أدى واجبه، ليخدموا رجلا »

« من الأشرار خرج على القانون بجريمته ، وإنهم يمتحنون والفصاحة »
« والعقل باستعمالهما في خدمة الأئيم ضد المستقيم ، حتى يتسنى لهم أن »
« يقولوا لقد نجينا المجرم بقوة البيان وفصاحة المنطق وذلاقة اللسان ، »
« لكن ذلك مجد لا يستقر زمنا طويلا في الأذهان »

(٣) وأما ترتيب المرافعة : فيكون بأن يبدأ بمحصر وقائعها مسلسلة ثم يستنبط من الحوادث الأدلة التي يراها مؤدية لمطلوبه ، ويذكر الحجة القانونية التي يعتمد عليها في تقرير ما يقرر ، وليلاحظ عند ترتيب المرافعة الأمور الآتية :

(١) أن يبدأ بأقوى الأدلة التي يتقدم بها عند ذكر الأدلة ، فإنه إن فعل ذلك سبق إلى ذهن القاضي عدالة مطلبه ، والفكرة الأولى عن شئ شديدة الثبات ، قارة في النفس أبغ قرار ، وإزالتها من النفس تحتاج إلى مجهود قوى ، وذهن المعنى .

(٢) أن يسهل على القاضي الاستنباط ، فيذكر له الحوادث في صورة ناطقة بما يريد ؛ ليسبقه القاضي إلى إدراك ما يريد أن يستنبط حتى إذا ذكر له ما يستنبطه ، تمكن في نفس القاضي فضل تمكن . ويجب في الصورة موافقا لتفكير القاضي ، وقد استناره هو في نفسه بحسن تصويره ، فيجذب بهذا ميلا إليه .

(٣) أن يكون على إمام تام بنفسية القاضي وأسلوب تفكيره ، وما يستهويه من الآراء ، وما يستثيره من الأفكار والمعاني ؛ ليستطيع أن يعد في مرافقته ما يشبع رغبته الفكرية ، وليجعل كلامه صورة لما في ثنائه ، فيسكن في قرارها ، إذ يجد ما يلائمه ، ويعيش مع ما يوافقها .

وليستطيع ان يعيش فى الجو الذى يعيش فيه القاضى ؛ فيكون بينهما فهم متحد فى كل مايقدم من أدلة واستنباطات

(٢) طرق الأدلاء بالمرافعة : إلقاء المرافعة هو روحها ، وهو

عمادها ؛ وإليه يعود جزء كبير من نجاحها ؛ إذ بغير حسن الألقاء وجودة الأدلاء لا يكون التحضير قيمة ؛ ولا للأعداد أثر ، ومثل المحامى الذى يجيد الأعداد ، ولا يجيد الأدلاء كمثل المعلم الذى يجيد تحضير الدروس ، ولا يحسن إلقاءها . وليكون الألقاء جيداً لا بد من مراعاة أمور حق الرعاية ، منها :

(١) ألا يلقى من مذكرات كتبها ودونها ، بل لا بد أن يلقى مشافهة لكي يستطيع أن يشرف بنظراته ؛ فيدرك كل ما يحيط بقوله ، من إقبال أو إعراض ، من تنبه أو انصراف ، ولكى يستطيع أن يشرك فى التصوير حركاته ونظراته ، والجمود على ألفاظ مكتوبة قد يحبس الذهن عن التصرف التام فى فنون القول على حسب المقام ، ولهذا يقول الخبراء : إن أقل المرافعات تأثيراً ما كان مكتوباً ؛ لأنها لا يستفيد فيها المحامى من الجو الذى يسود مجلس القضاء ، ولا يتخذ منه قوة له

(٢) وأن يلاحظ القاضى فى إقباله أو إعراضه ؛ وفى نظراته وإشاراته ، لكي يسير فى طريق واحد ، وفى متجه واحد ، فأن لاحظ منه إقبالا فى نقطة أشبع فيها القول ، وإن لاحظ منه إعراضاً فى ناحية لا يصارحه بالمخالفة فى وجهة النظر ، لأن المصارحة بالمخالفة مخاصمة ، والمخاصمة تباعد ما بين المتناقشين ، وتوسع الهوة ما بين المتخاطبين ، وما وقف أمامه ليخاصمه ، بل ليعاونه فى إظهار الحق ، وليستدنيه إلى

وجهة نظره . ولا يترك الأمر الذي أعرض عنه مرضاة له ، فقد يكون في ذلك ضياع للحق . وإخلال بواجب الدفاع ، بل يعتمد إلى الرفق والأناة . ويترك مؤقتا التصريح فيما اعترضه فيه ؛ ثم يأخذ في شرح أمور مسلم بها من الجميع تثبت صحة ما اعترض قوله ؛ ثم يهجم به فلا يجد إعراضا ، وعليه ألا يظهر منه في أثناء ذلك ما يدل على أنه فهم إعراض القاضي عند ما أعرض ، لأن القاضي إذا فهم أن الخصم علم اعراضه ، ثم ميله إلى التسليم ، ربما قاوم نزعة التسليم ؛ لأنه بشريهمه أن ينصر فكرته ، إن ظهرت للناس .

(٣) أن يلاحظ وقت القاضي ، فلا يطنب إلا إذا وجد متسعا من الوقت ، ولم يغن الأيجاز عن الأطناب ؛ لأن الأطناب حيث أغنى الأيجاز تطويل ممل ، وإسراف في القول من غير حاجة داعية إليه ، والأطناب حيث يضيق صدر القاضي بالسماع ، وحيث لا يتسع الوقت له تكليف بما لا يطاق ، فليوازن المحامي بين وقت القاضي ، ومصلحة القضية ، والقول اللازم ، وبذلك ينال السداد وحسن الاستماع والانتباه ، والوصول إلى الغاية المطلوبة ، والضالة المانشودة .

(٤) إعطاء المرافعة حياة وقوة بتغيير النبرات ، ورفع الصوت حيث يلزم الرفع ، ويخفض في موضع الخفض ، ويبدى تأثيره بالحلق الذي كان مضيقا ، أو بالعطف على الجاني إن أراد أن يستدر عطف القضاة عليه ويسرع أو يبطئ في القول ، حسب مقتضيات الأحوال ؛ فيسرع في مواقف الحماسة ، ويتأنى في مواقف الروية ، وكأنه في هذه الحال يسير على قمة جبل تحته الهاوية ، فيقدر للرجل قبل الخطو موضعها

وإعطاء المرافعة حياة وقوة يخلق في مجلس القضاة جوا فكريا عاطفيا يساعد على توجيه القضاء إلى ما يريد .

وإن المرافعة القوية بروح ملقيها ، وحسن تزييفه ، وقوة دلائله وظهور استنباطه تضع في رءوس القضاة صورا فكرية صادقة النقل لحق من يدافع عنه ، إن كان الحق هو العباد .

(٣) لغة المرافعة : (١) ألفاظ الخطيب وأساليبه يجب أن تكون

ملائمة كل الملاءمة للذوق العام الذي يسيطر على البيئة التي يخطب فيها ولعرف الجماعة التي يناطب أحد أشخاصها ، وقد بينا ذلك فيما سلف من القول ، وهنا نقول إن لغة المرافعة يجب أن تكون ملائمة للذوق اللغوي الذي يسود أهل القانون ، وأساليب مخاطبتهم ، والألفاظ الشائعة بينهم . ولغتهم في الحقيقة قريبة من الفصحى ، وأعلى من العامية ، وهم في ذلك ككل المثقفين بثقافة أدبية تهذيبية اجتماعية في مصر ؛ فعلى المحامي إذن أن يتحرى في مرافعاته أن تكون بلغة مرسلة لا تكاف فيها ولا تحسن ولا سجع ، ولأما يشبه السجع ، بل تسودها السهولة بحيث تكون قريبة من لغة أولئك الخاصة المثقفين ، لا تشادق فيها ولا تفهق ، ولا نزول إلى العامية ، ونحن لا نبيح له العامية إلا في حالين : (إحدهما) إذا أراد أن يأتي بملحة تفكية للسامعين . (ثانيتهما) إذا لم يستطع تصوير فكرته تماما إلا بالعامية ، أو أراد أن ينقل عبارة شاهد ، ليناقشها ، فإن العامية تباح في هذه الحال اضطرارا (٢) وقد يلجأ المحامي إلى العبارات الفخمة القوية الرنانة في بعض

القضايا الجنائية، ليهز إحساس السامعين والقضاة، كما إذا أراد أن يصور حماسة المتهم في الدفاع عن نفسه أو عرضه مثلاً، فإنه يتكلم بعبارات قوية تفرع الحس . ليكون في ذلك ناقلاً لقوة حماسة موكله، واندفاعه فيما يفعل .

(٣) ويجب على المحامي في دفاعه أن يغير أساليب القول، ويصرفها فرة يقول مستفهماً، وأخرى متعجباً، وثالثة قصصياً، ورابعة مستنكراً وهكذا ينوع عباراته؛ ليكتسب كلامه جدة

(٤) وعليه أن يسوق كلامه في صورة مشوقة، يبتدىء بعبارات منيرة لاهتمام السامعين؛ وعزلة لأفكارهم، حتى إذا تمت تهيئة الأذهان دفع إليهم بكل ما يريد، وهكذا في كل أجزاء دفاعه، حتى يتم له النصر والله المستعان

(٣) خطب الوعظ الديني

(١) تمهيد في بيان وجوبه وحاجة الناس إليه

(١) — الوعظ الديني هو الأمر بالمعروف في الدين، والنهي عن المنكر فيه، وقد أجمعت عليه الشرائع، واتفقت على وجوبه الأديان، فعليه قد قامت الدعوة إليها، ومن ينبوعه تغذت النفوس البشرية غذاءها الروحي؛ ومن ضوئه اقتبست نورانياتها، وقد قال في وصفه الغزالي: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم» «في الدين، وهو المهبط الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولوطوى» «بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة» «وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد» «واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك» «إلا يوم التناد»

والأدلة على لزوم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - كثيرة في الشريعة الإسلامية؛ حتى لقد عدت بحق شريعة التواصي بالحق والتناهي عن المنكر؛ فقد قال تعالى: «والعصر إن الإنسان» «لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وتواصوا بالحق؛» «وتواصوا بالصبر». وقال تعالى في سورة آل عمران: «ولنكن منكم» «أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛» «وأولئك هم المفلحون». وقال تعالى كلمته: «كنتم خير أمة أخرجت» «للناس تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله».

وقد روى أن النبي ﷺ قال : « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل »
« الله ، إلا كنفثة في بحر جلى ، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل »
« الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إلا كنفثة في »
« بحر جلى » . وقال ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »
(٢) - والاعبار متضافرة بما كان عليه سلف هذه الأمة من
القيام بذلك الحق ، لا يهابون في ذلك سلطان ذى سلطان ، ولا تأخذهم رافة
في دين الله ، ولا هوادة في إقامة حقه ، والأخذ بنصر دينه ، كل شئ هين في
سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكل عذاب سهل مساع ، إذا كان
من كلمة حق قالوها ، لا يمنعهم من أن يصدموا بها أقوى الحكام تتواء ،
وأشدهم قسوة ، وأبعدهم في الأذى منالاً ، وما أخبار وعاظ التابعين مع
الحجاج وأشباهه من حكم بني أمية بعيدة عن الازدهان ، كانوا لا يتخذون
فيما يفعلون تقية ، ولا يرضون في دينهم بالدنية . يروى أن الحجاج جمع
بعض علماء العراق ، وفيهم الحسن البصرى والشعبي ، وأخذ يحادثهم
فذكر على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فقال منه ، وجاراه من معه
تقرباله ، وأمننا من شره ، إلا الحسن البصرى ، فصمت على مضض
وعض على إبهامه ، إذ غلى مرجل غضبه ، فالتفت إليه الحجاج وقال
يا أبا سعيد ، ما لي أراك ساكتاً ! قال ما عسيت أن أقول ؟ قال أخبرني
عن رأيك في أبي تراب . قال : سمعت الله جل ذكره يقول « وما جعلنا »
« القبلة التي كنتم عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على »
« عقبه » ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ، وما كان الله »
« ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم » ؛ فعلى ممن هدى الله

من أهل الإيمان ؛ فأقول : ابن عم النبي ﷺ ، وختنه على ابنته ، وأحب الناس إليه ، وصاحب سوابق مباركات ؛ سبقت له من الله ، أن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها . وأقول إن كنت لعلى هناة فالله حسبه . والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا فبسروجه الحجاج ، وتغيره ، وقام عن السرير مغضبا ، فدخل بيتا خلفه ، وخرج الجمع ، فقال عامر الشعبي : أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره فقال : اليك عنى يا عامر ، يقول : الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أتيت شيطانا من شياطين الأنس تكلمه بهواه ، وتقاربه فى رأيه ، ويحك يا عامر : هلا اتقيت إن سئلت ؛ فصدقت ، أو مسكت ؛ فسلمت . قال الشعبي يا أبا سعيد : قد قلتها ، وأنا أعلم ما فيها . قال الحسن : فذاك أعظم فى الحجة عليك ، وأشد فى التبعة ، وبعث الحجاج إلى الحسن . فمادخل عليه ، قال : أنت الذى تقول : قاتلهم الله ؛ قتلوا عباد الله على النيار والدرهم ؛ قال : نعم . قال : ما حملك على هذا ؛ قال ما أخذه الله على العلماء من الموائيق ليبيئنه للناس ، ولا يكتموننه . قال يا حسن : أمسك عليك لسانك ، وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره ؛ فأفرق بين رأسك وجسدك

هكذا تكون قوة الأيمان ، وهكذا يكون الأخذ بتلك الشريعة المستقيمة ، والفريضة المحمكة ، فريضة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تلك الفريضة التى لو أخذنا بها كما أخذ ذلك السلف الصالح ، لارتبط حاضر الأمة بماضيها ، ولا اتصلت نفوس الحاضرين بنفوس السابقين بتلك الأمراس النورانية

(٣) — وقد ذكر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده أن للأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاث مراتب : فالمرتبة الأولى دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير : ليشاركونهم فيما هم عليه من النور والهدى ، وقد أوجب الله ذلك على المؤمنين ، فقال تعالى في وصفهم : « الذين » « إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، » « ونهوا عن المنكر »

والمرتبة الثانية دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير ، وتأميرهم فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، ببيان طرق الخير ، وتطبيق ذلك على أحوال الأمم ، وضرب الأمثال ، ويقوم بهذه وسابقتها العارفون بأسرار الشريعة ، وهم الذين قال تعالى فيهم . « فلو لا نفر من » « كل فرقة منهم طائفة : ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا » « إليهم ، لعلهم يحذرون . »

والمرتبة الثالثة تكون بين آحاد الأمة علماء وجهلاء بالتواصي على الحق ، والتناهي عن المنكر ، كل بما يعرفه ، فإذا رأى أحد المسلمين مساماً يتردى في موبقة هو يعلمها ، ولو لم يكن من الخاصة تصدى لنصحه وإرشاده . وبيان ما يأمره به الدين ، وما ينهاه عنه في هذا المقام (٤) وقبل أن نترك هذا نشير إلى أمر جدير بالنظر ، فقد اعترض بعض الذين ضعف عزائمهم ، وأرادوا أن يسكنوا ويطمئنوا ، فلا يقوموا بذلك التكليف العظيم - بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم » « أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . ولا نجيب هؤلاء بغير المأثور من صاحب السنة الشريفة الذي بين للناس ما نزل إليهم ، فقد روى أن أبا ثعلبة الخشني سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى قوله

تعالى: « لا يخيركم من ضل إذا اهتديتم » فقال: « يا أبا ثعلبة ، أمر بالمعروف »
« وانه عن المنكر ، فأذار أيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، »
« وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام ، إن من »
« ورائكم فتنا كقطع الليل المظلم ، لئلا تمسك فيها بئس أثم عليه أجر »
« خمسين منكم ، قيل : بل منهم يارسول الله . قال : لا بل منكم : لا أنكم »
« تجدون على الخير أعوانا ، ولا يجدون عليه أعوانا »

(٥) من هذه الكلمات الموجزة عامت مقدار عناية الدين الأسلامي
بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا غرابة في أن يعنى به ذلك
الدين السمح ، فإنه بناء الأمم ، وحفاظ الجماعات ، يمنعها من التردى في
مهاوى الضلال والفساد ، وما رأى العام الذى تعترف له الأمم بالسلطان
وتجعله مقياس الرقى فيها ، ودليل التقدم أو علامة التأخر ، إلا وليد
الأرشادات ، وثمرات التواصى بالخير ، والتناهى عن الشر ، وإن شعور كل
امرىء بأن عاينه من الجماعة من له كالرقيب العتيد ، يحصى عليه سيئاته
ويعد له حسناته ، يدفعه الى الكمال ، ويسير به فى طريق الرقى .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له هذه القوة ، ولو
كان معتمده العقل ، وما يراه الناس حسنا ، فكيف يكون الشأن لو
كان ذلك تحت سلطان الدين ، وإجابة لندائه ، ودعوة إليه ؟

(٦) إن الجماعات لا تصلح إلا بالدين ، ولا يقوم لها شأن بغير
هدايته ، ولا تستقر إلا بقوته ، لأن الأديان تهذب العالم ، والجاهل ،
وذا العقل القوى ، وصاحب العقل الضعيف ، فهدايتها عامة شاملة لا
تخص فريقا دون فريق ، بل إن الجماعات مهما تكن ثقافتها ومعارفها

تخضع للدين ، وتستولي على مشاعرها آياته . قال العلامة جوستاف لوبون في كتابه الآراء والمعتقدات : « وإذا نظرنا إلى المنطق الديني من خلال » « جميع عناصر الحياة الاجتماعية . فأننا نراه ذا تأثير في الفنون ، والآداب » « والسياسة . . . ولا تزال البقاع التي ارتادها العلم محدودة . . . ولا شك » « في أن سيطرة التفكير الديني على البشر ستمتد زمنا طويلا » اهـ . نعم ستمتد سيطرة الدين إلى يوم الدين ، لأنه سلوان الجماعات ، وعزاء البائسين ، وعزة المغلوبين .

إن الدين هو الذي يربى الوجدان الفاضل ، ويهذب الضمير ، ويوقظ شعور الإنسان بالفضيلة ، فأرشاده يمس مواطن الأحاساس في النفوس ويؤثر فيها أبلغ تأثير ، ويصل إلى الأعماق في الهداية والصالح .

(٧) والدين الإسلامي في عمومته في الأحكام يشبه قانون الأخلاق من حيث إنه يحكم على كل أفعال الإنسان الإرادية بالخير ، أو الشر ؛ فكذلك يحكم الإسلام على كل الأفعال بالقبول عند الله أو عدم القبول وكما أن الأخلاق تنوط الأحكام بالأغراض والمقاصد ، كذلك الدين ينوطها بالنيات ، ففي الحديث الصحيح « إنما الأعمال بالنيات » وفي الأثر « البر ما حاك في النفس ، فاستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » ولما كان للإسلام هذا العموم في الأحكام كان صالحا لأرشاد

الناس في كل أمورهم ، وكان للوعاظ الإسلامي من النفع بمقدار ما يستطيع أن يقدمه من إصلاح في بناء الحياة الاجتماعية عند المسلمين ولقد لاحظت الحكومة ذلك ؛ فطلبت إلى الوعاظ في المساجد أن يخطبوا في بعض أمور اقتصادية أو زراعية أو صحية ، ومن أمثلة ذلك أن

وزارة الأوقاف أمرت خطباء المساجد أن يخطبوا في الوقاية من
السل ، وأرسلت إليهم نص الخطبة ، ومما جاء فيها : « عباد الله ، كم لله »
« علينا من نعمة ، وكم فيما شرعه من حكمة ؛ فعلينا أن نشكر الله »
« نعمته ، ونعمل ما نرجو به رحمته ، إن شكرتم لا يزيدنكم ، ولئن كفرتم »
« إن عذابي لشديد خلق الله الداء ، وخلق معه الدواء ، وقدر به الشفاء »
« فمن يرجو من الله شفاء علقته ، فليتبع ما أرشد إليه في كتابه ، وليعمل »
« بنصائح أهل الذكر ، فقد قال تعالى في كتابه المكنون : فاسألوا أهل »
« الذكر إن كنتم لا تعلمون . وإن من أشد الأمراض فتكا بالإنسان »
« مرض السل القتال ؛ وقانا الله شره ، وخفف عن المصابين ضرره . وإن »
« على المصاب واجبين : واجبا لنفسه ، وواجبا لغيره ؛ فأذا قام بواجبه »
« نحو نفسه ، وواجبه نحو أبناء جنسه ، فرج الله كربته ، وأذهب »
« علقته . . . يجب على المريض بهذا الداء أن يمتنع عن بلع باغمه ؛ فإن »
« في ذلك إضرارا بباطنه ، وخطرا على باقي أعضاء جسمه ، . ويجب »
« عليه ألا يشرب لبنا قبل غليه ، فربما كان فيه من جراثيم المرض »
« ما يزيد علقته ، ويضعف علاجه . ويجب عليه أن يتخذ لنومه غرفة »
« خاصة به ؛ فإن هذا أرجى لشفائه ، وأبعد عن أذى غيره . ويجب »
« أن تكون الغرفة الخاصة به تتخللها الشمس والهواء ؛ فإن في حرارة »
« الشمس وتجدد الهواء عوناً على قتل جراثيم المرض ، وتطهير الغرفة »
« من آفاته . ويجب أن تتمهد الغرفة بالتنظيف والتطهير ؛ فإن فيهما »
« وقاية من المضاعفات ، وتخفيفا لويلات الآلام »

« هذه واجبات المريض نحو نفسه ، فعليه أن يقوم بها ، ولا
 « يهمل واحدة منها ؛ فإن الله سبحانه وتعالى نهانا أن نلقى بأيدينا
 « إلى التهلكة ، وأمرنا أن نقي أنفسنا من الأمراض ، وندفع شرورها »
 « ونتلافى أضرارها ، فمن أهمل في واجبه فأثمه على نفسه . »
 « وأما واجب المريض نحو الناس فالأيعرضهم لأذاه ، وألا
 « يكون سببا في إصابتهم بمثل ما أصيب به ، فإن المسلم من سلم الناس
 « من لسانه ويده فالله الله في صحتكم ، فلا تهملوها ، وفي صحة
 « الناس فاحفظوها ، وفي نصائح الأطباء الصادقين فنفذوها ، وفي كل
 « حسنة فافعلوها ، وفي كل سيئة فاتركوها . . . روى مسلم في صحيحه »
 « عن رسول الله ﷺ قال : لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء »
 « برأ بأذن الله عز وجل . وفي مسند أحمد عن أسامة بن شريك قال »
 « كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاءت الأعراب فقالوا : أنتداوى »
 « فقال : نعم يا عباد الله ؛ تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له »
 « شفاء غير داء واحد ، فقالوا : ماهو ؟ قال : الهرم »

ألا ترى أن منشيء هذه الخطبة بين أن التداوى والوقاية من
 السل خير ان مقبولان مطلوبان في الشرع الأسلامى ؛ وبني على ذلك
 حث السامعين على العناية بهذين الأمرين ، وبين بعض طرق الوقاية
 وضرورة الأخذ بأهل الخبرة من الأطباء النقات . وإذا كان الأسلام
 له ذلك الشأن في الإصلاح ، فالوعظ الدينى الذى يدعو إلى الفلاح تحت
 ظلاله ينال الفوز والسبق ، والجماعة التى تأخذ بهديه تنال السعادة والسلام .
 ولقد سبقتنا أمة قامت على أساس هديه ، ومدنية شمخت على دعائم

وعظه ، فقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليه يتخذون من القرآن والسنة وما يدعوان إليه وسائل إلى الأصلاح ؛ فكونوا دولة أخذت ملك كسرى ، وهزت عرش قيصر .

(٢) الوعاظ والمرشدون

ذكرنا المراتب التي بينها الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده ، وقلنا إن المرتبتين الأولين (وهما دعوة غير المسامنين إلى الإسلام ، وإرشاد عامة المسامنين) لا يقوم بهما إلا العالمون بأسرار الشريعة ، الفاهمون لمراميها ، المدركون لغاياتها ، وهؤلاء هم الوعاظ المرشدون المشار إليهم في قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، » « وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » وعملهم شريف عظيم ، لأن الذي يقوم به يبين شرع الله للناس ، ويصاح به دنياهم وآخرتهم ، ويربي وجدانهم ، ويهذب نفوسهم ، ويرشدهم إلى طريق الفوز ، والخروج من آلام هذه الحياة ، ولشرف ذلك العمل أشار الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسير الآية السابقة إلى أن الأئمة تختار مرشديها ، وتراقبهم ، فقال رحمه الله : « والمخاطب بهذا جماعة المؤمنين كافة : فهم المكلفون أن » « ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة ، فهمنا فريضتان : إحداها على » « جميع المسامنين ، والثانية على الأئمة التي يختارونها للدعوة ... والمراد » « بكون المؤمنين كافة مخاطبين بتكوين هذه الأئمة لهذا العمل ، » « هو أن يكون لكل شخص منهم إرادة وعمل في إيجادها ، وإسعادها ، » « ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة ، حتى إذا رأوا منها خطأ ، » « أو انحرافا ، أرجعوها إلى الصواب . وقد كان المسامنون في الصدر »

«الأول، ولا سيما زمن أبي بكر وعمر على هذا النهج من المراقبة»
«للقائمين بالأعمال العامة، حتى كان الصعلوك من رعاة الأبل يأمر»
«مثل عمر بن الخطاب (وهو أمير المؤمنين) وينهاه فيما يرى أنه»
«الصواب، ولا بدع فالخلفاء على نزاهتهم وفضلهم ليسوا بمعصومين.»
«وقد صرح عمر بخطئة، ورجع عن رأيه مرارا»

والصفات التي يجب توافرها في المرشدين الداعين إلى دين الله
كثيرة، إذ هي صفات الكاملين يفيضون بفضلهم على من هم دونهم،
والكمال البشري بعيد المدى، مترامي الغايات، كل يسعى منه إلى شأو،
ويصوب سهمه نحو هدف من غير أن يبلغ الغاية، ويصل إلى النهاية
ولذا ذكر لك بعض المشهور مما يجب على الواعظ التحلي به

(١) فيجب أن يكون الواعظ فيه صفات الخطيب، وقد ذكرناها

موضحة فارجع إليها

(٢) ويجب أن يكون على حظ عظيم من الشجاعة المعنوية،
يصرح برأيه، وبالحق الذي يراه في الدين واجب الرعاية، لايهمه في
ذلك إغضاب أو إرضاء أحد من البشر، فما وقف نفسه للأغضاب أو
الأرضاء، بل وقف نفسه للأصلاح والهداية، ولايهمه الأذى من
المخلوق، مادام يعمل لأرضاء الخالق. قال الغزالي في الأحياء: «أوصي»
«بعض السلف بنبيه، فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف،»
«فليوطن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله، فمن وثق بالثواب»
«من الله لم يجد مس الأذى، فأذن من آداب الحسبة توطئ النفس»
«على الصبر، ولذا قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف حاكيا عن لقمان:»

« يا بني ، أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك » .

وليس معنى ذلك أن يجافى الواعظ الناس ويخاشنهم ، فإن الموعظة الحسنة والحكمة هما طريق الدعاية الإسلامية الأول ، فقد قال تبارك وتعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » . فليأخذهم بالرفق في القول ، ولكن لا يسايرهم فيما لا يرضاه الدين ، بل يصدع بالحق ، ولا يرجو لغيره وقاراً ، فإن لأن في سبيله ، وإذا اشتد حيث دعا داعيه إلى الشدة ، يلين لينال حق الله ، ويشتد ليتصر كلمة الله

(٣) والورع والتدين الظاهر والعفة عما في يد الناس صفات يجب أن يتحلى الواعظ بها ؛ لأنه قدوة ، ويتخذ الناس منه أسوة ، ولأن إخلاص الخطيب من أسباب التأثير ، كما أسلفنا . والناس إن رأوا في الواعظ رجلاً يتخلى عمله عن قوله ، وأنه يقول ما لا يفعل ، ظنوا فيه الظنون ، ولم يعتقدوا أن قوله صادر عن قلبه ، فلا يكون له تأثير ، ويذهب كلامه هباءً منثوراً . فمن تصدى للوعظ والارشاد يجب أن يتسربل بسر بال التقوى ، وعليه أن يجتهد في ألا يكون في ظاهره ما يخالف الدين بأى نوع من المخالفة ، فإن منصبه خطير ، وعمله جليل ، والعيون إليه شاختة ، ولائعماله كاشفه ، فأن كان منه معصية فليعمل على سترها ما سترها الله ، وليعلم أن من المجاهرة أن يعمل عملاً ستره الله عليه فيقول عملت كيت وكيت ، يكشف ستر الله ، وقد قال الغزالي في إحدى رسائله : « أما الوعظ » « فلست له أهلاً ، لأن الوعظ زكاة نصاب الاتعاظ ، ومن لا نصاب له » « كيف يخرج الزكاة ، وفاقد النور كيف يستنير به غيره ، ومتى يستقيم »

«الظالم والعود أعوج وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم عليه
«السلام : عظم نفسك ، فإن اتعظت . فعظم الناس : وإلا فاستحي مني »
« وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تركت فيكم واعظين : ناطق ، صامت »
« فالناطق هو القرآن ، والصامت هو الموت ، وفيهما كفاية لكل متعظ »
« ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره ، ولقد وعظت بهما نفسي فصدمت »
« وقبلت قولاً وعقلاً ، وأبت وتمردت تحقيقاً وفعلاً . . . » ومن هذا
تري أنه يشترط لجواز الوعظ الاتعاض ، ولكن نراه في الأحياء يوجب
الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر على المرتكبين ، ويقيم على ذلك
الدلائل القاطعة . ومنها ما رواه عن سعيد بن جبير وهو قوله : « إن »
« لم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر ، إلا من لا يكون فيه شيء »
« لم يأمر به أحد » والتوفيق بين هذين النصين أن نقول إنه أراد بالاول
من قام للدعاة ، ونصب نفسه للوعظ ، وأراد بالثاني الأمر بالمعروف
والنهي الواجب على الكافة ، لا على الخاصة . وهو المرتبة الثالثة في
المراتب التي ذكرها الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده ، وأيضا فنحن
ما اشترطنا في الواعظ ألا تكون منه معاص قط ، بل اشترطنا اتقنين
الصادق ، وألا يكون في ظاهره ما ينافي الدين من نفاق ظاهر ، أو
كذب صراح ، أو عمل بنقيض ما يدعو إليه ، أو مجاهرة ببعض المعاصي
بل يكون متدينا لا يصر على معصية ، وفيه سمت الصالحين ، وصفاء
المتقين ، وصدق المؤمنين .

(٤) العلم التام بما كل ما يساعده في مهمته ، ويعين في الوصول إلى
إلى غايته ، ونيل بغيته . وقد أحصى الأستاذ الأمام في تفسير قوله

نعالى : (ولتكن منكم أمة الآية) المعارف التي يجب على الواعظ الإلمام بها فكان منها :

أ - العلم بالقرآن والسنة ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وسلف الأمة ، والعلم بالقدر الكافي من الأحكام .

ب - العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شئونهم ، واستعداداتهم وطبائع بلادهم ، وأخلاقهم ، أو ما يعبر عنه في عرف العصر بحالهم الاجتماعية ، وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة بخلافة أبي بكر كونه أنسب العرب ، ومعنى هذا أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب ويطونها ، وتاريخ كل قبيلة ، وسابق أيامها وأخلاقها ، كالشجاعة ، والجن والأمين والأمانة والخيانة ، ومكانها من الضعف والقوة ، والغنى والفقر وما كان إقدامه (مع لينة وسهولة خلقه التي يعرفها له كل أحد حتى الأفرنج) على حرب الردة ، إلا لهذا العلم الذي كان به على بصيرة ، فلم يهيب ولم يخف ، وقد خاف عمر ، وأحجم على شدته المعروفة على الكافرين والمنافقين .

ج - العلم بمناشئ الأمم والتاريخ ؛ ليعرف الفساد في العقائد ، والأخلاق ، والعادات ؛ فيبني الدعوة على أصل صحيح ، ويعرف كيف تنهض الحجة ، ويبلغ الكلام غايته من التأثير ؛ وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعوين من حال إلى حال ، ولهذا كان القرآن مملوءا بعبء التاريخ^(١)

(١) من تفسير الاستاذ الشيخ رشيد رضا المشتمل على ما قاله الاستاذ الامام في دروس التفسير نقلا به بإيجاز وتصرف قليل

د - علم النفس : ليعرف الواعظ خواص العقل البشري ، ومناحي تفكيره ، والغرائز التي اودعتها النفس الانسانية ، والميول التي كتمت في أطوائها ، وبهذه المعرفة يستطيع أن يثير الأهواء والمنازع إلى ما يدعو إليه ، ويتبعث الميول من مراقدها ، ويوجهها إلى الغاية التي يريد بها ، والمقصد الأسمى الذي يبتغيه ، وفيما ذكرنا في مبحث « إثارة الأهواء والميول » ما يعطيك صورة واضحة لحاجة الواعظ إلى الألمام بالعلوم النفسية . وقد قال الأستاذ الامام في درس التفسير : « لاتظنوا أن الصحابة » « لم يكن عندهم شيء من هذا العلم ، إذ لم يكونوا يدرسونه في الكتب » « ويتلقونه عن المعلمين ، فأنكم إذا قرأتم التاريخ ، وعرفتم كيف كانوا » « يتجادلون ، أمكنكم أن تعرفوا مكانهم منه »

هـ - علم الأخلاق : وهو العلم الذي يبحث عن الفضائل ، والمثل الأعلى في السلوك ، فهو يعطي صورة صحيحة للفضائل وما يفيد الناس ، وما لا يفيد ، وصلة الفضيلة بالعرف ، وهو في الجملة يعين المتدين على فهم شيء كثير من أسرار الدين ، وما جاء فيه من واجبات وتكاليف فالعلم به يعرف الدارس كثيرا من حكم الشرع الإسلامي ، فهو دراسات عقلية ، يجد فيها المتبصر تعليلا صحيحا لكثير من مبادئ ذلك الدين الحكيم ، والواعظ في حاجة إلى مثل هذه الدراسات ، ليقرب الشريعة من معروف الناس ومألوفهم ومعتقوهم ، وما هو حسن في نظر المفكرين .

و - علم الاجتماع : هو علم الجماعات ، يعطيك صورة لتكوينها وتفكيرها وطرق التأثير فيها ، ولا شك أن الواعظ يتصدى لقيادة

جماعة إلى فكرة يدعو إليها ، فلا بد أن يكون عالما بنفسية الجماعات ، وسلطان العادات ، وكيف يتغلب عليها ، ويمزق أغشية الجلود ، إن كانت الجماعة جامدة على باطل ، وكيف ينهه من حدتها ، ويكفكف من غربها ، إن كانت مندفعة متهورة وراء غاية باطلة .

وقد وضعنا في صدر هذا الكتاب حاجة الخطابة إلى علمي النفس والاجتماع والاتصال الوثيق بينهما ، والوعظ شعبية من شعب الخطابة ، بل هو أحوجها إلى هذين العلمين .

ز - العلم بلغات الأمم التي يعظها ويرشدها ، وذلك بدهي ليستطيع مخاطبتها بما يصلحها ، فإنه لا يتيسر له ذلك بغير لغتها .

وقد ورد في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل مخاطبة اليهود الذين كانوا مجاورين له .

هذه العلوم كلها ضرورية للواعظ ، ويجب أن نقول فوق ذلك إنه لا بد أن يعنى عناية خاصة بدراسة الكون وما فيه من آيات دالة على قوة الخالق وعظيم قدرته ، وجليل تكوينه ، وحسن تديره .

وقد دعانا القرآن أن ننظر في ما سكوت السموات والأرض ، وفي أنفسنا ، وفي الآفاق ، وجعل ذلك من طرق الوصول إلى إدراك صفاته جل وعز ، فعلى الواعظ أن يسلك ما سلك القرآن ، فيوجه أنظار الناس إلى الكون وما فيه من آيات تدل على الوحدانية ، وسلطان الله القاهر . ولا يستطيع أن يوجه الناس ذلك التوجيه إذا لم يكن على علم

ببعض ما في السكون من أسرار وجلال .

(٥) الحلم ، وسعة الصدر ، والتواضع ، والصبر على الأذى : فإن الجماعات التي استشرى فيها الفساد كالمريض ، والواعظ لها كالطبيب ، وكما أن المريض قد يدفعه جهله أو ألمه أو سوء تصرفه إلى أن ينال الطبيب ببعض السوء ، كذلك الجماعات التي أنهبها الشر ، قد يدفعها تغلغلها في أحشائها ، وتمكنه من كيائها إلى أن تنال طبيب الأرواح ببعض الأذى ، وتتقدم إليه ببعض السوء ، فعلى الواعظ أن يلاحظ هذا . وإذا كانت القلوب عنه معرضة ، والنفوس جامحة ، والأهواء متحكممة ، وناله من حدة السوء بعض الأذى - فليعلم أن المهمة لديه شاقة ، ويستعد للمجهود عظيم يبذنه ، وليداو كلوم النفوس بالهدوء وسعة الصدر والصبر ولين الجانب وخفض الجناح ؛ فإن تلك الصفات رقية النفوس الشرسية ، وبلسم الجراح الناعرة ؛ وليعلم أنه ما وقف ليخاصمهم فيخصمهم ؛ ولكن ليداوي فسادهم ، فليؤلف القلوب والنفوس الشاردة بتلك الصفات ، وقد قال تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم : « ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك » فالرفق واللين والصفح قوام الدعوة لله ، والأرشاد إلى صالح الأعمال ، ولذلك أمر سبحانه وتعالى بالعفو بجوار أمره بالأمر بالمعروف ، فقال تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .

وعظ المأمون واعظ ، وعنف له في القول ؛ فقال له : « يا رجل »
« ارفق ؛ فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، وأمره »
« بالرفق ، فقال تعالى : « فقولاً له قولاً لنا ؛ لعله يتذكر أو يخشى »

وروى أبو أمامة أن غلاماً شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله، أأأذن لي في الزنى؟ فصاح الناس به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قربوه، ادن مني؛ فدننا حتى جلس بين يديه؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أأأحببه لأأمك؟ قال: لا؛ جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أأأحببه لابنتك؟ قال: لا؛ جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. أأأحببه لأختك؟ (وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة؛ وهو يقول: لا؛ جعلني الله فداك وهو صلى الله عليه وسلم يقول: كذلك الناس لا يحبونه) ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره، وقال: اللهم، طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه.

انظر إلى ذلك المهدى النبوى الحكيم؛ وإلى تلك الموعظة الحسنة تصيب شغاف القلوب فتسيرها بسيرها، وتهديها بهديها، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة.

(٣) أقسام الوعظ

إن خطب الوعظ الدينى تتشعب إلى شعب، وليكون المتصدى للوعظ على بينة من أمر العمل الذى تصدى له؛ ولينال النجاح فيه. يجب أن نذكر تلك الشعب، ونبين طرق النجاح فى كل شعبة، فنقول: إن شعب الخطابة الوعظية أربع: خطب المجادلة فى الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، وخطب التعليم الدينى للعامة، وخطب تثبيت الإيمان فى النفوس، وخطب إصلاح العيوب؛ والنهى عن المنكرات.

١- خطب الدعوة إلى الإسلام أو الدفاع عنه : لا يتصدى لهذا

النوع من الوعظ إلا ذو العقل الأريب، الخبير بشئون الجماعات وأحوال الأمم، الملم إماماً تاماً بالملل والنحل والأديان القديمة، ليستطيع الموازنة بين صحيح العقائد وسقيمها، وحقها وباطلها؛ فإذا دعا أو جادل كان على بينة من أمره.

ويجب أن يكون فوق ذلك مرناً على الجدل، قوى الحجة، ناهض الدليل، لا تعرفه حبسة فكرية، ولا يأخذه استهواء الخصوم ومغرياتهم، ويكون ممن يحسن إصابة المقاتل، وتحرى مواضع الضعف في خصمه، يأتيه منها فيصيب الحز، وفصل الخطاب.

(١) وعند دعاية قوم إلى الإسلام يبين لهم من مبادئه ما يكون أحب لقلوبهم، وأدنى لما لو فهم، وأقرب إلى ما تقره عاداتهم، وما هو عندهم في مرتبة التقديس؛ فإنه إن فعل ذلك ربط الإسلام بجميل أعمالهم، فيتجهون إليه طالبين، ويبحثون عنه متعرفين، والإسلام غني بالمبادئ التي تألفها الجماعات وتحبها؛ إذ هو دين الفطرة التي فطر الناس عليها، ففيه مبادئ الحرية على أكمل ما تطلبه الجماعات الصالحة وفيه مبادئ الشورى، وفيه مبادئ المساواة بشكل لم تسبق به شريعة، ولم تطمح الجماعات الإنسانية إلى أكمل منه، وفيه مبادئ التعاون بين الآحاد والطوائف والأمم، وفيه مبادئ السلام، وفيه مبادئ الرحمة والعطف الأنساني، وكل جماعة ترضى ذلك وتألفه فليقبس الداعي إلى الإسلام قبسة من ذلك النور يتخذ منها مصباح دعوته، ليستضيء به في ديجور الضلال.

وإذا آنس الداعى ممن يدعوهم إلفا ورغبة فى التعرف بعد ذلك :
هجم عليهم بحقائق الأسلام كما بينها النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرفهم
أسرارها وحكمها وصلاحتها ، وتاريخ الذين أقاموها ؛ وكيف كانوا
أعلام الأنام ، وهداتهم إلى صلاح بشرى قويم .

(٢) وإذا اعترض معترض على الأسلام فهاجمه فى إحدى شرائعه
أو مبادئه ، وأراد الواعظ أن يرد عليه - اعتصم بالمنطق فى أشكاله وأقيسته
فأنها هى التى تبين ما فى الكلام من خطأ ، وما يشتمل عليه من باطل .
وقد بينا ذلك فى التفنيذ عند الكلام على تنسيق الخطبة ، فارجع إليه .
(٣) وعليه أن يوازن بين الأسلام وبين غيره من الأديان
خصوصا دين الشخص الذى يدعوهُ أو يناقشه ، وليكن ذكر الواعظ
لدين غيره من غير سب ولا طعن ، حتى لا يحقن خصمه ، فيندفع فى
الطعن فى الأسلام ، وتنتقل المجادلة من مناقشة عقلية إلى مسابقة
للأديان ، وليعتبر بقوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ؛
فيسبوا الله عدوا بغير علم » ، وبقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب
إلا بالتي هى أحسن » .

(٤) ولنختم الكلام فى هذا النوع من الوعظ بكتاب أرسله النبي
صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى ملك الحبشة يدعوهُ إلى الاسلام ، فقد
قال فيه عليه السلام : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى »
« النجاشى ملك الحبشة . أسلم أنت ، فأنى أحمد إليك الله الذى لا إله
« إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ؛ وأشهد أن عيسى بن »

«مريم روح الله وكتبه ألقاها إلى مريم البتول^(١) : الطيبة ، الحسنة ،
« فحملت بعيسى : خلقه الله من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده .
« وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته ، وأن
« تتبغني ، وتؤمن بالذي جاءني : فأني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك
« إلى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي . والسلام
« على من اتبع الهدى . »

وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم الكتاب مع عمرو بن أمية
الضمرى . وقد قال هذا للنجاشي ما فيه حث له على الاسلام ، فلنقله لك
لتعرف كيف كان ذلك السلف الصالح يدعو الى الدين قال رضى الله عنه :
« يا أصحاب^(٢) إن على القول ، وعليك الاستماع : إنك كأنتك في الرقة »
« علينا ، وكأنا في الثقة بك - منك : لأننا لم نظن بك خيرا قط إلا لنناه »
« ولم نخفك على شيء قط إلا أماناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك . »
« الأنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفي ذلك
« الموقع الحز ، وإصابة المفصل . وإلا فأنت في هذا النبي الأئمة كاليهود »
« في عيسى بن مريم ، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى
« الناس . فرجاك لما لم يرجهم ، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف :
« وأجر ينتظر » فقال النجاشي : « أشهد بالله أنه النبي الأئمة الذي
« ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار - بشارة
« عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشقى من الخبر » ثم كتب الى
النبي صلى الله عليه وسلم بأسلامه .

(١) البتول معناها العابدة « ٢ » أصحاب اسم النجاشي

ب - خطب التعليم الديني للعامة: هذا النوع من الخطب دروس دينية يلقيها الواعظ على العامة ، يعرفهم فيها أصول دينهم والأحكام الشرعية العملية التي يدعو إليها ، والفضائل الخلقية التي يحث عليها ، ويجعلها أسا لقيام الجماعة الإسلامية الفاضلة . وهذه الدروس إما بيان عقائد ، وإما بيان الأحكام والفضائل

(١) وعليه في بيان العقائد وإثباتها (١) أن يبتعد كل الابتعاد عن الشروح الفلسفية ، فإنها تسمو على مدارك العامة ، وتعلو على أفهامهم وقد تدفعهم إلى الضلالة ؛ لعدم فهمهم (٢) وأن يبتعد عن مواضع الخلاف ما استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ فإن ذكر الخلاف مضلة للأفهام ، محير للألباب ، مبعدها عن الهداية (٣) وليعول كل التعويل على الكتاب فليبين لهم أوصاف الله كما ذكرها القرآن الكريم لا يعدوه ، ولا يتجاوزوه وليذكر أوصاف النبيين كما وصف الله الأنبياء ، وليجعل السمع لا العقل هو الورد لمعرفة العقائد ؛ لأن فيه النмир العذب للحقائق الدينية ، وأصول الاعتقاد ، ولنا أسوة حسنة في السلف الصالح ، فقد كانوا يعرفون عقائدهم من كتاب الله سبحانه وتعالى ، ومما يبينه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من غير أن يتعرضوا لمناقشات فلسفية لا تصلح لغير دارسي الفلسفة ، ومن تمرسوا بدراسة العلوم العقلية ؛ ومن يجادلون في الأديان للدفاع عنها

(٢) وإذا كان الواعظ يعلم الناس أحكام دينهم وفضائله (١) فعليه أن يعتمد إلى توضيح ذلك كل التوضيح وإن اضطر إلى القيام ببعض حركات يقوم بها - أداها لأجل التوضيح وليتصوروا الحكم تصورا

دقيقاً من غير التباس ، ولا إبهام (٢) وليختر من الأحكام العامة لدروسه ما يكون العامة مظنة الجهل به ؛ ليكمل بذلك عامهم بالدين وتفصيل أحكامه ؛ فإييين لهم مناسك الحج ؛ لأن أكثر الناس على غير علم بها وليبين لهم أحكام الزكاة ؛ فإنه ينذر من العامة من يعرف حقيقة أحكامها مع فرضيتها عليهم ، ومخاطبتهم بها ، وليعلم المرشد أن علم أولئك بها عهد في عنقه هو مسئول عنه يوم محاسبة الديان . (٣) وليبين لهم الأحكام بحكمها ؛ ليعرفوا فضل الشريعة وأسرارها ، ومراميها من أقرب طريق ، وأنجع سبيل

(٤) وليذكر مع الأحكام الأحاديث الواردة فيها ، والآيات الشارعة لها ، من غير أن يتعرض للاختلاف في تفسيرها والمنازعات في تأويلها ؛ فإن ذلك لا تصل إليه أفهام العامة ، فليذكر الآيات والأحاديث إحياء لها ، وتقوية للأحكام ، وإقراراً لها في النفوس ، من غير أن يثير حولها منارات الخلاف ، وعثير النزاع . ولقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم يبينون للعامة أحكام الدين بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ويقرّبونها من أفهامهم ومداركهم من غير أي خلاف ، وبهذا فليسترشد المرشدون .

(ج) خطب تثبيت الإيمان وتقويته : هذا النوع من الخطب يتجه

إليه الخطيب ، ليقوى برد البقين في قلوب المؤمنين ، ويثبت دعائم الإيمان في قلوب المهتدين ، ويلقى في نفوسهم الحماسة لدينهم ؛ ليستمسكوا بعروته ، ويحيبوا دعوته . وليجعل الخطيب قوام خطبته أحوالاً ومور الثلاثة الآتية أو جميعها وهما هي :
:

(١) فضائل الاسلام : فيبين لهم فضائله . وكيف كان طريق المجد والعلو في الدنيا والاخرى ، ويبين لهم أنه عصمة للجماعات ، وحفاظ لوحدها ، وأنه صربي الوجدان ، وموقظ الضمائر ، ، وأنه العاطف على المسكين وابن السبيل ، والداعي إلى الإخاء والحرية والمساواة ، وأنه المشتغل على الشرائع التي تكون ممن يأخذون بها جماعة فاضلة ، أسست على تقوى من الله ورضوان .

(٢) الكتاب : فيشرح بعض آيات الكتاب المبينة حقيقة الأيمان الذاكرة أوصاف المؤمنين ، وما يكون لهم يوم القيامة من منزلة ، وما لهم في الدنيا من مكان ، وقد كان النبي ﷺ يجعل أحيانا خطبته كلها قرآنا ، ومن ذلك ما روى في صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة : قالت : « ما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس » فالقرآن بما حلف من جلال ، وبما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة ، وبما له من حلاوة ، وما عليه من طلاوة يهز الأحاساس ، ويقوى الأيمان وفيه هدى للمتقين

(٣) أخبار المؤمنين الذين صبروا ، وصابروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ولم يجعلوا لغير الله على قلوبهم سلطانا ؛ لا يخشون في الحق لومة لائم ، ولا يجعلون لرضا العبد أو غضبه متاما بجوار رضا الله أو سخطه ، أحلاس عبادة ، وأهل جلال وجهاد في سبيل ما يعتقدون والتاريخ الأسلامي خصب بهذه النفوس ؛ فقد كان من رجاله عدد

عظيم جاهد وجالد في سبيل الله ، ولم يعرف لغير الله عليه من سلطان
وعلى رأس هؤلاء أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير
وعبد الرحمن بن عوف ، وغير هؤلاء من عليّة الصحابة . وخلف من
بعدهم جمع من التابعين حاكوا نهجهم ، وساروا سيرهم ، ومن هؤلاء
سعيد بن المسيب ، والحسن البصري ، وسعيد بن جبيرة ، وعطاء بن أبي
رباح ، وكل هؤلاء ممن آثروا الباقية على الفانية ، والحق على الباطل .
وذكر هؤلاء وبلائهم في سبيل الله ، وصبرهم على الأذى في سبيل
ما يعتقدون - فيه طب القلوب ، يرد شارد النفوس ، ويقوى ضعيف
الأيمان . وإن في قصص أخبارهم عظة للمتعطين ، وعبرة للمعتبرين .
ونور للمستبصرين . وهم في حياتهم ، وأخلاقهم ، ودينهم - قدوة لأهل
التقى واليقين ؛ فليكثر الواعظ من أخبارهم فأن أخبارهم حياة القلوب
وطب النفوس ، ودواء لأمرائها ، وما يعرفوها من غشاوات مادية ؛
وإن لهيب إيمانهم يبدد بحرارته كل سحب تتكون على نفس المهتدين .
وما كن قصص القرآن للنبيين ، وصبرهم وبلائهم إلا لما فيه من بث
روح الأيمان ، والصبر على البأساء والضراء في نفوس قارئيه

وترى من هذا أنا نبيح للواعظ القصص ولكن مع إقرارنا
للقصص في مقام الوعظ نرى أنه يجب أن يكون الواعظ القاص صادقاً
متحريراً صادق الأخبار والمقبول منها ؛ ويجب أن يخرج الأخبار
تحريراً صحيحاً ؛ فلا يستنبط منها غير ما تنبئ عنه . ولا يستنبطها بغير
ما تنبئ .

د - خطب الإصلاح ومحاربة المنكرات : في هذه الخطب يتجه

الواعظ إلى إصلاح العيوب الشائعة الضارة بالمجتمع ، إهدامة لبناء الأخلاق فيه ، فتقوام هذه الخطب محاربة المنكرات . ومقاومة الفجور ومنع الفواحش من أن تشيع في الذين آمنوا . ومن أجل أن يصل الخطيب إلى غايته لابد (١) أن يجعل الخطبة متصدية لعيب واحد لا تعدوه ؛ لأنه لو تعرض لعدة عيوب لضعف التأثير ، وما استطاع أن يصل إلى صرماه . ولذا يؤخذ على بعض خطباء المساجد أنهم في كل خطبة من خطبتهم ينهون عن المعاصي جملة واحدة ، أو يحصونها إحصاء ، ويكررون ذلك في كل جمعة - والعاصي في غيه يعمه ، وهو عنهم وعن وعظهم لاه ، ولو خصصوا خطبتهم بدل أن يعمموا الأجدى كلامهم ، ولأفاد وعظهم ؛ ولو صلوا إلى بعض ما يريدون ، أو نصبوا له (٢) وليبدأ الواعظ في خطبه بأكثر المعاصي خطرا ، وأشدّها في بناء الدين هدمًا ، وأعظمها فيه نكرا ، يأخذ في نهى الناس عنه حتى إذا اطمان إلى نفورهم منه ، وابتعادهم اتجه بخطبه اتجاها آخر ، وهكذا حتى ينمر غرسه أينع الثمرات .

(٣) وفي وعظ الناس بالنهي عن منكر يبين الخطيب لهم مضار المنكر النازلة بمرتكبه ، الحائقة به ، الموبقة له ؛ ثم يبين لهم مضاره بالمجتمع ، ويصور لهم حال جماعة من الناس فشا فيها هذا المنكر كيف تكون ، ويستعين على ذلك بضرب الأمثال ، ومقاييسه الأشباه والنظائر ، ثم يصور لهم حال المجتمع وقد انتهى عن هذه المأثرة ، ونفى عن نفسه أضرار ذلك المنكر ، ويذكر في هذا المقام حال السلف الصالح ، وما كانوا عليه من إصلاح ، وما نالوه من حظ عظيم في الدنيا والآخرة

بسبب الابتعاد عن ذلك المنكر ، وأشباهه .
وبعد هذا البيان السابق يتجه إلى كتاب الله يبين مافيه من
دلالة على قبح ذلك المنكر ، والآيات الواردة في الترهيب منه ،
والترغيب في نقيضه ، وبمثل ذلك يستعين بحديث الرسول صلى الله
عليه وسلم والمأثور عنه ، ويبين هديه عليه السلام ، بخير الهدى هدى محمد صلى
الله عليه وسلم .

(٤) الأنشاء الديني

(١) في الخطب الجدلية التي تشتمل على دعوة إلى الهداية المحمدية
يتحرى الخطيب أن يتكلم بلغة من يدعوهم ؛ ليستطيع أن يضع أفكاره
في الألفاظ التي تدل عليها دلالة محكمة من غير احتمال لغيرها ؛ ولتكن
عباراته واضحة المقصد بينه المقصد ؛ لا التباس ولا غموض ولا إبهام
ولتكن بأسلوب رائع جذاب ، شفاف عن معانيه ، وألفاظ تثير الخيال
وتجذب النفس .

(٢) وفي الخطب التعليمية يتحرى الخطيب أن تكون عبارته
واضحة الصور في أذهان الناس من غير أي تنميق أو تحسين ، فمقصده
الأول أن تنتقل معانيه إلى أخیلتهم ، فيتصوروها ، كما تصورها هو
وإن اضطر في سبيل ذلك إلى أن يكون درسه كله بالعامية فليفعل ؛ لأن
الغرض من هذا النوع من الخطب التفهيم لا التأثير ، وتوضيح الفكرة
لا تزيينها .

(٣) وفي خطب تثبيت القلوب تختار الألفاظ القوية الرنانة التي
تثير في النفس معاني قدسية روحية ، وتذهب بها في مجالى المعنويات

وتتجرد بها عن قيود الجسمانيات ، وتخلق بها في سماء الحقيقة ، فعلى الخطيب أن يختار ذلك النوع من الألفاظ ، وفي مواعظ النبي صلى الله عليه وسلم ، ومواعظ السلف الصالح من ذلك الشيء الكثير

(٤) وفي خطب النهي عن العيوب وطلب الأفلاح عنها ينوع الخطيب عباراته ، فتارة يختار الألفاظ القوية التي تهز الحس هذا عنيفا إن أراد تحذيرهم بالترهيب من سوء العقبى ، وتارة يختار الألفاظ السهلة اللينة الرفيقة إن أراد اجتذابهم إلى السير فيما فيه حسن المآل وطورا يشرح بلغة لا تكلف فيها ، وكأنها حديث معتاد إذا أراد أن يأخذ بأيديهم ، ويضعها على الحقائق مجردة من غير إنذار ، ولا تبشير والله الهادي إلى سواء السبيل

(٤) الخطب العسكرية

هى الخطب التى يلقيها القائد على جنده ليثبت قلوبهم ، ويلقى الحماسة فى نفوسهم ، ويدفعهم فيها إلى حياة شريفة أو إلى موت عطر الذكر

١ - ولهذا النوع من الخطب أثر عظيم فى الحروب ؛ فهو الذى يقوى روح الجند المعنوية ، والقوة المعنوية لها الأثر العظيم فى الانتصارات ؛ كذلك يحدثنا التاريخ ، وبذلك تنطق الحوادث الآن . فما كانت النصرمة فى الماضى بالذخيرة والعدد ، ولكن بالتأييد والتثبيت وقوة الروح ، وعظم الثقة بها وبالله

وقال بطل الحروب نابليون : إن نسبة القوة المعنوية إلى القوة المادية فى الانتصار كنسبة ٣ : ١ وقال قائد ألماني محنك : لا تزال القوة المعنوية هى العامل الحاسم فى الحروب فى العصر الحاضر كما كانت فى الغابر . ولا ريب فى أن الخطب العسكرية لها الأثر الواضح فى تقوية الروح المعنوية .

(٢) وينجح الخطيب فى هذا النوع من الخطب إذا جعل قوام خطبته - بيان شرف الغرض الذى من أجله يحاربون ، ويتقدمون إلى مواطن الردى ، حيث تخضب الأرض بالدماء ، فأن كانت الحرب دفاعا عن وطن فى خطر يبين ما فى السكون من ذلة وعار ودمار . وإن كان يدافع عن عقيدة بين ما فى الخذلان من نشر للفساد ، وما فى الانتصار من إقامة للحق والفضيلة

ب - وبيان الأثر الحسن لمن يتقدم لهذا البلاء بثبات جأش ،

وقوة جنان ؛ فأما انتصار وعزة ونخار وشرف عظيم ، وأما موت
وذكر عطر بالتناء ؛ إذ يكون له من جهاده لسان صدق في الصالحين
ج - وبيان أنه لا يأمر بالقتال ، ويمتنع بدمه ، بل إنه يتقدمهم يوم اللقاء
والزحف ليكون له منهم القدوة الحسنه

(٣) ويجب أن تكون الخطبة بصوت جهوري رزين ، قوى النبرات
وعبارتها حماسية نارية تلهب الأحساس بالحمية والرغبة في اللقاء .
والألفاظ تثير الآمال ، وتسمو بالخيال إلى مواطن الشرف والكبرياء
الجنديّة . وليتحرر الخطيب الأيجاز ؛ فإن الألفاظ الموجزه تحفظ ،
وتطبع في ثنایا النفس ، وقد أمر أبو بكر يزيد بن أبي سيفان عند ما أرسله
على رأس جيش أن يوجز الخطبة في الجند ، حتى لا ينسى الكلام بعضه بعضا
ومن أمثل الخطاب العسكريّة خطبة علي في جنده قبيل موقعة
صفين وقد جاء فيها : اعلموا أنكم بعين الله ، ومع ابن عم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؛ فعاودوا الكر ، واستحيوا من الفر ؛ فإنه عار في
الأعقاب ، ونار يوم الحساب . وطيبوا عن أنفسكم نفسا ، وامشوا إلى
الموت مشيا سجحا (١) وعليكم بهذا السواد الأعظم ، والرواق المطنب (٢)
فاضربوا ثبجه (٣) ؛ فإن الشيطان كامن في كسره (٤) ؛ قد قدم للوثبة
يدا ، وآخر للنكوص رجلا ؛ فصمدا صمدا (٥) حتى ينجلي لكم عمود
الحق « وأنتم الأعلون ، والله معكم ، ولن يتركم (٦) اعمالكم »

(١) المشى السجج : السهل والمراد أن يسبروا إلى الموت بثبات واطمئنان
(٢) الرواق ككتاب وغراب الفسطاط ، والمطنب المشدود بالحبال .
والسواد الاعظم جند الشام والرواق فسطاط معاوية (٣) الشبح الوسط (٤) الكمر
المراد به هنا الجانب (٥) الصمد . القصد (٦) يتركم ينقصكم

(٥) المحاضرات العلمية العامة

(١) قد رأت الجامعات في البلاد الراقية أن تمد جماهير المتعلمين بالبحوث العلمية تنويراً لأذهانهم ، وتثقيفاً لهم ، وترقية للرأى العام ونشراً للثقافة في ربوع البلاد . ويرى بعض الذين تهتمهم مصالح بلادهم ونشر الأفكار الناضجة بين أهلها أن يتقدموا بالبحوث العلمية يلقيونها على الملا من المثقفين ، ولذا تكثرت المحاضرات العامة في البلاد المتعدنة .

وهذا النوع من المحاضرات تقرب فيه المسائل العلمية ، وتسهل فيه الأفكار ، وتجذب الأسماع ، ولذا يعد من أنواع الخطابة ، وإن لم تكن بحوثه من الموضوعات الخطائية .

«٢» ويلاحظ في الخطب العلمية ألا تفقد صيغتها العلمية . ولا روحها الفكرية ، ولذا يجب أن يقل الخطيب فيها مما يثير الغضب أو الحزن أو الحماسة ، فما وقف لينير أشجانهم أو أفراحهم ، ولا يحفز همهم ، أو يلهب حماسهم . ولكن وقف لينمى عقولهم ، ويمدها بخلاصة لما وصل إليه الفكر البشرى في الموضوع الذى يطرقه

وليس معنى ذلك أن يخلى كلامه والقاءه من الطرق الخطائية ، بل معناه ألا تسيطر المظاهر الخطائية على الحقائق العلمية ، فتطمسها أو تبعثرها وسط الجوال الخطائى ، فعليه أن يتخذ من الخطائيات ما يساعد على تثبيت المعلومات فى الرؤوس ، وإثارة الانتباه ، وإيقاظ الشوق إلى ما يقول ، فالخطائيات هنا وسيلة لا غاية ، وأمة للحقيقة لا سيدة لها (٣) ويجب الابتعاد عن المصطلحات العلمية ، والعبارات التى

لا يفهمها ، إلا الأخصائيون في علوم تلك البحوث ؛ لأن المحاضرة تلقى على الجماهير المتعلمة إلى حد ، وفيهم الفاهم للمصطلحات ، وغير العارف لها ، فألقاء المحاضرة بالعبارات العلمية الجافة الغامضة على غير أهلها موجد لسأمهم ، ذاهب برغبتهم . فيجب الاتجاه إلى العبارات المألوفة ، وتسهيل الأفكار ، وتقريبها من المعروف ، وضرب الأمثال ، والمقاييسات بين ما يعرفون ، وما يريد أن يعرفوه .

(٤) وعلى من يتصدى لنشر الثقافة بين عامة المتعلمين أن يختار من الموضوعات ما يجتذبهم ، أو ما ينفعهم في عامة أمورهم ، وعليه أن يبدأ المحاضرة بتمهيد يقرب فيه بين ما هو شائع بينهم من الأفكار ، والآراء ، وما هو بصدد إلقائه عليهم ، ليجذب نفوسهم ، وليثير تفكيرهم إلى ما يريد قوله ، ولا يني في أثناء محاضراته عن أن يقرب كل فكرة إلى ما يعرفون ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما أمكنته الفرصة ، وبمقدار ماتواتيه الحقائق العلمية في هذا المقام

إلقاء المحاضر : يستحسن بعض المحاضرين أن يلقي محاضراته من قرطاس ، لكيلا تذهب الحقائق العلمية في تيار الحماسة الألقائية إن اعتمد على الخطابة من غير قرطاس ، ولكي يكون التعبير عن الحقائق دقيقا محكما . وقد وافق موريس آدم مع تشديده في الارتجال على كتابة المحاضرات وإلقائها ؛ لأن الارتجال في الخطب السياسية أو ماشابهها . ويرى بعض المحاضرين أن أحسن إلقاء للمحاضرين الإلقاء من غير قرطاس ؛ ليستطيع المحاضر الأشراف على السامعين ، فيتبع حركات م - ٣٢ خطابة

أفكارهم ، ويستطيع بهذا الأشراف اجتذابهم ، ولأن الألقاء من ورق من شأنه أن يوحى بالملال والسأم .
ونحن نرى إذا عول المحاضر على الألقاء من الورق أن يتركه وقتاً بعد آخر ، ويعتمد على ذاكرته ، ليستطيع الأشراف على السامعين ، وليتصل بهم روحياً ، ولينفع سأمهم ، وعند القراءة يجب ألا يجعل كل نظراته فيما يقرأ ، بل يكون بعضها فيما يقرأ ، وبعضها يتجه به إلى السامعين ، فيبدأ بأول الجملة ونظيره في القرطاس ، وينتهي منها ونظيره إلى السامعين ، وهكذا في كل جملة ، وبذلك يجمع الحسنيين من كلتا الطريقتين .

وننبه هنا إلى أن الحركات ، والأرشادات يجب أن تكون قليلة جداً في المحاضرات العامة . وبعض المحاضرين لا يعتمد مطلقاً على الحركات في محاضراته . ومع ذلك يبلغ بها حد السكال في الألقاء . والاجتذاب .

(٦) خطب التأين

هي الخطب التي تقال في مناقب الرجال عند وفاتهم وفاء لهم على ما أسدوا من جميل وحسن صنيع ، وحثاً للسامعين على اقتفاء آثارهم . وعزاء للمكلومين بهم ، أو مشاركة في الحزن لهم ، أو للاشادة بذكورهم لأن في إظهار مناقبهم نفعاً للرائين ، أو إظهار الألم والآسى
وخطب التأين قسمان : قسم تحليلي تدرس فيه نفس الرجل ، وأخلاقه وأعماله وآثاره العقلية أو غير العقلية . وهذا من قبل المحاضرات العلمية فله خواصها ومظاهرها . وقسم مجرد الثناء والمدح ، وذكر

المناقب ، ولواعج الألم . وأحسن مسالكه (١) أن يبدأ الخطيب خطبته بتلاوة آية من القرآن أو حديث نبوى أو بيت شعر أو حكمة تشير إلى زوال هذه الدنيا ، وأن مافيها إلى فناء ، لا إلى دوام وقرار . (٢) ثم يبين ألم الفقد الذى نال الناس بموت ذلك العظيم ، والرزقة التى عمت ، ولم تخص ، والكارثة التى شملت الجميع لفقده حتى إذا أثار فى هذا شجون العيون (٣) أنجه إلى مناقب المتوفى فذكرها ثم إلى آثاره التى خلفها فى أمته فبينها ، والأيدى قدمها للأجيال (٤) ثم يبين الذكر الحسن الذى أعقبه ، واللسان العطر الذى يتحدث به الناس عنه (٥) ثم ينتقل من هذا إلى حث السامعين على اقتفاء أثره ، والسير على منهاجه ، والعمل بمثل ما عمل ، وبهذا يختتم قوله .

والألفاظ الخطابية التأيينية تكون من الألفاظ السهلة لا الألفاظ الفخمة ، والأساليب العذبة من غير لين ولا ضعف هى أحسن الأساليب لخطب التأيين ، لأن الرثاء حديث النفس بالألم والحزن .

ويجب أن يكون فى نبرات الصوت ونغماته ما يشعر بالحزن العميق ، وينبئ عن الألم الدفين

ومن أجود الخطب التأيينية ما قاله على بن أبى طالب فى رثاء أبى بكر وقد تقدم فى بيان إثارة الأهواء والميول .

(٧) خطب المدح والشكر

خطب المدح قسمان : قسم تاريخى تقريرى ، كمدح عظماء الرجال فى حياتهم لا للزلفى إليهم والتقرب منهم بل دراسة لأحوالهم ، وبياناً لصفاتهم ، وتقريراً لمذاهبهم ، وهذه أما علمية تحليلية إذا كان الغرض

منها البحث والتحليل ، ورد الأمور إلى أسبابها ، والمقدمات إلى نتائجها وإما سياسية إذا كانت للدعوة لمذهب العظيم السياسى . والأولى تلحق بالمحاضرات العامة ؛ فلها طرائقها ومسالكها ، والثانية تلحق بالخطب السياسية ؛ فلها خواصها وطرق النجاح فيها .

والقسم الثانى من قسمى المدح يكون بذكر المناقب والصفات إعلاء لشأن المدوح وتشريفاً له ، لا بتغاء منفعة منه ، أولاًظهار شعوره نحوه ، وما يكتنه له من إجلال واحترام .

ويسلك الخطيب المادح من الطرق ما يراه أقرب لوصف مدوحه وصفاً حقيقياً ، فإن أثقل أنواع المدح ما كان الكذب فيه ظاهراً . فعليه أن يبين بصدق (١) سجاياه وأخلاقه وصفاته التى رفعتة وأحلتة فى تلك المنزلة السامية .

(٢) ثم يبين أياديه البيضاء على الجماعة التى يعيش فيها ، وفضله عليها إن كان له عليها فضل ، وعليه إن كانت له عليه أيا .

(٣) ولأمانع من أن يذكر شرفه النسبى وفضل أسرته ، ونبيلها وكرمها ، وما اشتهرت به من صفات سامية جليلة القدر إذا كان ممن لهم شرف نسبى ، فإن كان ممن سودتهم نفوسهم العصامية فليكتف بالأطناب فى صفاته الشخصية وأخلاقه وعلومه وسجاياه .

وخطب الشكر يسلك فيها نفس هذا المسلك ، ويزاد عليه أن يطنب فى ذكر النعمة التى أسداها المدوح إلى الشخص ، وطريقة إسداها ، ووقته ، وتصدر تلك الخطب عادة بذكر نعم المدوح وفضله عليه ، والله ولى النعم وولى التوفيق

القسم الثاني

تاريخ الخطابة العربية في عصور ازدهارها

الخطابة في مصر الجاهلي

(١) الحاجة إليها

كل ظاهرة في الأمة ترجع إلى عاملين : عنصرها ، والبيئة التي أظلمتها ، ولذلك يجب أن نلم إلمامة موجزة في هذا المقام بمزاج العربي وبيئته ؛ لنعرف هل فيهما ما يدعو إلى الخطابة والبيان ؟ .

(١) البلاد العربية أكثرها صحراء جرداء ، يندر فيها النبات والماء ، وتكثر الجبال والوهاد والرمال ورمضاؤها ؛ ولذلك كانت سكان هذه الصحراء في شظف من العيش ، وقلة من الزاد ، واكتفوا من الحياة بالكفاف ، ورضوا بالقناعة ، واطمأنوا إلى الخشونة مع العزة ، ولعدم المواصلات في الصحراء ، وتقطع أسباب الاتصال ؛ لم تكن عند سكانها جامعة تجمعهم تحت حكم دولة واحدة ، بل كانت كل قبيلة كأنها أمة وحدها ، تخضع لزعيمها ، وتقدم له الطاعة ، وله فيها الكلمة النافذة ، وما كان اختيارهم زعيما لهم إلا تنفيذا لقانون الانتخاب الطبيعي ، إذ يرأس القبيلة أقواها عقلا ، أو أشدها في الهيحاء بطشا ، أو أكثرها تمرسا بتجارب الحياة ، وفنونها . وعلاقة القبيلة بمن سواها تناع على مواقع المطر ، ومواطن السكلا ، أو لاحتكاك صغير قديوثرث عداوة ، ويخضب الأرض بالدماء .

(٢) وأطراف البلاد العربية ، كالخيرة واليمن ، والجزء المسكون بقبائل عربية من الشام فيها خصب عظيم ، ولذا تكونت بها حكومات ،

ولكن هذه الحكومات قبيل الإسلام كانت واقعة تحت سلطان فارس والروم ، ولا بد أن تتصور أن الخضوع للأجنبي ليس من طبع العربي ، ولا يلائم فطرته ، لذلك كان أولئك العرب الواقعون تحت سلطان الأجنبي في تامل ، راغبين في الانسلاخ من سلطانه .

(٣) ومكة وما حولها للخصب القليل بها ، ولما كان يفد به الحجيج عليها من خيرات وثمار ، ولوقوعها في الطريق الموصل بين اليمن والشام ، واتجار قريش ، لهذا كله كان بها ثروة ، وسلطان ، وشبه حكومة ، الرياسة فيها لأكبر بيت في قريش ، وكان بمكة دار ندوة يجتمع فيها زعماء العرب ، وأقيالهم من كل نواحي البلاد .

هذه الإمامة موجزة أشد الأيجاز لبيئة العرب وأحوالها - أما العربي فعصى حادين نور لآفته الأسباب ، ويحمل السيف عند أول نداء ، إذا استولت على رأسه فكرة نفذها ، من غير تدبر للعواقب ، أبي لا يرضى ضيما ، ولا يسكن إلى ذل ، جواد كريم ، يؤثر على نفسه ، ولو كان به خصاصة وفقر ، يرضى حرمة الجوار ، ويفى بعهده . قال فيه بعض الفرنجة : إنه نبيل بفطرته ، وقد مكنته صحراؤه ، وضعف الساطان فيها ، من أن يعيش عيشة فروسية ، اعتماده في الحماية على سيفه ، لا على حكومة تحميه ، ولا دولة ترعاه ، وقد كان فيه بعض المساوى ، سببها له جهله ، وأميته ، أو فقره ، وإدقاعه ، كقتل الأولاد ، خشية الأملاق ، والحاجة .

هذا هو العربي ، وتلك حياته وبيئته ، وهي لعمرى حافزة إلى الخطابة ، مستثيرة البيان الرائع .

« ١ » فالتنازع المستمر ، والحروب الدائمة الناشبة بين سكان الصحراء ، تستدعى بيانا يثير الحمية ، ويقوى العزائم ، ويدفع النفوس إلى مشتجر السيوف ، وملتقى الختوف . ولا شيء يقوى روح المحارب أكثر من قول حافر ، وعبارات تهز أوتار القلوب . انظر إلى كلمة هانىء بن قبيصة قبيل موقعة ذى قار : « يا معشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور ، » « إن الحذر لا ينجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية خير » « من الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن فى ثغر النحور » « أكرم منه فى الأدبار والظهور ، يا آل بكر قاتلوا ، فما من المنايا بد . » انظر إلى هذه الكلمة كيف دفعت العرب إلى لقاء جنود فارسية وكان لهم عليها الغلب ! .

« ٢ » وكثيراً ما كان يعقب حروب العرب التى كانت تقع فيما بينهم صالح تقوم به إحدى القبائل التى لم يكن لها فى الخصومة ناقة ولا جمل ، أو أحد الأشخاص ذوى النفوذ ، والعقل الراجح ، كما فعل هرم بن سنان ، والحارث بن عوف . عند ما أصلح ذات البين بين عبس وذبيان ، بعد أن كادوا يتفانون . ومجالس الصلح تبين فيها أضرار الحرب ، وشائج القرى بين القبيلتين المتنازعتين ، إن كانت ؛ وذلك لا يكون إلا بالخطابة ، أداة الترغيب فى النافع ، والترهيب من الضار الوبىء .

(٣) وتعصب كل عربى لقبيلته يجعله يفتخر بصفات أبطالها من شدة بطش ، وقوة بأس ، وثبات فى الهيجاء ، وصبر على اللاأواء ، ووفاء للعهد ، ورعاية للجوار ، وإكرام للضيف ، وذلك تارة يكون بشعر

قوى ، وأخرى يسكون بكلام خطابي مبين

(٤) والعرب مع تفرقهم ، وانقسامهم ، وتوزعهم في الصحراء ، وتمزقهم فيها كل ممزق ، كانوا أمة واحدة ؛ قال فيهم الجاحظ : « العرب »
« كلهم شيء واحد ؛ لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم »
« واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك ، والاتفاق في الأخلاق ، »
« وفي الأعراق ، ومن جهة الخثولة المرددة ، والعمومة المشتبكة ، »
« ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة ، وطباع الهواء والماء ، فهم في »
« ذلك شيء واحد في الطبيعة ، واللغة والهمة والشاغل ، قالوا والمشاكلة »
« من جهة الاتفاق والطبيعة والعادة ربما كانت أبلغ ، وأوغل من »
« المشاكلة من جهة الرحم ». وقد كان العرب يشعرون بهذه الوحدة
الطبيعية ، ويحنون إلى تقويتها بجمع كلمتهم ، وقد قوى تلك الرغبة فيهم
محاولة الفرس إذلهم ، ومحاولة الحبشة قبيل الإسلام ، الاستيلاء على
الكعبة ، موطن تقديسهم ، وطمع الأجانب فيهم ؛ لذلك استدعت
الحال أن يكون بينهم خطباء ، يدعون إلى هذه الوحدة الجامعة

(٥) وإذا علمت أن العرب كانت لهم دار ندوة يجتمعون فيها ،
ويتشاورون ، ويساجلون ، ويقررون ما يرونه صالحا ، ولهم أسواق
هي شبيهة بالمنتديات الأدبية ، يتبارى فيها المجيدون للقول ، إذا علمت
ذلك ، فاعلم أن دار الندوة والأسواق ، كانت منابر عامة تروج فيها
بضاعة الكلام البليغ ، وترجى فيها غيرها .

« ٦ » كانت في العرب مساوىء كما أسلفنا وكانت بالغة الحد الأعلى
من الشناعة وقد نعاها القرآن الكريم عليهم ، وكان بعضهم يستنكرها

منهم قبيل الأسلام ؛ لذلك تصدى هؤلاء للدعوة بخطب رائعة إلى
الفضيلة ، والحث عليها ، ونبذ العادات السيئة ، واخرافات الباطلة ، وربما
كان أظهر هؤلاء الدعاة أكثم بن صيفي ، وقس بن ساعدة الأيادي
«٧» وقد كانت قوة إحساس العربي ، وشدة حميته ، واندفاعه ،
ومعيشته في الصحراء صافية السماء ، من أعظم الدواعي للخطابة ، والاتجاه
إليها ؛ فإن قوة العاطفة تدفع ذا البيان إلى تبليغها ؛ قال الأستاذ كركوس
في كتابه فن التكلم في الجمهور : « تصور راعيا يسوق نعمة في الخلاء ، »
« قد حितه ابتسامة الفجر ، وهو يفتح للشمس قصره الذهبي ، أو نجاه »
« الشفق الوردي ، وهو يخضع على السكون رداء السكون ، وانظر أرى »
« أثر يكون لهذا المشهد في نفسه ، فقد يقف صامتا جامدا مأخوذا »
« بروعته وجلاله أو يتناول مزماره ، وينفخ فيه زهوا وطربا ، وإذا »
« كان خطيبا يرفع رأسه وعينه ، ويدعو إليه قوى الوجود الخفية ، باحثا »
« عنها في الريح العاصف ، أو الموجة الثائرة ، أو الغصن المائل مع الهواء »
« أو الصخرة الصماء » . ومن هذا ترى كيف تكون قوة العاطفة ، مع
المنظر الطبيعي الذي يهز النفس البشرية ، ويأخذ بلب العاقل ، دافعة إلى
البيان الرائع ، إن تهيأت أسبابه ، وقد جعل الله للعربي من أميته
سبيلا لفصاحته .

وفي المجلة ان حياة العربي في الصحراء كان حياة فروسية ، وقوة
شكيمة ، دفعته إلى البيان دفعا . قال الأستاذ المؤرخ جورجى زيدان
في الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية في بيان تأثير الخطابة
في ذوى الفروسية : « ويغلب تأثيرها في أبناء عصور الفروسية ، »

« وأصحاب النفوس الآتية طلاب الاستقلال والحرية . . . ولذلك »
« تشابهت جاهلية العرب ، وجاهلية اليونان من هذا الوجه ؛ لأن »
« كليهما أهل شعر وخطابة ، وأهل إباء واستقلال ، ولذلك أيضاً كانت »
« الخطابة رائجة عند الرومان ، مع تأخر الشعر عندهم ، أما العرب »
« فقد قضى عليهم الأقليم بالحرية والحماسة ، وهم ذوو نفوس حساسة »
« مثل سائر أهل الخيال الشعري ، فأصبح للبلاغة وقع شديد في »
« نفوسهم ؛ فالعبارة البليغة تقيمهم وتقدم ، بما تثيره في خواطرهم »
« من النخوة »

(٢) موضوعات الخطابة

كانت موضوعات الخطابة أثراً للدوافع التي دفعت إليها ، وثمرتها لها ،
ولكن يجب أن نقول : إن العرب قد أثر عنهم القول في موضوعات
دفعت إليها العوامل السابقة ، وموضوعات أخرى قد ساد لديهم القول
فيها ، ومهما يكن من الأمر ، فالموضوعات التي تعرضوا للقول فيها منها .
« ١ » إثارة المحبة ، وإيقاظ الحماسة ، وتثبيت القلوب ، وقد ضربنا
لك مثلاً خطبة هانيء بن قبيصة في موقعة ذي قار ، وفي الواقع أن
العرب قد قالوا في هذا أبلغ كلامهم ، وأصدق عبارات دالة على قوة
شكيمتهم ، وإقبالهم على الموت بنفس قوية ، وبأس وحمية ، وطبعي أن
يكون الحث على القتال ، والحض على اللقاء ، أعظم أغراض القول في
أمة تعتمد القبيلة فيها إلى السيف في الذود عن حياضها ، والدفاع عن

شرفها ، ولا حاكم يردع المعتدى ، ويزجر الطاغى ، بل طبعى أن يكون
البأس نخار العربى ، والشجاعة شرفه ، وأن يكون كل قول خطابى يتعلق
بالشجاعة والقتل والقتل أروع بيانهم ، لأن البدوى أخص صفاته البأس ،
والقوة والبطش ؛ فلا غرابة فى أن تكون أعظم موضوعات بلاغته .

(٢) الصلح : كثيرا ما كانت الحرب تنتهى بالصلح بين المتحاربين

كما أسلفنا ، ينهض به ذوو الرأى والحزم ، فيحسمون الداء ، ويقضون
على العداوة التى كانت بين المتقاتلين ، ومن أعظم الخطباء . الذين امتازوا
بالقول فى هذا المقام أكرمهم بن صيفى ، فكثيرا ما كانت ترد على لسانه
فى خطبه التى تشبه الدر المنثور مضار الحرب ، ومساوئها الوبيثة ، ونفع
الصلح ، وعواقبه المريئة ؛ وقد يغاظ فريق القول مع آخر ، فتوشك
نيران الحرب أن تتأجج ؛ فيدخل أحد الناس للصلح ، ويقال من الخطب
ما يناسب المقام ، كما وقع بين سبيع بن الحارث ، وميثم بن منوب أمام مرثد
الخير من المخاصمة « الآمالى ج ١ ص ٩٢ »

(٣) المفاخرة والمنافرة : وقد يتحدث رجلان فى أمر صغير أو

كبير ، فيتلاحيان ، ويشتد نحر كل منهما على صاحبه ، فيتحاكمان إلى
شخص أو جماعة ، وكل يتقدم بفخره ، ومكان شرفه ، فيدلى به على مسمع
من ذويه ، ومن ارتضاه حكما ، وأسمى هذه منافرة ، وقد كانت كثيرة
لدى العرب ، ومن ذلك منافرة عاقمة بن ثلاثة ، وعامر بن الطفيل
تمحادثا ثم تهاجيا ، ثم تنافرا على مائة من الأبل ، يعطيها للحكم أيهما نقر
عاليه صاحبه ، وكانت منافرتهم إلى هرم بن قطبة ، فألقى كل منهما من

بليغ القول مارأى فيه نخارا له على ملأ من قوميهما، وفي المنافرات كهذه
المنافرة ميدان متسع للخطابة، والبيان الرائع .

(٤) الدعوة إلى الفضيلة ، ونبذ الخرافات ، وقد كان هذا من ميادين

القول ، إذ وجد من العرب مصلحون حكماء، رأوا ما عليه أقوامهم ، من
الانحدار في بعض الشرور ، وامتلاء رؤوسهم بالخرافات والأوهام الصادرة
عن الجهل الموبق ، وقد كانت دعواتهم تجد نفوسا مصيخة ، وقلوبا
صائغة ، ومن هؤلاء قس بن ساعدة ، وجمع من خطباء عبد القيس وإياد ، وأكثم
ابن صيفي ، وكعب بن لؤي جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبمكان هذه الدعوة
الأسواق التي كانت تعد منتديات العرب الأدبية كما ذكرنا .

(٥) الدعوة إلى الوحدة العربية : وكثيرا ما كان ذلك في دار

الندوة ، وفي وفود العرب على رؤساء القبائل ، وزعمائها ، والملوك من
العرب ، وربما كان يقع منها شيء في الأسواق التي كانت فرصة اجتماع
تتلاقى فيه القلوب المتنافرة ، وقد اشتدت الدعوة إلى الوحدة العربية
قبيل البعث النبوي ، عندما اشتد طمع الأجنيبي فيهم ، وهاجمهم في
موضع تقديسهم ، كما ذكرنا .

وانظر إلى خطبة عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم أمام
سيف بن ذي يزن ، عند ما ذهب إليه في وفد من قريش ، بعد أن أجلى
الحبشة عن بلاد العرب ، انظر إلى هذه الخطبة تر فيها دعوة جريئة إلى
الوحدة العربية ، جاءت في ثنايا المدح والثناء ! .

(٦) الثناء والعزاء : العربي حساس كما قلنا ، وقد يدفعه ألم الفقد ،

فينطق لسانه ببيان محامد من فقد ، وموضع الآلام في نفسه ، والثناء

ميدان واسع للقول البليغ ، يكشف فيه اللسان عن ألم اللوعة ، وحزها في النفس ، إذ ينفثق بما انفطر به القلب ، وانشقت المرائر ، وقديحى العزاء بالسلوان ، وتصغير الدنيا ، وآلامها ، كما قال أكرم بن صيفى معزياً عمرو بن هند فى أخيه :

« أيها الملك ، إن أهل هذه الدنيا سفر ، لا يحملون عقد الترحال ، »
« إلا فى غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمرء ود عنك ، ورحل عنك ما ليس برافع »
« إليك ، وأقام معك من سيظعن عنك ، ويدعك . إن الدنيا ثلاثة أيام : فأمس »
« عظة ، وشاهد عدل ، فجعلك بنفسه ، وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم »
« غنيمة ، وصديق أتك ، ولم تأته طالت عليك غيبته ، وستسرع »
« عنك رحلته ، وغدا لا تدرى من أهله ، وسيأتيك إن وجدك ، فما »
« أحسن الشكر للمنعم ، والتسليم للقادر ، وقد مضت لنا أصول نحن »
« فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها ؟ واعلم أنه أعظم من المصيبة سوء »
« الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله »

(٧) الوصايا : قد يشارف العظيم فى قومه على الموت ، فيحس بالمنية ، فيوصى بنيه وعشيرته ، بما يجب أن يكونوا عليه ، وقد يرى زعيم القبيلة أن الموت يدب فى جسمه ديباً ، فيجمع قومه ، وخاصة ، ويلقى إليهم بما يكون كعهد بينه وبينهم ، وقد حفظت الآداب العربية للعصر الجاهلى كثيراً من الخطب فى الوصايا باغت قمة البيان ، من ذلك وصية ذى الأصبع العدوانى لابنه ، وأوس بن حارثة ، ووصية أكرم بن صيفى لقومه .

(٨) خطب الزواج : تعود الأشراف عند زواج ذويهم ، أن يتقدم

ولى الزوج إلى وليها بخطبة ، يطالب فيها يد موليته ، ويبين مزايا الزوج ،
ويرد عليه وليها بخطبة كذلك ، ويسمى هذا النوع من الخطب خطب
الأُملاك ، ومن ذلك خطبة أبي طالب عند ما تقدم يطلب يد السيدة
خديجة بنت خويلد للنبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) مرتبة العرب في الخطابة

يعد كثير من الأدباء العرب في المرتبة الأولى من البيان ،
والمنزلة السامية في الخطابة ، وقد ذكر ذلك أبو حيان في مقابساته ؛
إذ قال حاكياً عن أبي سليمان : « سمعته يقول نزلت الحكمة على رءوس »
« الروم ، وألسن العرب ، وقلوب الفرس ، وأيدي الصين . وقال : «
« الحرف ^(١) الذى يدعى في العربية وينسب إلى الأدب موروث »
« من العرب ، وذلك أن أرضها ذات جذب ، والخصب فيها عارض »
« وهم من أجل ذلك أصحاب فقر ، وضر . وربما دفعوا إلى وصال ^(٢) »
« وطى ^(٣) ، وكل من تشبه بهم في كلامهم ، وطريقتهم ، وعباراتهم ، »
« ارتضخ ما هو غالب عليهم . . ألا ترى أن الشيع غريب عندهم ، »
« والرعب مذموم منهم ، وهذه هي الحال التى فرقت بين الحاضرة »
« والبادية ، وقد زادتهم جزيرتهم شراً ، لكنهم عوضوا الفطنة »
« العجيبة ، والبيان الرائع ، والتصرف المفيد ، والاقتدار الظاهر ؛ »
« لأن أجسامهم نقيت من الفضول ، ووصلوا بحدة الذهن إلى كل »

(١) الحرف الميل عن الكسب ، وقلة المال (٢) الوصال أن يصل نهاره
بليله جائئاً (٣) الطى المبيت جائئاً .

« معنى معقول ، وصار المنطق الذى بان به غيرهم بالاستخراج »
« مركزاً فى أنفسهم ؛ من غير دلالة عليه ، بأسماء موضوعه ، »
« وصفات متميزة ، بل فشا فيهم كالألقاء والوحى ؛ لسرعة الذهن ، »
« وجودة القرينة »

ونرى من هذا أنه يثبت للعرب أن الحكمة جرت على ألسنتهم ،
وأنتهم موصوفون بحدة الذهن ، والبديهة الخاضرة ، وأن المعنى الجيد
يسارع إلى خواطرهم كالوحى ، والأشارة السريعة ؛ لجودة قريحتهم ،
وكل تلك الصفات تضعهم فى المرتبة الأولى من الخطابة

وقد ادعى مثل هذه الدعوى ، وزاد عليها أن العرب لا يسامهم
فى منزلتهم الخطابية أمة من الأمم . الجاحظ ؛ إذ يقول فى البيان والتبيين :
« وجملّة القول : إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، وأما الهند ، »
« فأنما لهم معانٍ مدونة ، وكتب مجلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف ، »
« ولا إلى عالم موصوف ، وإنما هى كتب متوارثة ، وآداب على وجه »
« الدهر سائرة مذكورة ، ولليونان فلسفة ، وصناعة منطق ، وكان »
« صاحب المنطق نفسه بكى اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه »
« بتميز الكلام ، وتفصيله ، ومعانيه ، وبخصائصه ، وهم يزعمون أن »
« جالينوس كان أنطق الناس ، ولم يذكره بالخطابة ، ولا بهذا »
« الجنس من البلاغة ، وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس ، »
« وكل معنى للعجم ، فأنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهد وخلوة »
« وعن مشاورة ، وعن معاونة ، وعن طول التفكير ، ودراسة الكتب »
« وحكاية الثانى علم الأول ، وزيادة الثالث فى علم الثانى ، حتى اجتمعت »

« ثمار تلك الفكر عند آخرهم . وكل شيء للعرب ، فأنما هو بديهية : »
« وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا »
« إجابة فـكرة ، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام : »
« وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو »
« بيعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو في حرب ، »
« فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي »
« إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم »
« لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من ولده : » الخ ، الخ

وملخص ذلك الكلام أنه يدعى (١) أن العرب في المرتبة الأولى
في البيان (٢) ، وأن الأمم اليونانية والفارسية والهندية دونهم بلاغة
وفصاحة . ونحن نوافقه في الأول ، ونناقشه في الثانية ؛ إذ كيف
ساغ له أن يوازن بين خطباء العرب ، وغيرهم من الأمم ، مع عدم
توافر الأسباب ، والمهيات التي تمكنه من الحكم الصادق ؛ إن من
الصعب الموازنة بين فصاحة لغة وأخرى ، والموازنة في المقدرة الخطائية
بين أمم مختلفة .

جاء في مقابسات أبي حيان : « قلت لأبي ساجان فهل بلاغة »
« أحسن من بلاغة العرب ؟ فقال هذا لا يبين إلا بأن نتكلم بجميع »
« اللغات على مهارة ، وحذق ، ثم نضع القسطاس على واحدة ، واحدة »
« حتى نأتي على آخرها وأقصاها ، ثم نحكم حكماً بريئاً من الهوى »
« والتقليد والعصبية والمين ، وهذا مالا يطمع فيه إلا ذو عاهة »

فهل وازن الجاحظ هذه الموازنة ؟ وهل أوتي عالم باللغات ، واحدة

واحدة ثم حكم حكما بريئاً من الهوى ، والتقليد ؟ إن الجاحظ قد اندفع وراء العصبية . والخصومة الشعورية بفادعى دعواه هذه ، وكانت اندفاعته بعيدة عن الحق كل البعد ، عندما أنكر خطب اليونان ، وادعى ألا بلاغة ولا خطابة عندهم ، إن التاريخ يحفظ لهم عصر أازدهرت فيه الخطابة ، حتى كان لها معلمون ، ومربون ، وكان الشباب اليوناني يرى الخطابة مطمحاً ، وأملاً يسعى إليه ، ليكون له نصيب من الرأي في إدارة شئون بلاده ، هذا العصر هو عصر بيركليس ، وماسبقه ووالاه ، وكانت أغراض القول واسعة ، وفرصه كثيرة ، ففي المنتديات الأدبية ، وفي المجمع ، وفي المشاورات السياسية ، كان القول البليغ هدفهم ، كل يشد له قوسه ، ويرمي إليه سهمه ، كانت الدعاوى والرد عليها في المحاكم ميادين قول مترامية الأرجاء ، وكانت الخطابة فيها غرضاً مقصوداً ، واستمرت الخطابة في اليونان ما استمرت فيهم الحرية السياسية ، حتى استولى عليهم فيليب ، وكان أبلغ خطبائهم ديموستين ، وجاء الرومان ، فخيبت الخطابة ، وكان سيد خطبائهم شيشرون .

ويجب ان ننصف الحقيقة ، فنقول : إن خطباء اليونان والرومان لم تكن أكثر خطبهم ارجالية ، بل كانت تعد إعداداً ، فالخطيب الأثيني مهما تبلغ ثقته بنفسه ، لا يجزؤ على الوقوف موقف الخطيب ، قبل أن ينظر نظرة عميقة فيما سيلقيه قبل إلقائه ، خشية النقد المر الصادر عن سامعين ذوي أفهام ثاقبة ، ونظرات فاحصة كاشفة ، وكان شيشرون الروماني يهذب خطبه ، ويتمرن على إلقائها ، قبل التقدم لألقائها على الجماهير ، حتى أنه في سن الستين قبل أن يقتل ، كان يمرن نفسه على الإلقاء

ولا يمنع هذا من أن يكون بينهم من تجلون ، ولو كن كانوا أقل عدداً . أما خطباء العرب فقد كانوا لا أميتهم ، ولتعوينهم في بيانهم على اللسان وحده من تجاين ، تحذيرهم فيما بين الجنان واللسان ، ويقول الجاحظ فيهم : « وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكفون ، وكان الكلام ، الجيد عندهم أظهر »

وفي الحق إن الخطيب العربي يعد في الطبقة الأولى بين خطباء الأمم ، وأن الخطابة العربية في العصر الجاهلي كانت حية ناهضة ، لتوافر الدواعي إليها ، ووجود ذوى اللسان والبيان ، وأولئك كانوا كثيرين ، خصوصاً في قبيلتي عبد القيس وإياد .

(٤) ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها

الألفاظ : أول ما يلاحظه القارئ للمأثور من خطب العرب في الجاهلية على ألفاظها (١) قوة وجزالة حتى تصل أحياناً إلى الخشونة ولعل السبب في ذلك - أ - قوة نفوسهم ، وشدة بأسهم ، واندفاعهم في حماسة ، فإن الكلمات صورة حية لنفس قائلها ، تجيش صدورهم بالأس ، فتندفع ألسنتهم بكلمات ، هي صورة لتلك القلوب القوية الجرئية - ب - ومعيشتهم في الصحراء بيأسائها ، ولأوائها وشدتها ، فأصبحوا لا يرون إلا ما فيها من جبال وآكام ووهاد ، فيكون كل ما يصدر عنهم مناسباً لتلك المناظر ، مأخوذاً من تلك المشاهد - ج - ومناسبة تلك الكلمات الجاسية الشديدة ، للموضوعات التي قيلت

فيها، فأكثرها قيل في دعوة إلى قتال؛ أو في مفاخرة بنزال؛ أو في وصف يوم كريمة، ونحو ذلك

وأنسب الكلام لهذه الموضوعات ما كان شديداً، قوى الأثر،
نحماً ضخماً؛ ليقرع الحس، ويدفع النفوس إلى حيث ترتخص الأرواح
(٢) وقد كان في كلماتهم الحوشية الغربية؛ ولعل هذه كانت من
لغة حمير التي طغت عليها لغة قريش، حتى أخذت في الاندثار، وبقي
في الخطب والشعر منها كلمات نائية؛ لأنها تعيش في غير بيئتها،
منفردة عن أخواتها

(٣) وتجد في خطبهم سوق الحقيقة قائمة، وسوق المجاز كاسدة،
فألفاظهم إلا قليلاً مستعملة فيما وضعت له، وذلك لأحاطتهم الكاملة
بلغتهم، وعلمهم علماً صحيحاً بمدلولات الألفاظ، ووجه دلالتها عليها،
وقلة حاجتهم إلى استعمال لفظ في مدلول آخر؛ لعدم وجود طوائف
من المعاني ليس في العربية ما يبدل عليها، وهذا لا يمنع أن يكون في
كلامهم الكنايات الرائعة، والأمثال السائرة؛ والتشبيهات المحكمة؛
فأن ذلك كان عندهم، ولكن لم يكن كثيراً في خطبهم؛ لأن رسالهم القول
ارتجالاً من غير تحضير وتهيئة.

المعاني : معاني الخطب الجاهلية (١) فطرية تنشأ عن اللمحة

العارضة، والفكرة الطارئة، وعفو الخاطر من غير كد للفكر، ولا
تعمق في النظر؛ لأنهم لم يكونوا أهل علوم يسودهم التفكير المنظم،
والتقسيم المستقرى، والتتبع لكل أشتات الموضوع؛ ليجمع شملها في

خطبة ، ويضم متفرقها في بيان .

(٢) ولذلك جاءت خطبهم غير متماسكة الأجزاء ، غير سلسلة الأفكار ، لا يأخذ المعنى بحجز الآخر في فكر رتيب ؛ ليستوفي الموضوع كله ، وأصدق الخطب التي تدل على هذه الحال فيهم ، خطب أكرم ابن صيفي ، فأنها حكم منتثرة ؛ بل هي در منشور غير منتظم في عقد ولكن إذا اتحد الغرض في الخطبة ، جاء التماسك في الجملة في أجزائها ، وكثيرا ما تكون الخطب التي على هذه الشاكلة موجزة كل الأيجاز ، كخطبة أبي طالب في زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها .

(٣) وقد كان عدم تماسك أفكارهم من دواعي كثرة الحكم والأمثال في خطبهم ، حتى لقد رأيت أن أكرم كما بينا ، كانت خطبه كلها حكما ، وقد يستشهد بعضهم بحكمة عالية لغيره ، أو بمثل سائر ، يضربه ، ليقايس بين حال من يخاطبهم ، وحال من قيل المثل فيهم (٤) وأخص ما يمتاز به المعاني الخطائية عند العرب صدقها ، وعدم وجود الاغراق والمبالغة فيها ، وذلك لما فيهم من صراحة ، وحب للصدق وللحقيقة

(٥) وقد ترى في نصائحهم ووصاياهم معاني اجتماعية ، وخلقية عالية ، ولكنها في جملتها ليست مبنية على دراسة وبحث ، بل هي صورة لتجارب الحياة ، تنجي على الألسنة من غير كد للذهن ، ولا تعمق في الدرس ، كما أسلفنا

الأسلوب : (١) أول ما تلقاه في المأثور من الخطب العربية أنك لا تمجد الخطب قد لوحظ فيها حسن الافتتاح ، وتنسيق الموضوع ، وتجزئته ، ثم حسن اختتامه ، فإن ذلك شأن الخطيب الذي يحبر خطبته ويزور كلامه ، ويهيؤه . ويعده ، ولم يكن أكثر خطباء الجاهلية كذلك ، بل كانوا يرتجلون الكلام ارتجالاً ، لذلك لم تكن خطبهم منسقة مجزأة ، بل كانت في الجملة غير متماسكة ؛ لعدم تماسك معانيها كما بيناه .

(٢) وأسلوبهم الكلامي لا تكلف فيه ، ولا صناعة ، لعدم عنايتهم بتهيئة القول ، ولذلك خلا من كل المحسنات اللفظية ، كالجناس والتورية ، وما إلى ذلك مما نص عليه في علم البديع

(٣) كانوا أحياناً يسجعون في خطبهم ، كما ترى في سجع الكهان ، وأحياناً يأتون بجمل مزدوجة ، كما ترى في خطب الوفد العربي لدى كسرى ، وأحياناً يرسلون القول إرسالاً ، ولكن أيهما كان أكثر ، وأشيع ، الكلام المرسل ، أم المسجع والمزدوج ؟ لقد اختلف الأدباء في الإجابة عن هذا السؤال ؛ فقريق يقول إن السجع والازدواج كانا أكثر شيوعاً على السنة الخطباء من الأرسال ؛ لأن المروى من خطب الجاهلية أكثره مسجوع أو مزدوج ، وإنك لتقرأ مارواه الأثافي ، والعقد الفريد ، وغيرها من كتب الأدب منسوبة إلى العصر الجاهلي ؛ فترى أن أوضح ما يظهر في ديباجته السجع والازدواج ، ولا يطن في هذا بالشك في صحة النسبة ، أو بالرواية بالمعنى ؛ لأن من يقول قولاً على لسان غيره ، ولو كاذباً ، يجتهد في أن يكون كلامه صورة

قريبة مما يجرى على السنة من ينحاهم قوله ؛ فالرواة الذين نحلوا
الجاهليين تلك الخطب لا بد أن يأتوا بكلامهم على النحو الذى يعرفه
الناس عن العصر الجاهلى ؛ فإذا أتوا بذلك الكلام مسجوعا ؛ فهو يدل
على أن الناس فى عصر الرواة ما كانوا يعرفون عن خطب العرب ؛ إلا
أن أكثرها مسجوع ، وحسبك هذا دليلا على شيوع السجع عند
الجاهليين .

ويرى آخرون أن الارسال هو الاء أكثر شيوعا على السنة
الخطباء ؛ لأنه هو الذى يتفق مع الارجال ، والقول على البديهة اللذين
عرفا فى العرب ؛ ولأنه هو الذى يساوق الفطرة ؛ ولأن أكثر كلام
النبي صلى الله عليه وسلم ، الذى ثبتت صحته ؛ وأكثر خطب الصحابة
التي لا مجال للطعن فى صدقها مرسل قليل السجع ؛ والازدواج ؛ وأكثر
أولئك أدرك العصر الجاهلى ؛ فلو كان السجع طريقا خطايا معروفا
مألوف لهم ؛ ما خالفوه ؛ ولا نعرف أن من أوامر الشرع ما يدعوهم إلى
المخالفة ؛ والابتعاد عن أمر معروف عند الجاهليين أنه من طرائق التأثير
البياني ؛ ولأنه قد تواتر عن العرب أن الكهان كانت لهم كلام متميز
بديباجته ؛ يخالف المألوف للعرب ؛ وامتاز ذلك الكلام بالسجع الملتزم
فلو كان السجع أمرا شائعا يشمل الجزء الأ كبر من خطب الخطباء ؛ ما امتاز
كلام الكهان عن سواه ؛ وما صار له لون يفاير بقية الكلام ؛ ولأنه
قد جاء فى البيان والتبيين للمجاحظ : « قيل لعبد الصمد بن الفضل بن »
« عيسى الرقاشى لم تؤثر السجع على المنتور ؛ وتلزم نفسك القوافى ، »
« وإقامة الوزن ؛ قال : إن كلامى لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد ، »

« لقل خلا في عليك ، ولكني أريد الغائب ، والحاضر ، والراهن ، والغابر ؛ »
« فاحفظ اليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد ، »
« وبقلة التفات ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما »
« تكلمت به من جيد الموزون ؛ فلم يحفظ من المنثور عشرة ، ولا ضاع »
« من الموزون عشرة »

وهذا الكلام يدل على أن أكثر الخطب الجاهلية ، لم يكن سجعا ، وإلا ماضاع أكثرها ، ولم يبق إلا أقل من العشر ، ويردون على الفريق الأول في استدلاله بكثرة السجع في المروى على أنه الكثرة في الخطب . بأن الخطب المسجوعة هي التي رويت . مع قلتها بالاضافة إلى غير المسجوع ؛ وذلك لنفاستها ، وسهولة حفظها ، وقوة علوقها بالنفس ، وثباتها فيها ، لما فيها من التزام قافية ووزن ، وهما يسهلان اللفظ . وأنت ترى أن كلاله وجهة ، ونحن إلى الثاني أميل .

الأيجاز والأطناب : وقبل أن نختم الكلام في الأسيب العربية

نتكلم على الأيجاز والأطناب في خطبهم ، فنقول : لم نجد في المأثور عن العرب خطبة طويلة ، بل كلها موجز ؛ ولعل الذي بين أيدينا جزء من خطبة طويلة ، علق بالقلوب ، وذهب أكثرها في ضلال نسيان الراوي أو هو الخطب القصار حفظها الرواة ؛ لقصرها ، وعجزوا عن ضبط الطوال ؛ لطولها ؛ وذلك لأن أخبار العلماء والأدباء والرواة تدلنا على أن العرب كانت لهم خطب طوال ، وأخرى قصار ، ولكل حال تقتضيه في نظرهم ، ففي خطب النكاح مثلا يطيل الخاطب ، ويقصر المحييب وفي خطب الصالح كانوا يطيلون ، قال الجاحظ : « والسنة في خطبة »

« النكاح أن يطيل الخاطب ، ويقصر الخبيب ، ألا ترى إلى قيس »
« بن خارجة بن سنان لما ضرب بصفحة سيفه مؤخرة راحتي الحاميين »
« في شأن حمالة ^(١) داحس ^(٢) والغبراء . وقال : مالي فيها أيها العشمتان ^(٣) »
« قالوا : بل ما عندك ؛ قال : عندي قرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ، »
« وخطبة من لدن تطلع الشمس الى أن تغرب ، أمر فيها بالتواصل : »
« وأنهى فيها عن التقاطع . قالوا نخطب يوماً الى الليل ، فما أعاد فيها كلمة »
« ولا معنى ، فليل لأبي يعقوب : هلا اكتفى بالأمر بالتواصل ، عن »
« النهي عن التقاطع ، أوليس الأمر بالصلة هو النهي عن القطيعة . قال : »
« أو علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في القول عمل الأفضاح »
« والتكشيف ؟ » ويظهر أنهم كانوا يطيلون القول في المفاخرات ، لأن
الإنسان إذا مال الى الشيء أكثر من ذكره ، والفخر بالحسب والنسب ،
وشريف الخصال من صفات العرب التي امتازوا بها .

وقد كانوا في إطالتهم ، وإيجازهم ، بلغاء ، أقوالهم محكمة ، وقد قال
الجاحظ في وصف الطوال منها : « ومن الطوال ما يكون مستويّاً في »
« الجودة ، ومشاكل في استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقر الحسان »
« والنتف الجياد » وقال في وصف العرب بشكل عام : « ولم أجد في »
« خطب السلف الطيب ، والأعراب الاقبحاح ألفاظاً مسخوطة : »
« ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً ردياً ، ولا قولاً مستكرها . »

(١) الحمالة الدية (٢) داحس والغبراء . فرسان كانتا سبياً في حرب طاحنة
(٣) العشمتان واحدها عشمه وهي الطمع . والشيء اليابس

(٥) الخطيب الجاهلي

وعاداته

(١) الخطيب العربي زعيم القبيلة ، أو بطليها ، أو حكيماها ، أو قاضياها ، أو رجل من آحاديها ، ولاكن يمتاز بميزة ليست في دهائها ، تجعله في منزلة تسمح له بأن يدعو ، فيجيب ، وأن يرشد ، فيسترشدوا به ، ولذا كان الخطيب العربي من أسد العرب رأياً ، وأحكمهم نظراً ، وأبعدهم مدى ، فرجاحة الفكر أولى مميزات الخطيب العربي في قومه ، فأكرم ابن صيفي أحكم تميم ، وقس بن ساعدة من أقوى أهل الف - كره عند العرب وكعب بن لؤي كان شيخ كنانة في عصره ، وعبد المطلب بن هاشم كان زعيم قريش ، وأنبلها ، وأسدها فكراً ، وكل أولئك خطباء .

(٢) والخطيب العربي يخطب قوماً اشتهروا بالفصاحة واللسن ، وسلامة الفطرة ، فلا يؤثر فيهم ، ولا ينال من قلوبهم ، إلا إذا كان يعلمهم فصاحة ، ويسبقهم لسناً وبياناً ، فلا يكون فيه بالأولى عيب من العيوب البيانية التي لا تتفق مع فصاحة اللسان ، وجودة النطق ، فلا يكون فيه عيب ، ولا حصر ، ولا فافأة ، ولا متممة ولا شيء من عيوب النطق والبيان ، وكذلك كان الخطيب العربي فصيح العبارة ، طلق اللسان ، واضح اللهجة جيد الألقاء

(٣) كان الخطيب في الجاهلية يدعو العرب أحياناً الى خوض غمرات الموت ، والسبح في لجج من الدماء ، فلا يصح أن تتنافى حاله مع ما يدعو إليه ، لا بد أن يكون جرىء القلب ، قوى النفس ، رابط الجأش

لا تعروه رعدة ، ولا اضطراب في موقفه ، وإلا ضعف تأثيره ، وذهب
كلامه هباء ، وكذلك كان خطيب الجاهلية ، شجاع جرىء ، ثابت
الجنان ، رابط الجأش ، لا اضطراب ، ولا وجل ولا خوف

(٤) كان خطيب الجاهلية جهير الصوت مرتفعه ، وكانوا
يستحسنون ذلك في الجملة ، ولذلك قالوا في وصف الخطيب المجيد
خطيب مصقع من الصقع ، وهو رفع الصوت

(٥) حضور البديهة من أخص أوصاف الخطيب العربي ؛ لأن
أكثر خطبه مرتجل ، والارتجال عدته وذخيرته بديهة حاضرة ،
تسعه بما يريد في أوجز مدة .

لم يكن الخطيب العربي منفراً في شكله ، بل كان أقرب إلى
الجمال ، والجمال من مظاهره في نظرهم سلامة الأسنان والقم ، وقوة
الجمان ، واستقامة القناة ، فيكون كالرمح لا انحناء فيه ، وبياض الوجه
ولذا قال الشاعر مادحاً خطباء قبيلته

خطباء حين يقوم قائلنا بيض الوجوه مصاقع لسن

(٧) والخطيب الجاهلي ذو مهابة ، وسمت ووقار وشرف ، وبزة
حسنة ، وحسب ونسب ، وفي الجملة فيه أكثر أوصاف الخطيب
الكامل

ومن عادات العرب في الخطابة (١) أن يقف الخطباء على مرتفع
من الأرض « ٢ » وأن يكونوا على زى خاص في العمامة واللباس تفخيماً
لعمله « ٣ » وأخذهم المحصورة ^(١) بأيديهم ، ومن ذلك قول الشاعر

(١) شيء يشبه العصا

يكاد يزيل الأرض وقع خطابهم . إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر
وكانوا أحياء يعتمدون على القسى بدل المخاصر ، ومنهم من كان
يتخذ المخاصر فى خطب السلم ، والقسى فى خطب الحرب ، إشعارا
بما يتوى قوله ، وليكون لسان حاله متفقا مع مقاله فى الدعوة إلى القتل
والقتال .

(٤) ومن عاداتهم أيضا رفع أيديهم ، ووضعها ، وتأدية كثير من
أغراضهم بحركاتها ، إن كان ثمة داع لذلك ، ولم تذهب تلك الحركات
بهيبة الخطيب ووقاره ورزاقته .

وقد انتقلت عادات كثيرة من عادات الجاهلية فى الخطابة إلى
الاسلام

المأثور من خطب العرب فى الجاهلية

كثرة الخطباء فى الجاهلية ، وقد المروى منه الخطب

خطباء الجاهلية كثيرون ، من أقدمهم كعب بن لؤى (الجدي
السابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم) ، كان يخطب العرب عامة ،
ويحضر على البركنانة خاصة ، ولما مات أكبروا موته ، وأرخوا به
حتى عام الفيل ، ومنهم ذو الأصبع العدواني ، وسمى بذلك ؛ لأن حية
نهشت إبهام رجله ، فقطعته ، ومنهم أبو عمار الطائى خطيب مذحج ،
وقد بلغ النعمان بن المنذر حسن حديثه ، فحمله إليه ، وكان النعمان شديد

العريضة ، قتالا للندماء ؛ فقتله في مجلس شراب له ، ومنهم النعمان هذا وخطباؤه عند كسرى : أ كثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة التميميان ، والحارث بن عباد ، وقيس بن مسعود البكريان ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريون ، وعمرو بن الثمريد السامي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المري ، وكلهم يشار إليه بالبنان في العرب ، ومنهم عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب عمه ، وقس بن ساعدة الأيادي خطيب عكاظ ، وداعي العرب إلى التوحيد ، ومنهم عطار بن حاجب بن زرارة ، وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وخطب بين يديه

وبعض القبائل اشتهر بكثرة الخطباء ، كأباد ، وعبد القيس ، قال الجاحظ : « شأن عبد القيس عجيب ، وذلك أنهم بعد محاربة إباد » « تفرقوا فرقتين : ففرقة وقعت بعمان ، وفيهم خطباء العرب ، » « وفرقة وقعت بالبحرين ، وشق البحرين ، وهم من أشعر قبائل العرب » « ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية ، وفي معدن الفصاحة ، » « وهذا عجيب . ١ »

وإذا كان خطباء الجاهلية كثيرين كما رأيت ؛ فلا بد أن تكون خطبتهم كثيرة ، ولكن المأثور من الخطب قليل ، لا يتناسب مع تلك الكثرة ؛ جاء في صبح الأعشى : « قال صاحب الريحان والريعان : إن » « ما تكلمت به العرب من أهل الدر والوبر ، من جيد المنثور ، » « ومزدوج الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون ، إلا أنه لم » « يحفظ من المنثور عشرة ، ولا ضناع من الموزون عشرة ؛ لأن »

« الخطيب ، إنما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك »
« أو الأصلاح بين العشائر ، أو خطبة النكاح ، فإذا انقضى المقام حفظه »
« من حفظه ، ونسيه من نسيه بخلاف الشعر ، فإنه لا يضيع منه بيت »
« واحد . قال : ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه »
« الأئام ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه ، »
« فأطار ذكرها ، ما تميزت عن سواها » .

ولماذا كان حظ الخطب النسيان ، وحظ الشعر الحفظ ؟ يعلل ذلك القلقشندى ، بشيوع قول الشعر في الحواضر والبوادي ، وبين الخاصة والعامة ، وسهولة حفظه ، وكون الخطب لا تكون إلا من عظماء الفصحاء ، واختصاصها بالمواقف العظيمة التي ربما لا يحضرها دهاء العرب ، فقد كان يقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤسائهم ، بمن فاز بقدر الفضل ، وسبق إلى ذرا المجد ، ويخصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمقامات الحفيلة ، وما يلقى على العامة تتبادله الألسنة ، ويشيع ، أما ما يلقى على الخاصة فغير شائع ، ولا معروف ، ولا تتناقله الرواة ، ولكن إذا كان هذا يصلح علة لنسيان ما كان يلقى على الخاصة ، فما علة نسيان ما كان يلقى في الأسواق ، والجامع العامة ، وما كان يلقيه زعيم القبيلة على القبيلة كلها صغيرها وكبيرها ؟ يظهر أن العلة لهذا :

(١) أمية العرب ولو كان العرب يكتبون على الرقوق ، أو ينقشون على الأحجار ، كالأمم ذوات الحضارات ، لوجدنا آثارهم ناطقة بخطبهم

ومحاولاتهم التي تشتمل على القول البليغ، والبيان الرائع، الآخذ بالآليات
(٢) وكون الشعر سهل الحفظ، والنثر صعبه؛ إذ الوزن في الأول
جعل الآذان تنشط لسماعه، والقلوب تميل إلى حفظه
ومهما يكن من الأمر فما بقي يعطينا صورة للخطابة في الجاهلية
وإن لم تكن كاملة، ويبين لنا حالها، وإن لم يكن البيان شافيا وافيًا

عَادَج من خطب الجاهليين

١ - كلمة قبيصة بن نعيم حين قدم على امرئ القيس

مع وفد بني أسد

وفد على امرئ القيس بعد قتل أبيه رجالات من بني أسد،
فيهم قبيصة بن نعيم، فبالغ امرؤ القيس في إكرامهم، واحتجب عنهم
ثلاث ليال، ثم خرج إليهم، فنهض قبيصة، وقال: إنك في المحل
والقدر والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه، وتتنقل به أحواله،
بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ، ولا تذكرة مجرب، ولك من سؤدد
منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك في العرب، محتد يحتمل
ما حمل عليه من إقالة العثرة، والرجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم
إلى غاية، إلا رجعت إليك، فوجدت عندك من فضيلة الرأي، وبصيرة
الفهم، وكرم الصفح، ما يطول رغباتها، ويستغرق طلباتها، وقد كان
الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزارا واليمن، ولم تخصص
به كندة دوننا للشرف البارع، كان لحجر التاج والعمدة فوق الجبين

الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس
الباقية بعده ، لما بخلت كرائمتنا على مثله ببذل ذلك ، وإن كان مضى به
سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمد الحالات
في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن
اخترت من بني أسد أشرفها بيتا ، وأعلاها في بناء المكرمات صوتا
فقدناه اليك بنسعه ^(١) ، يذهب مع شفرات حسامك بباقي قصرته ^(٢)
فيقال رجل امتحن بهالك عزيز ، فلم يستل سخيمته إلا بمكنته من
الانتقام . أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها ، فهي ألوف تتجاوز
الحسبة ، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها ، لم يردده
تسليط الأحن على البراء . وإما أن وادعتنا إلى أن تضع الحوامل ،
فتسدل الأزر ، وتعقد الخمر فوق الرايات

جواب امرئ القيس : فبكي امرؤ القيس ، ثم رفع طرفه اليهم ،
وقال : لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم ، وأنى لن اعتاض
به جملا أو ناقة ، فأكتسب به سبة الأبد ، وفت العضد ! وأما النظرة
فقد أوجبتهما الأجنة في بطون أمهاتهما ، وإن أكون لعطبتها سببا ،
وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل من القلوب حنقا ، وفوق
الأسنة علقا

إذا جالت الحرب في مازق تصافح فيها المنايا النفوسا

(١) النسخ بكسر النون سيم من الجلد تشد به الرجال (٢) القصرة الباقي بعد
الانتخال أو أصل العنق

٢ - وصية زهير بن جناب الكلبي بنيه

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه فقال : يا بني إني قد كبرت سني ، وبلغت حرساً من دهرى ؛ فأحكمتني التجارب ، والأمور تجربة واختبار ؛ فاحفظوا عني ما أقول ، وعوه : إياكم والخور عند المصائب ، والتواكل عند النوائب ؛ فإن ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو وسوء ظن بالرب ، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمين ومنها ساخرين ، فإنه ماسخر قوم قط ؛ إلا ابتلوا ؛ ولكن توقعوها ، فإن الإنسان في الدنيا غرض ؛ تعاوره الرماة ، فقصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لا بد أن يصيبه

(٣) وصية ذي الأصبع العدواني

لما احتضر ذو الأصبع العدواني ، دعا ابنه أسيدا ، وقال له : يا بني ، إن أباك قد فني ، وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، وإني موصيك بما إن حفظته ، بلغت في قومك ما باغته ؛ فاحفظ عني : ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وإبسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عاينهم بشيء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمع بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريخ ؛ فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك

(٤) خطبة لمرثد الخير في الصلح

جاء في الأُمالي بسنده: كان مرثد الخير بن ينكف بن معديكرب ابن مضحى قبيلا ، وكان حادبا على عشيرته ، محبا لصلاحهم ، وكان سبيع ابن الحارث ، وميثم بن منوب بن ذى رعين ، تنازعا الشرف ، حتى تشاحنا ، وخيف أن يقع بين حبيهما شر ، فاتفقاني جذماهما ^(١) فبعث إليهما مرثد ، فأحضرهما ليصلح بينهما ، فقاتل لهما . ان التخبيط ^(٢) وامتطاء الهجاج ^(٣) واستحقاب ^(٤) اللجاج سيقفكما على شفا هوة ، في توردها بوار الأصيل ^(٥) وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد وانحلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتباين السهمة ^(٦) وأتفاني فسحة رافهة وقدم واطدة ، والمودة مثرية ^(٧) ، والبقيا معرضة ^(٨) ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ، ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور ^(٩) أمورهم ، فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأى ^(١٠) ، واستفحال الداء ، وإعواز الدواء ، فإنه إذا سفكت الدماء ، استحكمت الشحنة ، وإذا استحكمت الشحنة ، تقضبت ^(١١) عرا الأبقاء ، وشمل البلاء

(١) الجذم (الاصلي) (٢) التخبيط ركوب الرجل رأسه في الشر . (٣) الهجاج اللجاجة في الشر . (٤) استحقاب اللجاج حمل حقيبتة ، والمراد من هذا اعتراف الخصومة والشر . (٥) الاصيل الاصل . (٦) السهمة القرابة . (٧) مثربة هنا معناها متصلة . (٨) معرضة معناها ممكنة . (٩) الامر الذي يرجع اليه والمراد هنا العاقبة . (١٠) الثأى بفتح الهمزة وسكونها الافساد والقتل والجراح . (١١) تقضبت معناها تقطعت .

(٥) خطبة عبد المطلب بين يدي ذى نواس

ذهب وفد من قريش إلى ذى نواس بعد أن ظفر بالحبشة ،
وأجلاهم عن بلاده ، فلما مثلوا بين يديه ، قال عبد المطلب : إن الله أيها
الملك ، أحلك محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، باذخا شامخا ، وأنتك منبتا
طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، ونبل أصله ، وبسق فرعاه ، فى
أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت أيت اللعن رأس العرب ،
وربيعها الذى به تخصب ، وملكها الذى به تنقاد ، وعمودها الذى عليه
العماد ، ومعقلها الذى ياجأ إليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا
بعدهم خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه . نحن أيها الملك أهل حرم
الله وذمته ، وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجننا بكشفك الكرب
الذى فدحنا فنحن وفد التهئة ، لا وفد المرزئة (١)

(٦) خطبة أبى طالب فى زواج النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم . وزرع اسماعيل ، وجعل لنا
بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكم على الناس . وإن محمداً بن عبد
الله ابن أخى لا يوزن به فتى من قريش ، إلا رجح به بركة وفضلا وعدلا
ومحدا ونبلا ، وإن كان فى المال مقلا فإن المال عارية مسترجعة ، وظل
زائل . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أردتم
من الصداق فعلى

٧ - خطبة أكرم بن صيفي

في قومه عند ما جاءه نبي الله صلى الله عليه وسلم

روى في مجمع الأمثال عن ابن سلام الجعفي قول لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، ودعا الناس إلى الإسلام، بعث أكرم بن صيفي ابنه حبشياً، فأتاه بخبره، فجمع بني تميم، وقال: يا بني تميم، لا تحضروني سفيهاً، فإنه من يسمع يخل أن السفيه يوهن من فوقه، ويثبت من دونه، لا خير فيمن لا عقل له، كبرت سني، ودخلتني زلة، فأز رأيتم مني حسناً، فاقبلوه، وإن رأيتم مني غير ذلك، فقوموني أستقم. إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة وأنا نبي بخبره، وكتابه يأمر فيه بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بحسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأوثان، وترك الحلاف بالزيران، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه. إن أحق الناس بمعونة محمد (صلى الله عليه وسلم)، ومساعدته على أمره أنتم، فإن يكن الذي يدعو إليه حقاً، فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلاً، كنتم أحق الناس بالكف عنه، وبالستر عليه، وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله، وسمى ابنه محمداً، فكونوا في أمره أولاً، ولا تكونوا آخراً، ائتوا طائعين، قبل أن تأتوا كارهين. إن الذي يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم لو لم يكن ديناً، لكان في أخلاق الناس حسناً، أطيعوني، واتبعوا أمرى، أسأل لكم أشياء

م ٥ - تاريخ الخطابة

لا تنزع منكم أبدا ، وأصبحتم أعز حن في العرب ، وأكثرهم عددا ،
وأوسعهم دارا ، فأنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه
ذليل إلا عز . إن الأول لم يدع الآخر شيئا ، وهذا أمر له ما بعده ،
من سبق إليه غمر المعالي ، واقتدى به النجالي ، والعزيمة حزم ،
والاختلاف عجز .

فقال مالك بن نويرة قد خرف شيخكم ! فقال أكنتم : ويل للشجي
من الخلى ، والهني على أمر لم أشهده ، ولم يسبقني .

٨ - نصيحة الجمانة بنت قيس لجدها الربيع بن زياد

اشترى قيس بن زهير درعا من مكة ، فاغتصبها منه عمه الربيع بن
زياد ، فنقدمت الجمانة بنته ، وقالت :

إذا كان قيس أبى ، فأنتك ياربيع جدى ، وما يجب له من حق
الأبوة على ، إلا كلذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح
تبعنه العناية ، وتجلي عن محضه النصيحة . إنك قد ظلمت قيسا بأخذ
درعه ، وأجد مكافأته إياك سوء عزمه ، والمعارض منتصر ، والبادى
أظلم ، وليس قيس ممن يخوف بالوعيد ، ولا يردعه التهديد ، فلا تركن
إلى منابذته ، فالحزم فى متاركته ، والحرب متافئة للعباد ، ذهابة بالطارف
والتلاد ، والسلم أرخى للبال ، وأبقى لأفئس الرجال . وبحق أقول : لقد
صدعت بحكم ، وما يدفع قولى ، إلا غير ذى فهم . ثم أنشأت تقول .
أبى لا يرى أن يترك الدهر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى
فرأى أبى رأى البخيل بماله وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

الخطابة في صدر الإسلام

تمهيد . في عصور الانقلابات الفكرية ، والاجتماعية ، والسياسية تسود الخطابة ، حيث يصطدم القديم ، والجديد ، والمألوف بما هو غريب بدى ، إذ تدهش له العقول ، فتتغير بعض الألباب أمدًا طويلًا أو قصيرًا وتضطرب بعض النفوس بين ما ألفت من قديم ، وما عرفت من حديث ، وينكر الحق بعض الذين يرون مصاحبتهم العاجلة في التمسك بالقديم ، والأخذ بأهدابه . والنفوس الصافية ، والقلوب الزاكية تدرك الصواب ، وترحض عنها أدران الباطل ، تتحصى الحق ، وتتجلب سائغته ، وتتجه إلى نوره ، يشتد الاختلاف بين أولئك وهؤلاء ، كل يدلى بحجته ، وكل يريد اجتذاب الجماعة إلى طريقه ، وكل يتخذ وسائل الأغراء ، لتسلك مهيعه ، وذلك بلسان ذرب ، وبيان رائع ، وبلاغة واصله إلى أعماق القلوب . واعتبر ذلك في عصورنا الحديثة بالثورة الفرنسية ، حيث فككت فيها الألسنة من عقالها ، واندفعت تنطق بعبارات ملهية ، تنير النائرة ، وتشبع النفوس النائرة ، وتوقظ القلوب الخائرة . وقبلها كانت الثورة الانجليزية التي وضع على أثرها الدستور الانجليزي أول الدساتير الحديثة ، وأقدمها ، انطلقت فيها الألسنة بخطب قوية ، وألفاظ نارية ، وكذلك كانت الثورة الأمريكية . واعتبر ذلك في القديم بحال اليونان في عصر بيركليس ، إذ ازدهرت الخطابة لهذا الانقلاب الفكرى ، والاجتماعى والسياسى الذى توج به تاريخ ذلك العظيم . واعتبر ذلك أيضا بحال الرومان في عصر يوليوس قيصر ، إذ كانت الخطابة هى التى تلقى النخوة فى

قلب الروماني ، فجعلت منه فاتحاً في الشرق والغرب ، تحقق الراية الرومانية حيث وضع قدمه ، وحيث خفق قلبه بالنجدة والبأس والمروءة . وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قد أحدث دينه الحق انقلاباً سياسياً ، ودينياً ، واجتماعياً ، وفكرياً في العرب (بل في كل العالم) لم ير التاريخ له نظيراً فلا بد أن تكون قد صحبته حركة بيازية خطابية ، لم تعرف في أمة من قبل ، وكذلك كان ، فإنه بمجرد أن صدع النبي بالحق ، ودوى صوته الرهيب الكريم في بلاد العرب ، وانبعث ذلك النور الوضاح ، فأضاء السهول والجبال ، بمجرد أن كان هذا ، تجرد المقول من العرب لردعائمه أو الدعوة إليه ، وكان وهو الفصيح القرشي ، ذو البيان النبوي ، يجادل ويناضل ، ويدافع ويصاول ، وليس له إلا لسان أيده روح القدس ، وحق أوحى الله به ، وإذا عرفت أن الحجة التي كان يدلي بها برهاناً على رسالته ، وحجة لدعوته من نوع الكلام ، وإن كان من رب العالمين ، وفيه المثل الكامل للبلاغة ، إذا علمت ذلك ، وعلمت أن العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبيان ، علمت أي مقدار من البلاغة قد استفادته الخطابة العربية بالدعوة المحمدية .

هذا أجمال وما سيأتي تفصيله .

(١) الحياة الإسلامية في صدر الإسلام

لتعرف ما طرأ على الخطابة من تغير في الدواعي والأغراض ، يجب أن تعرف ما طرأ على النفس العربية من تغير في مظاهرها ، وأحوالها الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية .

الأحوال الدينية : كان العرب في القديم يعبدون الأوثان ، ويكاد يكون لكل قبيلة إله تعبد به ، فلما جاء الإسلام جمعهم على إله واحد ، هو الله سبحانه وتعالى .. لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، وبذلك كان العادات الجاهلية ، عادات إسلامية عالية ، تركى النفس وتطهر القاب ، وتجعل من الشخص العربي الذى لا يحس إلا بشخصه وقبيلته شخصا اجتماعيا ، يوثق الصلة بينه وبين بني الإنسان . وإن شئت أن تعرف ما أودعه الإسلام نفس العربي من فضائل اجتماعية ونفسية ، فاستمع إلى ما يقوله جعفر بن أبي طالب للنجاحشى : « كئنا قوما أهل « جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأثى الفواحش ، ونقطع « الأرحام ، ونسى الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكئنا على ذلك ، « حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، « وعفافه : فدعانا إلى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كئنا نعبد نحن « وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، « وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم « والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف « المحصنة ، أمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة « والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به : فعدا علينا قومنا ، فعذبونا : « وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن « نستحل ما كئنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، « وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا »

فالإسلام كما ترى كل فضائله لتربية النفس ، وتركيتها ، وجعل

العربي وكل مسلم صالحا للائتلاف مع غيره ، وبعد أن كانت كل فضائله في الجاهلية شخصية ، وجهه الأسلام إلى الفضائل الاجتماعية ؛ ليلتئم مع سواه ، وبعد أن كانت الشجاعة في المبارزة والمناضلة للمفاخرة ، صارت في الجهاد في سبيل الله لرفع كلمته ، وبعد أن كان الجود ليملأ المعطى ماضيه نفرا ، صار في إمداد المجاهدين ، وسد حاجة المعوزين ، وإعطاء السائل المحروم ابتغاء مرضاة الله ، وحنانا وعطفًا على بني الإنسان .

تغلغل الدين في كل شيء في هذا العصر ، فصاروا لا يصدرون في عمل إلا عنه ، وكانوا كلما جد شأن ، أخذوا حكمه من الدين ، إما بنص عاينه ، وإما بتأويل يرد إليه وإذا صح قول نابليون : « إن البواعث الدينية » والأيتار والتقوى ، هي التي يقوم عليها بناء الأمم » فإن نجد أدل من حال العرب على صدقها فإن الدولة الإسلامية العربية قامت بباعث من الدين الحكيم ، وتألفت بوحى الأيتار الذى أودعه الله قلوب العرب ، وحمت بالتقوى والعزيمة حتى آخر عصر الخلفاء الراشدين .

الأحوال الاجتماعية : قلنا إن الدين كان يسود في كل شيء ؛ ولذا ساد في أكثر نواحي الحياة الاجتماعية ، ومالم يسده كان واقعا تحت تأثير اجتماعي تقليدى ، تنتقل فيه الأخلاق بالعدوى ، لا بالفكر والأرادة ومهما يكن من شيء . فقد امتازت الحياة الإسلامية الأولى : في زمن النبي وأكثر زمن الخلفاء الراشدين بظواهر اجتماعية منها :

١- نحو العصبية أو سترها إلى حين : إجابة لقول النبي صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية »

« وليس منا من مات على العصبية ». ونستطيع أن نقول : إن العصبية الجاهلية اختفت في عصر الخلفاء الثلاثة الأولين خصوصاً عصر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ فإن المسلمين كانوا سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وهم جميعاً أمام حكم الله سواء لأشريف ولا وضيع في تنفيذ الأحكام ، ومما يروى في ذلك أن جبلة ابن الأيهم ، وقد كان ملكاً من ملوك الغساسنة ، وطى* إزاره رجل من فزارة ، فأنحل وفرغ جبلة يده ، وهشم أنف الفزاري ؛ فشكاه هذا إلى عمر ، فبين له عمر أن الحكم القصاص ، أو عفو الأعرابي ، فقال : كيف ذلك يا أمير المؤمنين ، وأنا ملك ، وهو سوقة ؟ فأجابه عمر : « إن الأسلام جمعك وإياه ؛ فلست تفضله بشيء* ، إلا بالتقوى والعافية » ففر جبلة إلى بلاد الروم .

اختفت العصبية ؛ نهى النبي صلى الله عليه وسلم في مثل الحديث السابق كما ذكرنا ، ولأن العرب جمعوا تحت لواء واحد في الفتح الإسلامي ، فنانست قلوبهم ، وستر عصبياتهم ، وشغفهم الجهاد عن الفخر بالآباء ، والتمسك بالأنساب

٢- وانتقال العرب من البداوة ، وتأثر الكثيرين منهم ببعض الحضارة

(١) لا اختلاطهم بغيرهم من الأمم ، فإن المدن العربية كانت تموج بعد الفتح الإسلامي بعناصر مختلفة من الأمم الأخرى ، فالكوفة التي بناها عمر للعرب ؛ ليطلوا منها على الصحراء ، كانت تموج بالموالي ، والمدينة كانت (لأنهم أقضية الدولة) مقصد ذوى الحاجات من كل الطوائف والأمم ، والغنائم بما فيها من الأسرى ، ما كانت توزع على المجاهدين

إلا في المدينة، ومكة كانت مقصد الحجاج من العرب، وغيرهم من المسلمين (ب) ولا استخدام العرب للرقائق، لما توزعوه فيثا وغنيمة، وقد كان العبيد والأماء من أمم ذوات حضارات قديمة، فآثر أولئك في البيت العربي، وأدخلوا فيه عادات لم تكن عند العرب.

(ج) ولكثرة ما أفاء الله عليهم من مال ونعم، فقد ورثوا نعيم كسرى في فارس، وفي مصر في الشام ومصر، وكانت لهم من ذلك حياة فاخرة، رقت طبائعهم، ورطبت نفوسهم، وفي الجملة تغيرت الحياة للعربية، وانتقلت من بدو جافة إلى نوع من الحضارة المترجمة بالبدو، قد سيطر عليها الدين، وعقائهم من أن تصير انهماكا في الملاذ والعبث والمجون.

الأحوال السياسية: اجتمع العرب تحت لواء واحد، لا يسيطر عليهم إلا الدين، وذهبوا إلى الممالك، فدوخوها، واستولوا عليها، وورثوا سلطان الفرس، وسلطان الروم في الشرق، وصاروا يحكم هذه الأمم، يتضافرون في إدارة شئونهم، ويتآزرون في هدايتهم، فوحدوا أمرهم، وجمعوا أشتاتهم، وجعلوا الحكم ليس مظهر العصبية، ولكن مظهرا لوحدة دينية، فالخلافة فيه لا تمثل قبيلة، ولكن تنفيذ حكم الله، والخليفة لا يحكم بسلطانه، ولكن بسلطان الله، وهم جميعا مسئولون عما يوافقون عليه، ويأثمون إذا سكتوا عن إرشاده فيما لا يوافقونه فيه من حكم. أرسلوا حكاما للأمم المفتوحة وهداة ودعاة إلى الإسلام، وهم في كل هذا لا يصدرون إلا عن الدين الجامع بينهم فالسياسة في ذلك العصر كان مصدرها الدين، وكان ذلك من أسباب وحدتهم، وتلاقيهم في جامعة الدين بعد طول افتراق، ولكن الخلافة

في آخر عصر الخلفاء الراشدين طمح إليها أقوام ، ليسوا هم الأولى ،
ونافوا ذوي الجدارة والأولوية ، بل نازعوا الخليفة الرابع بعد أن
بريع ، فكان من ذلك فتن وحروب وانقسامات ، فوق الفتن التي انتهت
بمقتل الخليفة الثالث ، وحالت الحال ، وتغيرت الأمور

٢ - روائى الخطابة وموضوعاتها في ذلك العصر

كانت دوائى الخطابة في ذلك العصر تتفق مع ما عرض لهم ، وما
سأدهم من حياة ، وما طرأ عليهم من أحوال وشئون سياسية واجتماعية .
(١) وكان بدهيا أن يكون أول الدوائى للخطابة الدعوة المحمدية
والرد عليها ، فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدين الجديد في
قوم ، القول صناعتهم ، وللبلاغة جل عنايتهم ، فنأدام بأبلغ القول ،
وخطبهم بأروع الكلام ، وخطب في مجامعهم مؤيداً رسالته ، ناشرأ
دعايته ، حتى ضاقت صدورهم عن سماع قوله ، بعد أن عجزوا عن مجادلته
ومقارعة الحجة بالحجة ، فامتشقوا الحسام ، وتكلموا باللسان بدل
اللسان ، فالخطابة كانت الأداة الأولى للدعوة المحمدية ، وكانت
السلاح الذى يرفعه خصومه في الرد عليه ، فكانت تلك الدعوة
سبباً في انتشار الخطابة ، ورفع درجة البيان . كان النبي يلقى الناس في
مواسم الحج ، وفي المجامع ، وفي المنتديات ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ويأتى
في ذلك بأبلغ الكلام . أنظر إلى خطبته الموجزة يوم صدع بأمر ربه ،
وأأذر عشيرته الأقرين ، إذ قال : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله »
« لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم »

«والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة،»
«والله لثموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالأحسان»
«إحساناً وبالشر شراً، وإنها للجنة أبداً أو النار أبداً، وإنكم لأول من»
«أنذر بين يدي عذاب شديد» .

(٢) بيان الأحكام الشرعية : لما دخل الناس في هذا الدين أفواجا

أفواجا كان النبي صلى الله عليه وسلم، يبين لهم أحكام دينهم، ويعرفهم ذلك
الشرع الشريف، وذلك الهدى القويم، ويبين تفصيل ما أجمل القرآن
الكريم، كما قال تعالى كلماته : « وأنزلنا إليك الذكر؛ لتبين للناس
«ما نزل إليهم». ويوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه، أو ما التبس من أمر
هذا الدين، وذلك البيان كان بأقوال محكمة، فيها وحى النبوة،
وقبس من نور الرحمن، وقد قال تعالى : « وما ينطق عن الهوى؛ إن
«هو إلا وحى يوحى، عامه شديد القوى». وانظر إلى خطبته عليه السلام
التي مطلعها، « أيها الناس، إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم» وخطبته
التي مطلعها « كأن الموت فيها على غير ناقد كتب» وخطبته في حجة
الوداع. انظر إلى تلك الخطب، تر فيها الترغيب مع الترهيب، والموعظة
الحسنة، والأيجاز، الذي وفى، وجمع فأوعى ... !

(٣) المشاورة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقدم على

أمر خطير استشار أصحابه، عملاً بقوله تعالى : « وشاورهم في الأمر »
وتلك الشورى تكون بخطبة قيمة، يعرض عليهم الأمر فيها، ويتعرف
رأيهم، ويأخذ بما اتفقوا عليه، ورجحوه؛ ليكون في ذلك قدوة

للمسلمين ؛ فلا يستبد بعضهم ببعض ، ولا يغالى أحدهم فى تقدير نفسه زاعماً أن رأيه إلهام بالصواب ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، إذ كان أولى البشر بذلك سيد البشر ، والى الله جعل فيه أسوة حسنة ، وليكون حجة على كل من تحذنه نفسه بذلك الطغيان .

ومما استشار فيه النبى أصحابه مسألة فداء أسرى بدر ، والخروج إلى المشركين فى غزوة أحد . وقد نهج الخلفاء الراشدون منهجه صلى الله عليه وسلم عاملين بقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » فأبو بكر كان يستشير الصحابة فى كل أمر ذى شأن ، ويتعرف رأيهم إذا التبس عليه حكم من الأحكام ، وكذلك كان عمر رضى الله عنه ، بل إنه وسع باب الشورى ؛ لما جد فى زمنه من شئون وأحداث استدعت المشاورة ، وتعرف رأى الصائب ، وسط الآراء المتبادلة وقسم شوراها قسمين : شورى خاصة ، وتلك كانت تتألف من عليه الصحابة ، المهاجرين الأولين ، والأَنْصار السابقين ، وأولئك يستشيرهم فى صغرى الأمور وكبرائها ، وشورى عامة ، وتتألف من أهل المدينة أجمعين ، يجمعهم فى المسجد ، وإذا ضاق بهم ، جمعهم خارج المدينة ، وعرض الأمر الخطير ، ورأيه فيه ، وكان سكان المدينة فى هذا يشبهون سكان أثينا ، إذ كان كل شخص له رأى فى إدارة شئون الدولة . وفى الشورى العامة تتبادل الخطب ، ويدلى كل ذى رأى برأيه ، وحجته ومن المسائل التى استشار فيها عمر سكان المدينة ، وخروجه على رأس الجيش إلى فارس ، وقد ذكر الطبرى فى ذلك ، خطب الصحابة على

وطالحة وغيرهما ، التي أبدوا فيها آراءهم ، وأدلتهم ومنها مسألة أرض
سواد العراق ، وغير هذا كثير . ونرى من ذلك كله ، كيف كانت
الشورى فى ذلك العصر ، كشائنها فى كل العصور ، محرّكة للاستنارة ،
دافعة أهل البيان إلى البيان .

(٤) الحرية الشخصية : كفّل الإسلام للعربى حريته الشخصية
بل نأماها فيه ، وسلك بها الطريق القويم ، الذى يجعل تلك الحرية مثمرة
صالحة ، ولا يجعلها داعية لتمزق الجماعة ، وذهاب ريحها ، وأفول نجمها
وقد سار الخلفاء الراشدون على سنن هذا الدين فى إحياء النخوة العربية
والمحافظة عليها . أنظر إلى العربى الذى يقول لعمر : « والله لو رأينا »
« فيك اعوجاجا لقومنا بسيفونا » فيحمد الله أن جعل فى المسلمين من
يقومه بالسيف إذا اعوج ! وانظر إلى المرأة التى تقطع على عمر خطبته
عند مادعا إلى حد المهور قاله تعالى : « وإن آتيتم إحداهن قنطارا »
« فلا تأخذوا منه شيئا . أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » فيقول أخطأ عمر
وأصابت امرأة ! انظر إلى هذين المثالين ، تر كيف كان يتمتع العربى بحرية
شخصية كاملة ! ويقول بعض الأدباء : إن الخطابة تزهو وتقوى فى كل أمة
تتمتع بالحرية الشخصية ، وكل أمة غلبت على أمرها ، وفشت فيها
المذلة ، ضعفت الخطابة فيها ، وتحولت من الحماسة إلى الضراعة ، ولذلك
امتنعت الخطابة فى العبرانيين كما نقل إلينا ، وانصرفت قرآنهم إلى نظم
المراثى والحكمة ، وتنميق الشكوى ، وتنسيق التظلم ؛ لهذا تقول : إن الحرية
التي سادت المسلمين فى صدر الإسلام كانت داعية للقول البايغ ، بحجابهون
به الخلفاء ، ولولا ما فى صدورهم منها ، ما ظهر ذلك القول ، وما تقدموا

معترضين على الخلفاء بخطب ممتازة .

(٥) الجهاد في سبيل الله : اعتمدى المشركون على المسلمين ، فأمر الله نبيه بأن يقاتل المشركين كافة ، كما يقاتلونه كافة ، فقاتلهم عليه السلام حتى صار الدين كله لله ، لا سلطان لأحد على القلوب . ومن بعده أبلى المسلمون الثابتون بلاء حسناً في قتال المرتدين ، وفي حروبهم فاتحين البلاد شرقاً وغرباً ، وكانت الخطابة ذخيرة معهم ، يحتفظ بها القواد دائماً ، ليمدوا بها الجند ، إن رأوا فيهم إعياء ، فيجعلوا من ضعفهم قوة ، ومن تقهقرهم تقدماً ، وانتصاراً . قال نابغة الحروب نابليون في بيان مقدار حاجة الجيوش إلى القوة المعنوية : « نسبة القوة الجسدية إلى القوة المعنوية في الانتصار كنسبة ١ : ٣ » وقال أحد القواد الألمان في ذلك العصر : « إنه مع التقدم الفني في العصر » الحديث ، نرى العنصر المعنوي برهن على أنه في الحاضر ، كما كان في « الغابر ، العامل الحاسم في الحرب » فالجيش من غير روح تدفمه ، كالسيف من غير مدّ تحمله ، لا يريق دماً ، ولا يدفع عادية ، ولا يغذي الروح إلا الخطابة ، وكلما كان القائد أملاً لعنان القول مع أخذ الأهمية ، كان أكثر انتصاراً ، فالجهاد في سبيل الله فتح للخطابة باباً واسعاً .

« ٦ » ولاية الأئمة : كان أولياء الأمر يعنون بأطلاع المسلمين على سياستهم ، وسنة حكمهم ، وينتھزون الجمع ، والأعياد ، والمواسم ، خصوصاً موسم الحج ، فرصة لذلك ، يبينون فيها ما يريدونه من طاعة في الحق ، وكان كل خليفة بعد تمام بيعته ، يتقدم لجماعة المسلمين ، ويبين ما سيأخذهم به ، وما يدعوهم إليه ، كذلك فعل أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وكان الولاة والعمال يسرون على ذلك النهج ، يبينون للرعية ما سيتبعونه

في حكمهم ، ويسلكونه في إرشادهم ، وفي كل ذلك إحياء للخطابة ونشر لها ، ورفع لعمدها .

«٧» الدعوة إلى الوحدة : كانت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية غرضاً مقصوداً من أغراض الخطابة ، وداعياً حافزاً من دواعيها ، فقد كانت الوسيلة لجمع المسلمين إذا تفرقوا ، بها ترجع النفوس الشاردة ، وتلتئم الجراح الناعرة ، وتهب القلوب النائرة . وقد حدث في عصر النبي صلى عليه وسلم ، ما مهد الوحدة الإسلامية ، لولا هدى المصطفى ، كما حدث في توزيع الغنائم بعد حرب هوازن ، فقد حز في نفوس الأنصار أن لم يأخذوا منها شيئاً ، وسرت القالة منهم بذلك ، فوقف عليه السلام خطيباً . ورد نفوسهم الشاردة إلى نور الحق المبين . وقد كادت تتمزق الجماعة الإسلامية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتذهب ربح المسلمين باختلافهم ، حتى كاد الأنصار يولون عليهم خليفة ، والمهاجرون مثله ، لولا حكمة أبي بكر في خطبته ، وعزيمة عمر . وكانت الخطابة هي البلسم الشافي ، والدواء الناجع ، عند ما تطيش أحلام ، وتهيج نفوس

الفتن الداخلية : لم تستمر الوحدة الإسلامية وارفة الظلال أمداً طويلاً ، فقد نبئت الفتن في عصر الخليفة الثالث ، واضطربت بهامراجل القلوب ، حتى أنتجت نتائجها ، وأثمرت ثمراتها ، وكانت أولها نفس ذلك الخليفة الشهيد ، ولم تذهب الفتن برأسه ، بل تشنعت الأحن ، واشتدت المحن من بعده ، وانقسم المسلمون في عهد الخليفة الرابع إلى أنصار له وأنصار لمخالفه ، ثم خرج من بين الصفوف بعد حرب صفين من

أنكر على الفريقين خطتهما، فكان المسامون بذلك أحزاباً ثلاثة: حزب مع أمير المؤمنين علي، وحزب مع معاوية الخارج عليه، وحزب خارج على الفريقين، وكل له أنصار من الخطباء المصاقع، يؤيد فكرته، وينصر دعوته، وعلى سيد خطباء تلك الفترة، انفتق لسانه بالبيان الرائع، والقول السائغ، والحكمة الفائقة، حتى أورث الأُخلاف طائفة من الخطب، هي نهج البيان، ومشرع الحكمة، ونور الحق، ووضح الحقيقة. وإذا كانت الخطابة قد وجدت في العصر الجاهلي حياة تناسبها لأنها وجدت العربي يحيا حياة فروسية، فقد وجدت في الحياة الإسلامية لها حياة أنسب، إذ أن العرب كونوا فيها لهم دولة تستظل بظل الدين، وتجد في الأيتار والتقوى والأيمان روحاً وقوة وتثبيتاً. وكانت تلك الدولة تنور عليها الزوابع العاتية، والريح العاصفة، فينبري الخطباء، للمناخفة والمدافعة، والمجاهدة والمصابرة وكلما اشتدت الحومة كانت الخطب نيراناً متأججة. أو برداً وسلاماً، ترد القضب إلى الأجراف، وانقلوب النافرة إلى الاطمئنان

«(٣) عوامل رقي الخطابة»

وجدت الخطابة في البيئة الإسلامية عوامل رقي، وأسباب تقدم ونمو، فقد كانت حياة العربي خصبة بالتقوى والأيتار وقوة الروح: أحس بأن ملك كسرى يتزلزل تحت سيفه، وقيصر ينكش فراراً من قوته. وذلك للدين الذي تورد على قلبه، فانه هو الذي أوجد تلك القوة التي تدكدك العروش، وتزلزل القلوب، وتجعل من ساكن الصحراء حاكماً لفارس

وملك الروم في الشرق ! وإذا كانت الخطابة كما أسلفنا ، تستمد قوتها من النفس ، فلا بد أن نذكر الأمور التي كانت في تلك الحياة ، وغذت النفوس غذاء نمت به الخطابة ، وازدهرت ، وقويت ، ونهضت ، وأعظم تلك الأمور شأنًا ، وأجاءها في حياة العرب خطرًا ، وفي الخطابه أثرًا (١) انقرآن الكريم : جاء القرآن الكريم ، فبرز النفس العربية

وأصاب شغافها ، وقد تحدى أعظم البلغاء فيهم ، أن يأتوا بسورة منه ولو مفتراة ، فعجزوا أن يأتوا . وقد قال الجاحظ في إعجازه : «بعث الله » محمدًا صلى الله عليه وسلم ، في زمن ، أكثر ما كانت العرب شاعرا » وخطيبا ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها » وأدناها إلى توحيد الله ، وتعميق رسالته ، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر » وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الأقرار الهوى والحمية ، دون الجهل » والخبرة ، حمائم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ، ونصبوا له ، وقتل » من عليتهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ، وهو في ذلك محتج عليهم بالقرآن » ويدعوهم صباحا ومساء إلى معارضته : إن كان كاذبا ، بسورة واحدة » أو بآيات يسيرة فكلما ازداد تحديا لهم بها وتقريرا بعجزهم عنها ، قالوا » أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، » قال : فها تواتوا ، ولو مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو » تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر ، لوجد من يستجيده ، ويحامي عليه ، ويكابر » فيه ، ويزعم أنه قد عارض وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع » كثرة كلامهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من » هجاه منهم ، وعارض الشعراء من أصحابه ، والخطباء من أمته ، لأن سورة »

«واحدة، وآيات يسيرة، كنت أنقض لقوله، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع»
«في تفريق أتباعه، من بذل النفوس، والخروج عن الأوطان، وإنفاق»
«الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش»
«والعرب، في الرأي والفضل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز»
«الفاجر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع»
«واللفظ المنثور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم، ومحال»
«أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغاط في الأمر الظاهر، والخطاب المكشوف»
«البين، مع التقرير بالتقصير والتوقيف على العجز، وهم أشد خلق أنفة»
«وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد أعمالهم، وقد احتاجوا إليه»
«والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل»
«المنفعة؛ وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثا وعشرين سنة، على الغاط في الأمر»
«الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه، وهم يعرفونه، ويجدون السبيل»
«وهم يبذلون أكثر منه!»^(١) «أه بتصرف قليل. وإذا كان أثر القرآن الكريم في مناوئيه، وهم قوم خصمون، هو ما علمت من تحير ودهشة وعجز، بل إعجاب بخفيه الغرض ومرض النفس بالشرك والعناد، والمخالفة، فكيف يكون أثره في الآخذين بهديه، المقتبسين من نوره؟ لقد أثر القرآن فيهم أبلغ تأثير، وأفادت الخطابة أعظم فائدة وجنت منه أكبر الثمرات، وقد كانت فائدتها من ناحيتين:-

إحداها: مما اكتسبته اللغة من القرآن الكريم - أ- فقد كسبها

(١) منقول عن الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ ص ١١٨

سعة في المعنى إذ قد أتى بمعان ، لم يتورد العرب من قبل مواردها ؛ كانوا قوماً حسنين ، ولغتهم حسية ، فجاء القرآن ، وحدث عن النفوس ، ووصفها ، فأحسن وصفها ؛ أحال نفس الضال وعلة ضلاله ، ونفس المهتدى وطريق اهتدائه ، صور تقلبات القلوب وخلجات النفوس ، وما يؤثر في المشاعر ، فدعا ذلك المسامين إلى الاعتراف من منهل العذب ، وشاعت بينهم الأقوال في الأمور المعنوية ، وسمت اللغة العربية إلى مستوى ما كان يتهيأ لها بغير القرآن الكريم . وأثر القول في الأمور المعنوية وحسن تصويرها ، في الخطابة جلي ، لا يحتاج إلى تبيان .

(ب) وقد جاء القرآن في لفظ سهل متين ، خال من الألفاظ الخشنة الجافة ، يصل إلى الأغراض من أقرب مسالكها ، فأعجب بذلك قارئوه وسامعوه ، فخاكوه في نهجه ، وإن لم يساموه في قدره ، وتهذبت به اللغة أتم تهذيب ، فسهلت عباراتها ، ورقت أساليبها ، واستأنست ألفاظها ، إذ سن لها نوعاً من التعبير لم تنهجه ، فكان فتحاً جديداً فيها بألفاظه وأساليبه ، كما كان فتحاً جديداً في العالم كله ، بهديه وتقويمه وتأديبه . وأثر ذلك في ألفاظ الخطابة واضح غير خفي .

ثانيتهما : أن الخطباء قد أخذوا ينهجون نهج القرآن الكريم في الاستدلال ، إذ وجدوا فيه أبلغ طرق الأقناع الخطابية ، فقد اجتمع في أدلة القرآن الكريم ما لا يمكن أن يجتمع في أدلة سواها ، إذ تجد فيها استقامة المعنى ؛ إذا قسمته بمقياس المنطق ، فتجد المقدمات قد تلاءمت مع نتائجها ، وتوافرت فيها شروط الإنتاج ، كما تجد فيها جمال اللفظ ، وجودة الأسلوب ، ومخاطبة الأحساس ، وإثارة الرغبة ، وقرأ قوله تعالى :

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون »
تجد الدقة المنطقية ، وجمال اللفظ ، ومخاطبة الوجدان ، وقد اجتمعت
مع حسن الأيجاز ! فتعالت كلمات الله .

وجد الخطباء في القرآن ذلك ، فوجدوا فيه معالما لطرق الاقتناع
والاستدلال ، لا يقاضيهم أجرا ، فتأثروا طريقته ، واقتبسوا من عباراته
وشاع بينهم الاقتباس منه ، حتى كان من مزايا الخطبة أن تكون مشتملة
على شيء من القرآن الكريم . قال الجاحظ : « كانوا يسمون الخطبة التي لم
» توشح بالقرآن ، وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالشوهاء » .
ففي الحق ، وجد الخطباء المثل الأعلى في الكتاب العزيز ، فتهجوا به
في الاقتناع ، وإقامة الحجة ، واقتبسوا من لفظه ، واستعانوا بروحه ،
فحيوا في بلاغتهم وخطبهم حياة جديدة

٢ — الحديث النبوي : كلام النبي صلى الله عليه وسلم هو الكلام
الذي يلي منزلة القرآن الكريم احتراماً وإجلالاً ، وقد اجتمعت فيه
فصاحة اللفظ وجودة المعنى وحسن الأداء ، بلغ من البلاغة الذروة ،
ووصل من الروعة إلى القمة ، هو جوامع الكلم ، وفيه روائع الحكم ،
هو القول الفصل ، لا فضول فيه ولا تزيد ، أخذ من القرآن ، وأوحى إليه
به الرحمن ، لكلامه جلال لا تجده في سواه ، وتحيط به هالة روحية ،
تحس منها بشعاع النبوة ، ولو أن كلامه عرض عليك منسوباً لغيره
لأنكرت النسبة ، ورددت الحق إلى نصابه ، وقد أثار ذلك روح
المعجب ، والأعجاب في أصحابه ، حتى قال له أبو بكر رضي الله عنه : « لقد »
« طفت في العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك أفن »

«أدبك؟» فقال عليه الصلاة والسلام: «أدبني ربي، فأحسن تأديبي» وقد قال الجاحظ في وصف كلامه صلى الله عليه وسلم: «هو الكلام الذي قل «عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف» «وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل (يا محمد) وما أنا من المتكلفين فكيف» «وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعبير، استعمل المبسوط في موضع «البسط، والمقصور في موضع القصر، وهر الغريب الوحشي، ورغب «عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا «بكلام حف بالعصمة، وشيد بالتأيد، ويسر بالتوفيق. وهذا الكلام الذي «ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المباشرة والخلاوة، «وبين حسن الأفهام، وقلة عدد الكلام. وهو مع استغنائه عن إعادته، «وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، «ولا بارت له حجة. ولم يقم له خصم، ولا أضمه خطيب، بل يبذ الخطب «الطوال بالكلام القصير، ولا ياتمه إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم «ولا يحتاج إلا بالصدق، ولا يطلب الفالج^(١) إلا بالحق، ولا يستعين «بالخلافة^(٢) ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يامز^(٣) ولا يبطن ولا «يعجل ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام أعم نفعاً، ولا أحسن «لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن «موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن خواه، «من كلامه صلى الله عليه وسلم» ثم قال بعد ذلك: «ولعل بعض من لم يتسع في «العلم، ولم يعرف مقادير الكلام، يظن أننا تكلفنا له من الامتداح والتشريف»

(١) الفالج . الظفر والفوز (٢) الخلافة . الخديعة في القول (٣) يلمز معناه يغتاب

«ومن التزيين والتجويد ، ما ليس عنده ، ولا يبلغ قدره كلا ! والذي حرم»
«التزييد على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج ^(١) الكذابين»
«عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه»

وقد كان للحديث أثران في الخطابة:

أحدهما من ناحية تأثيره في اللغة (١) لأن الحديث أضاف إلى اللغة ثروة من المعاني ، وثروة من الأساليب ، التي كانت تعد من النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً وابتكاراً ، مثل قوله: «حى الوطيس» ومثل قوله عليه السلام: «الضعف أمير الركب» وقوله: «مات حتف أنفه» وقوله: «هدنة على دخن» وقوله: «لا ينتطح فيه عنزان» وقوله لمن ساق إبلا بعنف، وعليها نساء: «رويدك رفقا بالقوارير» (٢) ولأن الحديث هذب اللغة تهذيباً قريباً من تهذيب القرآن ، إذ سهل ألفاظها ، ورقق أساليبها وذهب بالحوشى منها ، فكان لكل هذا أثره في الخطابة ، لأنها شعبة الأدب الأولى في ذلك العصر ، بل أعظم شعبه وأظهر مظاهره .

ثانيهما: أن كثير من الخطباء كان يربط لسانه في خطبه بشيء مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، تيمناً بقوله ، واسترواحاً للسامعين وليكسبوا كلامهم روعة ، وليستشهدوا بكلام الرسول على صحة ما يدعون ، وإذا علمت أن أكثر الخطب في ذلك العصر ، كانت تدور على مبادئ الدين قوامها ، عامت مقدار عنايتهم برواية أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستشهاد بها في خطبهم ؛ فأن الحديث إذا صح عندهم ، كان فيه فصل الخطاب ، واعتقدوا أن الخطيب بروايته

يصيب محز الصواب

(٣) الحضارة : أخذت الحضارة تغزو نفوس أولئك البدو ، ولكنها

لم تستول عليها استيلاء تاما كما علمت ، فاجتمعت فيهم قوة البدوى ونخوته
وبعض دماء الحضرى ورقته ، وقد علمت أسباب ذلك فيما بيناه ، من
من شرح أحوالهم الاجتماعية ، وأبقى أن تعرف أثر ذلك في خطبهم .
كسبتهم تلك الحضارة ، سهولة في التعبير ، لم تكن فيهم ، إذ
هذبت من طباعهم ، وقللت من جفوتهم وخشونتهم ، فلانت من غير
ضعف وابتدال عباراتهم ، كما كسبتهم سعة في الخيال ، وغزارة في المعاني
وعرفانا تاما بما تقتضيه الأحوال ، وقد كسبتهم اختلاطهم بالآثمة ، وهم
ذوو الذكاء الفطرى ، والفراسة القوية ، معرفة كثيرة بأحوال النفوس
فاستخدموا كل ذلك في خطبهم ، وبدأت غزيرة المعاني ، متنوعة الموضوعات
وافية فيما يقصد إليه الخطيب من غرض ، وما يتجه إليه من هدف ومرمى .
«٤» تكوين حكومة نظامية : كان تكوين الحكومة الإسلامية

عاملا عظيما من عوامل اتساع موضوعات الخطابة ، فقد كانت هى
أداة اتصال الحاكمين بالمحكومين ، بها اتصل الخلفاء بالشعب في خطبهم
العامة ، وبها اتصل الولاة فى الأقاليم بمن يحكمونهم ، يبين هؤلاء
وأولئك ما يريدون أن يكون المحكومون عليه ، من طاعة فى الحق ،
وإرشاد للحاكم من غير تمرد أو عصيان .

«٥» الوعظ الدينى : كان الوعظ الدينى له الشأن الأول ، لأن

الدين كان أساس وحدتهم ، وجامع كلمتهم ، ومكون دولتهم ، ولذلك
كان له الاعتبار الأول ، وقد حث الإسلام على الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، وجعله قوام هذه الأمة ، ومناط عزها ، وطريق

ارتقاؤها: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون
«عن المنكر». وقد كانت الخطبة فرضاً في الجمعة لذلك الغرض،
فكان للخطابة من ذلك المبدأ الديني السامي، مبدأ التواصي بالحق، والنهاي
عن الشر، رقى أى رقى، وسمو عظيم إذ جعلت من شعائر الدين
ومظاهره القويمة.

«٤» الألفاظ والأساليب والمعاني

١- الألفاظ. «١» صفت ألفاظ الخطابة، وسهلت، وورقت
وعذبت، وذلك لتأثرهم بالقرآن، واقتفاءهم طريقته، وسلوكهم سبيله؛
إذ رأوه المثل الأعلى للكلام، فحاكوه، وإن لم يتساموا إليه، ولأن
نفوسهم هذبت، وألان الأسلام من جفوتها، ونهته من شدتها، وبذلها
مكان القسوة رحمة، ومكان العنف رفقاً، حتى إن الرجل الذي كان
يثد ابنته، فلا ينشق قلبه لها بعطف؛ أصبح بالأسلام يسمع كلمة
الحق، فتتحدّر عبرته، وتذوب نفسه حسرات؛ وإذا رقت النفس
وسهلت، لا يصدر عنها إلا العذب السهل من الألفاظ؛ فإن الكلمات
صورة حية، للنفس التي تجيش بها، ولأن الله أورشهم ملك كسرى
وقيصر، فجاءتهم الغنائم، وأصبحوا فاكهين في نعيم، بعد أن كانوا
في شظف من العيش، وخشونة من الحياة. ولقد قال خليفة رسول
الله صلى الله عليه وسلم متنبئاً بما يكون: «والله لتألمن النوم على الصوفي»
«الأذربي، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان» وقد كان أن نال
العرب من نعيم الحياة أشطراً، بعد أن ذاقوا من الشقوة أبوساً. وتلك

الحال التي تنبأ بها ذلك الأمام العظيم ، لم تتم في ذلك العصر ، وإن أخذت خطواتها فيه .

وإذا كان العربي قد ذاق هذا النعيم ، ورأى مناظر الترف ، وعاش في مشاهد ، فلا بد أن تلين ألفاظه ، وتسهل عباراته ، لأن الألفاظ صورة لما يالفه القائل ، ويعرفه المتكلم .

«٢» ولقد ذهب من الألفاظ الغريب الحوشي ؛ لاجتماع العرب على لغة واحدة هي لغة قريش ، وذهاب اللغات الأخرى ، فلم يبق منها إلا النادر من الألفاظ والأصاليب ؛ ولأن الخطابة كان عمادها في الإسلام المؤلف المكشوف ؛ لأن الغاية كانت ، إما إفهام السنن والأحكام والشرائع ، وإما الحث على الجهاد ، وإما المشاورة وابداء الرأي والنصيحة للأمام ، وكل هذا ، يقتضى الوضوح والسهولة ، وكانوا بمقتضى تعاليم الإسلام أبعد الناس عن الأغراب والتوعر ، والتفهيق والتشادق ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ، أبغضكم إلى الثرثارون المتفهيقون ، لذلك كان المسلمون يميلون إلى التكلم في خطبتهم بكلام يشبه الكلام العادى في سهولته ، وعدم تكلفه ، لولا انسجام في التعبير ، ولولا التحميد والبسملة والثناء على النبي ، وغير ذلك من الأمور التي اختصت بها الخطبة كما سنبين إن شاء الله تعالى .

المعاني : إن المعاني الخطابية سلكت مسلكا يتفق مع الحياة الإسلامية في مظاهرها ، التي سبق بيانها ؛ إذ أن تلك الحياة هي التي وجهت الخطابة وجهتها ، وهي التي استوحت الخطابة منها معانيها .

«١» وقد كانت المعاني دينية ، فخطبتهم في الحروب ، دعوة

إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى ، وإعلاء كلمته ، ورفع دينه ، ونشر لدعوته . وخطبهم في الشورى صورة لفهمهم الدين ، كل يدلى بالرأى ويربط دعواه بالمبادئ الدينية . وخطبهم في الاجتماع والألفة . أدلتهم فيها القرآن والسنة ، والمبادئ الإسلامية المعروفة من الدين بالضرورة . وهكذا كل أغراضهم الخطابية ، الدين فيها قطب الرعى ، وعليه يدور كلامهم ، وفيه يختلفون ، وبه يتفقون ؛ وذلك لأن الدين قد تغلغل في كل مظاهر حياتهم ، كما أسلفنا لك ، وكان هو المسيطر على ضمائرهم ، والقانون الخلقى الذى إليه يحتكمون ، والشرع الذى على مقتضاه يسيرون ولأن كتاب الله وسنة رسوله ، كائنا ينبوع المعرفة الذى إليه يردون ، وعنه يصدرون ، فلم يكن لهم علم إلا علم الكتاب ، ولا معرفة إلا من سنة الرسول وهديه ، فلا عجب إذا صارت معانى الخطابة كلها دينية خالصة .

(٢) وقد كان الخطباء يسلكون فى الاستدلال الخطابى الطريق المنطقى ، والطريق الوجدانى ، وذلك لتأثرهم طريق القرآن فى الاستدلال وأخذهم من معانيه ، ونيلهم من هديه ؛ إذ كان المثال الذى يحتذونه ، والمنار الذى يهتدون به . وقرأ خطبة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة ، تر فيها الدليل المنطقى ، قد التقى مع الدليل الوجدانى ، وأحكمت الأواصر بينهما ، من غير أن يطغى أحدهما على الآخر ، وقرأ خطب عمر رضى الله عنه فى شوراه ، وخطب من يوافقونه ، أو يردون عليه ، ترا الحقائق المنطقية ، قد صيغت فى قالب دينى ينير الوجدان ، ويوقظ العاطفة ،

ويلهب الحمية ! وهكذا في كل أغراضهم البيانية ؛ لأن حماسة الدين
تجتمع مع الحقيقة ، فتتمدها بحرارة الإيمان ، ويتقظة الوجدان ، وقوة
الإنحساس

(٣) وكانت المعاني لما سبق قوة التأثير فيمن يخاطبون ، إذ
توافرت فيها شروطه ، وتكاملت أسبابه ، وهما الدقة في الفكر
والاستنباط ، وإثارة العاطفة ، وإنهاض العزيمة .

(٤) وكانت المعاني سلسلة متصلة الأجزاء ، محكمة الأواصر ،
ولم تكن منتثرة ، كما كانت في العصر الجاهلي ؛ ولعل السبب في ذلك
اجتهادهم في صوغ كلامهم صياغة استدلالية ، لينتج النتائج التي يريدونها
واتساع معلوماتهم بسبب ذلك الدين الجديد ، ووحدة الغرض الذي
جعلوه هدفاً لكلامهم ؛ يصوبونه إليه ؛ لينالوه ، وإنك لترى ذلك
الأحكام ، وهذا التماسك واضحاً في أكثر خطب ذلك العصر ، خصوصاً
خطب علي رضي الله عنه ، وأقرأ خطبته عندما استشار عمر الصحابة
في غزوه فارس بنفسه ، تر التماسك بين أجزاء القول ، وأخذ بعضه
بحجز بعض واضحاً كل الوضوح !

(٥) وعدم المبالغة والاعتراف واضح كل الوضوح في الخطابة
الإسلامية ؛ وذلك لأن الخطباء الإسلاميين من العرب الذين امتازوا
بالصراحة والصدق ، وهما صفتان تتنافيان مع المبالغة والاعتراف ، ثم هم
قد امتازوا باستقامة الفكر ، وسلامة النفس ، والاعتراف ليس إلا مظهراً
للسطو الفكري ، ومجازة حد الاعتدال البياني ، وهو من نوع التفهيق
الذي نهى الدين عنه ، ولهذا باعدوه ، وتجاووا عنه ؛ لأنه لا يتفق مع الهدى

القويم ، والسنن المستقيم

الأسلوب : إن الأسلوب الخطابي في العصر الإسلامي بلغ من الأحكام مبلغا سما عن أن يحاكيه فيه عصر من عصور اللغة ، أو ينهد إليه خطباء أي زمن سابق أو لاحق لذلك العصر .

- (١) وأول ما يلاحظه القارئ لخطب ذلك العصر أن الخطبة صارت مجزأة ومقسمة ، كل قسم يلحق سابقه ، تبتدىء بقائمة فيها يحمد الخطيب الله سبحانه وتعالى ، ويثني عليه بما هو أهله ، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يهجم على الموضوع ، فيقدم ما يراه دليلا لدعواه ، وبرهانا لما يراه ، وبعد أن يتم القول فيه ، ويوفى على الغرض يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى ، يدعو أن يوفقه إلى الرشاد ، ويلهمه السداد ، وللبعض الخطباء صيغة دعاء يختتم بها قوله . قال ابن عبدربه : « كان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من » خطبته : اللهم ، اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير « أيامى يوم ألقاك . وكان آخر كلام عمر الذى إذا تكلم به عرف أنه » فرغ من خطبته : اللهم ، لا تدعنى فى غمرة ، ولا تجمعانى من الغافلين »
- (٢) وقد أكثر الخطباء من الاقتباس من القرآن الكريم ، والاستشهاد به ، والاستدلال بالأثوار عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يعمدون إلى الحديث ، فينهلون من نبعه ، ويتجهون إلى الآية القرآنية ويرطبون بها كلامهم ، فيكون فيها فصل الخطاب ، وقطع كل جواب واعتراض ، وإذا علمت أن كل معانيهم دينية ، علمت مقدار قوة الحديث الشريف والقرآن الكريم فى استدلالهم ، وفصاحتهم فى خصوماتهم

ففيهما فيصل التفرقة بين الحق والباطل ، وصحيح الآراء وسقيهما .
 وفوق ذلك ، فالكتاب الكريم ، والحديث الشريف ، فيهما من البلاغة
 والفصاحة والروعة واللفظ الجزل والالءلوب الرائع ، والمحكم من
 المعاني ما علمت ، فاتجهوا إلى الاقتباس منهما ؛ ليكسبوا كلامهم طلاوة
 وليعطوه حلاوة ، وليقبسوا من القرآن والحديث قوة في التأثير ، ورتيناً
 في الآذان ، ورهبة في القلوب ، وجلالاً في الأنفس ، وبهجة في
 المشاعر ، وقد تعلقو الآية القرآنية بالخطبة فترفعها إلى الذروة من البيان
 والقمة من قوة التأثير ، وبلوغ المقصد من أقصر طريق ، وأقرب مهيع ،
 ولذا أكثر الخطباء من الاستشهاد بالقرآن والحديث ، حتى صار ذلك
 عرفاً شائعاً ، وقد نقننا آنفاً عن الجاحظ ما حكى من أن الخطبة تسمى
 شوهاء ، إذا لم تجمل بآية من كتاب الله تعالى . وقال في مقام آخر
 « كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل ، وفي الكلام ، »
 « يوم الجمع آى من القرآن ؛ فأ ن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار »
 « والركة وحسن الموقع » .

وفوق أنهم كانوا يستشهدون ، ويقبسون من القرآن ، والسنة قد
 أخذوا يحاكونهما في مناهجها الكلامية ، ويسرون سيرهما من غير تسام
 إلى منزلتهما البلاغية ، وذلك طبعى ، فأ ن الانسان إذا وجد أمامه مثلاً
 كاملاً ، اجتهد في محاكاته ، وإن لم يبلغ مبلغه ، ولم يصل شأوه
 (٣) وقد تجمل الخطب أحياناً بأبيات من الشعر تناسب المقام ، وتتصل
 بالموضوع ، كما فعل أبو بكر رضى الله عنه في خطبته في الأنصار ، إذ
 قال : « يا معشر الأنصار ، لو شئتم أن تقولوا : إنا آ ويناكم في ظلالنا ، »

« وشاطر ناكم في أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، لقلتم ؛ وإن لكم من »
« الفضل مالا يحصيه العدد ، وإن طال به الأمد ؛ فنحن وأنتم كما قال »
« طفيل الغنوى يشكر جعفرًا :

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا تلاقى الذي يلقون منا مللت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفأت وأظلت

(٤) عدم التكلف : وكانوا لا يعمدون في خطبهم إلى التحسين
والتزيين ، ولا يكاد يمتاز كثير من خطبهم عن لغة التخاطب ، إلا بهذه
العناية التي يقصد إليها الأئسان عند ما يريد اجتذاب السامعين إلى
فكرة أو مذهب أو رأى ، ولم يكن الذوق العام الأديبي في ذلك العصر
يجيز تكلف التحسين ، ويروى أن الأحنف بن قيس وفد على سيدنا
عمر ، فتكلم بكلام خلاب ذهب فيه كل مذهب ، فكان جزاؤه عنده
أن حبسه عن الرجوع إلى بلده حولا وبضعة أشهر ، ثم دعاه إليه
وقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذرنا كل منافع صنع اللسان »
« وإني خفتك ، فاحتبستك ، فلم يبلغني عنك إلا خيرا . وللرغبة في
عدم التكلف والتزيين نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التشادق ،
والتفيهق ، وسجع الكهان

(٥) وقد قل السجع في ذلك العصر ؛ لأن النفس العربية الالامية
كما بينا كانت تميل إلى عدم التكلف والصنعة . وزاد الخطباء ابتعادا عن
السجع نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سجع الكهان ، فقد جاء في البيان
والتبيين للجاحظ : « قالوا : فقد قيل للذي قال يا رسول الله : أرايت من »

« لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهبل ؛ أليس مثل ذلك يطل . فقال »
« رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الكهان . » وقد كان السبب
في نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا النوع من السجع فوق أنه تكلف
ما ذكره الجاحظ في قوله : « إن كهان العرب كان أكثر أهل الجاهلية »
« يتحاكون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم »
« رثيلاً ، من الجن ... قالوا فوق النهى في ذلك ؛ لقرب عهدهم بالجاهلية »
« ولبقيتها فيهم ، وفي صدور كثير منهم ؛ فلما زالت العلة زال التحريم »
هذا وقد رأينا في نهج البلاغة المنسوب إلى علي رضي الله عنه سجعاً
كثيراً ؛ فشك كثير من الأدباء في نسبته إلى علي ، إذ رأى الخطب ذات
السجع الكثير المشتمل عليها ذلك الكتاب لا تتفق مع المعروف من عدم
التكلف في ذلك العصر ، وعدم القصد إلى تحسين الكلام تحسيناً متكلفاً كما
لا يتفق مع ما عرف عنهم من قلة السجع في خطبهم ؛ وعاب بعض الأدباء
المتعصبين على علي كرم الله وجهه ذلك السجع ؛ للاتقاص من فضله ، وقد رد
عليهم ابن أبي الحديد في شرحه نهج البلاغة ، فقد جاء فيه : « فأما قولهم إن »
« السجع يدل على التكلف فإن المذموم هو التكلف الذي تظاهر سماجته »
« وثقله للسامعين . فاما التكلف المستحسن ، فأى عيب فيه ؛ ألا ترى »
« أن الشعر نفسه ، لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن ، وليس لطاعن »
« أن يطعن فيه بذلك .. وقد بينا أن كثيراً من كلامه (صلى الله عليه وسلم) »
« مسجوع ، وذكرنا خطبته (خطبة الوداع) ، ومن كلامه عليه »
« السلام المسجوع خبر ابن مسعود ، رحمه الله تعالى ؛ قال قال رسول »
« الله صلى الله عليه وسلم وآله : استحيوا من الله حق الحياء ؛ فقلنا إنا »

« لنستحيي يا رسول الله من الله تعالى ، فقال : ليس ذلك ما أمرتكم به ، »
« وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى »
« وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا . »
« ومن كلامه المشهور لما قدم المدينة عليه السلام أول قدومه إليها : »
« أيها الناس أفسحوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا »
« بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام . » ونحن نوافقه في أن السجع
القبيح ما كان التكلف فيه واضحا تظهر سماعته ، ولكن نخالفه في أن
كثيراً من كلام الرسول صلى الله عليه كان مسجوعاً ؛ فإن ذلك هو
القليل ؛ إذ أن خطبه صلى الله عليه وسلم بين أيدينا وأحاديثه ، قد جمعتها
كتب السنة الصحيحة ، فهل يستطيع أحد أن يدعى أن السجع يصل
في كلامه عليه السلام إلى عشرة ؛ حتى يصح أن يقال إن السجع كان
كثيراً ، بل الاثرب والأكثر عجباً أن يقول ابن أبي الحديد
« إنه في أكثر خطبه صلى الله عليه وسلم »

فإن الحق انذى أجمع عليه مؤرخو الآداب أن السجع قليل في
خطب ذلك العصر ، وأن تلك القلة واضحة في خطب النبي عليه السلام
وفي كلامه ، والحكم الذي لا ترد حكومته هو الرجوع إلى ما أثر
عنه عليه السلام ، والموازنة بين مقدار المسجوع وغير المسجوع ، فسنجد
حتماً أن المسجوع قل ، والكثرة غير مسجوعة .

طول الخطب وقصرها : أكثر الخطب المروية عن هذا العصر
قصير لا طويل ، فيه الأيجاز أظهر من الأطناب ، ولعل هذا الموجز
جزء من خطبة طويلة حفظ هذا الجزء ، وتبعثر الباقي في الاسماع ، ولعل

الموجز من الخطب هو الذي استطاع أن يحفظه الراوى ، لسهولة حفظه وجودته أكثر من سواء ؛ لأن رواية الخطب في هذا العصر كسابقه ، كان المعول فيها على الرواية السماعية ، لا على الكتابة ؛ إذ لم تكن الكتابة قد انتشرت ، ولأن الخطباء لم يعمدوا إلى كتابة خطبهم ، ولم يعمد الناس إلى كتابتها ؛ لعدم اعتيادهم ذلك ، ومع هذا ففي المروى خطب طويلة كخطبة حجة الوداع المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكثير من خطب على رضى الله عنه التي صحت نسبتها إليه ، وكبعض خطب سيدنا عثمان رضى الله عنه عندما اندلعت نيران الفتنة واشتدت ، وخطب سيدنا عمر رضى الله عنه في بعض شوره ، كخطبته في أرض سواد العراق وكل هذا يثبت أن الخطب في ذلك العصر فيها القصير ، وفيها الطويل وقد كانوا يضعون الأمور في مواضعها ، فلا يطيلون في غير مواضع الطول ، ولا يوجزون في غير مواضع الأيجاز ، وهم في الحقيقة أميل إلى الأيجاز ، أخذا بأهداب الدين ، وتمسكا بأوامره ، ولا يطيلون إلا عندما تضطرم الحاجة إلى الأطالة ، ويحملهم الموضوع والمقام على الأطناب ؛ فيطنبون غير مختارين ، لأنهم كانوا يخشون أن يكون التطويل من باب احتياز المجالس ، والتشادق ، والتفيهق والثثرة المنهى عنها ، ولأن الإنسان كلما كثر لفظه كثرت سقطه ، فيخافون السقط لأنهم ذوو القلوب النيرة ، والنفوس المطمئنة ، يروى أن عمار بن ياسر تكلم يوماً ، فأوجز ، فقليل له لو زدتنا ، فقال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطالة الصلاة ، وفصر الخطبة ، وورد في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام : « إذا وعظت جندك ، »

« فأوجز ؛ فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً ». وسنأتى لك فى المختار
بصورتى الموجز والمطنب معاً

«٥» الخطيب فى صدر الأسلام

(١) اتصف الخطيب الأسلامى بما اتصف به الخطيب الجاهلى
من فصاحة بيان ، وجودة نطق ، وسداد رأى ، ومراعاة لمقتضى الحال
وسمت ووقار ، وقوة شخصية ونفوذ وقوة نفس ، وقد كمل الأسلام
هذه الصفات فيه ، وزاده أخرى ، فالخلفاء الراشدون ، ومن لهم بهم
شبه فى الدين والأيمان ، فيهم قوة النفس وقوة الروح بمقادير لا توزن
بها أقدار الجاهليين ، وحسبك أن تعلم أن قوة نفس أبى بكر رضى الله عنه ،
ونفوذه الشخصى ، وما وهبه الله من قوة تأثير هى التى جمعت الوحدة
الأسلامية إذ شارفت التمزق ، وقد كان عمر لا يسير الشيطان فى طريق ،
يسير هو فيه كما جاء فى الأثر ؛ لمهابة ، وقوة نفسه ، وعظم روحه ، حكم
العرب بالهيبة والدين ، وردعهم بنفسه من غير سيف ، ولا ما يشبه السيف ،
كان إذا لاحظ على أحد أمراً ضربه بدرته ، فتفعل فى نفسه مالا يفعله
السيف فى الجسم ، والمهابة على ما ينأى أعظم ما يعاون الخطب على اجتذاب
النفوس إليه

(٢) وقد زادوا بالأسلام علماً ، إذ وجدوا فى القرآن ينبوعاً علمياً
لا ينضب ، ووجدوا فى السنة معينا فكريا لا يجف ، واختلاطهم
بالناس زادهم علماً بأحوال النفوس ، وخبرة بمواضع التأثير ، فعلم
٩م - تاريخ الخطابة

الخطيب الصحابي أغزر من علم الخطيب الجاهلي ، وفكره أوسع ، ونظره أشمل وأعم ، وشتان بين هدى الجاهلية ، وهدى الرحمن ، وشتان بين عابد الأوثان ، والخاضع للديان .

(٣) والخطيب الأسلامي قريب إلى النفوس ، غير بعيد عنها ، لأن أولئك القادة والصفوة المختارة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، كانوا يحبون الله ويحبهم ، وكانوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، ومن أحبه الله ألقى عليه محبة الناس ، ومن تواضع مع المهابة وقوة النفس أحبه الناس ، وهابوه ؛ فيكون تأثيره فيهم أشد ، وقوله أروع (٤) وكان الخطيب الأسلامي تهذيب الدين له ، ومخالطة بشاشة الأيمان لنفسه ، حلما واسع الصدر ؛ لا يضيق صدره بالحق حرجا ؛ فلا يمتنع عن أخذ الحقيقة من أي قبيل ، ولا يجد غضاظة في الرجوع إلى الحق إن وقع في الباطل ، ومن كان شأنه كذلك اتصل كلامه بالقلوب ودخل على العواطف ، لأن الناس يثقون من أنه لا ينطق إلا بما يجيش به صدره ، وما يراه الحق ، فيصدقونه ، إذ خلا عن شبهة التكلف والرياء ، وعن تهمة الملق والنفاق .

(٥) كان الخطباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم قد اشتهروا بحبهم للقاء ، فدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم وآثروه على كل عرض من أعراض الحياة ، ورغبة من رغبات النفوس قد أحبوا الله ورسوله أكثر من أنفسهم ، وارتفعت أرواحهم في سبيل الله تعالى ، وليس منهم إلا كل ندب محتسب نفسه لله ورسوله كانوا كذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا كذلك من بعده

ومن كان شأنه كذلك ، وثقت به القلوب ، وتعلقت به النفوس ، والثقة
بالخطيب تسهل وصول كلامه إلى مواضع التأثير في السامعين ، فيصل
كلامه إلى شغاف القلوب ، ويفتح مغلقها
والقول الجملي : إن الخطيب الأسلامي قد ادرع بصفات ترفعه إلى
أسمى منازل خطباء العالم في كل العصور

«٦» الخطباء والمروى من الخطب

كثر عدد الخطباء النابغين في هذا العصر كثرة لا تعدلها كثرة في
أى عصر من عصور الخطابة ، وإمامهم سيد المتكاملين محمد صلى الله
عليه وسلم ، ودونه منزلة أفواج من الخطباء ، أولهم على بن طالب ، ثم
أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعبد الله بن عباس ، ويلى هؤلاء كثيرون
منهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، ومن خطباء الشيعة صعصعة بن
صوحان ، وأبو الأسود ، ومن خطباء الخوارج عبد الله بن وهب
الراسي ، ويزيد بن عاصم المحاربي وغيرهم ، وقد توج هذا العصر بوجود
عدد عظيم من النساء يجلن الخطبة والبيان ، منهن السيدة أم المؤمنين عائشة
رضي الله عنها ، وسودة بنت عمار ، وأم الخير بنت الحريش ، والزرقاء
بنت عدى ، وأم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما ، وغيرهن كثير
ولم يكن المروى بمقدار كثرة الخطباء ، وإن كان كثيرا في ذاته ؛
وذلك لأن التعويل في الرواية كان على السماع ، وقد يتبعثر في الآذان
ما يعول فيه على السماع ، ولا يصل إلى الأجيال ، وهذه خطبة الوداع

مع الحاجة إلى روايتها ؛ لما اشتملت عليه من الشرائع والأحكام قد رويت بعدة روايات، اختلفت فيها بعض الألفاظ ، وإذا كان ذلك هو الشأن في المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مع منزلة كلامه الشرعية والبلاغية ، وله من الاعتبار والتقدير ما نعلم ، فكيف يكون الشأن في كلام غيره ، ممن لا يتسأى إلى منزلته صلى الله عليه وسلم بيانا واعتبارا

٧- المختار من خطب هذا العصر

١- خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في الأنصار

لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مغام حنين قريشاً والقبائل العربية ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، حزنوا في أنفسهم ، وظنوا أنهم هانوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه ، فدخل عليه صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة . فقال له : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ؛ لما صنعت في هذا الفى الذى أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحى من الأنصار شئ . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي قال : فاجمع لى قومك في الحظيرة ^(١) تخرج سعد ، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين ، فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون ، فردهم ، فلما اجتمعوا إليه ، أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ،

(١) أرض عليها سور . وكانت حظيرة الانصار بجوار مسجد الرسول

صلى الله عليه وسلم

فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، وأثنى عليه بالذي هو له أهله ،
ثم قال : يا معشر الأنصار ، ما قاله ^(١) قد بلغتني عنكم ، وموجدة وجدتموها
في أنفسكم . ! ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة ^(٢) فأغناكم الله ؟ وأعداء
فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، لله ولرسوله المن والفضل فقال : ألا
تجيبوني يا معشر الأنصار ! . قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله
ورسوله المن والفضل ، قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، فصدقتم ، ولصدقتم
أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا
فآسيناك . وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة ^(٣) ، من الدنيا
تألفت بها قوما : ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون يا معشر
الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم
فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك
الناس شعبا ، وسلك الأنصار شعبا ^(٤) لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ،
ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى
أخضلوا ^(٥) لحامهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا
ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) القالة حديث الشر (٢) عالة جمع عائل وهو الكثير العيال قليل المال

(٣) اللعاعة البقية اليسيرة (٤) الشعب الطريق بين الجبلين (٥) أخضل لحيته بلها

٢- خطبة الوداع

ان الحمد لله فحمده ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من
شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن
يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن
محمدا عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعة
الله ، واستفتح بالذي هو خير

أما بعد . أيها الناس ، اسمعوا مني أبين لكم ، فأنى لأدري ، لعل
لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في موقفي هذا . أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم
حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ،
في بلدكم هذا . ألا هل بلغت . اللهم : أشهد فمن كانت عنده أمانة ،
فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع ^(١) وأول ربا
أبدأ به ربا عبي العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ،
وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن
مآثر ^(٢) الجاهلية موضوعة ، غير السدانة ، والسقاية . والعمد قود ^(٣)
وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر . وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من
أهل الجاهلية

أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ،

(١) موضوع يعني ساقط ، فلا يؤدي الزائد عن رأس المال لأن الربا
معناه الزيادة (٢) المآثر جمع مأثرة ومآثر الجاهلية مفاخرها التي تؤثروا بروي
حديثها وخبرها (٣) القود قتل النفس بالنفس

ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك ، مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ، إنما النسيء^(١) زيادة في الكفر ، يضلل به الذين كفروا يخلونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليوطئوا^(٢) عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات : واحد فرد ، واثنا عشر زوجة ، والمحرّم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألاهل بلغت اللهم ، أشهد

أيها الناس ، إن للنساء عليكم حقاً ، وإن لكم عليهن حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تکرهونه بيوتكم إلا بأذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فأنفعان ، فأن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن^(٣) وتهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فأن اتهمين ، وأطعنكم ، فعليكم رزقهن ، وكسوتهن بالمعروف ، وإنا النساء عندكم عوان^(٤) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتوهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً .

أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألاهل باغت ؟ اللهم أشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض ، فأنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن

(١) النسيء شهر كانت العرب تزيده لتفصل بين شهرى الحرم ذى الحجة والحرم بشهر حلال (٢) ليوافقوا (٣) المراد بالعضل هنا المنع الشديد (٤) العوانى جمع طانية والمعنى أسيرة

تصلوا، كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم، أشهد. أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم؛ وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب. أيها الناس إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز وصية في أكثر من الثالث والولد للفراش، وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله.

(٣) خطبته ﷺ في مرض الموت

عن الفضل بن عباس قال: جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت إليه، فوجدته موعو كاً قد عصب رأسه، فقال: خذي يدي يا فضل، فأخذت يده، حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد في الناس، فاجتمعوا إليه، فقال: أما بعد. فأني أيها الناس، أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو: وإنه قد دنا مني خفوق^(١) من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري، فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً، فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالا، فهذا مالي، فليأخذ منه، ولا يحش الشحاء من قبلي، فأنا لست من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقاً إن كان له، أو حللني؛ فلقيت ربي وأنا طيب النفس، وقد أرى

(١) الخفوق هنا الغياب

أن هذا غير مفن عنى ، حتى أقوم فيكم مرارا

(٤) خطبة سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة

يبين حق الأنصار في الخلافة

قال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه : يا معشر الأنصار ، لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن محمدا عليه الصلاة والسلام ، لبث بضع عشرة سنة في قومه ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن من قومه ، إلا رجال قليل وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ، ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والأعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد على عدوه من غيركم ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا أو كرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا^(١) حتى أثخن^(٢) الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيا فكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ، وبكم قرير عين ، استبدوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس .

(١) الداخر الدليل (٢) أثخن المراد بها هنا أخضع

٥- خطبة أبي بكر في السقيفة

يبين حق المهاجرين

أراد عمر الكلام فقال أبو بكر: على رسلك ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: نحن المهاجرون، أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في انقرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: «والسابقون الأولون من المهاجرين» «والأولون» نصار والذين اتبعوهم بأحسان، فنحن المهاجرون، وأنتم الأولون نصار إخواننا في الدين، وشركاؤنا في النبي، وأنصارنا على العدو، آويتم، وواسيتم، فجزاكم الله خيراً، فنحن الأول مرء، وأنتم الوزراء؛ لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحكم الله من فضله

٦- خطبة له رضى الله عنه

حين أشير عليه بترك المرتدين

أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، أيها الناس، أن أكثر أعدائكم، وقل عددكم، ركب الشيطان منكم هذا المركب. والله ليظهرن هذا الدين على الأديان كلها، ولو كره المذمركون؛ قوله الحق، ووعد الصديق: «بل نقذف» «بالحق على الباطل، فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون» «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين»

أيها الناس، والله لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده ،
حتى أبلغ من نفسي عذرا ، أو أقتل مقتلا ، أيها الناس والله لو منعوني
عقالا لجاهدتهم عليه ، واستعنت بالله ، إنه خير معين

٧- خطبة لسيدنا عمر رضي الله عنه

خطب عمر بعد توليه الأمر فقال : إن الله عز وجل قد ولاني
أمركم ، وقد علمت أنفع ما يحضركم لكم ، وإني أسأل الله أن
يعينني عليه ، وأن يحرمني عنده ، كما حرسني عند غيره ، وأن يلهمني
العدل في قسمكم كذاي أمرني به . وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف ، إلا
ما أعان الله عز وجل ، وإن يغير الذي وليت من خلافتكم من خاقي شيئا
إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل ، وليس للعباد منها شيء ، فلا
يقولن أحد منكم : إن عمر تغير منذ ولي ، أعقل الحق من نفسي ،
وأتقدم وأبين لكم أمري ؛ فأما رجل كانت له حاجة ، أو ظلم مظلمة
أو عتب تأينا في خاق ، فأيؤذني ؛ فأما نارجل منكم فعليكم بتقوى
الله في سركم وعلا نيتكم ، وحرمانكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من
أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا إلى ؛ فإنه ليس بيني
وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ، عزيز على
عنتكم . وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله ، وأهل بلد لا زرع فيه
ولا دمرع ، إلا ماجاء الله به إليه ؛ وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة
كثيرة ، وأنا مسئول عن أمتي وما أنا فيه ، ومطلع على ما يحضركم
بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ، ولا أستطيع ما بعد منه إلا

بالأمانة وأهل النصيح منكم للعامة ، ولست أجمل أمانتي إلى أحد
سواهم إن شاء الله .

٨- خطبة له أخرى

أيها الناس ، من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أبي بن كعب
ومن أراد أن يسأل عن الفرائض ، فليأت زيد ثابت ، ومن أراد أن
يسأل عن الفقه ، فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال
فليأتني ، فإن الله جعلني خازنًا وقاسمًا . إني بادئ بأزواج رسول الله
ﷺ فمطيئهن ، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم
أنا وأصحابي ، ثم بالأَنْصار الذين تبوءوا الدار والأيمان من قباهم ، ثم
من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء ، ومن أبطأ عن الهجرة ،
أبطأ عنه العطاء ، فلا يلو من رجل إلا مناخ راحلته . إني قد بقيت
فيكم بعد صاحبي ، فابتليت بكم ، وابتليت بي ، وإني لن يحضرني من
أمركم شيء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة : فائز أحسنوا الحسن
إليهم ، واثن أساءوا لأن نكن بهم .

(٩) خطب عثمان وطالعه وعلى عندما استشار عمر المسلمين

في خروجه على رأس الجيش إلى فارس

جاء في تاريخ الطبري وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أن
عمر رضي الله عنه استشار المسلمين لما أراد أن يخرج إلى العجم وجيوش
كسرى ، وهي مجتمعة بنهاوند

خطبة عثمان : فقام عثمان فتشهد وقال : أرى يا أمير المؤمنين أن

تكتب إلى أهل الشام ؛ فيسيروا من شامهم ، وتكتب إلى أهل اليمن ؛ فيسيروا من بينهم ، ثم أسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصريين البصرة والكوفة ، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين ؛ فأنت إذا سرت بمن معك ، ومن عندك ، تكن في نفسك بالكائر من عدد القوم وكنت أعززا وأكثر . إنك لا تستبقى من نفسك بعد اليوم باقية ، ولا تمتع من الدنيا بعزير ، ولا تكون منها في حرز حرير . إن هذا اليوم له ما بعده ؛ فاشهده بنفسك ورأيك وأعوانك ، ولا تغب عنه .

خطبة طلحة : ثم قام طلحة فقال : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فقد أحكمتك الأمور ، وعجمتك البلايا ، وحنكتك التجارب ، وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا تنبو في يديك ، ولا نكل أمرنا إلا إليك فأمرنا نجب ، وادعنا نطع ، واحملنا نركب ، وقدنا نقد ؛ فأنت ولي هذا الأمر ، وقد بلوت ، وجربت ، واختبرت ، فلم ينكشف شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار .

خطبة علي : ثم قام علي ، فقال : أما بعد ، فإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ؛ إنما هو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعزه وأمدّه بالملائكة حتى بلغ ما بلغ . فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده . وإن مكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه ، ويمسكه ، فإن انحل تفرق ما فيه ، وذهب ، ثم لم يجمع بحذافيره أبدا . والعرب اليوم ، وإن كانوا قليلا ، فأنهم كثير بالأسلام ؛ أقم مكانك ، واكتب إلى أهل الكوفة ؛ فأنهم أعلام العرب ورؤساؤهم ولي شخص منهم الثلثان وليقم الثالث ، واكتب إلى أهل البصرة أن

يمدوهم ببعض من عندهم ؛ ولا تشخص الشام ولا اليمن ؛ إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم ، سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريهم ؛ ومتى شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها وأطرافها ، حتى يكون مائدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات . إن الأعاجم أن ينظروا إليك غدا ، قالوا هذا أمير العرب وأصلهم ، فكان أشد لكلبهم عليك . وأما ما ذكرت من مسير القوم ، فإن الله أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره . وأما ما ذكرت من عددهم فأنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ؛ وإنما كنا نقاتل بالصبر والنصر^(١) فقال عمر : أجل هذا الرأي ؛ وقد كنت أحب أن أتابع عليه

(١٠) خطبه لسيدنا عثمان رضى الله عنه

خطب سيدنا عثمان رضى الله عنه عندما عاب حكمة بعض الناس ، وجاءوه منتظمين شاكين ؛ فقال بعد أن حمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله أما بعد ، أيها الناس ، فو الله ما عاب من عاب منكم شيئا أجهله ، وما جئت شيئا ، إلا وأنا أعرفه ، ولكن متنى نفسى ، وكذبتنى ، وضل عنى رشدى .

ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من زل فليتب ، ومن « أخطأ فليتب ، ولا يتمادى فى الهاكمة ؛ إن من تتمادى فى الجور ، « كان أبعد من الطريق » فأنا أول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت ، وأنوب إليه ، فتلى نزع وتاب ، فأذا نزلت فليأتنى أشرافكم ، فليرونى

(١) تقدمت هذه الخطبة فى القسم الاول من الكتاب بروايه أخرى

رأيهم ، فوالله لئن ردني الحق عبدا ، لاستنن بسنة العبد ، ولا ذل العبد ، ولا كون كالمقوق ، إن ملك صبر ، وإن عتق شكر ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إلى ، لئن أبت يميني ، لتتابعني شمالي . فرق له الناس ، وبكى بعضهم (١١) خطبة لعلي في الحث على القتال

خطب على ليلة التقى جيشه بجيش معاوية في صفين ، فقال : الحمد الذي لا يبرم ما نتض ، ولا ينقض ما أبرم ، لو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ، ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر في شيء من أمره ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله ، وقد ساقتنا وهو لاء القوم الاقدار ، حتى لفت بيننا في هذا الموضع ، ونحن من ربنا برأى ومسمع ، ولو شاء لعجل النعمة ، ولكان منه النصر حتى يكذب الله الظالم ، ويعلم الحق ، أين مصيره ؛ ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، والآخرة دار الجزاء والقرار « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا » بالحسنى « ألا إنكم لاقوا العدو غدا إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيام وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله الصبر والنصر ، والقوم بالجد والحزم ، وكونوا صادقين ^(١) »

(١٢) خطبة أم الخير بنت الحريش

جاء في العقد الفريد أن أم الخير بنت الحريش البارقية خطبت في صفين تحرض جند علي على قتال معاوية ، فقالت : أيها الناس ، اتقوا

(١) قد تقدم كثير من خطب علي في القسم الاول من هذا الكتاب فارجع اليه فهو مما يصور الخطابة في صدر الاسلام

ربكم ؛ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، إن الله قد أوضح الحق ، وأبان
الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ،
ولا سوداء مدلهمة ، فألى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفرارا عن أمير
المؤمنين ! أم فرارا من الزحف ! أم رغبة عن الإسلام ! أم ارتدادا
عن الحق ! أما سمعتم الله عز وجل يقول : ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين
منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي
تقول : اللهم ، قد عيل الصبر ^(١) ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ،
وبيدك يارب ، أزمة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب
على الهدى . واردد الحق إلى أهله . هلمو رحمكم الله إلى الأمام العادل
الرضى التقي ، والصديق الأكبر ؛ إنها إحن بدرية ^(٢) ، وأحقاد
جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثببها معاوية حين الفقه ؛ ليدرك بها ثارات
عبد شمس . ثم قالت : قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلمهم
ينتهون ؛ صبرا معشر المهاجرين والأَنْصار ؛ قاتلوا على بصيرة من
ربكم ، وثبات من دينكم ؛ وكانى بكم قد لقيتم أهل الشام كحمر
مستنفرة فرت من قسوره لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض : ^(٣)
باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعماقيل ليصبحن تادمين
حتى تحل بهم الندامة ؛ فيطلبون الأقالة ، ولات حين مناص ، إنه والله من
ضل عن الحق وقع في الباطل ، ومن لم يسكن الجنة ذهب إلى النار ؛ ثم
قالت : قد اجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(١) يقال عال الشيء فلانا غلبه فعيل الصبر معناه غلت (٢) الاحنة الحقد
وجمعها احن (٣) الفج الطريق الواسع :

الخطابة في العصر الاموى

تمهيد ١- هذا العصر هو ثمرة الأحداث التي حدثت في آخر عصر الخليفة الثالث ، وطول مدة الخليفة الرابع ، أو إن شئت فقل إنه امتداد لبعض الحوادث التي كانت في عصر علي ، أو صدى لما كان فيها ، فالدعوة إلى الأخذ بدم عثمان كانت هي الفكرة التي ثبتت منها السلطان للأُموية ، واستمر نحو تسعين سنة وسط السيوف ، والرماح المشروعة ، والدم المهرق ، ولم يسكن الناس لها إلا بعد أن سفكت دماء ، وهتك الحُجى ، فقد أبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية ، وقتل الحسين قتلة فاجرة ، وكان بعد ذلك ما كان من خروج ابن الزبير ، واتساع سلطانه ، ثم استقامة الأمر لعبد الملك بن مروان بعد أن خاض في الدماء خوفاً ، ومرج فيها مرجاً . والخوارج الذين ظهروا في عهد علي رضي الله عنه ، تقام خطبهم ، واشتد أمرهم في ذلك العصر ، وكانوا شوكة حادة في جنب الولة الأُموية ، تمنعها من أن تتقلب في أعطاف النعيم الهادي الساكن ، وأن تستبغ لذة الملك صافية من غير أن ترنق بما يكدرها . والشيعية الذين ظهروا في آخر عصر عثمان رضي الله عنه قد اتسعت مذاهبهم ، وكثرت دعاويهم ، وتفرقوا فرقا ونحلاً مختلفة ، وكانوا أحياناً يرفعون السيف ، ويدفعون أحد أولاد علي إلى الانقراض فيذهب دمه على شفرات سيوف بني أمية ، كما فعلوا يزيد بن علي ، وأحياناً يسكنون ، وينشرون بين الناس أفكاراً ليست من الدين في

١١م - تاريخ الخطابة

شيء ، ومنها ما ينقض مبادئ الدين ، ويذهب بقوته

(٢) وقد كان الصحابة الذين عاشوا في ذلك العصر ، ونقلوا إلى الناس صورة للسلف الصالح ، أهل السبق والإيمان ، كابن عباس ، وأنس ابن مالك خادم رسول الله ﷺ ، والتابعون الذين شافهموا عليه الصحابة ونقلوا عنهم - كان هؤلاء وأولئك رابطة اتصال بين ذلك العصر وماسبقه فكان متصلا به ، وإن لم يكن مثله قوة دين ، وثبات يقين ، وأخذا بالسنن القويم ، والهدى الحكيم

(٣) وفي هذا العصر لم يفن العرب في غيرهم ، ولم تلاشهم المدينيات والحضارات الأجنبية التي غزوها ، وحاولت بما عندها من علوم أن تغزوهم ، بل كان الأمويون ذوى تعصب شديد للعرب والعربية ، وكانوا حريصين على أن يربوا أولادهم على خشونة البادية ، وفصاحتها ولسنتها ، فكانوا يرسلونهم ، والعود أخضر إلى البادية ، ليتفصحوا بفصاحة أهلها ، ويدوقوا شيثا من خشونتها ؛ ليتربوا على البأس والنجدة والهمة والنشاط ، وإذا لم يفعلوا ذلك مع أحد منهم اعتقدوا فيه النقص حتى قال عبد الملك في ابنه الوليد : « أضر بالوليد حبنا له ؛ فلم توجهه » « إلى البادية » ، لذلك كانت الحياة العربية مع قوة الحضارة ، مختلطة بالبداءة

(٤) ولئن كان التاريخ يحفظ للأمويين حفاظهم على العربية وحرصهم على توطيد سلطان العرب ، حتى كان منهم الولاة والأمراء وذوو السطان ، فلن ينسى التاريخ أنهم صيروا الخلافة ملكا عضوضا ، يتوارث ، وأنهم غلبوا سياسة القهر ، وحاولوا نشر كل شيء من شأنه

أن يبعد ملكهم عن منافسة المنافسين ، وطمع الطامعين ، ودفعهم
الأمر إلى مجاوزة حد الاعتدال . وقد كان من أثر منازعة العرب لهم ،
ومغالبتهم إياهم ، ومحاولة الأمويين نشر سياستهم منا حرات بالسيف ،
ومنازعات بالنول أفادت منها الخطابة أكبر فائدة ، وانتفعت منها
أكبر النفع ، وسن فصل الأجمال فيما يلي

١- الحياة العربية في العصر الأموي

(١) الأحوال السياسية : تطلع الأمويون للخلافة في وقت سادت
فيه الفتن ، وتشنعت فيه الأحن ، وركب كل أمرى رأسه ، اضطربت
الحال على أثر مقتل الخليفة الثالث ، عثمان رضى الله عنه ، فتسامت همه
معاوية إلى ولاية أمر المؤمنين ، ونازع سيف الإسلام عاليا في خلافته
وكاد على أن يضربه الضربة القاصمة في صفين ، لولا خديعة التحكيم
التي فرقت جيش على ، وأنبئت نابتة الخوارج ، ولما قتل على رضى الله
عنه ، ونزل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، واستقام له الأمر ، رجعت
القضب إلى أجفائها ، وبسياسة جمعت إلى الشدة اللين ، وإلى الحزم
الحلم ، سكنت الفتن إلا قليلا ، غير أنه سكون لاشئ فيه من الرضا
فالقلوب كثير منها نافر ، واسكنها الرغبة والرغبة ، والطمع والخوف
وما أنهكت به الأمة من حروب دائبة مستمرة ، كل هذا جعل الناس
يسكنون ، وإن كانت قلوب تستنكر ، ولذا لم تنته خلافة معاوية
ويتول يزيد ، ويتحرك الحسين وابن الزبير ، حتى ظهر الخروج على
هذه الدولة في إعلان لاسر فيه ، فخرجت المدينة ومكة ، وتحركت فتن

العراق ، وكثر خروج الخوارج الذين تعددت مذاهبهم ، وتباينت آراؤهم ، وبكثير من الالماء ، وكثير من الاءرهاق ، عادت الحال إلى نوع من الهدوء ، بعد أن أبيحت المدينة ، وقتل الحسين . وهكذا استمرت الدولة في نزاع تارة يشدد ، وأخرى . يسكن . خوارج يخرجون أحيانا متشقين الحسام ، وأخرى يدعون بدعائهم قولا ، والخلفاء يبيعون دماءهم .

وعلويون يسكنون تارة ، ويخرجون محاربين تارة أخرى وملوك الأمويين يدفعون هؤلاء وأولئك مرة بالسيف ، وأخرى بالخيعة وثالثة بالقاء بذور الثمر بين خصومها ؛ وفي وسط تلك الزوبعة وجد القول آذانا وقلوبا

(٢) الأحوال الاجتماعية - ١- في وسط هذا الاختلاف الذي

ألمعنا إليه ، وتحت ظل الأمويين ، قامت العصبية الجاهلية التي سترها الأسلام ، ودعا إلى محوها من القلوب ، اشتد النفور بين القحطانيين والحجازيين ، وبين الربيين والمزريين ، وكان من بعض الخلفاء ما أضرم نيرانها ، وزادها حدة وقوة ، والحقيقة أن كثيرا من حروب هذا العصر وفتنه كانت العصبية دافعة له ، وإن سترت بستر من دعوة دينية أو نزوع إلى طاعة ، أو تشيع لآل الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) ويلاحظ أن المظاهر الاجتماعية في ذلك العصر ، قد أخذت

تختلف باختلاف البلدان التي غلبت فيها العناصر العربية وهي الحجاز والعراق والشام . ففي الحجاز غيرها في العراق وهي في الشام غيرها فيهما .

ففي المدن الحجازية وجد نرف بعد أن لم يكن ؛ وذلك لأن الدولة
الأموية منعت زعماء القبائل من الخروج إلى الأقاليم ، حتى لا ينازعوها
السلطان ، وأدرت عليهم من الخيرات ، ما منعهم من التفكير في
الانتفاض عليها ، وأكثر أولئك من ذوي القلوب والعواطف الشديدة ،
والعقول القوية ، ولاكنها يناعي صافية قد تسلطت على صخور ، فلم
تنبت ما يظل مستظلاً ، أو يطعم طعاماً ، فاتجه بعضهم إلى اللذائذ
يشتارون عساها ، وأنشئوا الحيطان والحدائق ، وجعلوا من الطائف
والرياض بين مكة والمدينة جنات فيها متع النفوس ، وانصرفوا إلى
الأماء والشهوات

أما في العراق ففتن دائمة ، وقلق مستمر ، وحياة اجتماعية غير
محكمة الضلالت ، والسبب في ذلك أنه قد سكنه في عصر الخلفاء
الراشدين والأمويين طوائف من أجناس مختلفة ، فمنهم العرب وأغلبهم
مصريون ، ومنهم النبط ، ومنهم الفرس ، ومنهم آراميون ، ولكل
طائفة من هؤلاء عادات وتقاليد ، تستمدّها من قوميتها الأولى ،
وجنسياتها القديمة ، وحد الإسلام دينهم ، وقرب ما بين لغاتهم ؛ ولكنه
لم يجمع أهواءهم ، ولم يوحد إحساسهم ؛ ولذلك بدت في العراق أفكار
مختلفة ، وأهواء متناقضة ، وإحساسات متنازعة ؛ إذ قد نجم من هذا
العناصر المتخالفة مخلوط غير تام المزاج ، يتوحد في ظاهره ، ويختلف في
باطنه. ومجتمع كذلك تكثر فيه الفتن ؛ ويشتد الاضطراب

ويذكر ابن أبي الحديد أن لفتن العراق سبباً آخر ، وهو حدة ذكاء أهل
العراق ، فقد جاء فيه : « قال أبو عثمان الجاحظ : العلة في عصيان أهل العراق »

« على الأمراء، وطاعة أهل الشام أن أهل العراق أهل نظر، وذو وفطن »
« ثاقبة، ومع الفطنة والنظر، يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب »
« والبحث يكون الطعن والقدح، والترجيح بين الرجال، والتمييز »
« بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء. وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد »
« وجود على رأى واحد، لا يرددون النظر، ولا يسألون عن مغيب »
« الأحوال، وما زال العراق موصوفاً أهله بقلّة الطاعة، وبالشقاق على »
« أهل الرياسة »

أما في الشام حيث يحكم الأمويون فقد كان الترف سائداً،
ولكن في احتشام في أكثر الأحيان؛ ليحتفظ الخلفاء بمهابتهم؛
وليحفظوا لهم صفتهم الدينية، وكىلا تتألب عليهم العرب، وأكثرهم
متبدين، ففي قصور الخلفاء كل وسائل الترف، قيان وغناء، ولكن لا يظهرون
بشيء من ذلك أمام العامة، بل كان الصدر من خلفاء بني أمية يستمع
إلى غناء المغنين من وراء حجاب

والشام لا تشتهر بقسبة الدولة، كان الناس يفدون عليها من كل ناحية؛
وهي تموج بالوفد، ويتبادلون القول مع الخلفاء؛ وفي الحق إنها كانت
ميدان المباراة في تملق الخلفاء ومدحهم، والزلق اليهم؛ بالخطب أحياناً،
وبالشعر أحياناً، وفيها كانت المفاخرات، والمنافرات بين أيدي الخلفاء؛
وتحت سمعهم وبصرهم .

- ٣ - الأحوال الدينية . عاش في صدر هذه الدولة طائفة من أصحاب

رسول ﷺ، وعاش التابعون أكثر مدتها؛ وكان هؤلاء وأولئك
يدارسون الدين، ويعرفون الناس أحكامه، ويبثون روحه، والخلفاء

في الجملة ، كانوا يظهرن تمسكهم بالدين ، بل حمايتهم له ، يقولون ذلك بالسنتهم ، وإن كان منهم من يخالفه ، فعبد الملك بن مروان الذي وقف بخطب مرة فقال : من قال لي اتق قطعت عنقه ، يظهر الحمية الدينية ، إذ يبلغه أن الحجاج قد شتم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ؛ فينذر الحجاج ، ويرعد ويبرق ، ويشتد ويحتد ، وذلك لتجربى كلمة الثناء من أنس رضى الله عنه ؛ فيكون لها أثرها في نفوس العامة والدهاء .

والناس قد استمروا على تدينهم ، ولكن خفت فيهم حرارة الإيمان ولم يكونوا كسلف هذه الأئمة قوة دين وثبات يقين ، وحلت العصبية الجاهلية في بعض النفوس محل الدين ؛ وانتشرت في بعض الجهات فسوق ومفاجر ، وشاع على ألسنة الشعراء تهاج مقذعة ، وشتائم لاذعة وأقوالهم تنتشر بين الناس ، فتزع الأخلاق ، وتقسد النفوس ، وتضعف روح الدين ، وإذا ساغ لولى عهد المسلمين يزيد بن معاوية أن يدفع شاعرا نصرانيا ليس للأسلام في نفسه حرمة أن يقول في الأنصار وهم الذين آووا ونصروا :

ذهبت قريش بالملكارم كلها واللوم تحت عمام الانصار

إذا ساغ ذلك لابن الخليفة وهو المسئول الذي يجب أن يظهر حاميا للدين ، فكيف يكون شأن دهماء الناس ، ومن ليس للنقد عليهم من سلطان ، لذلك لم تقيد الألسنة بقيود الدين كما كان الشأن أولا ، وكان لذلك أثره في الخطابة كما سنبين إن شاء الله تعالى

٣ — دواعي الخطابة وموضوعاتها في العصر الأموي
كثرت دواعي الخطابة في صدر الدولة الأموية ووسطها؛
واتسعت موضوعاتها، وتشعبت نواحيها، وكان أعظم دواعيها وأوسع
موضوعاتها :

(١) الفتن التي قامت في صدها الدولة الأموية ، وتأججت نيرانها
واشتد لهيبها بعد موت معاوية عند ماتولى يزيد ، فقد انقسم المسلمون
إلى أحزاب : شيعة ، وخوارج ، وأمويين ، وزيريين ، وكل يدعو
الناس إلى فكرته ، وتأييد دعوته ، واشتبهت الحروب بين هذه
الطوائف ، فقاتل الحسين جند يزيد ، وقتل ، وقاتل عبد الله بن الزبير
حتى تم له الأمر في الحجاز والعراق ، ثم انتقصت أطراف ملكه
وشيكاً . والخوارج استمروا إلّبا على الدولة لا تسكن لهم نائرة ولا
تحمد لهم جذوة . وكان من وراء السيوف الخطب القوية ، والعبارات
الشديدة الدافعة إلى الموت ، رجاء مشوبة الرحمن ، أو طمعا في السلطان
فالخطابة وجدت في تلك الفتن معينا للقول ، وحافزا إليه ، يذكر
المعارضون على بني أمية مساوئهم ، واجترأهم على ذوى الحق ، ويرمونهم
بالخروج على الدين ، ويدكرونهم بماضى أسلافهم في محاربة النبي والسابقين ،
والأمويون يرمون أولئك بالبغى والخروج على الطاعة ، وسترى ذلك
واضحا في المختار من الخطب

(٢) السياسة : كان الخلفاء وولاتهم في أشد الحاجة إلى أن يبينوا
للناس سياستهم : ليأخذوهم بها ، إذ كانت نفوس الحكوميين في قلق
دائم مستمر ، وميل للخارجين ، فكان الخلفاء وأتباعهم يبينون حكمهم

وعدالته ، وإحسانهم للناس إن أسلسوا القياد ، وأخلصوا ، ويرعدون
ويبرقون ، ويهددون وينذرون من يخرج أو يحيد عن الجادة ، وقد كان
صوت الترهيب أظهر في البلاد التي نبتت فيها فتن ، كالعراق والحجاز
وصوت الترغيب أوضح في البلاد التي وادعت وسالمت ، بل عاونت
وناصرت ، كالشام ، انظر إلى خطبة زياد البتراء بالبصرة ، وخطب الحجاج
في العراق ، وخطبة عبد الملك بعد قتل مصعب بن الزبير ، تر ذلك
واضحاً كل الوضوح

(٣) الفتوح الإسلامية : لم تنقطع الفتوح في العصر الإسلامي ،
ولعل الأمويين وجدوا فيها شاغلاً للعرب ، يمنعونهم من التفكير في
أمرهم ، والانتقاص عليهم ، فوجهوهم إلى البلدان ، لكيلا يكون بأسهم
بينهم ، ففي عصر معاوية فتحت بلاد في شمال أفريقية ، والسند ، وبعض
أفغانستان ، وفي عهد عبد الملك والوليد ابنه تم الاستيلاء على شمال
أفريقية ، والأندلس ، وامتد السلطان الإسلامي إلى بلاد البنجاب في الهند
واستولى مسلمة بن عبد الملك على آسيا الصغرى ، وفي عهد سليمان بن
عبد الملك حوصرت الأستانة . والحروب كما بينا تحتاج إلى الخطابة
والبيان ، وقد أسهبنا في بيان ذلك في العصر الإسلامي السابق ، فارجع إليه
(٤) الوفادة : كثرت الوفادة على الخلفاء والأمراء في ذلك العصر
لرفع شكاة ، أو لامتياح ، أو إعلان النصر والتأييد ، وقد يدعو الخليفة
بعض الوفود إليه ، ليسدى إليهم يداً ، أو يعقد حبلاً مودتهم ، أو
يسنعتهم على سابقة منهم . والوفود عادة من كبار المتكلمين المجيدين
م - ١٢ تاريخ الخطبة

يلقون كلامهم في لسان مبين، وقول حكيم، وأسلوب محكم، وإذا اعترض عليهم، سدوا الجواب، وأنوا بأحسن الخطاب. قال ابن عبد ربه في الوفاة: «إنها مقامات فضل، ومشاهد حفل، يتخير لها الكلام،» «وتستعذب الألفاظ، وتستجزل المعاني، ولا بد للوفاد عن قومه أن» «يكون عميدهم، وزعيمهم الذي عن قوسه ينزعون، وعن رأيه» «يصدرون، فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يعرب عن السنة». فالوفد يكون من أرباب البيان، والوفادة روحها اللسان والجنان؛ لذلك كانت كثرة الوفاة في ذلك العصر عاملا من عوامل انتشار الخطابة، وموضوعا من موضوعاتها

(٥) المدح والتهنئة والعزاء: كانت الخطابة في هذا العصر تقال في بعض الموضوعات التي كان يقل فيها الشعر، فكان من الخطباء من تكون كل خطبتهم مدحا في خليفة، أو تهنئة بولاية، أو تعزية لفقد عزيز كريم، وقد تكون الخطبة أحيانا شتملة على التهنئة والتعزية عندما يتولى الخلافة ابن الخليفة، فيجتهد الخطيب في أن تكون خطبته جامعة بين تعزية الواسي في فقد، والمهنىء بنيل أمل كان مرتجى، كما فعل كثيرون من الخطباء في عزاء يزيد في معاوية، وتهنئته بالملك

(٦) الوعظ الديني: كانت سيطرة الدين على بعض النفوس دافعة لان ينصرفوا إلى العبادة والنسك، والتقوى والأرصاد، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ومنهم من انصرف إلى دراسة العقائد، والتعمق في بحوثها، ويكون له رأيا فيها، دعا إليه، وحث عليه، ومنهم من عكف

على مناقشة الخارجين على الأسلام الهادمين لبنائهم، والرد عليهم، فلحن بالحجة، وقدم الدليل، ومن هؤلاء وأولئك الحسن البصري، وواصل ابن عطاء، ومطرف بن عبد الله الحرشي، وبكر بن عبد الله المزني، ويزيد بن إبان الرقاشي، ومالك بن دينار. وأكثر هؤلاء قاص مجيد بليغ ذو منطق وجيز

(٧) مجالس المباراة في الخطابة: كانت تعقد مجالس للمباراة في الخطابة، والسبق فيها، وكثيرا ما كان يدعى الشخص إلى القول مفاجأة؛ ليختبر مقدار بيانه، وقوة جنانه؛ وحضور بديهته، ونهوض حجته، ومن ذلك ما عقده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وإلى العراق من مجلس للخطابة تبارى فيه خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبه، والفضل بن عيسى، وواصل بن عطاء، وقد نال في ذلك المجلس قصب السبق واصل بن عطاء. وقال فيه بشار مادحه بتلك الخطبة

تكافوا القول والأقوام قد حفلوا وحبروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلى بداهته كمرجل القين^(١) لما حف باللهب
وجانب الرأى لم يشعر به أحد قبل التصفح^(٢) والأغراق في الطلب
وقد كانت مجالس معاوية تشتمل على شيء كثير من هذا النوع من المباراة، وما كانت خطبة سحبان التي كانت من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر إلا من ذلك النوع، فإنه يروى «أن» «وفدا من خراسان، فيهم سعيد بن عثمان، قدم على معاوية، فطلب» «سحبان، فلم يوجد في منزله، فاقتضب من ناحية اقتضابا، وأدخل»

(١) القين هو الحداد (٢) التصفح النظر

« عليه ، فقال : تكلم ؛ فقال : انظروا إلى عصا تقوم من أودى ؛ قالوا :
 « وما تصنع بها ، وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؛ قال : ما كان يصنع بها »
 « موسى وهو يخاطب ربه ، فضحك معاوية ، وقال : هاتوا عصا ، فجاءوا »
 « بها إليه ، فركلها برجله ، ولم يرضها ، وقال : هاتوا عصاى ، فأخذها »
 « وتكلم من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ماتنحسح ، ولا سعل »
 « ولا توقف ، ولا ابتداء فى معنى ، نخرج منه ، وقد بقى عليه منه »
 « شئ » ، فزال تلك حاله ، حتى أشار معاوية ، فأشار إليه سحبان «
 « أن لا تنقطع على كلامى ؛ فقال معاوية : الصلاة . قال : هى أمامك ، ونحن »
 « فى صلاة ومحمد ، ووعدو وعيد . فقال معاوية : أنت أخطب العرب ؛ فقال »
 « سحبان : والعجم والأنس والجن ^(١) » ألا ترى من ذلك القصص أن
 تلك الخطبة ما كان القصد منها إلا المباراة الكلامية من غير غرض
 منشود ؛ ولا موضوع محدود . وقد كانت تلك المباراة من أسباب انتشار
 الخطابة ، وكثرتها وهى تشبه المباراة الخطابية التى كانت تقوم بين
 فتيان أثينا فى عصر بيركليس

(٣) عوامل رفى الخطابة ، وعوامل ضعفها فى ذلك العصر

قال المرحوم الاستاذ محمد المهدي بك فى وصف الخطابة فى هذا العصر :
 « هذا عصر سارت الشجاعة فيه وراء البيان ، وملك اللسان منه مالم »
 « يملك السيف ، وتسابق الناس فيه إلى غاياتهم ، بحسب مقالاتهم »
 « وقد رأوا المنزل الأثلى فى الكتاب العزيز ، فتساموا إلى طريقه »
 « فى الأتباع ، وإقامة الحجة ، واقتبسوا من لفظه ، واستعانوا بروحه »
 « فحيوا فى بلاعتهم حياة جديدة » . ثم قال : « والعرب أقدر الناس على »

« بيان فاء إذا كان في حكمة رائعة ، ودين قيم ، وعزيمة صادقة ، ملك »
« الواحد منهم من قلوب الناس مالا تملكه الدنيا بخذا فيرها ، وقد سماها بأنفسهم »
« نصرهم الباهر ، وعزتهم القديمة وأنسابهم المصونة ، وأيامهم المشهورة »
« وأمثالهم الماثورة ، ومواقعهم المشهودة ، فلم يكن للواحد منهم »
« إلا أن يتكلم ، أو يكلم ، ولذلك كثر في هذا العهد خطباؤهم كثرة »
« لم تعهد فيهم من قبل ، ولا من بعد ، وأجادوا إجابة لا نظير لها ، »
« وتفننوا في مجامعهم ، وجمعهم وأعيادهم ، ومواسم الحج ، ومضارع »
« السقيا ، ومشاهد الحرب ، ومنافر الجهاد ، ومرابدا لأمصارع ، ومحافل »
« الملوك ، ومجالس الموعظة ، وأندية الأدب ، وحاولت كل قبيلة أن »
« يكون خطيبها أخطب ، وكل حزب أن يكون لسانه أغلب ، »
« لتسابق الملوك والأمراء والنسك والزهاد ، ورؤساء الأحزاب »
« والقبائل ، وكثير من دهماء الناس في هذا الميدان ، حتى انبثق نور »
« الأذهان ، وتفجرت ينابيع الحكمة ، وفاضت بدائع البدائنه في الناس . »
هذا قول حق إذا كان موضوعه صدر الدولة ووسطها أما في آخرها فقد
ركدت ربحها قليلا حتى استيقظت قوية أمدا قصيرا في صدر الدولة العباسية
والأسباب في بلوغ الخطابة ذلك الشاؤ هي ما بيننا في عوامل
نهوض الخطابة في صدر الإسلام وهو القرآن الكريم ، والسنة النبوية
والحضارة وغيرها ، فإن تلك الأمور كان لها أثرها في ذلك العصر
كما كان لها أثرها في سابقه ، وما زالت لها قوتها وروعيتها في النفوس
وقد جدت عوامل أخرى فوق تلك زادت الخطابة رفعة ونهوضا :
(١) فالمجاذلات التي كانت تقوم بين الفرق السياسية المختلفة

التي ظهرت في ذلك العصر ، بعد أن غرست أصولها في آخر سابقه ، خصوصاً ما كان بين الخوارج وغيرهم ، كانت عوامل رفعة للخطابة فأنت تجد في تلك الخطب الجدلية روحاً عالية ، ودقة في التفكير ، وسلامة في التعبير ، وحرصاً على وزن العبارات بميزان دقيق . اقرأ خطبة أبي حمزة الشاري التي يرخص فيها عن الخوارج الأباضية ، ويقذف غيرهم بأشنع التهم ، وكذلك خطب قطري بن الفجاءة ، وغيرهما تر فكراً دقيقاً ، وعبارات عالية ، جمعت إلى الجزالة والسلاسة روح الدين .

« ٢ » وقد ظهر في ذلك العصر خطباء من علماء الكلام : يعظون ويدافعون عن مذاهبهم في أصول الاعتقاد ، كالحسن البصري الذي قال فيه أبو عمر بن العلاء : « مارأيت أفصح من الحسن البصري ، » « ومن الحجاج النقي : فليل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن » وكواصل بن عطاء . فقد كان نادرة زمانه في حضور البديهة وسداد الجواب ، وقد كان انضمام هؤلاء إلى صفوف الخطباء مما جعل الخطبة آستفيد من دقة تفكيرهم ، وغزارة علومهم إحكاماً ، وثروة في المعاني والأفكار .

« ٣ » وكان الخلفاء في صدر الدولة الأموية يحنون على الخطابة ويدعون إليها ، ويعملون على ترويحها ، وكانت دورهم منتديات لها ، يتبارى فيها أبلغ الخطباء ، وأهل اللسان والبيان ؛ وخصوصاً إذا جاء وفد ، وكان صفار النشء يحرصون على استماع الباغاء من الخطباء ، ليحاكوهم ، وينسجوا على منوالهم ، وقد ساد التفاخر بالقدرة على

الخطابة ، وإجادة البيان ؛ لأن الخطبة كان لها الشأن الأول عند الخلفاء والأمراء ؛ يروى أن عبد الملك بن مروان سقطت له إحدى ثنياه ، فذكر أنه لو لا الخطبة والنساء ، ما حفل لسقوطها

وقد دفعهم التفاخر بالخطابة ، إلى أن أخذوا يزورون الكلام ، ويهينونه ، ويضعون فيه من ضروب التحسين الشيء الكثير ، وإذا قرأت خطب الحجاج تامح فيها صناعة لفظية ، وإن لم تكن بادية التكلف ، وكذلك ترى خطب كثير من خطباء ذلك العصر

ومع عوامل الرقي الخطابي التي ظهرت في ذلك العصر ، وكان لها كل هذه الثمرات ظهرت بجوارها مظاهر ضعف نسبي ، وإن كانت قد اختفت تحت لآلاء الرقي الذي بدا ، وغفلت عنها الأنظار في وسط ضجيج الرفعة التي كانت للخطابة في ذلك العصر . ومن ذلك

« ١ » أن اللحن ابتدأ يجري على ألسنة الخطباء ؛ فيروى أن الحجاج كان يفتح إن في موضع الكسر ، ويروى أن الوليد بن عبد الملك كان كثير اللحن في الخطبة ، بل في الصلاة حتى أنه يروى أنه كان يصلي مرة فقراً : « ياليتها كانت القاضية » ورفعها فقال عمر بن عبد العزيز إذ بلغه ذلك عايك وأراحنا الله منك ؛ وقد سرى اللحن على ألسنة كثير من الفصحاء ، جاء في البيان والتبيين : « ومن اللحنين البلغاء » خالد بن عبد الله القسري ، وخالد بن صفوان « وجاء فيه « وقد زعم » رؤية بن العجاج ، وأبو عمر بن العلاء أنهما لم يريا قرويين أفصح « من الحسن والحجاج ، وغطا الحسن في حرفين من القرآن . ولا شك أن اللحن في الخطبة مع قرب العهد ، وعدم فساد السليقة مظهر من مظاهر

الضعف وإن أخفته بلاغة المتكلمين

«٢» وقد عادت العصبية الجاهلية فعاد معها التفاخر بالأحساب ، والأنسب . وكثر ذلك في الخطابة ، كما كثر المدح الكاذب ، والملق الخادع ، ونفاق اللسان ، وكل هذه عوامل من شأنها أن ترجع بمعاني الخطابة القهرى ، وأن ترتد عما اكتسبته من روعة وجلال في عصر الخلفاء الراشدين ، ولذا ضعف تأثير الكلام الجيد في القلوب . يروى أن الحسن البصرى تكلم عنده رجل بمواعظ عظيمة ، ومعان تدعو إلى الرقة ، فلم ير الحسن قد رق . فقال الحسن إما أن يكون بناسر ، أو بك والحقيقة أن أكثر الخطباء الأمويين في ذلك العصر كانوا إما منافقين أو مستبدين ، أو جلادين ، وكل أولئك لا تصل كلماتهم إلى أعماق القلوب لأنها لم تخرج منها ، وعامر بن قيس يقول : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان » وكانت كثرة المتشادقين من أسباب ضعف تأثير الكلام في القلوب لأن شهوة الكلام سادت ، والرغبة في الحجاج واللجاج ، وإن لم تكن لغرض أو إصابة هدف ، قد تغلبت ، وإذا كثر الكلام قل التأثير ، ومن كان كثير التشديق ، كان أشد اقتقارا إلى السامع ، من السامع إليه ؛ لشغفه . أن يذكر في البلاء ، وقال الجاحظ في وصف هذا النوع من المتكلمين « ومن أسف هذا الأسفاف ، وغلب الشيطان عليه هذا الغلبة ، كانت » « حاله داعية إلى قول الزور ، والفخر بالكذب ، وصرف الرغبة إلى الناس » « والأفراط في مديح من أعطاه ، وذم من منعه » . ولا شك أن هذا الصنف من المتكلمين كان كثيرا في الأمويين وأنصارهم ، ولا شك أيضا

في أن سيادتهم للمنابر . واستيلاءهم عليها مؤد حتما إلى انصراف الناس عن الخطبة والخطباء، وذلك مؤد حتما إلى ضعفها شيئا فشيئا .

(٣) وفي آخر العصر الأموي ضعفت الدواعي إلى الخطابة ؛ لقلة الخروج على الخلفاء علنا . والاتجاه إلى التدبير السري ، وتبييت الأمور في جنح الظلام ، ولأن الخطب بين أيدي الخلفاء قد قلت ؛ إذ الوفود قد قلوا ، بعد أن قل الخارجون ، واستغنى الخلفاء عن استدعاء القلوب وقد علمت أن ذلك كان من دواعي القول والبيان ، ولهذا كله ضعفت الخطابة نسبيا كما بينا ، إلى أن نهضت في صدر الدولة العباسية أمدا قصيرا كما سنبين إن شاء الله تعالى .

(٤) الألفاظ والأساليب والمعاني

الألفاظ . كانت ألفاظ الخطابة صافية لا خشونة فيها ، ولا حوشي مع الجزالة والقوة ، كما كانت في العصر السابق ؛ وذلك لما اكتسبته من القرآن والسنة والحضارة التي لم تفسد النفس ، كما بينا آنفا ، فارجع إليه .

المعاني كانت المعاني الخطابية في ذلك العصر مختلفة باختلاف الخطباء: فخطب الخوارج سادتها المعاني الدينية ، وهي في الجملة تشبه الخطب في العصر الإسلامي من هذه الناحية ، وإنك لتقرأ خطب قطري بن الفجاءة ، أو أبي حمزة الشاري ، فتجد مشابهة واضحة بينها وبين خطب الخلفاء الراشدين في معانيها وروحها ، وإن كانت الثانية

لقوم سلم تفكيرهم من الاندفاع ، والخوارج لم تسلم خطبهم منه ، ولولا ذلك وأن في خطب الخوارج قذفا بالكفر لكثيرين ، لكانت هي وخطب الأولين من المهاجرين والأنصار خرجتا من معين واحد . وخطباء الوعظ الديني كالحسن البصري ، والشعبي ، وابن سيرين ، وواصل بن عطاء ، كانت كخطب السلف الصالح من كل الوجوه ، لا من جهة المعاني فقط ، غير أنها زيد فيها أمر لم يكن في خطب السلف ، وهو القصص ، والوعظ به ، وضرب الأمثال الكثيرة ، وسوق أخبار الماضين ، ليتعظ بها السامعون لهم ، وترى ذلك واضحا كل الوضوح في خطب الحسن البصري رضي الله عنه

أما معاني خطباء الأمويين ومن لف لفهم ، وسائرهم في أعمالهم وعاونهم في نهجهم ، فقد امتازت في الجملة :

(١) بأنها كانت معاني تهديدية ، يكثر فيها الأرعاد والتهديد ، إذا كانت من الوالي أو الخليفة لقوم في نفوسهم شيء من السخط على الأمويين وحكومتهم ، كخطبة زياد ابن أبيه في العراق ، وخطب الحجاج فيه ، فإن تلك الخطب تشبه الصخور التي يقذف بها الخطيب وجوه السامعين ، وتشبه الإنذارات التي يعذر بها من يريد إيقاع عقوبة صارمة ، أو إعلان حرب داهية ، ولا تعد خطبا يقصد بها إدناء القلوب ، وجمعها على الجادة ، والسير بها في طريق الرشاد .

(٢) وبأنها كان أكثرها في الفخر إذا كانت من خطباء القبائل المناصرة لهم ، كقول خطيب الأزدي عند عبد الملك : « وقد علمت » « العرب أناحي فعال ، ولسنا بحى مقال ، وأنا نجزى بفعلنا عن أحسن »

« قولهم ؛ إن السيوف لتعرف أكفنا ؛ وإن الموت ليستعذب أرواحنا »
« وقد علمت الحرب الزبون أنا نقرع جاحها ، ونحلب صراها » .
وإنما كثر الفخر بين هؤلاء لعودة العصبية ، واستيلائها على نفوسهم
وبينا كثر عند هؤلاء الفخر ، كثرت معاني المدح والملق والنفاق في
أتباع الخليفة ، وأتباع الأمراء وبطانتهم ، ومن لهم عندهم حاجة ، أو يطمعون
في نيل أمل .

(٣) وبأنها كانت تشتمل على السب والأقذاع أحيانا ، وإنك
تري ذلك واضحا في كثير من خطب الحجاج في أهل العراق ؛ فأنتك
تري فيها إغشاشا في الهجو ، وإقذاعا . وكأن الهجو العنيف الذي ساد
الشعر في ذلك العصر سرى بعضه إلى الخطابة ، فأخذت منه أشرطة
أو لعلها صدرا عن ينبوع واحد ، وهو التنايد الذي فرق جماعات
المسلمين ، فاستباح كل أعراض الباقين ، ولم ترع حرمة الدين ، ولا
وشائج القرى ، ولا صلة الأرحام ، وأقرأ خطبة زياد ابن أبيه التي خطبها
قبل أن يلتحق بمعاوية يرد بها على كتاب أرسله إليه ، وجاء فيها :
« العجب من ابن آكله الأكل ، وقاتله أسد الله ، ومظهر الخلاف ، »
« ومسر النفاق ، ورئيس الأحزاب ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، »
« كتب إلى يرعد بي ، ويرق عن سحابة جفل ^(١) ، لاماء فيها ، وعما »
« قليل تسيرها الرياح قزعا ^(٢) ، والذي يدلني على ضعفه تهدده قبل »
« القدرة ، أفن إشفاق على يعذر ، وينذر . كيف أرهبه وبينى وبينه »
« ابن بنت رسول الله ﷺ ، وابن ابن عمه في مائة ألف من المهاجرين »

(١) السحابة الجفل التي لاماء فيها لا^١نه أريق (٢) قطع السحاب المتفرقة

« والأُنصار ، والله لو أذن لى فيه : أوندبنى إليه ، لأرينه السكواكب »
« نهارا ، ولأسعطنه ماء الخردل » . ومافى هذه الخطبة^١ من الهجو
لا يعتبر كثيرا بالأضافة إلى الهجو الذى كثر على السنة خطباء
هذا العصر .

(٤) والمبالغة والأغراق ؛ لكثرة النفاق ، والخداع والملاق والمذح
فأن هذه الأمور يكون صوت الصدق فيها خافتا ، وصوت الكذب
عاليا ؛ والمبالغات والغلو ، ، ترد من أبواب الكذب ، حيث تختفى
الصراحة ، هذا إلى أن تسابق الخطباء ، فى مدح الخلفاء جعل كلا يجتهد
فى التفنن فى المعانى ، والغوص فيها ؛ ليصلوا إلى قصب السبق ، قبل غيرهم
وذلك يدفعهم حتما إلى الأغراق ، وقرأ خطبة عمرو بن سعيد التى
مدح فيها يزيد بن معاوية ، عند العهد له ، فقد جاء فيها : « أما بعد »
« فأن يزيد بن معاوية ، أمل تأملونه ، وأجل تأمنونه ، إن استضفتم »
« إلى حلمه وسعكم ، وإن افتقرتم لذات يده ، أغناكم ، جذع قارح^(١) »
« سوبق فسبق ، وموجد فوجد ، وقورع ففاز سهمه ، فهو خلف أمير »
« المؤمنين ، ولا خاف منه » .

الأسلوب . كان الأسلوب فى ذلك العصر يشبه الأسلوب فى
عصر الخلفاء الراشدين فى الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية
وتجميل الخطبة أحيانا ببعض أبيات من الشعر ، وتقسيم الخطبة إلى
مقدمة تشتمل على حمد الله ، والثناء عليه ، وموضوع ، وخاتمة .
ولكن كثر فى خطب ذلك العصر الازدواج ، وهو أن تكون

الخطبة مقسمة إلى فقرات متناسقة ، وإن لم تكن ذات قواف متحدة
أقرأ خطبة عبد الملك بن مروان التي خطبها بعد قتل مصعب بن الزبير
في العراق ترها ذات فقرات متناسقة ، وقد كان على شأ كلتها كثير
من خطب هذا العصر .

وكثير أيضاً الاجتهاد في تحسين الخطب ، وتجميل الكلام ،
وإن كانت السليقة العربية التي امتاز بها أكثر خطباء الأمويين
والخوارج ، قد سترت ذلك التكاف ، ولم تظهره ، وإنك لتلمح في خطبة
الحجاج التي قالها في أول مقدمه إلى العراق ، الصناعة المحكمة ، والقصد
إلى التحسين . ولعل السبب في كثرة تحسين الخطبة في ذلك العصر
أن كثيراً من الخطباء كانوا يزورون كلامهم قبل إلقائه ، ويجمعون
الفكرة قبل أن يتقدموا للخطبة ، وأقرأ ذلك الخبر الذي جاء في العقد الفريد :
« قيل لبعض الخلفاء : إن شبيب بن شيبه يستعمل الكلام . ويستعده »
« فلو أمرته أن يصعد المنبر لرجوت أن يفتضح ، قال فأمر رسولا أن »
« يأخذ بيده إلى المسجد ، فلم يفارقه حتى صعد المنبر » ألا يدل ذلك
الخبر على أن التهيئة قد كثرت حتى كان يتهم بها بعض المجيدين المقول ،
فأنه لا اتهام في أمر يكون بعيد الحصول ، غير قريب من المألوف المعروف .
وربما كان من أسباب الاتجاه إلى تحسين الكلام وتنميته - المباريات
التي كانت تقوم بين الخطباء ، فأن كلا كان يحاول السبق ، والأبداع في
الأسلوب والمعاني ، ليكون الأغلب والاسبق . ومن الأسباب أيضاً
أن الكلام صار شهوة ، وصار موضع تخر ، وكل ذلك يدفع الإنسان إلى
التحسين . وقد دفعهم ذلك أيضاً إلى محاولة أن يضعوا أصولاً للخطابة

ويلقنوها الشببية، كما كان يفعل الأثينيون في عصور ازدهار الخطابة، فقد ورد في البيان والتبيين والعقد الفريد أن ابراهيم بن جبلة بن مخزومة السكوني كان يعلم الفتيان الخطابة، ومربه بشمر بن المعتمر على ما بينا في القسم الأول، وابراهيم هذا كان من أصحاب عبد الملك بن مروان، وعاش إلى خلافة المنصور العباسي، وهذا الخبر في جملة، يدل على أن الخطابة كانت تلقن، وتعلم في آخر العصر الأموي، وابتداء العصر العباسي، وأن الناس قد ابتدءوا يفكرون في وضع أصول لها، حتى جاء العصر العباسي وترجمته وعلومه، فترجمت الأصول الخطابية اليونانية فيما ترجم كما بينا

طول الخطب وقصرها: خطب الخوارج في جملة أميل إلى الطول، لما كانت تشتمل عليه من الحجج والأدلة، والمآخذ على حكم الأمويين، وإعلان مساوئهم، فترى خطب أبي حمزة الشاري، وقطري وغيرهما من خطباء الخوارج فيها الطول واضحاً، وقد رويت مع طولها، ونقلتها المصادر الأدبية كالبيان والتبيين، والعقد الفريد، والأمالى، والكامل، فدل ذلك على نفاستها وجودتها.

(٢) وخطب الوعاظ والزهاد، كالشعبي وابن سيرين والحسن البصري أميل إلى الإيجاز؛ أخذاً بمذهب الساف الصالح، ونهى النبي ﷺ عن طول الخطبة، ولخوفهم من أن تكون الاطالة ثروة، وتقيهاً، وآساقاً، وكل أولئك قد نهى عنه النبي ﷺ

(٣) وخطب الأمويين ومن والاهم، ومن كان على شاكلتهم فيها الطويل المفرط في الطول، وفيها المتوسط، وفيها القصير المفرط في

القصر ، فترى خطبة سحبان بين يدي معاوية ، عند ما أحضره لقولها
مفرطة في الطول كما ذكرنا ، وخطب الحجاج ، وزياذ ابن أبيه وغيرهما .
بين الطول والقصر ، وخطب الذين أرتج عليهم في الخطبة قصيرة جداً ،
ومن ذلك خطبة خالد بن عبد الله القسري عند ما أرتج عليه ، فاعتذر
قائلاً : « أيها الناس إن الكلام يجيء أحياناً ، فيتسبب سببه ، ويعزب »
« أحياناً ، فيعز طلبه ، فربما طول فأنى ، وكوبر فعصى ، فالتأني لحبيه »
« أصوب من التعاطى لآييه »

وقد كان بعض الخطباء يعمد إلى ذلك النوع من الإيجاز من
غير ضرورة ولا إرتاج ، كما فعل يزيد بن المقفع ، عند أخذ البيعة ليزيد
ابن معاوية ، إذ قال : « أمير المؤمنين هذا ، وأشار إلى معاوية ، فأن »
« هلك فهذا ، وأشار إلى يزيد ، فن أبى فهذا ، وأشار إلى سيفه ، فقال »
« معاوية : اجلس ، فأنت سيد الخطباء . »

وربما كان يدفعهم إلى ذلك التطويل المفرط ، والقصر المفرط
قصد التفنن ، وبيان البراعة ، وإثبات قدرتهم على الوفاء في الطول
من غير إملال ، وعلى الإيجاز الذي يعدّ الكثر من البلاغة فيه ، وليس
معنى ذلك أن تطويلهم وإيجازهم لم يكن مراعى فيه مقتضى الحال ، بل
إن مراعاة المقام كانت ثابتة في كثير من أقوالهم ، ولكن حرصهم على
الاشتهار بالبراعة كان لا يقل عن حرصهم على ملاحظة المقام ؛ لأن
القول صار غرضاً لذاته في ذلك العصر على ما بيناه آنفاً .

(٥) المأثور من الخطب

المأثور من خطب ذلك العصر كثير ، ولكنه إذا أضيف إلى كثرة الخطباء ، وإلى تنوع الموضوعات ، واتساع أغراض القول ، كان قليلا ؛ ولعل السبب في ذلك أن الرواية كان المعول فيها على الحافظة ، والنسيان قد يتطرق إليها . قال الاستاذ المرحوم المهدي بك : « ولقد »
« نظرت في عدد الخطباء المجيدين ، فوجدته يربو على عدد الشعراء »
« ولاكن ما أثر عنهم من الخطب دون ما أثر عن الشعراء ؛ وسبب »
« ذلك فيما أرى أن الأمة كانت حديثة العهد بالكتابة ، وكانت »
« معتمدة على حافظتها . . على أن الذي وصل إلينا ليس في نفسه »
« قليلا ، وإن قل بالأضافة إلى قائله ؛ فأن كثيراً من الخطباء »
« المشهورين ، لا يحفظ له إلا خطبة واحدة . »

٦- الخطباء

كثر عدد الخطباء في ذلك العصر كثرة مدهشة ، وتعددت طوائفهم ، واختلفت نواحيهم ، ومذاهبهم الفكرية ، وكان لكل حزب خطباء ، ولكل فئة من الناس متكلمون .
فمن خطباء آل البيت عبد الله بن الحسن ، وزيد بن علي بن الحسين ، وكانا أقوم أهل زمانهما لسانا وحجة

ومن خطباء الأمويين معاوية ، ويزيد ، وعبد الملك بن مروان ومعاوية بن يزيد ، وعمر بن عبد العزيز وزيد بن أبيه ، وهو الذي يقول فيه الشعبي : « ماسمت متكلماً على منبر قط فأحسن ، الأتميت »
« أن يسكت خوفاً من أن يسيء ، إلا زيادا ، فإنه كان كلما أكثر كافي »

« أجود كلاما » ، والحجاج بن يوسف الثقفي ،
ومن الخطباء الذين نازعوا بني أمية الخلافة عبد الله بن الزبير
ومصعب أخوه ، وكثيرون من أسرتهما .
ومن خطباء الخوارج قطرى بن الفجاءة ، وعمران بن حطان ،
وأبو عبيدة الأباضي ، وأبو حمزة الشاري .
ومن خطباء المجالس خالد بن يزيد بن معاوية ، وأيوب بن القرية
وهو الذي قال للحجاج وقد خافه : « أقلني عثرتي ، وأسقني ربيق ، فإنه »
« لا بد للجواد من كبوة ، وللسيف من نبوة ، وللحليم من هفوة . »
فقال له الحجاج : « كلا حتى أوردك جهنم ، ألسنت القائل : تغدوا »
« الجدى قبل أن يتعشاكم . »

ومن النساك الحسن البصري ، ومطرف بن عبد الله الحرثي ،
وبكر بن عبد الله المزني ، ومالك بن دينار ، وكل هؤلاء قاص موجز
وغير هؤلاء الذين ذكرناهم كثيرون جدا . وقبل أن نترك هذا
الموضوع لا بد أن نشير إلى طائفة من الموالى أجادوا الخطابة ، كالعرب
بل ربما فاقوا كثيرين من بلغاء الخطباء ، ومن هؤلاء الحسن البصري
وقد روى أن عائشة رضى الله عنها سمعته يتكلم ، فقالت : من هذا الذي
يتكلم بكلام الصديقين ، ومنهم طارق بن زياد صاحب الخطبة المشهورة
التي قالها عند غزو الأندلس ، فإنه كان بوبريا ، ولم يكن عربيا .

٧- نماذج من خطب هذا العصر

١- خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصباح

يأهل الكوفة، أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت أنكم تصلون، وتزكون، وتحجون، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني الله ذلك، وأنتم كارهون. ألا إن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته، فتحت قدمي هاتين، ولا يصلح الناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محله، وإقبال الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره؛ فإنه إن لم تغزوهم غزوكم.

٢- خطبة معاوية في المدينة

جاء في العقد الفريد: لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة، تلقاه رجال من قریش، فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرک، وأعلى كعبک. فوالله ما رد عليهم، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد فإني والله ما وليتها بحجة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة. ولقد رصنت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها على سنيات عثمان، فأبنت على، فساكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة، مؤاكلة حسنة، ومشاركة جميلة، فأن لم تجدونني خيراًكم، فأني خير لكم ولأية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له دبر أذني، وتحت قدمي، وإن لم تجدونني أقوم بحقكم كله، فاقبلوا مني بعضه، فأن أناكم مني خير فاقبلوه

فإن السيل اذا جاء يثرى ، وإذا قل أغنى ، وإياكم الفتنة، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة.

- ٣- رثاء ابن الحنفية لآخيه الحسن

لما مات الحسن بن علي رضي الله عنه ، رثاه أخوه ابن الحنفية، فقال
رحمك الله أبا محمد، فلئن عزت حياتك ، لقد هدت وفاتك، ولنعم الروح روح
تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن
كفن تضمنه لحدك ، وكيف لا تكون كذلك، وأنت سليل الهدى
وخامس أصحاب الكساء^(١) وخلف أهل التقوى، وجدك النبي المصطفى
وأبوك على المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ، وعمك جعفر الطيار في
جنة المأوى . وغذتك أكف الحق ، ورييت في حجر الأسلام ،
ورضعت ثدي الأيمان ، فطبت حيا وميتا . فأن كانت الأنفس غير
طيبة لفراقك ، إنها غير شاكّة أن قد خير لك ، وإنك وأخاك سيذا
شباب أهل الجنة ، فعليك أبا محمد منا السلام .

- ٤- خطبة زياد ابن أبيه بالبصرة

جاء في البيان والتبيين : قال أبو الحسن المدائني عن مسلمة بن
محارب، وعن أبي بكر الهذلي ، قال : قدم زياد البصرة واليا لمعاوية بن
أبي سفيان ، وضم إليه خراسان ، وسجستان ، والفسق بالبصرة كثير
فاش ظاهر ، قالوا : نخطب خطبة براء لم يحمد الله فيها . وقال غيرها :

(١) أصحاب الكساء هم فاطمة وعلي والحسن والحسين والنبي صلى الله
عنه وسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم ضمهم إليه في مرط أسود عندما دعا
نصارى نجران إلى مباحلته كما قال تعالى : قل تعالوا ندع أبناءنا ، وأبنائكم . الخ

بل قال : الحمد لله على إفضاله ، وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه ، وإكرامه ؛ اللهم ، كما زدتنا نعماً ، فألهمنا شكراً : أما بعد فأن الجهالة الجاهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ، مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حاماًؤكم ، من الأمور العظام ، ينبت فيه الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدى الذى لا يزول ؛ أتكونوا كمن طرفت ^(١) عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرن أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ، من ترككم الضعيف يقهر ، ويؤخذ ماله ! . هذه المواخير ^(٢) المنصوبة ، والضعيفة المسلوقة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم تكن منكم نهاية عن دلج الليل ، ^(٣) ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون عن المختاس ، كل أمرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معادا . ما أنتم بالعلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ماترون ، من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم الأئسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوساً ^(٤) فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب ، حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا

(١) يقال طرف عينيه إذا أطبق أحد الجفنين على الآخر (٢) جمع ماخوره وهى بيت الزانية . فارسى معرب أو عربى مشتق من مخرت السفينة إذا ترددت فى البحر . لان الناس يترددون عليه (٣) الدلج السير ليلاً (٤) كنوسا جمع كانس . وهو المستتر . والمكانس المكامن

الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير
عنف . وإني أقسم بالله لا آخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل
بالمدير ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقي
الرجل منكم أخاه ، فيقول : انج سعد ، فقد هلك سعيد ، أو تستقيم قناتكم .
إن كذبة المنبر باقواء مشهورة ، فأذا تعلقتكم على بكذبة ، فقد حلت لكم
معصيتي ، فأذا سمعتموها مني ، فاعتمزوها ^(١) في ، وأعلموا أن عندي
أمثالها . من نقب منكم عليه ، فأنا ضامن لما ذهب منه . فأياي ودلج
الليل ، فأني لا أوتى بدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك
بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ، ويرجع إليكم ، وإياي ودعوى الجاهلية
فأني لا أجد أحداً دعابها ، إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم
تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن
حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب على أحد نقبنا على قلبه ، ومن نبش
قبراً دفناه حياً فيه . فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أ كفف عنكم
يدي ولساني . ولا تظهر على أحد منكم ريبه بخلاف ما عليه عامتكم
إلا ضربت عنقه . وقد كانت يدي وبين أقوام إحن ، فجعلت ذلك دبر
أذني ، وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان
منكم مسيئاً ، فلينزعه عن إساءته ؛ إني والله لو علمت أن أحدكم قد قتله
السل من بغضي ، لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدي
لي صفحته ، فأذا فعل ذلك لم أنظره ؛ فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على
أنفسكم ؛ فرب مبتئس بقدمنا سيسر ، ومسرور بقدمنا سيبتئس .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان
الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع
والطاعة فيما أحببنا ، ولناكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا
وفيتنا بما صحتكم لنا ، واعلموا أني مهما قصرت ، فلن أقصر عن ثلاث :
لست محتجبا عن طالب حاجة ، ولو أتاني طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء
ولا رزقا عن إبانة ، ولا مجرا لكم بعنا . فادعوا الله بالصالح لا تمتكم
فأنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى
يصاحوا تصاحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد ذلك غيظكم
ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم
فيهم ، لكان شر لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل ، وإذا رأيتمون
أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله ، وإيم الله إن لي فيكم لصرعى
فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعى .

- ٥ - خطبة عبد الله بن همام الساولي يعزى يزيد في معاوية

وبهنته بالخلافة

يا أمير المؤمنين ، أجرك الله على الرزية ، وبارك لك في العطية ،
وأعانك على الرعية ، فلقد رزئت عظيما ، وأعطيت جسيما ، فاشكر الله
على ما أعطيت ، واصبر له على ما رزيت ، فقد فقدت خليفة الله ، ومنحت
خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووهبت جزيلا ، إذ قضى معاوية نحبه ،
فغفر الله ذنبه ، ووليت الرياسة ، فأعطيت السياسة ، فأوردك الله موارد
السرور ، ووفقك لصالح الأمور ، وأنشد

فاصبر يزيد فقد فارقت ذائقة واشكر حباء الذي بالملك أصفاك

لارزء أصبح فى الاقوام نعمه كما رزئت ولا عقى كعقباكا
أصبحت والى أمر الناس كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاك
وفى معاوية الباقي لنا خلف إذا نعت ، ولانسمع بمنعاعا
- ٦ - خطبة عبد الله بن عباس ينهى الحسين عن الخروج

إلى العراق

قال ابن عباس ينهى الحسين عن الخروج إلى العراق : يا بن عم ،
إنى أتصبر ، ولا أصبر ، إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال
إن أهل العراق قوم غدر ^(١) ، فلا تقرب منهم ، أقم بهذا البلد ، فأنتك
سيد أهل الحجاز ، فأن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب
إليهم ، فلينفوا عدوهم ، ثم اقدم عليهم فأن أبيت إلا أن تخرج ، فسر
إلى اليمن ، فأن بها حصونا وشعابا ، ^(٢) ، وهى أرض عريضة طويلة
ولأبيك بها شيعة . وأنت عن الناس بعزلة ، فتكتب إلى الناس ،
وترسل ، وتبث دعائك ، فأنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية
- ٧ - خطبة الحسين وقد أحس بغدر أهل العراق

أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى »
« ساطئنا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول »
« الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل فى عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير »
« عليه بفعل ولا قول ، كان حقا على الله أن يدخله مدخله » . ألا وإن
هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا
الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفىء ، وأحلوا حرام الله ، وحرموا

(٢) جمع غدور كصبور (٢) الشباب جمع شعب وهو الطريق فى الجبل

حلاله ، وأنا أحق من غير ، وقد أثنى كتبكم ، وقدمت على رسلكم
ببيعتكم : ألا تساموني ولا تحذلوني ، فإن تمتم على بيعتكم ، تصيبوا
رشدكم ، وأنا الحسين بن علي ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، نفس مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلكم في أسوة
وإن لم تفعلوا ، ونقضتم عهدكم ، وخالعتكم بيعتي من أعناقكم ، فاعمرى ما هي
لكم بنكر . لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من
اغتربكم - فخطكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فأنما ينكث
على نفسه ، وسيغنى الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

- ٨ - خطبة المسيب بن نجبة الفزارى يعلن التوبة

عن التقصير في نصره الحسين

حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
أما بعد فأننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ،
فترغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غدا : « أو لم نعمركم ما يتذكر »
« فيه من تذكر ، وجاءكم النذير » فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي »
« أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه
وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا ، وتقريظ شيعتنا ، حتى بلا الله أختيارنا
فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه
وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه ، وقدمت علينا رسله ، وأعذر إلينا يسألنا
نصره ، عودا ، وبدءا ، وعلانية ، وسرا ، فبخلنا عنه بأفسنا ، حتى قتل
إلى جانبنا ، لأنحن نصرناه بأيدينا ، وجادلنا عنه بألسنتنا ، ولا قويناه
بأموالنا ، ولا طلبنا له النصر إلى عشائرننا ، فما عذرنا إلى ربنا ، وعند لقاء

نبينا ﷺ ، وقد قتل ولده وحبيبه وذريته ونسله ، لا والله لا عذر دون
أن تقتلوا قاتله ، والموالين عليه ، أو تقتلوا في طاب ذلك ؛ فعسى ربنا
أن يرضى عنا عند ذلك ، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بأمن

أيها القوم ؛ ولوا عليكم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير
تفزعون إليه ، وراية تحفون بها ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم
٩ - خطبة عبد الملك بن مروان في العراق

دخل الكوفة بعد أن قتل مصعب بن الزبير ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال : أيها الناس إن الحرب صعبة مره
وإن السلم أمن ومسرة ، وقد زبنتنا ^(١) الحرب ، وزبناها ، فعرفناها ،
وألفناها ؛ فنحن بنوها ، وهي أمنا . أيها الناس ، فاستقيموا على سبيل
الهدى ، ودعوا الأهواء المردية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ،
ولا تكافونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ؛ ولا
أظنكم تردادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن نرداد بعد الأعداء إليكم
والحجة عليكم ، إلا عقوبة ؛ فمن شاء منكم أن يعود لمثلها ، فليعد ، فأما
مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعه .

من يصل نارى بلا ذنب ولا ترة يصل بنار ككرم غير غدار
أنا النذير لكم منى مجاهرة كيلا ألام على نهى وإنذار
فأن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا أن سوف تلقون خزيًا ظاهر العار

(١) زبنته معناها دفعة وحرب زبون يعنى يدفع بعضها بعضها

- ١٠ - خطبة الحجاج حين قتل عبد الله بن الزبير

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، فقال :

ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعا للعصاة ، لمنع آدم حرمة الجنة ؛ لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ؛ وأباحه جنته ؛ فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله أكرم من الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة ،

(١١) خطبة له أخرى في أهل العراق وأهل الشام

يا أهل الكوفة ، إن الفتنة تلقح بالنجوى ، وتنتج بالشكوى ، وتحصد بالسيف . أما والله إن أبغضتموني لا تضروني ، وإن أحببتموني لا تنفعوني ؛ وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم زعمتم أنني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « ولا يفلح الساحر » وقد أفلحت وزعمتم أنني أعلم الأسماء كبر ؛ فلم تقاثلون من يعلم ما لا تعلمون ؟ ثم التفت إلى أهل الشام فقال : لأزواجكم أطيب من المسك ، ولأبناءؤكم أنس بالقلب من الولد ، وما أنتم إلا كما قال أخوذ بيان .

إذ حاولت في أسد فجورا فأنى لست منك ولست منى
هم درعى التي استلأمت فيها إلى يوم النصار وهم مجنى
ثم قال : بل أنتم يا أهل الشام كما قال الله سبحانه : ولقد سبقتم
كلتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون

(١٢) خطبة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

خطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال : أيها الناس ، لا يطولن عليكم الأمد ، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة ، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته ، ولا يستعقب من شيء ، ولا يزيد في حسن ، ألا لاسلامة لامرئ في خلاف السنة ، ولإطاعة لخلق في معصية الله ؛ ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الأمام الظالم ، ألا وإنى أعالج أمرا لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وأفصح عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حسبوه ديننا لا يرون الحق غيره . ثم قال : إنه الحبيب إلى أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ، ولا قوة إلا بالله .

(١٣) خطبة لقطري بن الفجاءة

أما بعد فاني أحذركم الدنيا ، فأنها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات وراقت بالقليل ، وتحببت بالعاجلة ، وحايث بالآمال ، وتزينت بالغرور لا تدوم نضرتها ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، وحائلة زائلة ، ونافذة بائدة . لا تعدوا إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله عز وجل : « كء أنزلناه من السماء ، » « فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا » ، مع أن امراً لم يكن منها في حبره (١) ، إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرائها بطناً ، إلا منجته من ضرائها ظهراً ، ولم تصلاه منها ديمة رخاء ، إلا هطلت عليه مزنة بلاء . وحرية إذا أصبحت

له منتصرة أن تسمى له خاذله متذكرة ، وإن جانب منها اعذوب ،
واحلولي ، أمر عليه جانب فأوباً . وإن لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها
نعماً ، أرهقته من نوائبها غماً ، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن ، إلا
أصبح منها في قوادم ^(١) خوف ، غرارة غرور مافيه ، فانية فان من
عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى ، من أقل منها ، استكثر مما
يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ^(٢) ، كم واثق بها قد فجعت
وذى طمأنينة إليها قد صرعت ، وكم من مختال بها قد خدعت ، وكم ذى
أبه قد صيرته حقيراً ، وذى نخوة قد ردت ذليلاً ، وذى تاج قد
كسبه ^(٣) لليدين والفم . سلطانها دول ، وعيشتها رنق ^(٤) ، وعذبها
أجاج ^(٥) ، وحلوها مر ، وغذاؤها سام ^(٦) ، وأسبابها زحام ، وقطافها
سام ^(٧) ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها
بعرض اهتضام ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وضعيفها وسليمها
منكوب . وجامعها ^(٨) محروب ؛ مع أن وراء ذلك سكرات الموت
وزفراته ، وهول المطالع ، والوقوف بين يدي الحكم العدل « ليجزى »
« الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسن » ألتئم في
مساكن من كان قبلكم أطول منكم أعماراً ، وأوضح منكم آثاراً ،

(١) قوادم الطير الريش الذي في مقدمه والمراد هنا مظاهر الخوف

(٢) يوبقه يهلكه . (٣) كبه . صرعه أو رماه في هوة . (٤) رنق

كدر . (٥) الماء الاجاج المالح المر (٦) السام جمع سم . (٧) القطاف

اسم لما يقطف من عنب أو زود ، والسام بفتح اللام شجر مر أو الصير أو سم

(٨) المحروب المسلوب .

وأعد عديداً، وأكثف جنوداً، وأعدت عتاداً، ^(١) وأطول عمداً،
تعبدوا أى تعبداً، وآثروها أى إيثاراً، وظعنوا عنها بالكره والصغار.
قهل بلغسكم أن الدنيا سمحت لهم نفساً بقدية، وأغنت عنهم مما قد أملتهم
به، بل أرهقتهم بالفواحش، وضععتهم بالنوائب، وعفرتهم للمناخر،
وأعانت عليهم ريب المنون؛ وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها وآثرها،
وأخذ إليها، حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد، إلى آخر الأمد، هل
زودتهم إلا الشقاء؛ وأحلتهم إلا الضنك، أو نورت لهم إلا الظلمة،
وأعقبتهم إلا الندامة؛ أفهذه تؤثرن، أو على هذه تحرصون، أو إليها
تطمئنون، يقول الله تبارك وتعالى: «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها»
«نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبغسون؛ أولئك الذين ليس لهم»
«فى الآخرة إلا النار؛ وحبط ما صنعوا فيها؛ وباطل ما كانوا يعملون»
فبئست الدار لمن لم يهتم بها. ولم يكن فيها على وجل منها. فاعاموا وأنتم
تعامون أنكم تاركوها لا بد، فانما هى كما نعت الله عز وجل لعب وهو
وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد؛ فاتعظوا فيها بالذين
يبنون بكل ربيع آية، وبالذين قالوا من أشد مناقوه، واتعظوا بمن رأيتم
من إخوانكم، كيف حملوا إلى قبورهم، فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا،
فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الضريح أكنان، ومن التراب أكفان،
ومن الرفات جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيماً،
يزارون ولا يستزارون، حلماء قد ذهب أضعانهم، وجهلاء قد ماتت
أحقادهم، لا يخشى فجعهم، ولا يرجى دمعهم، وهم كمن لم يكن؛ قال الله

تعالى : « فتلک مساکنهم لم تسکن من بعدهم إلا قليلا ، وکننا نحن »
« الوارثین » استبدلوا بظاهر الأرض بطننا ، وبالسعة ضيقاً ، وبالأل
غربة ، وبالنور ظلمة ، فجاءوها حفاة عراة فرادی ، وطمعنوا بأعمالهم إلى
الحياة الدائمة إلى خلود الأبد ؛ يقول الله تبارک وتعالى : « کما بدأنا أول
» خلق نعيده ، وعداً علينا ، إنا کنا فاعلین » ، فاحذروا ما حذرکم الله
وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ع من الله وإياکم بطاعته ، ورزقنا
وإياکم أداء حقه

١٤ - خطبة أبي حمزة الشاربي بمكة

جاء في کتاب البيان والتبيين : دخل أبو حمزة الخارجي مكة ، وهو
أحد نساك الأباضية ، وخطبائهم ، واسمه يحيى المختار - فصعد المنبر
متوكئاً على قوس له عربية ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إن
رسول الله ﷺ كان لا يتأخر ، ولا يتقدم ، إلا بأذن الله ، وأمره ووحيه ،
أنزل الله له کتاباً ، بين له فيه ما يأتي ، وما يتقى ، فلم يكن في شك من
دينه . ولا شبهة في أمره . ثم قبضه الله إليه ، وقد علم المسلمین معالم
دينهم . وولى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دنياهم : حين ولاه
رسول الله ﷺ أمر دينهم ، فقاتل أهل الردة ، وعمل بالكتاب والسنة ،
فمضى لسبيله رضي الله عنه . ثم ولى عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى
عنه ، فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجبى الفیء ، وفرض
الاعطية ، وجمع الناس في شهر رمضان ، وجلد في الحجر ثمانين ، وغزا
العدو في بلادهم . ومضى لسبيله رضي الله عنه . ثم ولى عثمان بن عفان ،

فسار ست سنين بسيرة صاحبيه . وكث دونهما ، ثم سار في الست
الاء واخر بما أحبط به الأوائل ، ثم مضى لسبيله رضى الله عنه . ثم
ولى على بن أبى طالب فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم
مضى لسبيله رضى الله عنه . ثم ولى معاوية بن أبى سفيان لعين رسول
الله ، وابن لعينه ، اتخذ عباد الله خولاً^(١) ومال الله دولاً^(٢) ودين الله
دغلاً^(٣) ثم مضى لسبيله ، فالعنوه ، لعنه الله . ثم ولى يزيد بن معاوية
يزيد الخور ، ويزيد القرود ، ويزيد الفهود الفاسق فى بطنه

..... ثم اقتصم خليفة خليفة فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز
أعرض عنه ، ولم يذكره . ثم قال : ثم ولى يزيد بن عبد الملك الفاسق
فى بطنه الذى لم يؤنس منه رشد ، وقد قال تعالى فى أموال
اليتامى ، فإن آستم منهم رشداً ، فادفعوا إليهم أموالهم ، فأمرأمة محمد
أعظم . يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس الحلة قومت بألف دينار ،
قد ضربت فيها الأبخار ، وهتكت فيها الأستار ، وأخذت من غير
حلها ، حباية عن يمينه ، وسلامة عن يساره تغنيانه ، حتى إذا أخذ الشراب
منه كل ما أخذ قد توبه ، ثم التفت إلى إحداهما ، فقال « ألا اطير » نعم
فطر إلى لعنة الله ، وحريق ناره ، وأليم عذابه

وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية ، يأخذون
بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب . ويحكمون بالشفاعة
ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها فى غير أهلها ، وقد بين

(١) عبيداً (٢) جمع دوله وهى ما يتداول من المال (٣) الدغل مافيه
فساد (٤) حباية وسلامة قينتان كان يحبهما

الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إنما الصدقات للفقراء ، »
« والمساكين ، والعاملين ، عليها ، والمؤلفه قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين »
« وفي سبيل الله ، وابن السبيل » فأقبل صنف تاسع ليس منها ، فأخذها
كلها ، تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله

وأما هذه الشيع فشيعة ظاهرة بكتات الله ، وأعلنت الفرية على
الله ، لم يفارقوا الناس ببصر نافذ في الدين ، ولا بعلم نافذ في القرآن ،
ينقمون المعصية على أهلها ، ويعملون إذا ولو بها ، يصرون على الفتنة
ولا يعرفون المخرج منها ، جفاة عن القرآن ، أتباع كهان ، يؤملون
الدول في بعث المولى ، ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا ، قلدوا دينهم رجلا
لا ينظر لهم ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون ، ثم أقبل على أهل الحجاز ، فقال
يا أهل الحجاز : أتعيروني بأصحابي ، وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا ، أما والله أنى لعالم بتتابعكم فيما
يضركم في معادكم ؛ ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ، ما تركت الاخذ فوق
أيديكم ؛ شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم
ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء ^(١) عبادة ؛ وأطلاح ^(٢) سهر ؛ فنظر الله
إليهم في جوف الليل ؛ منذنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم آية
من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ؛ وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة
كائن زفير جهنم بين أذنيه ، وصل كلالهم ^(٣) بكلالهم ، كلال الليل
بكلال النهار . قدأكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم
واستقلوا ذلك في جنب الله ؛ حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ^(٤) والرماح

(١) جمع نضو وهو الخفيف من التعب (٢) جمع طلح وهو الممزول (٣) الكلال

التعب (٤) فوق السهم جعل له فوقا وهو ما يوضع فنه في القوس

قد اشرعت^(١) ، والسيوف انتضيت^(٢) ، ورعدت الكتيبة بصواعق من الموت وبرقت ، استخفوا بو عيد الكتيبة ، لو عيد الله ومضى الشباب منهم قدما^(٣) ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت إليه طير السماء فكم من عين في مناقير طالمابكي صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله . ثم قال : « أوه أوه أوه » ثم بكى ثم نزل .

(١٥) خطبة للحسن البصرى

خرج الحسن البصرى يوما على أصحابه ، وهم مجتمعون ، فقال : والله لو أن رجلا منكم أدرك من أدركت من القرن الأول ، ورأى من رأيت من الساف الصالح ، لأصبح مهموما ، وأمسى مغموما ، وعلم أن المجد منكم كاللاعب ، والمجتهد كالتيار ، ولو كنت راضيا عن نفسي لو عظمتكم ، ولكن الله يعلم أنى غير راض عنها ، ولذا أبغضتها ، وأبغضتكم

أيها الناس ، إن الله عباد اقلوبهم محزونة ، وشروورهم مأمونة ، وأنفسهم عفيفة ، رحوائجهم خفيفة ، صبروا الأيام القلائل ، لما رجوه في الدهور الأطاول . أما الليل فقامون على أقدامهم ، يتضرعون إلى ربهم ، ويسعون في فكك رقابهم ، تجري من الخشية دموعهم ، وتينق من الخوف قلوبهم

(١) رفعت ووجهت وجهة العدو (٢) قدسلت (٣) مضى قدما معناها

مضى إلى الحرب

وأما النار فإماماء أتقياء أخفياء ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ؛
تخالهم من الخشية مرضى : وما بهم من مرض ، ولكنهم خصصوا
بذكر النار وأهوالها . لهم والله كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم
عليكم ، وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم ، منكم لدنياكم بأبصاركم ، ولهم كانوا
لحسناتهم أن تردعهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم : « أولئك »
« حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

الخطابة في المائة الاولى

من العصر العباسي

تمهيد : - اشتد إيذاء الأمويين لآل البيت ، وكثر القتل الذريع
فيهم ، وفي أنصارهم ، وكان بجوار ذلك الإيذاء تعصب للعرب والعربية
فأحرق ذلك الفرس وغيرهم ، فوجد آل البيت السبيل للاتقاض عليهم
معبدا ، إذ قد مل الناس مظالمهم ، ونفروا من حكمهم ؛ لما شاع من حالة
السوء عنهم ، ثم وجد الفرس المنتقمون لجنسيتهم مبرراً للخروج
وهو الانتصار لأهل البيت ، بينما وجد هؤلاء فيهم نصراء لهم
يعاضدونهم في اللاؤاء ، ويؤازرونهم في الشديدة ، فخصروا دعوتهم فيهم
لذا دبر العباسيون الأمر في مسطافارس ، وبيتوا مكرهم وأخفوا تدبيرهم
حتى لاحت لهم الفرصة ، فانتهزوها ، وأبعدوا الأمويين عن عرش
المسلمين ، وتولوه هم باعتبار أنهم أقرباء النبي (ﷺ) الأذنون ، وورثته
المستحقون للخلافة من بعده ؛ ولم يكدر الأمر يستقر لهم ، حتى
انتقض عليهم أبناء على رضي الله عنهم ، لأنهم أصحاب البلاء ، وأهل
الجلاد ، والنضال ، ولأن العباسيين وصلوا إلى الحكم على كواهلهم ،
وابتزوه منهم اشتد النضال بالكلام وبالسيف بين الفريقين المتناحرين
كل يدعو الناس إلى تأييده ، ويبرهن على صدق دعواه بما يستطيع
من بيان ، ويدلي بما عنده من دليل . وقد شغل ذلك النضال أكثر
مدة أبي جعفر المنصور ، حتى تم له الانتصار عليهم بالسيف ،
وأهواء كثيرين من أنصاره معهم

(٢) وقد كان العباسيون سيئى الظن بالعرب ؛ لأنهم أنصار
الأمويين ، شديدي الثقة بالفرس ، لأنهم أنصارهم ومقيموا دولتهم ،
ولذلك كان كبار القواد والزعماء والنوّرء والنابيين فى الدولة منهم ، وقد
انتهمزها الفرس لنشر سلطانهم ، وإحياء قديم مجدهم ، ونشر المقبور
من آدابهم وأفكارهم . ولذلك أخذت العادات الفارسية تصبغ الحياة
الاسلامية بصبغتها ، وأخذت الأفكار الفارسية ، تتورد على ذهن
الاسلامى ، وتسيطر على البيئة الفكرية ، وانتشرت بين المسلمين
حكيمهم ، وكثير من معلوماتهم ، لانهم كانوا أقوياء بذلك السلطان
وأقوياء بآمالهم فى إحياء دارس حضارتهم ، وكانوا أقوياء بحضارتهم
القديمة . وميراثهم الفكرى الذى ورثوه عن أسلافهم

(٣) والفكر الفارسى الذى أثر فى الحياة الاسلامية ذلك التأثير
كان يحمل معه ثمرات من الفكر اليونانى ، فان الفلسفة اليونانية كانت
منتشرة فى بلاد فارس قبيل الاسلام . وقد كان هذا وغيره سببا فى
كثر العلوم الفلسفية ، وانتشارها بين المسلمين ، وكانت تعقد المناظرات
والمنافشات فى كل مكان ، وكثير منها كانت يعقد فى مجالس بعض
الخلفاء ، كالمأمون الذى كان معجبا بالفلسفة اليونانية وغيرها ، بل كان هو
يعتد فيلسوفا حكما ذارأى وسط معتلج الآراء ، ومتناحر الأفكار .
وقد كانت هذه المناظرات موضوع سبق المجدين للقول ، فيها يتبارون فى
البيان وروعته ، ويتسابقون فى المعانى وإحكامها ، ولذلك أخذت
المناظرات تحمل محل الخطابة على ماسذيين إن شاء الله تعالى فى عوامل
المخطاط الخطابة

موضوعات الخطابة ودواعيها في ذلك العصر

يتشابه صدر الدولة العباسية مع صدر الدولة الأموية ووسطها في بعض الوجوه ، لأن كلتا الدولتين نشأت في وسط فتنه هوجاء ، كثيرة العنف ، قوية الأثر ، شديدة اللجب ، ولأن كلتاهما ماتكادان تستقران حتى يخرج الخارجون من كل ناحية ، وتهدد الدولة بالتمزيق ، والوحدة بالانقسام ، والخلفاء الأوائل في كلتا الدولتين ، كانوا ذوي بيان ولسن ، القول البليغ عندهم وذخيرتهم . ولهذا التشابه كانت الخطابة رائجـة في صدر الدولة العباسية ، كما كانت رائجـة في صدر الدولة الأموية ، ووسطها ، وكانت موضوعات الخطابة في الدولتين متقاربة ، ودواعيها متشابهة .

ومن الدواعي للخطابة في العصر العباسي .

(١) الدعوة العباسية . قامت الدعوة العباسية على إثبات حق آل البيت في الخلافة ، وأنهم أولى الناس بها ، لقرابتهم من رسول الله ﷺ ، ولأنهم صفوة قريش المختارة ، ولأن الله اختصهم بفضله ليس في غيرهم ، قامت دعوة بني العباس على ذلك ، وعلى بيان مظالم الأمويين ، واعتسافهم ، وما ارتكبه من مآثم في أول عهدهم وآخره ، وما انتهكوه من حرمانات ، وما أباحوه من دم آل النبي ﷺ ، إذ قتلوا الحسين وأولاً قتلة فاجرة . وقتلوا أحفاده زيد بن علي ويحيى ابنه ، وقتلوا إبراهيم الأمام آخراً

وذلك كله ببيان رائع ، وخطب قيمة ، وقول بارع ، وبلاغة واصلة إلى أعماق النفوس ، مثيرة نقمة الناس عليهم ، وحافزة الانصار على الانتقام منهم ، لذلك كانت الدعوة العباسية موضوعاً من موضوعات

القول ، وداعياً من أعظم دواعيه ، وقرأ خطب داوود بن علي وغيره ،
من خطباء العباسيين تر ذلك واضحاً كل الوضوح .

(٢) بيان سياستهم : لما تم الأمر لبني العباس ، كانوا يعلنون سياستهم
على المنابر ، ليوازن الناس بين حكمهم وحكم الأمويين ، وقد كان بعضهم
يحاول أن ينهج في ذلك منهج الخلفاء الراشدين ، يسر الخطبة ،
ويبين أنه يقيم الحدود ، ينفذ أحكام الله تعالى ، ويعلن سلطانه ، وانظر
إلى قول السفاح في بعض خطبه : « والله لا أعدكم إلا وفيت بالوعد »
« والوعيد ، ولا عملن اللين ، حتى لا تنفع إلا الشدة ، ولا نغمدن السيف »
« إلا في إقامة حد ، أو بلوغ حق ، ولا أعطينكم حتى أرى العطية ضياعاً »
وانظر أيضاً إلى قول داوود بن علي : « لكم ذمة الله تبارك وتعالى »
« وذمة رسوله ﷺ ، وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل »
« الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة »
« رسول الله ﷺ » ، انظر إلى هذا وذاك تر أن هذين الخطيبين
يحاولان أن ينهجاً في خطبهما منهج الخلفاء الراشدين ، وإن كان العمل
ينأى عن عمائمهم ، وكذلك كانت خطب كثيرين منهم ، وقد كان الخلفاء
يحاولون أن يتصلوا بالعامة ، ويذكروهم العهود ، كلما جد أمر ، أو حدث
شأن من الشؤون ، كما فعل أبو جعفر عند مقتل محمد بن عبد الله بن حسن
الملقب بالنفس الزكية ، وعند قتل أبي مسلم الخراساني ، وترى من كل
هذا أن اتصال الخلفاء بالشعب ، والعمل على إعلان سياستهم ، كان
داعياً من دواعي الخطابة ، وموضوعاً من موضوعاتها .

(٣) الفتن : قامت الدولة العباسية في وسط فتن كثيرة ، ولم تنته

بقيامهم ، بل رأى أبناء عمهم العلويون أنهم اغتصبوا الأمر منهم ،
وابتزوه ابتزازاً دونهم . وهم الأولى لسابقتهم ، وقديم بلائهم ، وسالف
جهادهم ، وأن الشيعة التي ناصرت ، وأقامت ملك العباسيين شيعتهم ،
وأن أولئك استخدموا مجدهم ، وبنوا عليه ما أرادوا ، واستبدوا به
دونهم ، لذلك شغلوا الدولة بخروجهم ، وتقدموا بشرفهم التليد ،
وحاضرهم العظيم ، ودعوا لأنفسهم ، ورد عليهم المنصور بخطب قد
ملاها بالأدلة التي تثبت حق العباسيين ، والبراهين على صدق دعواهم ،
وابطال دعاوى خصومهم من بني عمهم ، وكان ذلك الخروج حافظاً
للبيان ، وموضوعاً من موضوعاته .

ولم يكن الخروج مقصوداً على العلويين ، بل خرج في عهد
المهدي المنعم الخراساني ، فشاور المهدي أهل بيته ، فكانت تلك المشاورة
ميداناً واسعاً للبيان الجيد ، والقول المبين ، وقد جاءت مفصلة في العقد
الفريد ، فارجع إليها

وكانت بعد ذلك - الفتنة بين الأميين والمأمون ، وفيها وجدت
الخطابة مرتعاً خصيباً ، وترى من هذا أن الفتن التي ادلهمت في ذلك
العصر ، واتسع نطاقها ، وتوالت أحداثها ، كانت كشأنها في كل العصور
عاملاً من عوامل نهوض الخطابة ، وموضوعاً من موضوعاتها .

(٤) الوفاة: كان يفد على الخلفاء والأمراء ، وفود في ذلك العصر
كما كان الشأن في العصر الأموي ، وإن كان ذلك أقل ، وقد كانوا
يتبادلون الخطب ، ومن ذلك وفد أهل الشام على المنصور بعد استقامتهم
إذ جاءوا إليه يعتذرون ، وكانت تليق الخطابة في موضوع تلك الوفادات

فكانت الوفادة داعياً من دواعي الخطابة، وموضوعاً من موضوعاتها .

(٥) المجالس : كانت المجالس تعقد ، ويتسابق أصحاب اللسان والبيان في الأجادة ، وكثيراً ما كانت تلك المجالس مكان مناقشات علمية ، وكلامية ودينية وتناحر مذاهب ، تستخدم فيها كل أساليب الخطابة الرائعة من محاولة تأثير ، واجتذاب إلى فكرة ، وقد كان أولو السبق في تلك المجالس المعزلة أصحاب الكلام ، إذ هم أهل السبق في فنون البيان من بين الفرق الدينية ، وامتاز من بينهم بالأجادة والفصاحة عمرو بن عبيد ، وبشر بن المعتز ، وأبو الهذيل ، والنظام ، وكثيراً ما كانت مباريات هؤلاء الكلامية ، في مناقشة أصحاب المبادئ الهادمة للأديان .

(٦) الوعظ الديني : وقد كان الوعظ الديني هدفاً يرمى إليه الخطباء ومقصداً يقصدونه ، وكثيراً ما كان يجري ذلك الوعظ على السنة الخلفاء أنفسهم ، لما يعتقدونه في أنفسهم من أنهم قادة الأمة في دينهم ، وهداتهم في معرفة أمر ربهم ، واستمع إلى قول المنصور يرد على من اعترض عليه في خطبته يذكره الله قائلاً : « أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به » فقد قال أبو جعفر في كلام : « وإياك وإياكم معشر الناس وأختها » « فأن الحكمة علينا نزلت ، وعندنا فصلت ، فردوا الأمر إلى أهلها » « توردوه موارد ، وتصدروه مصادره » ألا ترى من هذا الرد أن خلفاء بني العباس يضعون أنفسهم موضع المرشدين القادة في الدين والدنيا جميعاً ، ويزعمون أنهم أعلم الناس بأمور الدين ، فلا عجب بعد ذلك إذا كان الوعظ الديني قد راج على ألسنتهم ، وقد ورد في كثير من خطب الرشيد ، والمأمون وعظ ديني ممتاز .

ولم يكن الوعظ مقصوراً على الخلفاء كما أشرنا ، بل كان منهم ومن غيرهم ؛ لأنه مبدأ ديني سام فرض في صلاة الجمعة والحج والعيدين ، وكان شريعة عامة تجب على كل مسلم ما استطاع إليه سبيلاً ، بمقتضى إلزام المسلمين جميعاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كل بما يستطيعه ؛ ولذا كان الوعظ الديني غرضاً خطابياً للخطابة في كل عصورها الإسلامية

(٢) ألفاظ الخطابة ومعانيها وأسلوبها

كانت الخطابة في الجملة في ألفاظها ، وأساليبها ، ومعانيها تقارب الخطابة في العصر الأموي ، لتشابه الشئون التي دفعت الألسنة إلى البيان ، وما بينهما من فرق سببه تباعد الزمن ، واتساع نطاق الحضارة ، واستبحار المعارف ، وكثرة العلوم ، وتدوينها ، تلك الأمور التي امتاز بها العصر العباسي .

الألفاظ : فالألفاظ في ذلك العصر كانت تشابه ألفاظ الخطابة في العصر الأموي وصدر الإسلام ، ولكنها قد زادت عنوبة ، مع الفخامة والقوة أحياناً ؛ والسبب في ذلك أن الحضارة قد تمكنت من النفس العربية ، وتغلغلت في ثناياها ، فسهلتها وألانتها ، ولم يعد للصحراء أثر قوي في نفوس خطبائهم ، فكانت الألفاظ مؤائمة لما صدرت عنه ، ومطابقة لما اقتضاها .

المعاني : والمعاني تقارب المعاني في العصر الأموي ، ولكنها زادت عليها في أمور منها

(١) زيادة المبالغة والتهويل ، خصوصاً فيما يتعلق بمنصب الخلافة

ومنزلة الخلفاء ، وذلك لما كانوا يذكرونه من نسبتهم إلى النبي ﷺ وأنها مناط العز ، وسبب الرفعة ، ويبالغون فيما ينبئ على ذلك النسب من استحقاق للاستعلاء ، ولأن المبالغة تسود حيث تكثر صناعة الكلام ، ومحاولة إجادته ، وذلك كان قائما عند ما كان للخطابة سوق رائجة

(٢) زيادة التفنن في المعاني والبحث عن دقتها ، والغوص وراء عميقها ؛ وذلك لكثرة الترجمة ، وسيادة البحوث العلمية ، فقد كان الخطباء ينالون من ثمرات الترجمة الدانية التي تخدمهم في أغراضهم البيانية ، فإذا استطاعوا أن يقبسوا مما ترجم ابن المقفع وأمثاله من حكم ، قبسوا ، وحلوا به خطبهم ، وربما حاكى بعضهم ذلك النهج في خطبه ، فبدت عميقة الفكرة ، محكمة المعنى ، وانظر إلى قول المأمون في بعض خطبه في الوعظ : « واعلموا أن الدنيا ليست بدار ، فاستبدلوا » « فأن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم » « وبين الجنة أو النار ، إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة » « وتهدمها الساعة الواحدة ، لجديرة بقصر المدة ، وإن غائبا يحدوه » « الجديد أن الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز » « أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتق عبد ربه ، ونصح نفسه ، » « وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فأن أجله مستور عنه ، وأمله خادع » « له ، والشيطان موكل به » فأنك ترى في هذا الكلام روح الفلسفة ودقتها ، وعمقها ، وحكمتها

(٣) كثرة المعاني الدينية : فقد كثرت هذه المعاني على السنة الخطباء ، خصوصا الخلفاء ، لأنهم وثبوا إلى الخلافة باسم الدين ، لقرابتهم

من النبي الكريم ، وبتهويلهم في مظالم الأمويين ، وخروجهم عن جادة العدل ؛ فطبعي أن تكون خطب الخلفاء منهم تنحو منحى دينيا إذ يؤيدون بالدين دعوتهم ، ويدافعون عن أعمالهم بوصفها به ، وبيان أنها صادرة عنه ، وواردة إليه ، وقرأ خطباء صدر هذه الدولة ، تر ذلك واضحا كل الوضوح ، ومن ذلك قول أبي جعفر المنصور في إحدى خطبه : « أيها الناس إنما أنا ساطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه » « وتسديده ، وتأيينه . وأنا خازنه على فيثه ، وحارسه على ماله ، أعمل » « فيه بمشيئته ، وأقسمه بأرادته ، وأعطيه بأذنه ، قد جعاني الله عليكم » « قفلا ، إن شاء أن يفتحني لأعطياتكم ، وقسم فيثكم ، فتحني ، وإن » « شاء أن يقفلني ، أقفلني » .

وقد كانت المعاني تهديدية عنيفة في بعض الأحيان ؛ وذلك عند خطاب قوم يتوقع الخليفة انتقاضهم ، أو لم يتعود نصرتهم ، بل عودوه الحرب والخصام ، كشان أهل الشام ، ففي خطاب هؤلاء ، ترى الخطابة الحجاجية على أنم ظهورها ووضوحها

الأساليب : وكانت الأساليب أيضا تقارب في جملتها أساليب الخطابة الأموية ، ففيها كان الاستشهاد بالقرآن الكريم ، والاعتباس من آيه ، والاستشهاد بالشعر العربي المناسب ، ولكن زادت في أمور منها .

(١) المبالغة في تنسيق الخطبة ، وإحكام تقسيمها ، حتى أن بعضهم كان يضمن مقدمته إشارة إلى موضوعها ، وذلك لأن الخطابة

أخذت تصير عاماله قواعد وأصول ، وعنى بعض الناس بنشر بعض أصولها ، وتعليم قواعدها وقد ذكرنا لك آنفا ما كان بين بشر بن المعتمر ، و ابراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني من حديث ، وهو يدل الدلالة كلها على أن الخطابة قد صارت قواعد تلقن ، وعاماً يدرس ، ويتبع ذلك حتماً أن ~~يأخذ~~ الخطباء أنفسهم بأن تكون خطبهم موافقة لقواعد النقد التي كانت مقاييس ، وموازن لوضع الخطيب في مواضعها الأدبية

(٢) وكثرة الكلام ذي الفقرات القصيرة المختومة بكلمات ذات رنين قوى ، تذهب أصداؤه في النفس ، فتستولى عليها . وفي الحق إن الكلام الخطابي كان فيه المرسل ، وكان فيه الكلام المزدوج المقسم إلى فقرات قصيرة ، وكان فيه السجع ، ولكن المرسل كان أقلها ، والمزدوج أكثرها ، والسبب في قلة الأرسال في هذا العصر عن سابقه ، أن إعداد القول قد كثر ، وحيث كان ذلك ، قل الكلام المرسل ، ولكثرة الخطباء من الموالى ، وهؤلاء من دأبهم محاولة التحسين والتكاف ، ليعوضوا به ما نقصته سليقتهم اللغوية

(٣) الأئجهاز والأطناب

كان في خطب هذا العصر الخطب الطويلة ، والخطب القصيرة ، وكان لكل مقام ما يقتضيه ، ولكنهم كانوا إلى الطول أميل ، يختارون مواضع البسط والأطناب ، ويكررون المعنى الواحد بعبارات مختلفة الألفاظ والأساليب ، مرة بالاستفهام ، وأخرى بالتقرير ، وأخرى بالنفي ، ويحاولون بذلك أن يثبتوا المعاني في نفوس سامعيهم ، ليكون

الغرس بعيد الغور ، فيثمر أطيب الثمرات ، وأدناها جنى ، وهم في ميالهم إلى الطويل من الكلام دون قصيره يشبهون بنى أمية ، وينهجون نهجهم ، وسترى نموذجاً من خطبهم بنوعيتها إن شاء الله

(٤) أسباب قوة الخطابة في ذلك العصر وأسباب ضعفها

قويت الخطابة في صدر الدولة العباسية ، وضاهات صدر الدولة الأموية في علوها وارتفاع شأنها ، وذلك

(١) لأن الدولة أحيطت بنطاق من الفتن والثورات والخروج على حكمها ، فكانت الحاجة ماسة إلى الخطب الرائعة ، يدافع الخلفاء بها عن أنفسهم ، ويدعون الناس إلى البقاء على تأييدهم ، ومقاومة خصومهم وليذبوا عن حياضهم ، ويلجنوا بالحجة على مخالفينهم ، والفتن دئماً تحرك الألسنة ، وتدفعها إلى القول ، إذ يلتبس الحق بالباطل ، ويكون الغلب لمن هو أقوى بياناً ، وأسبق خصاماً ، وقد سبق بيان ذلك كثيراً

(٢) والخلفاء في صدر الدولة كانوا أولى الأمر والنهي ، وقد كانوا من بنى هاشم الذين اشتهروا بالفصاحة واللسن ، وقوة الحجة سلفهم وخافهم في ذلك سواء ، سئل سعيد بن السيب : من أبلغ الناس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال السائل إنما أعنى من دونه : فقال : معاوية وابنه ، وإن ابن الزبير لحسن الكلام ، ولكن ليس على كلامه ملح . فقال له الرجل : فأين أنت من علي وابنه ، وابن عباس وابنه ؟ فقال : إنما عنيت من تقاربت أشكلهم ، وتدانت أحوالهم ، وكانوا كسهام الجعبة ، وبنو هاشم أعلام الأئمة ، وحكام الإسلام .

وقد ظهرت مواهب بنى العباس الخطابية في صدر دولتهم ، وإبان

سطوتهم. قال الجاحظ في بيان مقدرتهم البيانية : « وجماعة من ولد
« العباسي في عصر واحد، لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي ، وفي
« الكمال والجلالة ، وفي العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدولة ، مع البيان
« العجيب ، والغور البعيد ، والنفوس الشريفة ، والأقدار الرفيعة ،
« وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الأخبار ، وكانوا يجلبون عن
« هذه الأسماء ، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك ، منهم عبد
« الملك بن صالح ، وسأله الرشيد ، وسليمان بن جعفر وعيسى بن جعفر
« شاهدان ، فقال له : كيف رأيت أرض كذا وكذا؟ فقال مسافى ^(١)
« ربح ، ومنابت ^(٢) شبيح . قال : فأرض كذا وكذا؟ . قال : هضاب حمر ،
« وبراث ^(٣) عفر ، حتى أتى على جميع ما أراد . ثم قال عيسى لسليمان :
« والله ما ينبغي لنا أن نر تضي لانفسنا بالدون من الكلام . وتري من
هذا كيف كانت منزلة هؤلاء من البيان ، وقد كانت الخطابة قوية
ناهضة ، ما كان السلطان في الدولة للخلفاء أنفسهم .

(٣) وقد كانت جمهرة الأئمة في صدر الدولة ممن يقيمها القول
البليغ ويقعدها ، يفقهون مرامي العبارات ، ورامي الكلام ، فكان
من حالهم مشجع للخطباء على القول ، فاما حالت الحال ، وغابت العجمة
وماتت النعرة العربية أو خبت ، لم يكن من القوم من محسن الاستماع

(١) المسافى جمع مسفى وهو اسم مكان من سفى يسفى بمعنى ذرا يذرو
(٢) الشبيح أسم انبت . والكلام كله كذايه عن الجذب والمحل وأن لا زرع
إلا الشبيح (٣) البراث الأرض السهلة اللينة وعفر جمع عفراء وهى الأرض
البيضاء التى لم توطأ

ولامن الزعماء من يجيد البيان .

وقد أخذت الخطابة في الضعف بعد المائة الأولى من حكم العباسين
وتضافرت أمور في إضعافها، ومن أعظمها أثراً، وأبينها شأنًا

(۱) أن الدواعي إلى القول، قد ضعفت، فقد ثبتت دعائم الدولة،
وقامت أركانها، وقل الخروج عليها، إذ قضوا، أو كادوا يقضون
على أبناء عمهم العلويين في الشرق، وقل خلاف العباسيين فيما بينهم، فذهب
بسبب ذلك السكون أعظم دواعي الخطابة، وإذا ضعف الداعي إلى
الخطابة، وقلت الحاجة إليها، ضعف أمرها، وهان شأنها .

(۲) وأن الجند وهم حماة الدولة غلبت عليهم العجمة، إذ كان
العباسيون يستعينون في حماية دولتهم، بالفرس والترك، وهؤلاء
لا يثيرهم القول العربي البليغ، وإنما تثيرهم عصبيتهم الجنسية التي كان
لها السلطان الأكبر في ذلك العصر، إذ حلت محل العصبية القبلية
عند العرب، فذهبت بذلك الخطابة في الجند حثًا لهم على الجهاد، أو
إيقاظًا للأيتار والتقوى في نفوسهم، أو لالقاء الحمية في قلوبهم .
فذهب من الخطابة داع من أعظم دواعيها، وموضوع من أكبر
موضوعاتها .

(۳) ضعف أمر العرب، وذهاب سلطانهم، وضياع نفوذهم، حتى
كادوا ينحازون إلى صحرائهم لا يعدونها، وبضعف العرب، وهم أهل
الفصاحة والبيان واللسن والارتجال، ضعفت الخطابة، لأنهم أقدر
الناس عليها، إذ ليس المتعرب كالعربي، ولا الكسبي كالطبعي،
ولا الملقن كالسليق

(٤) وأن الكتابة قد حلت محل الخطابة ، فقد اتسعت موضوعاتها وتعددت أغراضها ، حتى صار الخليفة أو الوالى أو القائد إذا أراد أن يدعو من هم تحت أمرته إلى شئ ، أناب كتابه عن خطابه ، فأرسل إليهم كتاباً يقرأ ، ويرجع إليه آناً بعد آن ، وبذلك استغنى عن الخطابة فى أخص موضوعاتها

(٥) وفعود الخلفاء عن الخطابة ، وإنابة غيرهم منابهم فى الصلاة بالناس ، فاستهان الناس بمواقف الخطابة تقليداً لخلفائهم ، ومحاكاة لأمراءهم ، والناس للو كهم تبع ، وقد تبع استهانة الناس بالخطابة استهانتهم بالخطيب ، وقلة احترامهم له ، وبهذا ضعفت الرغبة فى القول

وإذا كانت الخطابة قد ركبت لهذه الأسباب ، فقد خلفها فن من القول صاحبها زمناً ، ثم انفرد بعدها بالسلطان ، وذلك القرن هو المناظرة ، يتفق مع الخطابة فى الارتجال ، ومحاولة الغلب بالبيان ، والسبق باللسان ، ويخالفها فى الموضوع ، وقد سادت المناظرات ذلك العصر ، لأن الحياة العقلية كانت لها السيادة ، وعظم أمر العلم ، فكثرت مساجلات العلماء فيما بينهم ، وصارت مجالس العلم ميداناً للمسابقة الكلامية والجدلية بين زعماء الفرق الإسلامية ، وكان المتكلمون يحرصون على بلاغة الكلام ، وإيضاح البيان ، والتأثير بالأقناع بعد الألفام .

(٥) الخطباء

امتاز بالخطابة عدد عظيم من رجال هذا العصر ، أقوام ينانا ،
وأشدهم تأثيراً ، وأقدرهم على الأدلاء بالحجة خطباء الهاشمين : عباسين
وعلويين ، ومن خطباء العباسيين داوود بن علي بن عبد الله بن عباس ،
وعبد الله بن علي ، وصالح بن علي ، وابنه عبد الملك بن صالح ، وسليمان
ابن جعفر الذي قال فيه البصيرون بالكلام من أهل مكة عند ما وليها :
إنه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام ، إلا وسليمان أبين منه قاعداً ،
وأخطب منه قائماً .

ومن خطباء العلويين محمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالنفس
الزكية ، وأخوه إبراهيم ، وجعفر الصادق ، والعباس بن الحسين ، وكان
مقرباً من الرشيد والمأمون ، حتى قال فيه المأمون : من أراد أن يسمع
لهواً بلا حرج ، فليسمع كلام العباس

وممن عرف بالخطابة من غير الهاشمين خالد بن صفوان ، وابن عمه
شبيب بن شيبه ، والفضل بن عيسى ، وابنه عبد الصمد ، وهما من
الموالى ، ومن الموالى أيضاً جعفر بن يحيى البرمكي ، والفضل بن سهل ،
وأخوه الحسن ، وطاهر بن الحسين ، وابنه عبد الله بن طاهر ، وغير
هؤلاء كثيرون .

(٦) نماذج من خطب هذا العصر

(١) خطبة داود بن علي بعد بيعه أبي العباس السفاح
الحمد لله ، شكرًا شكرًا شكرًا ، الذي أهلك عدونا ، وأصار
إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ . أيها الناس ، الآن أقشعت^(١) حنادس
الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس
من مطلعها ، وبزغ القمر من منزعه ، وأخذت القوس باريها ، وعاد السهم
إلى منزعه^(٢) ورجع الحق إلى نصابه ، في أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة
والرحمة بكم ، والعطف عليكم .

أيها الناس ، إنا والله ما خرجنا في طاب هذا الأمر ، لكثرة لجينا
ولا عقيانا^(٣) ، ولا نحفر نهراً ، ولا نبني قصراً ، وإنما أخرجنا الأتفة من
ابتزازهم^(٤) حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرثنا^(٥) من أموركم ،
وبهظنا^(٦) من شئونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا^(٧) ونحن على
فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستذلالهم
لكم ، واستئثارهم بثانيكم وصدقانكم ، ومغائركم عليكم . لكم ذمة
الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، وذمة العباس رحمة الله أن
نحكم فيكم بما أنزله الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة

(١) أقشعت تفرقت وحنادس جمع حندس وهو الظلمة (٢) المنزع مكان
الزروع والرمي والمراد عاد الأمر إلى أهله (٣) اللجين الفضة . والعقيان الذهب
(٤) ابتزاز الشيء أخذه بالقهر والغلبة (٥) كرثه الأمر إذا اشتد عليه (٦) بهظه
الأمر ثقل عليه (٧) أرمضة الأمر أوجعه وآله

منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ . تبا تبا ^(١) لبني حرب بن أمية
وبني مروان ؛ آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار
الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام ، وانتهكوا
المحارم ، ، وغشوا ^(٢) الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم
في البلاد ، التي استلذوا بها تسربل الأوزار ، وتجلبب الآصار ^(٣) ،
ومرحوا في أعنة المعاصي ، وركضوا ^(٤) في ميادين الغي جهلا باستدراج
الله ، وأمنوا مكر الله ، فأتاهم بأس الله يياتا ، وهم نائمون ؛ فأصبحوا أحاديث
ومزقوا كل ممزق ؛ فبعدا للقوم الظالمين . وأدالنا ^(٥) الله من مروان ،
وقد غره الله بالغرور ، أرسل لعدو الله في عنانه ، حتى عثر في فضل
خطامه ^(٦) ، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، فنادى حزبه ، وجمع مكايده
ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ، ووراءه ، وعن يمينه وشماله ، من مكر
الله وبأسه ونقمة ما أمت باطله ، ومحق ضلاله ، وجعل دائرة السوء به
وأحيا شرفنا وعزنا ، ورد إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً - إنما عاد إلى
المنبر بعد الصلاة ، أنه كره أن يخلف بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطع
عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر فيه ^(٧) شدة الوعك ، وادعوا الله
لأمير المؤمنين بالعافية ؛ فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن ، وخليفة

(١) تبا معناها هلاكاً . فهو دعاء عاينهم بالهلاك والخسار (٢) غشوا معناها
باشروا الجرائم ، وارتكبوها (٣) الآصار جمع إصر وهو الذنب والوزر
(٤) الركض العدو ، وحث الفرس ليعدو (٥) أدالنا معناها جعل الدولة لنا
(٦) الخطام ما يوضع في أنف البعير (٧) سار فيه واتسع .

الشیطان ، المتبع للسفلة الذین أفسدوا فی الأرض بعد صلاحها ، بأبدال
الذین ، وانتهاک حریم المسلمین الشاب المتکهل المتهمل ، المقتدی بسلفه
الأبرار الأخیار : الذین أصلحوا فی الأرض بعد فسادها بمعالم الهدی
ومناهج التقوی . « فعب الناس له بالدعاء » .

ثم قال : یا أهل الکوفة : إنا والله مازلنا مظلومین ، مقهورین علی
حقنا ، حتی أتاح الله لنا شیعتنا أهل خراسان ، فأحیاهم حقنا ، وأفلج^(١)
بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراکم الله ما کنتم له تنتظرون ،
وإلیه تتشوقون ، فأظهر فیکم الخلیفة من بنی هاشم ، وبيض به وجوهکم ،
وأدالکم علی أهل الشام ، ونقل الیکم السلطان وعز الإسلام ، ومن
علیکم بأمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الأیالة^(٢) نفذوا ما آتاکم الله
بشکر ، والزموا طاعتنا ، ولا تحذعوا عن أنفسکم ؛ فإن الأمر أمرکم ،
فإن لکل أهل بیت مصرنا ، وإنکم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبرکم
هذا خلیفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنین علی بن أبی طالب ،
وأمیر المؤمنین عبد الله بن محمد (وأشار بیده إلى أبی العباس) فاعلموا
أن هذا الأمر فینا ، لیس بخارج منا ، حتی نسلمه إلى عیسی بن مریم
صلی الله علیه ، والحمد لله رب العالمین علی ما أبلانا وأولانا .

(٢) خطبة أبی جعفر المنصور بعد هزیمة النفس الزكية

یا أهل خراسان ، أنتم شیعتنا وأنصارنا ، وأهل دولتنا ، ولو بايعتم
غيرنا لم تبایعوا متی هو خیر منا ، وإن أهل بیتی هؤلاء ولد علی بن أبی

(١) الأفلج التمكن من الظفر والفوز (٢) الأیالة حسن السياسة مصدر
آل الملك الرعية بثولها ساسها بکیاسة

طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم بقليل ولا كثير ، فقام فيها على بن أبي طالب ، فتلطح^(١) ، وحكم الحكّامين ، فافتقرت عنه الأمة ، واختافت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته ، فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، ففس إلية معاوية : إني أجعلك ولي عهدي من بعدى ، فخذعه فأنسلخ له مما كان فيه ، وسامه إليه ، فأقبل على النساء ينزوج في كل يوم واحدة ، فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن علي ، فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة ، أهل الشقاق والنفاق والأغراق في الفتن ، أهل هذه^(٢) المدرة السوداء (وأشار إلى الكوفة) ، فوالله ما هي بحرب فأحاربها ، ولا سلم فأسلمها ، فرق الله بيني وبينها ، فخذلوه وأساموه حتى قتل . ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخذعه أهل الكوفة ، وغروه ، فلما أخرجوه ، وأظهروه أساموه ، وقد كان أتى محمد بن علي ، فناشده في الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصاب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عى داود ابن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل وتم^(٣) على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة . ثم وثب علينا بنو أمية ، فأماوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، ووالله ما كانت لهم عندنا ترة يطالبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم . وبسبب خروجهم ، فنفرنا من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ومرة

(١) تلوث (٢) المدرة البلدة (٣) تم على خروجه بمعنى صمم

بالشام ، ومرة بالشراة ، حتى ابتعنكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ، ودمغ بحقكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ ، فقر الحق قراره ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها ، من فضل الله فينا ، وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظالماً وحسداً منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ

جهلا على وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهيل والجبين
فأني والله يا أهل خراسان ، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم ^(١) وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يا فلان ، نخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ، فدسوا إليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ، ولا صغير ولا كبير ، إلا بايع بيعة استحللت بها دمائهم وأموالهم ، وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج على ، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين ، ثم نزل ، وهو يتلو على درج المنبر : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما »
« فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا في شك مريب »

(٣) خطبة أخرى لأبي جعفر المنصور

قالها بعد قتل أبي مسلم

أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تأسروا غش الأئمة ، فإنه لم يسر أحد قط منكراً ، إلا ظهرت في آثار

يده ، أو فلتات لسانه وأبداها الله لأمامه لأعزاز دينه ، وإعلاء حقه ،
إنّا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه عليكم ، إنه من نازعنا
عروة هذا القميص ، أجزرناه^(١) خبيء هذا الغمد ، وإن أبامسلم بايعنا ،
وباع الناس لنا على أنه من نكث بنا ، فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمتنا
عليه حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له ، من إقامة الحق عليه
- ٤ - خطبة لسليمان بن علي

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادي »
« الصالحون ، إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين » قضاء مبرم ، وقول فصل
وما هو بالهزل . الحمد لله الذي صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعدا للقوم
الظالمين ، الذي اتخذوا الكعبة غرضا ، والفيء إرثا ، والدين هزوا ، وجعلوا
القرآن عضين^(٢) لقد حاق بها ما كانوا به يستهزئون . وكأين ترى من بثر
معطلة ، وقصر مشيد ، ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام
للعبيد ، أمهلوا والله ، حتى نبذوا الكتاب وأجهدوا العترة^(٣) ، ونبذوا
السنة ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم ؛ فهل
تحسن منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزا^(٤)

- ٥ - خطبة المأمون بعد أن قتل الأمين

حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال : أيها الناس ، إني
قد جمعت لله على نفسي أن استرعاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ، ولا

(١) أجزرناه جعلناه يجره أي يقطعوه وخبيء الغمد هو السيف (٢) جعلوا
القرآن عضين أي جعلوه متفرقا في الأضدبه . يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون
بعض (٣) العترة الأسرة والمراد أسرة النبي صلى الله عليه وسلم (٤) الركز
الصوت الخفي

أسفك دما عمدا لا تحمله حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لا حذم لا
ولا أثانا ، ولا نحلة تحرم على ، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضائى ، إلا
ما كان فى الله وله . جعلته كله لله عهداً مؤكداً ، وميثاقاً مشدداً ، أنى أفى
به رغبة فى زيادته إياى فى نعمتى ، ورهبة من مسألته إياى عن حقه وخلقه
فأن غيرت ، أو بدلت كنت للغير مستأهلاً ، وللنكال متعرضاً
وأعوذ بالله من سخطه ، وأرغب إليه فى المعونة على طاعته ، وأن يحول
بينى وبين معصيته .

- ٦ - خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر وقد تهيأ لقتال الخوارج فقال : إنكم
فئة الله المجاهدون عن حقه الذابون عن دينه ، الذائدون عن محارمه
الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاه أمره ، الذين
جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره
بمجاهدة عدوه ، وأهل معصيته الذين شنوا ، وتمردوا ، وشقوا عصا
الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا فى الأرض فساداً
فأنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ، ينصركم ، ويثبت أقدامكم »
فليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجئون ، وعدتكم التى بها تستظهرون
فأنه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه ، والجنة الحصينة التى أمركم
الله بلباسها ، غضوا أبصاركم ، واخفئوا أهواءكم فى حجب افكم ،
وامضوا قدماً على بصائركم ، فازعين إلى ذكر الله ، ولا تستهان به كما هم
الله فأنه يقول : « إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله بكبريائكم ولعلكم
تفلحون » أيديكم الله بعز الصبر ، ووليكم بالحياطة والنظير .

الخطأ والصواب

وقعت في هذه الطبعة أغلاط مطبعية أثبت هنا بعض ما وقع عليه نظرنا منها ، ونترك الباقي لفطنة القارئ

القسم الأول « أصول الخطابة »

ص	س	الخطأ	الصواب	ص	س	الخطأ	الصواب
١٤	٦	نم	نم	١٢٦	١٥	فيهما	فيما
٣٧	٨	خيوطان	خوطان	١٢٩	٦	فيجب	يجب
٤١	٥	أصطلاحوا	اصطلاحوا	١٦٠	٢١	إليه	إليها
٤٣	٦	يتضرعون	يتضرعون	١٦٢	٥	خطيبا كان أو مؤاضرا	مؤاضرا
٤٧	٤	أن	إن	١٨٣	١١	بخالقوه	بخالقوه
٤٩	١	مزاربته	مرازبته	١٩٠	٦	نتوهم	نتوهم
٥٢	٨	استعلمت	استعلمت	١٩٩	١٢	إلا	ولا
٧٢	١٦	متحسسة	متحسسة	٢٠١	٣	فيوق	فيوق
٧٧	٤	أتاه	أتاه	٢١٠	٧	المحكمة	لمجلس القضاء
٨٠	٧	عسلا	وعسلا	٢١٤	٢٠	مرافقه	مرافقه
١٠٨	٦	الابتداءات	الابتداءات	٢١٩	١٢	شريعة الامر التواصي	شريعة التواصي
١١٠	٢	يتهورن	يتهورون	٢١٩	١٤	التناهي	والتناهي
١١٢	٧	فيجب	يجب	٢٢٩	١٦	منصبه	منصبه
١١٣	٤	منهم	منهم	٢٤٢	١٠	قدرة	قدوة
١١٥	١١	بالترتيب	بالترتيب	٢٤٩	١٩	للمحاضرين	للمحاضرة
١٢٤	٥	بشر	بشرا	٢٥١	٧	والا يادي	مع الايادي التي

القسم الثاني «تاريخ الخطابة»

ص	س	الخطأ	الصواب	ص	س	الخطأ	الصواب
٩	١٣	الآمالى	الآمالى	١٢٠	١٦	آيه	بآية
١٦	٧	وأن	ولإن	١٢١	٧	نم	نم
١٨	٢	غير مسلسلة	وغير مسلسلة	١٢٤	١٨	المجدين	المجدين
١٨	١١	أكنم	أكنم	١٣٧	٣	الهاشمين : عباسين	الهاشمين : عباسين
٧٨	٦	أن	إن	١٣٧	١١	والمأمون	والمأمون
٨٤	١٣	القحطانين	القحطانين	١٤٠	٢	المتهم	المتهم
٨٥	١٧	هذا	هذه	١٤٠	١٩	مق	من
٩٢	٨	نقطع	نقطع	١٤٣	١١	بها	٣٣

فهرس الكتاب

القسم الأول «أصول الخطابة»

١ - علم الخطابة

١- تعريفه - ٢- علاقته بالمنطق - ٣- علاقته بعلم النفس - ٤- علاقته بعلم الاجتماع - ٥- تاريخه

١٢ - الخطابة

١٢- تعريفها - ١٤- موضوعها - ١٥- فائدها - ١٧- طرق تحصيلها
٢٣- أصول الخطابة . مقدمة

٢٤ - الأيجاد . تعريفه . مايشمله

٢٤ - الأدلة . أقسامها ومايتخذ في الخطابة منها - ٢٦ - مواضع الأدلة

٢٧ - المواضع الذاتية

٢٧- التعريف - ٢٩- التجزئة - ٣١- التعميم ثم التخصيص - ٣٢- العلة والمعلول - ٣٤- المقابلة - ٣٥- التشابه وضرب الأمثال

٣٩ - المواضع العرضية

٣٩- الدين - ٤٠- العادات - ٤٢- آثار السلف - ٤٣- أقوال الأئمة ومن اشتهروا بالحكمة - ٤٥- الشهادات والمواثيق - ٤٦- القوانين

٤٧ - الآداب الخطابية

٤٨- آداب الخطيب الخاصة - ٥٦- صفات الخطيب - ٦١- العيوب البيانية

٨٨ - إثارة الأهواء والميول

٦٨- مقدمة في الأقسام الخطابي - ٧٠- قواعد عامة لإثارة الأهواء والميول - ٧٠- الاعتقاد بصحة مايدعو إليه - ٧٢- المشاركة الوجدانية - ٧٦- النفوذ - ٧٩- اللفة والالتماس - ٨٣- الفرائز - ٨٦- بواطن الانتباه

- ٨٦ - الغرابة والتغيير - ٨٨ - التكرار والتوكيد - ٩٠ - إثارة الالهواء
والميل نحو المراد مباشرة - ٩٠ - البغض والمحبة - ٩١ - الرغبة والنفور
من أمر - ٩٢ - الفرح والحزن - ٩٦ - الامل واليأس - ١٠٠ - الغضب
والخوف - ١٠٣ - الرحمة

١٠٦ - التنسيق . بيانه

١٠٦ - المقدمة

- ١٠٧ - حسن الافتتاح - ١١٢ - المقصد - ١١٤ - تقسيم الخطاب

١١٧ - الأثبات

- ١١٧ - أقسامه - ١١٧ - التبيان - ١١٧ - الإقيسة الخطابية والمنطقية

- ١٢١ - الاستدراج - ١٢٣ - القصص - ١٢٤ - الإقيسة الأضهارية

وذو الحدين والتمثيل والخلف - ١٢٧ - التنفيذ

١٣٢ - الخاتمة

١٣٤ - التعبير

- ١٣٤ - مكانة الألفاظ في الأشاء - ١٣٨ - الفرق بين الأسلوب

الكتابي والأسلوب الخطابي - ١٤١ - الأشاء الخطابي - ١٤١ - الألفاظ

المفردة وفصاحتها - ١٤٨ - الأسلوب - ١٥٢ - كلام بشر بن المعتمر في

التعبير الخطابي

١٥٦ - الأداء

- ١٥٦ - التهيئة - ١٥٩ - طرق التحضير - ١٦٣ - الارتجال - ١٦٦ - النطق

- ١٧٠ - الصوت - ١٧٣ - الأشارات - ١٧٥ - الوقفة

١٧٦ - فنون الخطابة

١٧٧ - الخطب السياسية

- ١٧٧ - ازدهارها في هذا العصر وأسبابه - ١٧٨ - الخطب النيابية وطرق

النجاح فيها - ١٨٧ - الخطب الانتخابية - ١٩٢ - خطب النوادي

والمجتمعات - ١٩٣ - خطب المؤتمرات السياسية

١٩٦ - الخطابة القضائية

- ١٩٨ - مرافعة النيابة - ٢٠٤ - اغتياها وما يستحسن فيها - ٢٠٤ - مرافعات المحامين - ٢٠٥ - ما يتجلى به المحامي - ٢٠٨ - إعداد المرافعات - ٢١٥ - طرق الاثبات - ٢١٧ - لغة المرافعة

٢١٩ - الوعظ الديني

- ٢١٩ - تمهيد في بيان وجوبه وحاجة الناس اليه - ٢٢٧ - الوعظ والمرشدون - ٢٣٥ - أقسام الوعظ - ٢٤٤ - الانشاء الديني

٢٤٦ - الخطب العسكرية

٢٤٨ - المحاضرات العامة

٢٥٠ - خطب التأبين

٢٥١ - خطب المدح والشكر

القسم الثاني (تاريخ الخطابة)

٣ - الخطابة في العصر الجاهلي

- ٣ - الحاجة إليها ودواعيها - ٨ - موضوعاتها - ١٢ - مرتبة العرب في الخطابة - ١٦ - ألفاظ الخطابة في الجاهلية وأساليبها ومعانيها - ٢١ - الآثار من خطب والاطناب - ٢٣ - الخطيب الجاهلي وعاداته - ٢٥ - المأثور من خطب العرب في الجاهلية - ٢٨ - نماذج من خطب الجاهليين

٣٥ - الخطابة في صدر الاسلام

٣٥ - تمهيد في بيان حال الخطابة في عصور الانقلابات - ٣٦ - الحياة الاسلامية في صدر الاسلام - ٤١ - دواعي الخطابة في ذلك العصر وموضوعاتها - ٤٧ - عوامل رقي الخطابة - ٤٨ - أثر القرآن الكريم في الخطابة - ٥١ - أثر الحديث النبوي فيها - ٥٥ - ألفاظ الاساليب والمعاني - ٦٣ - طول الخطب وقصرها - ٦٥ - الخطيب في صدر الاسلام - ٦٧ - الخطباء والمرويون من الخطب - ٦٨ - المختار من خطب هذا العصر

٨١ - الخطابة في العصر الأموي

- ٨١ - وصف اجمالي لهذا العصر - ٨٣ - الحياة العربية في العصر الأموي

++ ٨٨ - دواعي الخطابة وموضوعاتها في العصر الأموي - ٩٢ - عوامل

رقى الخطابة في ذلك العصر - ٩٧ - الالفاظ والاساليب والمعاني

- ١٠٢ - طول الخطب وقصرها - ١٠٤ - المأثور من الخطب

- ١٠٤ - الخطباء - ١٠٦ - نماذج من خطب ذلك العصر

١٢٣ - الخطابة في مائة السنة الأولى من العصر العباسي

- ١٢٣ - اجمال الاحوال السياسية والاجتماعية في ذلك العصر

- ١٢٥ - موضوعات الخطابة ودواعيها في ذلك العصر - ١٢٩ - ألقاظ

الخطابة ومعانيها وأساليبها - ١٣٣ - أسباب قوة الخطابة ثم أسباب ضعفها

- ١٣٧ - الخطباء - ١٣٨ - نماذج من خطب هذا العصر

